

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الزهاء للإعلام العربى
قسم النشر

ص. ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تليكس ٩٤٠٢١ رائف بران
P .O : 102 Madinat Nassr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U . N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة

الجمع التصويرى والتجهيز

بالزهاء للإعلام العربى

بائشؤلر و سؤور بائشؤلر

طبعة جديدة منقحة وبها ملاحق اضافية

د. حسين مؤنس

الزهراء للإعلام العربي

تقديم

عندما أعلنت إنجلترا أنها أبحاث للباحثين الأطلاع على أوراق وزارة الخارجية التي أنقضى على أحداثها ثلاثون عاما كنت من أوائل الداهيين للأطلاع على وثائق مصر والعالم العربى .

وما كدت أتأمل مجموعات الوثائق حتى تعاطمنى الأمر، فهى ملفات كثيرة جداً ، وقدرت فى نفسى - للنظرة الأولى - أننى أمام ألوف الوثائق ، وقراءتها فحسب تستلزم سنوات وتتطلب بصراً من حديد .

وعندما شرعت فى القراءة أحسست أننى أمام عمل يتعذر القيام به ، فكل وثيقة مما قرأت تتضمن من الحقائق ما يحتاج درسه وتحقيقه إلى البحث الطويل ، وملكنى .. وأنا أعمل - شعور بالعجب : إن الإنجليز لم يكونوا قط بالذكاء الذى كنا نتصوره أيام الاحتلال ، ففى خطابات المندوبين الساميين وتقاريرهم تفاهات وسخافات وحماقات ، ووزارة الخارجية البريطانية ترسل إلى سفير مثل اللورد جورج لويد خطابات لوم وتقريع لا توجه إلى موظف صغير ، والسير روبرت فانسيترت - الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن - يكتب بيده على هامش تقرير كتبه اللورد لويد : هراء Nonsense ! وهذه العبارة تبلغ للمندوب السامى فى مصر فيرسل خطاباً إلى رئيس الوزارة البريطانية ورئيس الوزراء .. يقرأ الخطاب ويضع عليه « تأشيرة » غريبة ، فهى علامة استفهام وإمضاء منه هو عبارة عن جرة قلم بدون تاريخ .. ووقفت طويلاً أمام تقرير عن مفاوضات عدلى كيرزون وتعجبت : فلا عدلى باشا يعرف ما يريد ولا كيرزون يريد أن يسمع شيئاً ، إنما هو يجلس للمفاوضة وذهنه مستقر على أن مصر هذه لن تستقل ولو بعد مائة عام . وفكر عدلى باشا ليس بعيداً عن فكر اللورد كيرزون فإن آخر ما كان يتصوره هو استقلال مصر بأمور نفسها ، وهو يتصور أنه يقف موقف القاضى « العادل » بين بلدين متخاصمين أمامه هما مصر وبريطانيا وهو يرى أن العدل أن تمنح بريطانيا مصر ظاهراً من الاستقلال يسد أفواه المشاغبين والغوغاء « من الوفد وخلافه » كما قال . وردا على سؤال من أحد أعضاء وفد المفاوضة البريطانى يقول : بالطبع

نحن لا نطالب بجلاء بريطانيا الناجز عن مصر . إن بلادنا لازالت فى حاجة ماسة إلى رعايتكم ولكن عظمة السلطان غير مطمئن من ناحية الخديوى السابق وفرنسا وهو يرجو أن تمنحه الفرصة ليثبت لكم أنه كفيل بالمحافظة على مصالح الإنجليز والأجانب فى مصر إذا وافقتم على نقل بعض سلطات دار المندوب السامى إليه ! أمام مثل هذه العبارات أحسست أن الأمر يتطلب فعلا إعادة قراءة أصول تاريخ مصر الحديثة جميعاً ، وهذا أمر لا أستطيعه ، إنما يستطيعه المتخصصون فى تاريخ تلك العصور .

ولكنى إذا كنت لا أملك أدوات كتابة هذا التاريخ فإننى بعد أن صورت مئات من الوثائق وعدت بها إلى مصر وقرأتها فكونت فى ذهنى صورة قريبة جداً مما أتصور إنه حقائق عصر الباشوات والإنجليز والملك . فإن تاريخ مصر قبل ثورة ١٩٥٢ كان لعبة سيئة عقيمة بين هذه الأطراف الثلاثة من ناحية والشعب المصرى ويمثله الوفد المصرى والحزب الوطنى من ناحية أخرى .

ومضيت أرسم لوحة مصر فى عصر الباشوات مستعينا فى ذلك بقراءات مطولة فى الصحف المصرية وكل ما كتبه غير المصريين وهو كثير جداً . والصورة كانت فى النهاية كابثة حزينة وغير واضحة ولكنها تصلح أن تكون مقدمة لدراسة ذلك العصر الحزين .

* * *

واستطردت بعد ذلك إلى ثورة ١٩٥٢ فوجدت نفسى بالفعل فى ظلام دامس ، فالعصر الناصرى كله عصر بلا وثائق ولا ميزانيات يمكن تصديقها ولا كتابة ولا قراءة ولا حساب ، إنما هو أولاً صراع بين عبد الناصر ومحمد نجيب ، ثم صراع بين عبد الناصر وزملائه . وهؤلاء يتصفقون واحداً واحداً فلا يبقى فى النهاية إلا عبد الحكيم عامر ، والصراع بينهما مريب طويل ، وكل منهما يتترس من الآخر وراء قلاع وحصون هى أوهى من خيوط العنكبوت ، وفى أثناء الصراع بين الاثنين ينتقل السلطان الفعلى إلى طبقة غريبة من فئران السياسة يسيطرون بالحبث والمكر والجهل والجشع على مصائر الناس وتحت ستار حماية النظام أرتكبوا أعمال عدوانية بالغة على هذا الشعب وأمواله وقيمته . ونهبوا الأموال بلا حساب وأوهوا رئيسهم أن شعب مصر كله يتآمر عليه وإن القتلة والمغتالين يتربصون

به عند كل منعطف ولم تقتصر عمليات القبض والصادرات ونهب الأموال على
الخصوم السياسيين من رجال الأحزاب والإخوان المسلمين ، بل وضعوا في
السجون مئات من الناس ممن لا تخطر السياسة لهم على بال ، وبعضهم كانوا
« عيالاً » حقاً . حبسوهم ومضوا يعذبونهم بحثاً عن أوهام مثل « التنظيم السري
للإخوان » وما وجدت في دراساتي دليلاً واحداً يثبت أنه كان هناك تنظيمًا سرياً
للإخوان بعد أن أصيبت الحركة كلها بضربة قاصمة عقب إعدام رؤوسها الخمسة
بعد محاولة إغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٤ ، وهي
محاولة مدبرة يدور حولها ألف شك وشك .

* * *

أجتهدت في رسم صورة لعصر ما بعد الباشوات قدر ما تيسر لي ، وما كدت
أنشر الخطوط (الحلقات) الأولى من تلك الصورة حتى تفضل المواطنون
بمعلومات وتفاصيل كان عليّ أن أدرسها بعناية لأستخرج منها ما أرى أنه يزيد
الصورة وضوحاً ، وقرأت كل ما تيسر لي من الكتب التي ألفت على ذلك العصر
في غير العربية فاتضح لي الصورة أكثر وأكثر . وعندما كتبت كتابي راجعته
مراجعة تامة وأصلحته وقومته ثم أعددت الكتاب للنشر .. ثم رأيت أن أضيف
ضمائم أو ملاحق تؤيد بعض ما ذهبت إليه ، وكان عندي الكثير ولكنني رأيت
أن أقف عند ذلك الحد ، فقد كان الإيجاز من أقصى غاياتي في هذه الدراسة .

وأرجو كل إخوتي المواطنين أن يثقوا أنني لم أكتب هنا حرفاً قصدت من
ورائه المساس بشعور أحد ، وإذا تبادر شيء من ذلك إلى ذهن أحد فإني أرجوه
أن يحسن الظن ويلتمس لي العذر .. فما قصدت إلا خير هذا الوطن .

وقبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أبعث تحية من القلب لدار الزهراء
وصديقي / الأستاذ أحمد رائف الذي دخل بشركته ميدان النشر عن نية صادقة
في خدمة العلم وأهله .

والله سبحانه من وراء القصد والنية ، وهو سبحانه على كل خير مستعان .

المؤلف : د . حسين مؤنس

القاهرة في جمادى الأولى ١٤٠٥

فبراير ١٩٨٥

رجاء

« خلال ١٥٠ عاماً من تاريخ مصر (١٨٠٥ - ١٩٥٢) حكم الباشوات بلادنا وملكوا كل شىء فيها : السياسة والجاه وصدارة المجتمع والقصور والأموال والضياع . وفى يوليو ١٩٥٢ انتزعت منهم الثورة السياسة وصدارة المجتمع ولكن : من الذى استولى على القصور والأموال والضياع ؟ السوبر باشوات : باشوات بلا ألقاب وأشراف بلا شرف وناس بلا انسانية ومواطنون بلا وطنية .. » .

هذه العبارة تتصدر معظم فصول هذا الكتاب .. وهى فى تصورى لا ينبغي أن تمس شعور أحد من الناس فإن ثورة يوليو ١٩٥٢ فعلاً أنتزعت قيادة السياسة وصدارة المجتمع من الملك والباشوات والإنجليز .

والثورة - كما صورناها فى هذا الكتاب - أكبر حادث فى تاريخ مصر الحديث بعد ثورة ١٩١٩ ، وقد فتحت لمصر آفاقاً واسعة وقدمت رجالاً هم نماذج للوطنية والصدق والإيمان ، وقدمت لمصر خدمات كبرى فى مقدمتها إجلاء الإنجليز عن مصر ووضع حد لعصور طويلة سوداء من الاحتلال .. كل ذلك لاشك فيه .

ولكن لا شك أيضاً فى أن الظروف العسيرة التى أحاطت بالثورة - داخلاً وخارجاً - أتاحَت الفرصة لجماعات من المغيرين الذين أنسلوا فى الظلام واعتدوا وسرقوا ونهبوا . فهناك أموال بلا حدود كانت هنا قبل الثورة وهى ليست هنا الآن . وكل إنسان أدرى بما فعل .

فإن كنت ترى أنك من أهل الخير والإخلاص فأنت عندنا مصدق ، وأنت أبعد الناس عن أى مظنة سوء .

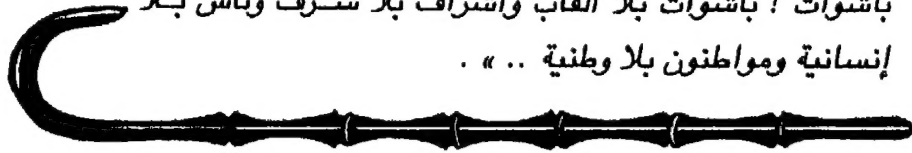
ومهما يكن فأنت مرجو أن تأخذ كل كلمة هنا على أحسن المحامل ، وأنت مشكور على إحسان الظن .

وما كتبنا ما كتبنا عن سوء نية نحو أى أخ مواطن وما ندعو إلى بغض أو كراهة .

وكل ما نرجوه هو ألا يحدث غداً مرة أخرى ما حدث بالأمس ونحن اليوم فى عصر نهضة وحرية ، ولا نريد أن يشغلنا أمسنا عن غدنا .

باشوات وسوبر باشوات

« خلال ١٥٠ عاما من تاريخ مصر (١٨٠٥ - ١٩٥٢) حكم
الباشوات بلادنا وملكوا كل شيء فيها : السياسة والجاه
وصدارة المجتمع والقصور والأموال والضياع . وفي يوليو
١٩٥٢ انتزعت منهم الثورة السياسة وصدارة المجتمع ولكن :
من الذى استولى على القصور والأموال والضياع ؟ السوبر
باشوات ! باشوات بلا القاب وأشراف بلا شرف وناس بلا
إنسانية ومواطنون بلا وطنية .. » .





١ عالم الباشوات



إلى ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كان في مصر عالم قائم بذاته محوط بأسلاك شائكة عالية ومحرم على غير أهله يسمى عالم الباشوات . . وكان الذين يعيشون في ذلك العالم المرهوب يتراءون لنا - نحن المحرومين خارج الأسوار - وكأنهم ديكة رومية أو طواويس : بذلات سوداء رسمية أنيقة طويلة الذيل . . وطرايش حمراء وطويلة كأنها التيجان ، ومشية أنيقة رشيقة وأبهة في موكب حافل من الخدم والحشم والسفَرجية والأغوات . . وسعادات الباشوات يعيشون في عالمهم هذا بعيدا جدا عن عالم الرعا : يأكلون أكل باشوات . . ويشربون شرب باشوات . . ويتكلمون أيضا كلام باشوات كما كانت آلهة اليونان القديمة تعيش في عالمها الرفيع بعيدا عن الناس على جبل أوليمبوس .

وكان يميز الباشوات عن غيرهم من عباد الله المساكين أشياء كثيرة جدا ولكن أهمها أربعة : اللقب طبعا . . وهو نعمة من الله تهبط على السعداء ويتناولونها من يد حضرة صاحب الجلالة بتوصية وتزكية من فخامة المندوب السامي أحيانا . . وأحيانا أخرى بدون توصية أو تزكية وأحيانا ثالثة برشوة محترمة - أو غير محترمة - تقدم إلى صاحب الجلالة بواسطة أحد من أفراد حاشيته بعد أن يقطع لنفسه منها ما تيسر بإذن من صاحب الجلالة أو بغير إذنه . . والميزة الكبرى الثانية هي القصر أو السراي أو الفيلا لأن الإنسان الذي يسكن في شقة كان لا يمكن أن يصير باشا أبدا . . ولا بد للبasha - ثالثا - من السيارة والسائق . . لأن الباشوات لا يركبون الترام . . ورابعا العزبة أو الأبعادية . . إذ لا يمكن أن تتم الباشوية إلا بالعزبة . . وسعادة البasha رايح العزبة . . وجاى من العزبة . .

والغالبية العظمى من الباشوات كانوا وزراء لأن الباشوية تأتي في العادة مع الوزارة . . ولم تأت بمفردها إلا لنفر قليل جدا من العباقرة من أمثال مصطفى كامل باشا وطلعت حرب باشا وأحمد عبود باشا . . ومصطفى كامل كان من باشوات استامبول . . أى أن اللقب أتاه من يد السلطان . . وإلى أواخر أيام إسماعيل باشا كان كل باشوات مصر يُصنعون في استامبول . . أما الباشوات صناعة مصرية محلية فقد بدأ إنتاجهم على يد الخديو إسماعيل : دفع ١٠ ملايين جنيه للسلطان وحصل على ترخيص لإنشاء مصنع باشوات في مصر ، وكسب من وراء المصنع بعد ذلك مائة مليون . . وكان الحصول على الباشوية بالفلوس تقليداً مألوفاً وسعرها كان أحيانا معروفاً . . وكذلك كان وسطاؤها وسماسرتها أشبه بأصحاب توكيلات رسمية معروفة عند طلاب الباشوية وجامعى التحف والأنتيكات . .

وعندما تستعرض أسماء الباشوات تتعجب من أن بعضهم كان لا يخرج من وزارة إلا دخل وزارة . . كأن حكومة مصر لا تصلح أبداً ولا تجوز إلا إذا كان معاليه فيها . .

وصاحب الرقم القياسى فى هذا هو حسين فخرى باشا الذى تولى الوزارة ٢٦ مرة . . ويليهِ حسين سرى باشا الذى تولاها ٢٥ مرة . . ثم على ماهر باشا ٢٣ مرة . . وإسماعيل صدقى باشا ١٩ مرة . . ومحمود فهمى النقراشى باشا ١٨ مرة . . وعثمان محرم باشا ١٤ مرة . . ومصطفى النحاس باشا ١٧ مرة . . هذا غير الرياسات والألقاب من صاحب المعالى إلى صاحب الدولة إلى صاحب المقام الرفيع . .

وكان المفروض أن كل الباشوات أغنياء . . ولكن واقع الحال ودفاتر البنوك تقول إن عشرات الباشوات كانوا أفقر من الأفنديات . . وبعضهم كان كل ما عندهم مرهونا حتى السيارة . . وفى أكثر من مرة أدخلوا رجلا الوزارة حتى يستطيع « المسكين » أن يسدد ديونه ويصلح أحواله ويجهز بناته لأن الباشوات فى جملتهم كانوا عقلاء مدبرين . . ولكن الست هانم حرم سعادة الباشا كانت دائما مسرفة تنفق من غير حساب . .

وقد حكى الصحفى الكبير محمد التابعى فى أحد كتبه حكاية رجل حفى بين القصر ودار المندوب السامى حتى حصل على الوزارة والباشوية . . وكان فقيراً معدماً أعطوه الوزارة وكأنها صدقة . . فما سمعت امرأته الخبر حتى أنفقت باسم معالى الوزير فوق العشرة آلاف جنيه فى أسبوع واحد . . استأجرت قصراً وفرشته وتصبغت هى وبناتها وأكثرت الخدم والحشم واشترت أغلى ما فى المحلات من الثياب كل ذلك بالدين . . وعندما علم رئيس الوزراء بالخبر قرر إقالة ذلك الوزير الذى جلبت امرأته على الوزارة فضيحة . . ولكن دار المندوب السامى تدخلت وبقي الرجل . . واضطروا إلى إدخاله الوزارات بعد ذلك خمس مرات متوالية حتى سدد ديونه وانستر بين الناس . . وهذا الرجل أدى للانجليز خدمات تفوق ما أداه لهم المندوب السامى . .

فما من مرة أرادوا تدبير مكيده للحركة الوطنية إلا عهدوا اليه بها . واشتهر أمره بأنه سياسى داهية عظيم . . أما الداهية حقاً فكانت الست هانم حرمه فقد كانت تقيم الحفلات وتنفق المئات ولا أحد يدرى من كان يسدد الحساب والمهم أنه كان يسدد . .

ومعالى الباشا الوزير كان فقيراً ولكن الست هانم كانت غنية . . وكانت قبل الوزارة قبيحة نحيلة فأصبحت بعد الوزارة جميلة سميئة . . وابنتها قدرية هانم سمت هى الأخرى وأصبحت جميلة وزوجها وكان محامياً « كحيانا » أصبح شخصية لها وزنها « بالذهب » ودخل مجلس النواب وخرج من مجلس النواب وعاد إليه وتحول إلى سمسار وظائف وقضاء حاجات . . وسكن مع زوجته فى فيلا عظيمة فى حلمية الزيتون . . وأصبح له ولزوجته صيت كالطبل . .

وقد أتيتحت لى ذات مرة الفرصة لأتسلل إلى عالم الباشوات . . ومن ذلك الحين لم أعد أحسد باشا على باشويته قط ، فقد كان لى ولع فى بعض سنوات الدراسة الجامعية بإعطاء الدروس الخاصة . . وابتكرت أسلوبا خاصا فى إعداد الأولاد للنجاح فى امتحان الثانوية العامة حتى أصبحت اختصاصيا فى « تنجيح » الأولاد . .

وتوالت على الطلبات فى حى حلمية الزيتون . . وكان إذ ذاك حيا حافلا بالهوانم والباشوات . . فكنت أدخل البيوت وأتأمل . وقد خلقتنى الله متفرجا أحسن الجلوس والفرجة فى هدوء . . ورأيت من مكمنى من عجائب أمور الباشوات ما لا يصدق . . ورأيت أن كل أهبة الباشوات تكون أحيانا فى الخارج فحسب . . أما داخل القصور فربك سبحانه وتعالى أعلم وقد أمر بالستر . . وفى ذات يوم قدمت لى سيدة جلييلة هى حرم باشا عظيم إيصالا إلى المجلس الحسبى بستة جنيهات لأوقع عليه وأقول : « ولكن ياست هانم إن الأتعاب ثلاثة جنيهات فحسب » .

فتقول : وستأخذ ثلاثة بلا زيادة . . ولكن هذا إيصال للمجلس الحسبى وأنا الوصية على أولاد ابنى . .

وأحاول المناقشة ولكن السفرجى عم عجايبى يهمس فى أذن : امض يا حضرة الأستاذ إذا كنت تريد أتعابك . . كلنا نوقع على مثل هذه الإيصالات . .

— ولكن أين تذهب هذه الأموال يا عجايبى ؟ . .

— خليها فى شرك : الباشا والهانم الكبيرة والهوانم الصغيرات جميعا غارقون فى الدين . .

وقد تركت العمل فى هذا البيت بعد شهر واحد عقب الامتحان وما أمسكنى إلا أن تلميذى كان نجيبا لطيفا . . وقد نجح وأصبح فيما بعد مهندسا رغم الجوع العسير الذى كان يعيش فيه . .

وفى ذات يوم آخر أسمع السيدة حرم الباشا فى الصالون تقول للسفرجى :

— ما هذه القهوة المقرقة التى تأتىنى بها . . خذها لسعادة الباشا فى الجنيينة واعمل لى غيرها . .

— سعادة الباشا شرب قهوته . .

— إذن خذها للخوجه . .

والخوجه هو أنا . . فقال لها السفرجى هامسا :

— خفضى صوتك ياست هانم . . إنه هنا وهو يسمع .

فتقول : وماذا فى ذلك ؟ حته خوجه ويريد أن يتأمر علينا ؟

ويأتينى بها السفرجى وكله خجل . . فقد كان عند الرجل من الحياء والإنسانية فوق ما عند سيدته الهانم . .

وكنا جميعا لا نحب الباشوات أو عالمهم لأننا كنا نراهم سببا من أكبر أسباب متاعبنا مع الانجليز . . والحق أنه ليستوقف النظر كيف أن الباشوات ما عدا باشوات الوفد وعددا قليلا من الباشوات الآخرين كانوا يرون أنفسهم حلفاء للسراى والانجليز وأتباعا لهم . . وبعضهم كان يعيش وكأنه موظف فى السفارة البريطانية يتلقى كل تعليماته من موظف صغير فى السفارة البريطانية يسمى السكرتير الشرقى . .

وفى ٢١ أكتوبر ١٩٢٥ أرسلت بريطانيا إلى مصر سفيرا يسمى اللورد جورج لويد خلفا للماريشال اللنبى الذى استقال عقب أزمات الصدام مع سعد زغلول والوطنيين بعد مصرع السردار السيرلى ستاك . . وكان اللورد جورج لويد استعماريا بريطانيا مغرورا . . لا يتمتع بذكاء يذكر . . وقد وصل مصر فى ظروف أزمة وفيها من الباشوات نفر كنا نعدهم فطاحل من أمثال عدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود . .

وكان حزب الوفد مطرودا من الحكم ، والبرلمان كان معطلا وعلى رأس الوزارة رجل من أكبر باشوات القصر والاستعمار هو أحمد زيور باشا . . كان بعيدا جدا عن مصر والمصريين حتى يقال أنه كان لا يحسن الكلام بالعربية وقد سلم للانجليز كل ما طلبوه بعد مقتل السردار . . من بين ذلك التخلّى الفعلى عن السودان لبريطانيا وهذا الرجل هو الذى وافق على تسليم واحة جغبوب للإيطاليين فتنازل بذلك عن قطعة من أرض مصر . . وقد كتب الأستاذ - محسن محمد فى ذلك كتابا هاما ينبغى أن يقرأ . . وكتب كذلك كتابا جميلا عن اللورد جورج لويد فى مصر عنوانه : الشيطان . .

والرجل لم يكن فى الحقيقة شيطانا إنما هو كان بقية استعمارية سخيفة أتت مصر لتمارس على أهلها نوعا من الكبرياء لا معنى له ولا نتيجة لا لمصر أو لبريطانيا . . ولكن الغريب أن ذلك الرجل السطحى القصير النظر لعب بباشوات مصر لعبا . . كانت المهمة الحقيقية التى أرادوا منه أن يقوم بها هو إقناع المصريين بتوقيع معاهدة تسليم واستسلام لبريطانيا لأن بريطانيا كانت تتصور إذ ذاك أنها سيدة الدنيا وأن على الدنيا أن تمتثل لإرادة بريطانيا .

ومصر كانت قد تلقت ضربة مقتل السردار . . وخسرت فيها خسارة فادحة . . ولم تكن تستطيع أن تخسر أكثر فوقفت مكانها جامدة وتولى زعامة المعارضة فيها مصطفى النحاس . . وعرف النحاس أن هذا اللورد الإنجليزى لم يأت إلا لغرض واحد هو إتمام ما بدأ به اللبى من القضاء على بقية الاستقلال الزائف الذى حصلت عليه مصر بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وإرغامها على توقيع معاهدة مع بريطانيا تعترف فيها بالاحتلال البريطانى بصورة أو بأخرى . .

وكان اللورد جورج لويد منذ البداية أقل من أن يستطيع تحقيق هذه الغاية . . لأنه كان رجلا مغرورا لا يتمتع بذكاء كبير . . ولو وقف منه الباشوات موقفا نصف حازم لهبطوا به إلى الأرض . . لأن أعداءه فى إنجلترا كانوا كثيرين . . وحزب المحافظين نفسه لم يكن يؤيده . . وكان وزير الخارجية البريطانية يستثقله ويرحب بالخلاص منه . . ولم يكن هناك أسهل من إخراج هذا اللورد المستغرق فى أحلام الاستعمار .

لكن الباشوات تصرفوا تصرفا لا يوصف إلا بأنه غبى ، فكل الموظفين القدامى الذين تربوا فى أحضان الاستعمار بالإضافة إلى نفر من أعيان الأرياف وبقايا خدم القصر القدامى تجمعوا لكى يصلوا إلى الحكم بأى طريق ، وكان الوفد فى ذلك العصر يمثل أغلبية لا يمكن تحديدها . . ومصطفى النحاس خلف سعد زغلول فى رئاسة الوفد فى أغسطس ١٩٢٧ ، ولم يكن هناك سبيل للوصول غير الوفديين إلى الحكم مادام دستور سنة ١٩٢٣ قائما . .

وهنا نجد هذه البقايا الرجعية كلها تتجمع تحت راية الملك فؤاد من ناحية واللورد جورج لويد من ناحية لتقوم بمأساة حقيقية على مسرح السياسة المصرية . . ومحمد محمود باشا لا يكاد يصبر . . إنه عَجول يريد أن يصل إلى رئاسة الوزارة ولكى يصل إلى رئاسة الوزارة كان لا بد من إسقاط وزارة الوفد برياسة النحاس باشا وكان محمد محمود عضوا فى تلك الوزارة لأنها كانت وزارة ائتلافية فآثار بالاشتراك مع نفر من أصحابه زوبعة سموها فضيحة أملاك الأمير سيف الدين . . وهذا الأمير كان إبنًا للملكة السابقة . . وحدث ما جعله يطلق الرصاص على أحمد فؤاد عندما كان أميرا . . فقبضوا عليه واتهموه بالجنون وحجزوا عليه . . وصارت ولاية أموره إلى المحامى مصطفى النحاس باشا . . فقبل ان مصطفى النحاس لم يتخل عن الوصاية وإدارة أملاك الأمير بعد أن صار رئيسا للوزارة وعملوها فضيحة ولم يكن ذلك صحيحا فإن النحاس باشا كان رجلا دقيقا عفيفا جدا . . وكان قد أوقف إدارته لأملاك الأمير ولكنهم زعموا أنه لم يفعل وجعلوها قضية نزاهة أثارها الصحف المعادية للوفد . . وتحت ستار هذه المسألة التى سميت بفضيحة أملاك الأمير سيف الدين أقيمت وزارة النحاس وتولى الوزارة محمد محمود باشا . . وتبدأ بذلك سلسلة

وزارات السراى . . كلها حرب على الشعب وحقوقه . . وكل وزارة منها تأخذ تأشيرة الدخول من ذلك اللورد الانجليزى القابع فى قصر الدوبارة ومنه يدير مصر ويتصرف فى أمورها . . ومحمد محمود يعطل البرلمان ويلغى الدستور ويشرع فى عمل دستور جديد ، وحزبه لم يحصل فى الانتخابات السابقة إلا على كرسيين . . ولكنه يجرى انتخابات ويحكم بدون مجلس نياى وينزل بهذا الشعب مهانة بعد مهانة وهو يزعم أنه يحكمنا بيد حديدية .

ويجىء بعده إسماعيل صدقى باشا حليف القصر والمندوب السامى والخواجات ، وهو معدود من عباقرة الاقتصاد فى تاريخنا السياسى وستحدث عنه فى فصل من هذه الدراسة ، وهو لا يرضى بحزب الاتحاد الذى أنشأه الملك وجعل على رأسه ييجى باشا ابراهيم . . بل ينشئ حزبا يسمى حزب الشعب ويجرى انتخابات وينشئ « مجلس نواب » شغل يد « أو صناعة يدوية » وبين الحين والحين يجىء محمد توفيق نسيم بوزارة عجيبة تتألف من شلة من الباشوات لا يعرف أحد لهم سحنة . . إنما هم أصحاب معال وكفى ، وهم رغم كل شىء يتعلقون برضا اللورد ورضا السراى وإن كان بقية المصريين لا يعرفون عن معظمهم شيئا . .

وقد فشل جورج لويد فى مصر فشلا تاما ونقلوه من مصر واستبدلوا به سفيرا يسمى السير برسى لورين . . كان دبلوماسيا ولكنه كان استعماريا لا يقل مغالاة فى استعماريته عن سالفه . . وربما كان الباشوات هم الذين علموه لعبة امتهان الشعب وإهمال المصريين والعمل متعاوناً مع الملك . . ولكن هذا الرجل كان أخف وطأة من السفير البريطانى الذى جاء بعده وهو السير مايلز لامبسون الذى أصبح فيما بعد يسمى اللورد كيليرن .

وهذا الرجل كان إنسانا ضخما بالغ الخبث . . تولى والحرب الكبرى تقترب فاجتهد فى إرغام زعماء مصر جميعا على توقيع معاهدة صداقة مع بريطانيا . . وقد نجح فى ذلك لأن حزب الوفد وهو حزب الأغلبية المعارضة للاستعمار والسراى كان قد أصابه تحول جوهرى فى طبيعته وتركيبه . . فقد كان الوفديون يمثلون أيام البرلمان المصرى الأول الطبقة الوسطى الكادحة المجاهدة . . وزارة سعد زغلول الأولى كان فيها بعض الأفندية . . وكان فيها باشوات وبكوات . . ولكنهم فى مجموعهم كانوا مساتير أو ما يطلق عليه اسم البورجوازية الصغيرة (لاهيتيت بورجوازي) ولكن طول عهد الوفد بالحكم والصراع مع الانجليز والسرايا وباشواتهما أضعف من قوة الوفديين . . وكان النحاس باشا يرى أن الحكم لا يجوز إلا له ما دام هو صاحب الأغلبية الشعبية . . وكان على حق فى ذلك . . ولكن استمرار الأمر على هذا الوضع الذى يطلبه النحاس كان مستحيلا ، فالملك لا يريد أن يرى أمامه دائما رئيس وزراء مصرى يقول إنه يمثل الشعب وإن الملك لا يمثل إلا الملك .

والملك فؤاد كان رجلا طماعا لا تعمر قلبه ذرة من حب حقيقى لمصر ولا هو كان يفكر فى أمر رفاهية شعبها . . وقد استعان فى عمله بباشوات السراى . . وبخاصة من كانوا يتولون رئاسة الديوان الملكى منهم من أمثال حسن نشأت ومحمد توفيق نسيم وأحمد محمد حسنين وحافظ عفيفى . . وأظن أن هؤلاء كانوا أبغض الباشوات إلى المصريين لأنهم كانوا خصوما لهذا الشعب حقا . . وكان عداؤهم يتجه دائما نحو الوفد ، فهو يكرههم وهم يكرهونه .

. وليس معنى ذلك أننا نقول إنهم تجردوا من الفضائل فقد كانت لبعضهم فضائل وملكات طيبة . . ولكنهم وقفوا جهدهم كله على خدمة أنفسهم عن طريق الطاعة المطلقة الدلية للملك والسفير البريطانى أحيانا . . وهذا وحده كان كافيا لكى يبغضهم الشعب بغضا بالغا . وأعتقد أيضا أنهم أبغضوا هذا الشعب ونفروا منه وجعلوا بينهم وبينه سدا فضاعت عليهم فرصة إفادة مصر من مواهبهم وملكاتهم . .

وكانت مشاكل مصر كثيرة ولكنها كانت أيسر حلا من مشاكلها اليوم . . وواحدة منها كانت مستحيلة على الحل . . ولكن كان أحسن لنا لو تركناها على حالها وهى مسألة الاحتلال العسكرى البريطانى وهى مسألة عسكرية لا تحل إلا بالقوة ، وما دمنا لا نملك القوة العسكرية فلم يكن هناك سبيل إلى حلها حلا معقولا . . وحلها المعقول كان يتأتى مع النهوض بالمستوى الفكرى والاقتصادى العام للبلاد . . فإذا تحسنت الحالة المعنوية قام شباب ضباط الجيش بإرغام الانجليز على الجلاء . . وهذا هو الذى بدأ يحدث بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وعدوان الانجليز على مصر عدوانا صريحا وقحا . . ولكنه كان عاديا فى العصر الاستعمارى كله .

المهم أن الوفد تحول مع الزمن إلى جماعة من الباشوات . . وفقد فى الحقيقة طابعه الشعبى المميز . . وكان رجاله قد دخلوا الوزارة والبرلمان مرة بعد أخرى . . وفى كل مرة كانوا يخرجون أغنى وأوفر مالا . . وتعاقبت الانشقاقات من الوفد حتى تعب مصطفى النحاس فى النهاية . . وعندما تزوج زواجا متأخرا عشية عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ تجلى بوضوح أن الحزب تخلص عن قاعدته الشعبية ودخل فى زمرة أحزاب الباشوات . .

حقا إننا لا نستطيع أن نشك فى الأمانة الشخصية لمصطفى النحاس أو أحد من كبار رجاله ولكن مزاج الرجل تغير مع الزمن وساء ظنه فى الناس وخاصة بعد وقوع الفتنة بينه وبين مكرم عبيد وانفصال مكرم عنه وتأليفه حزبا وفديا جديدا يسمى الكتلة . . ومصطفى النحاس كان يحب مكرم عبيد وعندما اختلف معه وانفصل أحدهما عن الآخر تحطم الاثنان . . وستحدث عن مأساة النحاس مع مكرم عبيد فيما بعد ، والنحاس باشا بعد

مكرم عبيد لم يعد إلى سابق عهده أبدا . . ومكرم نفسه تغير ولم يعد ذلك البطل الشعبى الذى كان يبهرنا ونحن فى مداخل الشباب .

والحق أن حياة مكرم عبيد مأساة فقد كان مصريا صميا غلصا صادقا خارق الذكاء . . ولكنه كان عصيبا لا يكاد يضبط أعصابه . . وعندما أراد خصوم النحاس أن يقضوا عليه قرروا التفريق بينه وبين مكرم عبيد . . وتولى هذه المؤامرة باشا من عتالة باشوات السراى هو أحمد محمد حسين باشا . . وقد قص محمد التابعى بعض تفاصيل هذه المؤامرة الحزينة فى كتاب له قرأته من سنوات ولم أعد أذكر عنوانه . .

وعندما تقرأ تفاصيل هذه المأساة وما يتصل بها من مأسى تمزق الوفد وتدهوره يوما بعد يوم تشعر حقا أن عالم الباشوات كان عالما تعيسا . . وقد ركزت الكلام هنا على الوفد لأن مصطفى النحاس كان دون شك أكبر باشوات العصر من كل ناحية . . لقد كانت له نقائصه الكثيرة . . وما فى ذلك شىء . . ولكنه كان زعيم الغالبية الشعبية وكبير الباشوات وكان رجلا مهيبا محترما جدا رغم النقد الشديد الذى كان يوجه إليه . .

وكما تخصصت مجلة الكشكول فى الهجوم على سعد زغلول فى العشرينات من هذا القرن فقد تخصصت مجلات أخرى كثيرة فى هدم مصطفى النحاس والوفد . . وكان انفصال أحمد ماهر والنقراشى ضربة أليمة للنحاس . . ولكنها لم تؤثر كثيرا فى الكيان العام لبناء الوفد نفسه . .

أما الذى أثر فى الوفد فعلا وباعد بينه وبين الجماهير فهو اقترابه من الباشوات أصحاب الأراضي الواسعة واعتزازه بتأييدهم . . وكان ذلك طبيعيا لأن الوفد نفسه كان قد تحول إلى حزب مياسير وأغنياء . . وكل كبار أعضائه كانوا قد أصبحوا باشوات يملكون الأراضي الواسعة والعقار الكثير . . وفى هذه الحالة لا يطبق الحزب البقاء بعيدا عن السلطان لأن كيانه نفسه أصبح يعتمد على البقاء فى الحكم . . والأغنياء - أو الرأسماليون كما يقال - لا يهتمون بشىء قدر اهتمامهم بالسيطرة على السلطان السياسى .

وهذه الحالة النفسية - والمالية أيضا - التى كان فيها الوفديون فى أوائل الأربعينات هى التى تفسر لنا قبولهم تولى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ . . وهى غلطة بشعة اقترفها النحاس ولكنها مفهومة إذا نحن ذكرنا الغلطة الأخرى التى سبقتها وهى توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا . . وبتوقيعها انتهت وكالة الوفد عن الأمة وانتهت وظيفته بالتالى . .

لأن الوفد تألف وحصل على توكيل من الأمة للمطالبة بالاستقلال سنة ١٩١٩ وفى سنة ١٩٣٦ قال إنه أتى بالاستقلال وقد أصر على البقاء بعد ذلك ، ولكن بدون وظيفة ، لأنه لم

تكن لديه برامج إصلاحية من أى نوع . . مثله فى ذلك مثل بقية أحزاب العصر وباشواته . .

تخلى الوفد عن الزعامة ووقع الفراغ السياسى وكان لا بد أن يملأ ، وهنا يبدأ السباق بين قوة جديدة لملء الفراغ وقيادة الشعب . . هنا تبدأ حكاية الإخوان المسلمين ومن إليهم ويتمهد الطريق لثورة ١٩٥٢ ونهاية عصر الباشوات . .

من هنا كان اختفاء الوفد محتوما بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وما حدث بعدها من تحولات سياسية واجتماعية وفى الوقت الذى كان الوفد فيه يتصفى كانت بقية الباشوات تتلاشى . . ومعظم القدامى منهم ماتوا أو تركوا ميدان السياسة وانصرفوا إلى العقارات والأمالك . . وكل الباشوات كانوا أصحاب عزب وأراض وعقارات . .

ولكن . . أكان الباشوات إقطاعيين ؟ . . ذلك أمر يحتاج إلى نظر فإن للإقطاع مفهوما آخر يختلف تماما عما كان عليه باشوات العصر الماضى . . الذين كانوا يملكون فعلا ولكن هل كانوا يملكون الفلاحين ؟

هناك عدة أسئلة لا بد من الإجابة عنها قبل الإجابة عن هذا السؤال أولا : هل يمكن حقا السيطرة على الفلاح المصرى ؟ . . المعروف أن الفلاح المصرى من أمهر الناس فى التخلص من أى حمل باهظ يثقل كاهله ومنذ أيام الرومان قال مارسللوس ابيانوس إنك لا تستطيع أن تأخذ من الفلاح المصرى إلا ما يعطيك هو إياه . . وبكوات الممالك وباشوات الترك وقفوا عاجزين أمام مكر الفلاح وسعة حيلته . . ومحمد على باشا لم يأخذ من الفلاح مليا فوق ما كان يحصله منه الملتزم التركى . . ولكن الذى حدث هو أن محمد على قضى على الملتزمين وأصبح هو نفسه الملتزم وقبض المال من الفلاح مباشرة . . فزاد دخل الباشا أضعافا ولم يخسر الفلاح شيئا جديدا . .

وليس لدينا دليل حقيقى على أن باشوات العصر الماضى كانوا يرغمون الفلاح على بيع جاموسته ليفى بالإيجار . . لأن هذا تصرف لا يفعله إلا مالك أرض غبى . . وليس أعز على مالك الأرض الذكى من فلاح نشيط منتج يعرف كيف يستخرج من الأرض أحسن ما فيها . . ويأخذ حقه ويعطى الباشا حقه . . أما الفلاح الكسول المتواكل الخبيث فإن أمره لا يعنى أحدا قط وفى يومنا هذا يستعمل رجال الحكومة كل ما يستطيعون مع أمثال هذا الفلاح لأنه كارثة فى كل زمان ومكان . .

وبعد أن انتهى عصر الباشوات وقامت الثورة أقاموا محاكم للباشوات . وإنه ليستوقف النظر أن خيانة الوطن لم تثبت على واحد منهم . . وخيانات المال كانت قليلة . .

واللصوص من بين الباشوات كانوا قليلين جدا . . ومع ذلك فقد أخذوا كل أموالهم - اللصوص منهم وغير اللصوص - أخذوا أموالهم ووضعوها تحت الحراسات وأقاموا عليها رجالا قالوا لنا إنهم مخلصون صادقون أمناء وسنرى ما كان من أمر هؤلاء المخلصين الأمناء . .

فهل تخلص الفلاحون من متاعبهم ؟ . . هل أنقذ الفلاح مما كنا نسميه الإقطاع ؟ . . هل وجدنا في خزائن الباشوات كنوزا مخزونة ننفق منها على مشاريع الإصلاح . . ؟ لكى نفهم هذا لا بد من نظرة أخرى أعمق إلى الباشوات وعالم الباشوات . .





محمد علي باشا

٢ الباشوات المصريون يدخلون



محمد محمود باشا

إن من يفكر في عصر ما قبل الثورة يتصور أن مصر عاشت في عصر الباشوات مئاة السنين . . مع أن الباشوات ظاهرة قصيرة العمر في تاريخ مصر . . إن عمرها لم يزد على ١٥٠ سنة . . ففي سنة ١٨٠٠ لم يكن في مصر إلا باشا واحد هو طاهر باشا الوالى التركى . . وفي سنة ١٨٠٥ اختار المصريون باشا جديداً هو محمد على باشا وأعطوه الجنسية المصرية وطلبوا إلى السلطان العثمانى أن يعينه والياً على مصر ووافق السلطان . . وسافر طاهر باشا إلى استامبول وبقي في مصر باشا واحد نصف تركى ونصف مصرى هو محمد على وتلك هى بداية قصة الباشوات في مصر . .

ولكى تكون قصة الباشوات وعصرهم كاملة نعود إلى الوراء قليلاً في ٢ سبتمبر ١٨٠١ حيث تم جلاء الفرنسيين عن مصر . . وانتهت مغامرة نابليون في مصر بفشل ذريع . .

وبجلاء الفرنسيين عن مصر تصور الأتراك أن البلاد عادت إليهم فأرسلوا تعليماتهم إلى الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء بأن يتسلم حكم البلاد ويقضى على بقية سلطان المماليك ويتم جلاء الإنجليز عن مصر . . وغاب عنهم أن الدنيا تغيرت . . وأن عودة الماضى كما كان أصبحت مستحيلة . . لأن عاملين جديدين دخلا في الميدان : الأول هو أوروبا متمثلة في فرنسا وإنجلترا ، وإنجلترا الآن هى المنتصرة وهى لن تكف من ذلك الحين عن السعى للاستيلاء على مصر . . والعامل الثانى هو العامل القومى المصرى متمثلاً في المشايخ وجماهير الشعب . .

وجماهير الشعب المصرى هى التى أحدثت التغيير الذى كان يمكن أن يكون حاسماً . . ففيما بين أول مايو و ٩ يوليو ١٨٠٥ برز شعب مصر في الميدان يقوده زعماءه وخاصة عمر مكرم . .

وفي ١٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب في بيت القاضى وهو دار المحكمة وأعلنوا ألا تفرض على أهل مصر ضريبة إلا بموافقة العلماء وكبار الأعيان وأن تخرج الحامية التركية وعصابات الجند المرتزقة المعروفة بالولاءة من القاهرة وألا يسمح بدخول أى جندى المدينة حاملاً سلاحه وأن تعاد المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى الذى سيطر عليه المماليك . .

ورفض خورشيد باشا الوالى التركى ذلك كله . . فعزله الشعب في ١٢ مايو ١٨٠٥ في نفس بيت القاضى وقرر تعيين محمد على . .

وفي المدة من أول مارس ١٨٠٤ إلى هذا التاريخ وهو ١٢ مايو ١٨٠٥ توالى على مصر خمسة ولادة أترك خسر و باشا وقد خلع . . وطاهر باشا (قتل) وأحمد باشا (طرد) ثم على باشا الجزايرلى (قتل) ثم خورشيد الذى قلنا إن شعب مصر خلعه واختار محمد على . .

ومحمد على كان من الممكن عزله في أى لحظة بل حدث أن نقلته الدولة واليا لسلافيك . . ولكن الشعب تمسك به وأبقاه في مصر رغم أنف السلطان ، والخطأ الأكبر جاء من أن عمر مكرم - زعيم الشعب - تراجع وقدم محمد على واليا ربما لأن التقاليد جرت بأن يكون الوالى تركيا . .

ومن المؤكد أن عمر مكرم كان يشعر أن إخوانه المشايخ لم يكونوا مستعدين لتأييده . . وقد تأمروا عليه مع محمد على بالفعل وأسقطوه وانتهى أمره بالنفى إلى دمياط . . وحكاية مؤامرة المشايخ على عمر مكرم حكاهما عبد الرحمن الرافعى بكل تفصيل . . ولكننا نتناساها . . لأننا لا نحب الحقيقة أبدا . . والتاريخ عندنا لا بد أن يكون محلى بالسكر . .

والمشايخ تخاذلوا وأظهروا أنهم أقل من الموقف بكثير . . فقد تنافسوا على مشيخة الأزهر وولايات الأوقاف . . وغابت عن أعينهم القضية الكبرى . . ومحمد على تركهم يأكل بعضهم بعضاً بعد أن استقر في الولاية وصدر فرمان أو الأمر السلطانى بتعيينه والياً على مصر في ٩ يوليو ١٨٠٥ . .

والشعب المصرى الذى حارب الفرنسيين والإنجليز والمماليك وانتصر عليهم جميعاً وفرض إرادته على الدولة العثمانية كان يستطيع بزعامة عمر مكرم إلى جانب محمد على أن يبدأ رحلته في العصر الحديث ابتداء من يوليو ١٨٠٥ . . ولكن محمد على الألبانى الأنانى قاد هذا الشعب في الطريق الذى أراد . . وهو طريق صخور وأخاديد ومستنقعات عطلت مسيرته وسارت به في طريق مسدود . . وإذا كان محمد على قد استطاع ان يحقق شيئاً لأنه كان رجلاً غير عادى . . وقد أسعده الحظ بنفر من أذكى رجال السان سيمونيين الفرنسيين من أمثال الكولونيل سيف ولينان دى بلفوند . . فإن أولاده كانوا في مجموعهم مجرد ألبانيين متركين جهلاء مغرورين جنباء عاجزين عن إدراك الخير الذى كان يمكن أن يعود عليهم لو أنهم ربطوا مصائرهم بمصائر شعب مصر . . فساروا في الطريق الذى يؤدي بمصر حتماً إلى أيدي المستعمرين . . أصبحنا أيام أسرة محمد على صيداً وشعباً مقيداً عاجزاً يتنافس عليه الأنجليز والفرنسيون . . أما الأتراك فقد أصبحوا الضباع الذليلة التى تأكل من بقايا السباع . . والشعب المصرى الذى صنع محمد على كان عليه أن يبدأ من جديد ويسير الطريق كله مرة أخرى ليصنع نفسه وهذا هو الطريق المرير الذى سار فيه أحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول . . وسعد زغلول ، كان عمر مكرم الجديد . . تأمروا عليه ووقفوا مع السراى والانجليز ضده وعدنا بعد ثورة سنة ١٩١٩ إلى صراع السلطة العقيم حتى تأذن الله وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ التى فعلت ماكان ينبغى أن يتم سنة ١٨٠٥ . وهو الإطاحة بالإنجليز والأتراك وأسرة محمد على وتسلم زمام مصر . .

والفترة قبل ١٨٠٥ كانت عصر بكوات الممالك وهم عصابات من أسوأ من عرفت مصر من الحكام . . القواعد الأساسية للعمل السياسى فى عصرهم كانت الجشع والطمع والخيانة والجهل والقسوة والغرور . .
والفترة من ١٨٠٥ إلى ١٩٥٢ هى عصر الباشوات وهى التى ستتحدث عنها فى هذا الكتاب . .

ومحمد على باشا لم يكن تركيا بل كان أرناؤوطيا . . والأرناؤوط كانوا فرعاً من الألبان . . ولكنه كان فرعاً صغيراً من أهل الوادى . . ولم يكن لهم قدر كبير عند الألبان . . وكان المفروض أن الألبان جميعاً أتراك ولكن الأرناؤوط وحدهم كانوا يتمسكون بأنهم أتراك . . كانت هذه عقدة نقص فيهم . .

وعقدة النقص هذه جعلت محمد على يتمسك بأنه تركى ولم يذكر إلا فى النادر نصفه الثانى وهو النصف المصرى . . وهنا كانت مأساته ومأساة أهل بيته . . فهم كانوا أتراكاً أدياء ومصريين بالانتساب . . ومن سوء حظهم أنهم لم يخلصوا لصفتهم المصرية أبداً . .

ومحمد على حارب الأتراك بالمصريين . . والأتراك لعنوه واستعانوا عليه بالانجليز وحطموه . . وبعد أن حطموه وجعلوه والياً على مصر وتوابعها فقط كما بدأ . . اعترفوا بتركيتهم ولكنه هو وأولاده لم يصبحوا أتراكاً خالصين أبداً . . لأن أسرة محمد على كانت تنقصها أشياء كثيرة منها الصدق والإخلاص والولاء . . وأما المصريون فلم يفهمهم محمد على أو أولاده قط ولم يتعاونوا معهم على بناء الوطن المصرى الحديث . . وكان على المصريين أن يبنوا وطنهم . . كانت الولاية والأموال أهم أشياء عند محمد على وأولاده دائماً من مصر والمصريين وقد استعانوا عليهم بالأجانب جميعاً ثم بالانجليز . . وأخيراً - وعندما يئس المصريون من جعل أسرة محمد على أسرة مصرية - عزلوا آخر رجالها وهو فاروق أحمد فؤاد فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ثم أعلنوا الجمهورية وحكموا أنفسهم كما كان ينبغي منذ ١٨٠٥ . .

وكان من بين الأجانب الذين استعان بهم محمد على وأولاده على المصريين الباشوات . . وفى أول الأمر كان كل الباشوات أتراكاً أو متتبيين إلى الأتراك واللقب على أى حال كان يأتى من استامبول . . وإلى ١٨٧٠ تقريباً كان الباشوات كلهم أتراكاً أو شراكس أو روما (من أصل يونانى) أو أكرادا أو حتى إيرانيين أو شواما أو مغاربة ممن دخلوا فى خدمة السلاطين . .

ومحمد على عندما قضى على الممالك وبدأ فى بناء الدولة الجديدة . . احتاج إلى إدارات إدارية فاستعان بنفر من أقاربه ومن الأتراك وبقايا الممالك وعين منهم مديري

ومستولين إداريين ماليين وحصل لهم على ألقاب الباشوية وكانت هناك فكرة تقول بأن المصرى لا يصلح إلا ليكون فلاحاً يفلح الأرض . . أما الحكم والإدارة فليسا من اختصاصه . . ويمضى الزمن أصبح جميع الأجانب . . بما فى ذلك الأرمن والتركمان والجزائرية والقبارصة والجريتلية . . والمالطيون . . هم السادة الحاكمين فى الدولة والمتحكمين فى الأموال . . أما المصريون فقد ظلوا خارج الأسوار وكان المفروض أن يظلوا خارجها إلى الأبد . .

وكان اللقب أول الأمر مرتبطاً بالوظيفة . . فمدير المديرية لابد أن يكون باشا . . أحياناً كان السلطان يرسل إلى مصر بعض مماليكه وخدم قصره ليكونوا مديرين للمديريات فى مصر . . هذا الطراز من الباشوات تجد أسماءهم لفظاً واحداً دون لقب مثل شاهين باشا وأيوب باشا وراغب باشا ونيازى باشا . . وهكذا حتى عندما كانوا يعينون وزراء كانت أسماءهم فى المرسوم تصدر بهذا الشكل . . والوزارة الأولى التى شكلها أرتين نوبار باشا صدر موسوم التشكيل وفيه أسماء نوبار باشا ورياض باشا وراتب باشا وعلى مبارك باشا . . أما نوبار فهو أرتين نوبار وهو أرمنى . . وأما رياض فهو مصطفى رياض إسماعيل أفندى الوزان . . بدأ حياته كاتباً فى ديوان المالية وترقى ثم دخل فى المعية الخديوية وانفتحت أمامه أبواب الوظائف ووصل إلى رئاسة الوزارة سنة ١٨٧٩ . . وتخصص فى كراهة المصريين حتى أصبحت هذه هى رسالته فى الحياة . . ومن عجيب أمره أنه استقال من الحكومة عندما خفف الحكم على عرابى من الإعدام إلى السجن المؤبد ولهذا يشكك الناس فى مصريته ويقولون : إن أصله من يهود سلانيك أو الدوغمة وهم أتراك يهود أسلموا فى الظاهر . . وقد اشتهروا بالدس للإسلام والمسلمين . . وهناك من يقولون : إن مصطفى كمال أتاتورك منهم . . وإلى هذا فى رأيهم يرجع نفوره الشديد من العروبة والإسلام وهذا ليس بصحيح . .

ومصطفى رياض طوال حياته يمثل الباشوات غير المصريين وهو وعثمان رفقى باشا يقفان على قمة العداء للمصريين . .

أما راتب باشا الذى كان وزيراً للجهادية (الحربية) فى الوزارة المصرية الأولى سنة ١٨٧٨ فهو من باشوات الترك وأصله من ممالك السلطان ثم أصبح باورا للسلطان عبد العزيز . . ورافقه فى زيارته لمصر ثم استقر فيها وانضم إلى باشوات الترك وأصبح وزيراً أكثر من مرة . .

وأما على مبارك ناظر الأوقاف والمعارف العمومية والأشغال العمومية بالنيابة فى تلك الوزارة . . فهو المصرى الوحيد هنا وهو لا يمثل الباشوات المصريين لأنه رغم مكانته

وتاريخه الفكرى كان دائماً من باشوات السراى وتاريخه الفكرى جميل . . أما تاريخه السياسى فغير جميل . .

ثم نسمع بعد ذلك عن اثنين من باشوات الترك هما سعادتلو أفلاطون باشا ناظر الجهادية والبحرية وسعاد تلو ذو الفقار باشا ناظر الخارجية ومؤسس أسرة ذى الفقار . . أصله من سبى إبراهيم باشا فى الموره . . فهو يونانى أتى إلى مصر عبداً مملوكاً ثم صار هو وأسرته باشوات . . وقد أطلع هذا البيت عدداً كبيراً ممن خدموا مصر بإخلاص واشتهروا بالأمانة والصدق مثل إبراهيم باشا ذى الفقار وسعيد ذى الفقار وغيرهم من كبار الشخصيات . . وأرجو أن يذكر أولادهم ممن يقرأون هذا الكتاب وأن يتأكدوا أن الإشارة إلى أصلهم اليونانى أو الرومى ليس فيه أى مساس بمكانتهم وأقدارهم . .

ومن أيام سعيد باشا أى من ١٨٥٤ ارتبطت الباشوية بملكية الأرض من ناحية وبالوظائف الكبرى من ناحية أخرى . . فكانت وظائف المديرين ومديرى الدواوين ومديرى حسابات الوزارات تحمل معها لقب الباشوية ومنحة من الأرض كانت تسمى أبعادية . . وهذه كلها قُصِرت على الأتراك والشركس وحدهم أى أفراد الأسر الحاكمة والوزراء والمحافظين وكبار رجال المعية (الحاشية) الخديوية ونظار دوائر الأمراء وكبار الضباط .

وقد قال اللورد ميلنر فى كتاب « انجلترا فى مصر » إنهم كانوا يكونون ارسقراطية خاصة من أجناس الأتراك والشراكسة والأكراد وأتراك الأناضول (أنا تولى) . . والأتراك من أصول يونانية (السلانكلى والادرنلى والقبرصى والجريتلى والمورلى) ثم الأتراك من أصول مغربية (الجزائرلى والقراضلى والتونسى) ويقول ميلنر : إن هذه الرابطة التركية جمعت هؤلاء بعضهم إلى بعض . . لأنهم كانوا يتكلمون التركية ويلبسون ويتصرفون فى بيوتهم مثل العثمانيين واعتبروا ذلك دليلاً كافياً على رقيهم عن المصريين . . واحتفظوا فى أيديهم بالوظائف الكبرى وحرصوا على ألا يدخل فيها المصريون ، وسيطروا على الإدارة والاقتصاد والزراعة سيطرة تامة . .

ويقول اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » عندما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وجدوا هناك مجموعة من الأتراك المصريين يحتلون المراكز الأساسية فى الحكومة ويملكون الأراضى الشاسعة . . ويرفعون على المصريين ويعتقدون أن احتكار الباشوات والوظائف الكبرى وملكية الأراضى الشاسعة حق لهم من دون المصريين وكانوا يجتهدون فى إبعاد المصريين عن السلطة فى بلادهم بكل سبيل . . ويقول كرومر : إن ملكاتهم لم تكن على مستوى مطاعمهم . . ولكنهم استفادوا من وضعهم وأصبحوا يحتكرون كل مصادر الثروة

من وظائف وأراض وأموال واعتبروا الفلاحين العاملين في أراضيهم ملكاً لهم . . بل كان بعضهم يرى أن العمد والمشايخ في نواحيهم من أتباعهم وخدمهم . .

وكان المصريون في أول الأمر لا يقبلون على ملكية الأراضي لأنهم كانوا فقراء والأرض تحتاج إلى مال لإصلاحها وريها وزرعها والعناية بأمرها . . ثم إن العوائد التي كانت مقدرة على الأراضي كانت عالية لا يستطيع الفلاح الفقير دفعها فكان يترك الأرض ويهرب منها . . وكانت عوائد الأرض أى ضرائبها بيد جماعات من لصوص الإدارة وكانوا قساة جفاة بلا ضمير أو إنسانية . . وكانوا لا يتورعون عن إلحاق أشد الأذى بصاحب الأرض الذي لا يؤدى لهم . وإلى جانب العوائد المقررة إتاوات وغرامات تذهب إلى جيوبهم . . ومن هنا فإنه لم يكن يستطيع التعامل معهم إلا القوى العنيد العديم الأخلاق .

ومن هنا فضل الفلاحون المصريون التخلي عن الأرض بل الهروب من ملكيتها تخلصاً من التعاون مع أولئك اللصوص . . وعلى باشا مبارك نفسه يحكى في ترجمة حياته : أن أسرته هاجرت من قريتها لأن الحكومة « رمت عليهم » أرضاً وطالبتهم بعوائدها فتركوا القرية وهربوا . . وفي هذه الحالة كان الباشوات الأغنياء يتقدمون ويستولون على الأرض . . إما بأذن الخديوى وإما بوضع اليد . . وكانت الأبعاديات أشبه بالاحتكار لهم . . والأبعادية هى الأراضي الزائدة على زمام القرية المسجل في الدفاتر . . وكانت في الغالب تكون بوراً فيستولى عليها الباشا منحة من الخديوى أو بوضع اليد ، ويستخدم الفلاحين في العمل فيها بالسخرة ويصلحها ويزرعها ويستولى على كل محصولها . . ويدخل في هذه الأراضي ما كان يعرف بالجفالك وهى أراض شاسعة . . مما وضع محمد على باشا يده عليه وصار ملكاً للأسرة الفخيمة الخديوية . . وكانت هذه الأراضي معفاة من العوائد والضرائب . . فكان الباشوات يستولون عليها ويعمرونها ويستولون على محاصيلها . .

وحوالى ١٨٥٨ أصدر سعيد باشا لائحة تعطى واضع اليد على أى أرض حق تملكها بشرط أن يدفع المال المقدر عليها . . وقد احتفظ الخديوى في هذه اللائحة بالحق في استرداد هذه الأراضي عندما يشاء ومن هنا حرص أصحاب الأراضي على أن يكونوا على علاقات طيبة مع الأسرة الحاكمة حتى لا تصادر أراضيهم . . ومن ذلك الحين أصبح الخضوع المطلق للخديوى شرطاً من شروط الباشوية وملكية الأراضي . . وهذا هو الأساس البعيد الذي قام عليه جاه باشوات السراى وهم في نفس الوقت باشوات الانجليز . .

وهذا الطراز من الباشوات كانوا دائماً لعبة السراى والانجليز ومنهم تكونت كل الأحزاب المناهضة للوفد والحركة القومية : الأحرار الدستوريون وحزب الاتحاد وحزب الشعب .

ولابد من الحذر من التعميمات هنا . . فإن الكثيرين من رجال حزب الأحرار الدستوريين لم يكونوا قط من باشوات السراى أو الانجليز إنما كانوا رجالا أحرارا لم يشاءوا أن يندرجوا فى زحمة الوفديين . . إما بسبب استغلال الشخصية كما نرى عند عدلى باشا يكن وعبد الخالق ثروت باشا وعبد العزيز فهمى باشا وعبد الحميد بدوى باشا وإما نفورا مما كانوا يسمونه ديماجوجية الوفد . . ومن هؤلاء أهل علم وفضل وأدب كثيرون . .

وقد لقيت من هؤلاء أوائل أيام اشتغالى بالأدب أحمد محمد خشبة باشا وإبراهيم دسوقى أباطة باشا والأول كان من هواة التاريخ والثانى كان حافظا للشعر والأدب ويدخل فى هؤلاء محمد حسين هيكل باشا الأديب المعروف . . وفى القرن الماضى اتجه باشوات السراى إلى اغتصاب الأراضى وتوسعوا فى ذلك . . وقد اشتهر من بين هؤلاء شاهين باشا الذى كثرت الشكوى من تعديه على أراضى الفلاحين فكان يغتصب المائة فدان والمائتين دون أن يبالي . . وكانت لهذا الرجل أساليب شريرة فى التخلص من أداء «الميرنى» أى الضرائب وكان جريئا وقحا لا يستحي من أن يقول : إذا كانوا يقولون إننى «حرامى» فهم «حرامية» أكثر وليس عيبا أن يسرق الحرامى حراميا آخر والحكاية رواها الصحفى السويسرى . .

وهذا هو الذى جعل ذلك الصحفى يقول فى رسائله إلى الجورنال دى جييت إن كل المصريين يرون أن سرقة أموال الحكومة حلال بل شطارة لأن رجال الحكومة فى ذلك العصر وهو النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانوا - فى نظر عامة المصريين - لصوصا وماهم كله حرام وسرقته حلال . .

وكان هناك إلى ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ طريقة تقليدية باشوية فى اغتصاب الأراضى والتوسع فيها . . فإن الباشا كان يمنح بمجرد حصوله على اللقب أو دخوله الوزارة أرضا فى حدود مائة فدان من أراضى الجفال ك مثلا . . وهى فى الغالب تكون مهملة أو بما كان يسمى بالمتروك والمتروك هو الأراضى التى تخلى عنها الفلاحون لعجزهم عن سداد العوائد المقدرة عليها مضافا إليها الرشاوى الكثيرة لرجال الحكومة والإدارة . . فكان الخديوى يستولى عليها ويمنحها لباشواته . . والباشا - وزيرا كان أو مديرا - يتصل بزميله مدير المديرية لكى يسخر إدارات الدولة كالرى مثلا فى رى أرضه ويمشد الفلاحين للعمل فيها بالسخرة فتتحول الأبعادية إلى عزبة مثمرة ثم يغتصب الباشا فوق المائة فدان مائة أخرى . .

وقد ذكرت الدكتورة لطيفة محمد سالم فى كتابها عن القوى الاجتماعية فى الثورة العربية رجلا يسمى شاهين باشا (ص ١٢٠) اشتهر بالتعدي على أموال الفلاحين وكان

مفتشا لجهة بحرى وداخله الطمع وأخذ من ورثة محمد أبى حمزة ١٠٠ فدان عشورية (أى من أجود الأراضى التى تدفع عوائد وتقدر بعشر المحصول) من أطيان كفر الدوار بحيرة مقامة على زمام ناحية البريجات من أعظم أطيان تلك الجهة بمهماتا . . ومغروسة بكافة دوايرها أشجارا من سنط وجميز وساقيتين وآلات وعزبة قائمة بنفسها بطاحونة . . كما أنه اغتصب من فلاحى ناحية يتوخر - غربية - مائتى فدان وأمثال هذا الباشا اللص كانوا كثيرين جدا . . إلى قيام الثورة العراقية . .

إذن كان عالم الباشوات علما أجنبيا غريبا عن مصر فى مجموعه . . وهذا القول فيه تجوز ولكنه يصور نظرة المصرى العادى إلى الباشوات . وعالمهم فى جملته كان مجتمعا نشأ حول البيت المالك الذى لم يشأ قط أن يعتبر نفسه بيتا مصرية . . والثورة العراقية قامت بالذات احتجاجا على ذلك الوضع الشاذ الذى كان يفترض أن كل خيرات مصر ووظائفها الرئيسية ينبغى أن تكون بأيدي الأجانب ولو كانوا من حثالة أهل الأرض المهم ألا يكونوا مصريين . .

إذن فكيف ومن أين ظهر الباشوات المصريون ؟ . . البداية خافية بعض الشيء لأنها جزء من الحركة القومية المصرية التى درس عبد الرحمن الرافعى الخطوط الرئيسية لتاريخها . . ويقوم المتخصصون فى تاريخ مصر الحديث بدراسة ما يتيسر لهم دراسته من تفاصيلها ووقائعها دراسة علمية بتفصيل . .

والبداية نجدها عند العمدة ومشايخ القرى من ناحية وعند تجار المدن من ناحية أخرى . .

ذلك أن محمد على عندما وضع يده على كل أرض مصر واعتبرها أملاكاً له يتصرف فيها ويمنح منها كما يشاء احتفظ لكل قرية بزمامها أى بالأراضى التى يسأل عنها العمدة ومشايخ القرى ونظار الزراعة ويطالبون بتحصيل الأموال عنها . . وكان من المحرم على أحد المساس بأراضى الزمام أى الأرض التابعة للقرية رسمياً . . لأن هذه هى المنبع الرئيسى لدخل الباشا محمد على وخلفائه من الأراضى . .

وكانت الحكومة تقدم للعمدة ومشايخ القرى بعض المعاونات مثل تقاوى القطن والقمح وأصول الأشجار مثل أشجار توت الحرير وفى مقابل خدماتهم كانت الحكومة تترك لهم ٤ فى المائة من مساحة الزمام يزرعونه لحسابهم . . فاهتم الكثيرون جدا من العمدة ومشايخ القرى بنصيبهم هذا فنهضوا به وتوسعوا فيه . . واشتروا أراضى لحسابهم ودخلوا فى زمرة أصحاب الأملاك . . وبعض أذكى أصحاب المنح من رجال الحكومة كانوا يتعاونون مع العمدة والمشايخ فى تنمية أراضيتهم فى مقابل مساحات واسعة من تلك

الأراضي يتركونها لهم ليزرعوها لحسابهم . . والمثل المعروف عندنا هو رفاة رافع الطهطاوى - ولم يكن باشا - ولكنه كان من كبار الموظفين وحصل على منح كبيرة من الأراضي شارك العمدة ومشايخ البلاد في تنميتها حتى صار يملك ٢٥٠٠ فدان سنة ١٨٨٠ . . وعلى مبارك باشا اتبع هذه الطريقة ووصلت أملاكه إلى ٣٠٠٠ فدان . .

وذكرت الدكتورة لطيفة سالم في كتابها الأنف الذكر أمثلة أخرى منها مثال على البدرأوى وكان من تجار المحاصيل . . فكان يشتري محاصيل الأبعاديات وأراضي الوسيات (وهي أملاك الأسرة الخديوية) ويتاجر فيها . . وقد بدأ ظهوره من أيام محمد على باشا . . وفى أيام سعيد باشا حصل على منح كبيرة من الأراضي . . وسعيد باشا كان ميالا إلى المصريين عطوفا على الفلاحين . . ثم اشترى على البدرأوى أرضا أخرى . . ووصلت أملاكه فى أواخر أيام سعيد باشا إلى ٤٠٠٠ فدان . . ومن هؤلاء أيضا حميد أبوستيت . . وكان من العمدة ومشايخ القرى فى نواحي سوهاج . . فاجتهد فى الزراعة وخدم أصحاب الأبعاديات وتعاون مع رجال الحكومة . . واشترى الأراضي وتوسع فيها ثم عين حاكما لمديرية جرجا ووصلت أملاكه إلى ٥٠٠٠ فدان ومثل هذا الرجل كان كثيرون . . منهم عائلات أباطة والشريعى وسليمان عبد العال والمنشاوى والهجين والعقاد وعبد الغفار وغيرهم ممن استطاعوا أن يصبحوا من كبار الملاك وداخلوا الحكام . . وبعضهم حصل على الباشوية مثل محمود سليمان باشا (والد محمد محمود باشا) وحسن عبد الرازق باشا وكلاهما من باشوات الصعيد . .

ولكن الطفرة حدثت بعد سنوات قلائل من حكم إسماعيل باشا عندما أحاطت به المصاعب السياسية وتزايدت الديون وزاد الإسراف فى إنفاق المال . . فأراد إسماعيل أن يعتمد على سند يقويه أمام السلطان والأجانب . . خاصة وقد انضم إليهم باشوات الأتراك . . فخطر بباله أن ينضم إلى الجانب المصرى ليستعين به فى صراعه للاحتفاظ بعرشه . . وتلك كانت الظروف التى أوحى إليه بفكرة الحكومة النيابية ومجلس شورى النواب . . وكانت فكرة إسماعيل أن يكون أعضاء هذا المجلس من أعيان المصريين والعمدة ومشايخ القرى . . وأصدر لائحة هذا المجلس أو قانونه سنة ١٨٦٦ وخعله مجلسا استشاريا صرفا . . أى ليس لقراراته أى قوة تنفيذية . . ثم أنه يجتمع بدعوة الخديوى ولدة شهر واحد فى السنة . . ولا دخل له فى شئون الميزانية ومالية الدولة . .

وقد أراد إسماعيل بذلك أن يتظاهر أمام الأجانب بأنه رجل دستورى . . ومن المؤكد أنه لم يكن جادا فيما أراد . . ولكن الشعوب تأخذ هذه المسائل جدا خالصا . . لأنها الفرصة الذهبية التى تتاح لها لكى تعبر عما يجيش فى نفوسها . .

وكان المصريون في ذلك الحين بالفعل في حالة من التماسية لا توصف . . فكل المتاعب على أكتافهم . . وكل المكاسب لغيرهم . . والبلاد فريسة لجماعات وحشية من الأفاقين والمحتملين على رأسهم الخديو نفسه ورجال الحكومة التركية . . ثم قناصل الدول ومن ينضوي إليهم من الأوروبيين من كل صنف . .

وكما حدث في فرنسا . . عندما دعا الملك لويس السادس عشر « مجلس الطبقات » ليستعين به على فرض ضرائب جديدة ففتح على نفسه بذلك الطوفان فكذلك حدث لإسماعيل : ما كاد يعلن لائحة مجلس شورى النواب حتى استيقظت الآمال وانفجرت العواطف القومية الحبيسة . . والمصريون الذين كانوا مبعدين عن كل ثروة وسلطان يريدون اليوم أن يستعيدوا حقوقهم في وطنهم ويتنصفوا لكرامة وطنهم الذى لم يحترمه الآخرون . .

وما كادت الانتخابات تبدأ حتى ظهرت قيادات شعبية جديدة وطفرت إلى ميدان السياسة المصرية أسماء كان باشوات الأتراك يحسبونها في مراتب العبيد فانتخب أهل القاهرة موسى العقاد والحاج يوسف عبد الفتاح والسيد محمود العطار . . وانتخب أهل الاسكندرية الشيخ مصطفى جميعى والسيد عبد الرزاق الشوربجى . . وانتخب الغربية والمنوفية أتربى أبو العز وعلى كامل عمدة القصرية والحاج شتا يوسف عمدة أبى مندور . .

ومن بطون الريف قفز العمدة إلى مجلس شورى النواب في القاهرة . . وبدأنا نسمع في عالم السياسة بأسماء على الجزائر ومحمد شعير وموسى الجندى وأحمد أبى الحسين ونصر منصور الشواربى والإمام الشافعى أبى شنب وعلى حسن حجاج وأحمد أباطة والمعلم سليمان سيدهم وعامر الزمر وإبراهيم أحمد المنشاوى وجرجس برسوم وإبراهيم الشريعى ومحمد أبى سحلى وغيرهم وغيرهم . . وهكذا اقتحم الميدان السياسى المصرى ٧٥ مصرىا قرروا أن ينزعوا السلطان في بلادهم من أيدي باشوات الترك والشركس وحلفائهم من الأجانب . .

وقد عقد هذا المجلس أولى جلساته في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ وكانت بدايته أشبه بالهزلة . . فقد كان الأمر جديدا جدا على النواب . . أما بالنسبة للحكومة فقد كان هزلا . . وكان يمثلها الخديو ونفر من باشواته : إسماعيل راغب باشا (عين رئيسا للمجلس) وشريف باشا وزير الداخلية وحافظ باشا وزير المالية وعبد الله عزت باشا رئيس مجلس الأحكام وإسماعيل باشا صديق مفتش الأقاليم ورياض باشا المهردار حامل الأختام . . وعقد الاجتماع في القلعة وهناك أيضا كان مقر الخديو حتى انتقله إلى قصر عابدين . .

ولكن هذا المجلس الذى بدأ وكأنه لا شىء . . لم يلبث أن تطور حتى أصبح فى حقيقة الأمر كل شىء . . من هنا نبتت الحركة القومية . . ومن هنا نشأت الثورة العربية ومن هنا أيضا نشأ باشوات الفلاحين أو باشوات المصريين . .

وفى دور الانعقاد الثالث للهيئة النيابية الثالثة فى يناير ١٨٧٩ إلى يوليو ١٨٧٩ ظهرت القيادات الشعبية الحقيقية : محمود العطار وعبد السلام المويلحى وعثمان الحرميل والشيخ مصطفى الأنباى والشيخ محمد كساب ويوسف رزق وعبد الشهيد بطرس وغيرهم . . ويبدأ الصراع بين الخديو وباشوات الشعب ومثليه وطالب المجلس بالاشراف على مالية البلاد . . وأخرج نوبار باشا رئيس الوزراء . . وفى النهاية حل المجلس فى جلسة ١٩ مارس سنة ١٨٧٩ . . وسنورد هنا مقتطفات مما دار من المناقشات فى هذه الجلسة الحاسمة بين مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء وقادة الشعب . . ومنهم سيكون الباشوات الجدد :

رياض باشا : أبدى لكم كامل الشكر والثناء على ما أبدىتموه من الهمم والمسامحة الخيرية التى من اللزوم أن نكون فيها كرجل واحد . .

محمد افندى راضى : (عمدة بلدة القسط وهو من نواب بنى سويف) يحتج على إنهاء دورة المجلس ويقول : والأمر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس انتهت مدته مع أنها ما انتهت . . وحاصل الأمر أنه لابد من عودة المجلس بعد المدة التى قررها لأجل رؤية تلك المسائل والملحوظات . .

عبد السلام المويلحى (باشا) : إن المجلس طالب بعدم قطع أمر فى أى شىء كان إلا باشتراكه . . وأن بعض الأعضاء يقول إنه إذا كان يحصل ذلك ربما يحصل من الأهالى أمور لا يصح وقوعها . . ويكون مجلس النظار تحت المسئولية . .

رياض باشا : ما قلتموه الآن بخلاف لائحة المجلس والجارى لحد تاريخه . . ولا يمكننى أن أجاب على ذلك منفردا . . إنما ينظر فيه مجلس النظار والمأمول ألا يحصل شىء من الأهالى مما يكدر الراحة . .

عبد السلام المويلحى : المجلس لاثحته أن ينظر فى المنافع الداخلية والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائصه ينظر فيها ويعطى قرارات تعرض للحضرة الخديوية . .

ويصر رياض باشا على فض الدورة ويشكر أعضاء المجلس . . محمد افندى راضى : شكر سعادتكم مقبول . . ولكن لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر فى المسائل التى حرر عنها . . وفى الميزانية . .

وبعد قليل يقول عبد السلام المويلحي - وكان زعيم المعارضة المصرية لاستبداد الأتراك والأجانب بما فيهم الخديو والباشوات : من ضمن ما قلتموه سعادتكم أن أهالي مصر همج . . وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال في الجرائيل . . مع أنه لا يصح نسبة جميع الأهالي لهذه الحالة التي لا تليق . .

رياض باشا : الذي صار التنبيه على كتاب الجرائيل عنه هو ما يتعلق بالأمور التي لا تعلق لها بالقطر مثل أن الجورنالجي يكتب عبارة من الوارد بجرائيل الأوروباويين . . مع أن أولئك لهم قواعد وقوانين غير قواعد وقوانين بلدنا . . ويدرجون أشياء مما يخدش أذهان العامة الذين لا يمكنهم التصرف في مثل هذه الأفكار . .

محمد افندي راضى : لا نتوجه لطرق الاعتاب إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه وأجيب طلباته . . وها نحن أولاء منتظرون الجواب الذي يرد من ذلك . . وهذه العبارة تذكرنا بالعبارة التي تنسب إلى دانتون التي قال فيها : نحن هنا باسم الأمة . . ولن نبرح أماكننا إلا على أسنة الخراب . .

إذن فقد رفض أعضاء المجلس حل الدورة إلا إذا أجيب مطالب الشعب . . وظهر بوضوح أن وزارة باشوات الترك والشركس مصممة على فض دورة المجلس بعد خمسة أيام من انعقادها . . وبالفعل استصدرت قرارا بحله بإيعاز من المراقبين الانجليزى مستر ريفرس ويلسون . . والفرنسى المسيو ديلنيير وكانا وزيرين في وزارة رياض باشا . .

وعقد أحرار المصريين اجتماعا في دار السيد على البكرى واعتبروا أنفسهم جمعية وطنية كان ذلك سنة ١٨٧٩ . . وتلك هي مقدمات الثورة العربية . . لقد دخل الباشوات المصريون ولن يخرجوا . .





أحمد عرابي

٣) نهاية عصر الباشوات



محمود سامي البارودي

في الماضي كانوا يقولون لنا إن الفضل في وصول المصريين إلى الرتب العسكرية العالية ودخولهم عالم الباشوات في القرن الماضي يرجع إلى الخديو محمد سعيد بن محمد علي (١٨٥٦ - ١٨٦٣) لأنه كان يحب الفلاحين ويعطف عليهم . . هذا غير صحيح : لأن اقتحام المصريين عالم الرتب العالية والباشوية كان جزءا من تطور عام شمل البلاد . . فقد زاد السكان من ٢,٥ مليون أيام محمد علي إلى ٤,٥ مليون أيام سعيد . . وتضاعف حجم التجارة ست مرات . . وتضاعف حجم الأراضي الزراعية من مليون فدان إلى ٤ مليون فدان .

وليس من المعقول أن يحصل كل هذا التطور ثم يظل السلطان كله والخير كله في يد الخديو وعدد من الباشوات حوله لا يزيدون على ألف . . كلهم من الترك أو الشركس أو الأرناؤوط أو الروم (باشوات أترك أصلهم من بلاد اليونان وجزائرها وبلاد البلقان) . .

والمصري بطبعه ذكي ونشيط ثم أنه هو الذي يزرع الأرض . . وهو الذي يسيطر عليها عن طريق العمدة ومشايخ القرى ونظار الزراعة والخولية . . وقد رأينا في الفصل الماضي كيف اقتحم العمدة ومشايخ القرى عالم الغنى والأملك الواسعة وعندما نذكر ذلك كله نرى أن دخول المصريين عالم القوى والسلطة والباشوية كان أمرا لا مفر منه . . وقيام مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ كان في الظاهر بإيعاز من إسماعيل باشا لأسباب شخصية خاصة به . . ولكنه كان جزءا من التطور العام . . وتطور مجلس شورى النواب ومطالبة رجاله المصريين بحق الرقابة على الميزانية كان ظاهرة تاريخية طبيعية . . فقد جاء الوقت ليملك المصريون زمام الأمور في بلادهم ويخرجوا باشوات الأجانب من الميدان .

وقد ختمنا الفصل الماضي بطرف من المناقشة بين عبد السلام المويلحي ومحمد راضى - وكانا يتحدثان باسم المصريين - ومصطفى رياض ممثل الارستقراطية غير المصرية ورأينا كيف كان موقف رياض باشا سخيها وسفيها ووقحا . . فقد كان يقول إن أهل مصر همج . . وليس فيهم عشرة يفهمون ما يقال في الجرائل . .

وفي نهاية الحديث يقول محمد بك راضى وهو عمدة القسط ومن نواب بنى سويف عبارة هي في ذاتها ثورة على حكومة الاستبداد . . وهي إعلان لميلاد العصر الجديد . . فقد كان من المفروض بعد أن أعلن مصطفى رياض باشا نهاية الدورة البرلمانية أن يتوجه النواب لشكر الخديو . . قال محمد راضى : لا نتوجه لطرق الاعتبار إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه وأجيبته طلباته . .

وها نحن منتظرون الجواب الذى يرد عن ذلك (الرافعى عصر إسماعيل ١٨٠/٢) . .

كان ذلك سنة ١٨٧٨ وكان إرهابا بقيام الحركة العربية . . فان الباشوات المصريين كانوا قد اقتحموا الميدان يتقدمهم أحمد عرابى وعلى فهمى الديب وعبد العال حلمى . . وكان الخديو إسماعيل قد أغرق مصر فى الديون . . والديون أدت إلى التدخل الأجنبى . . واشترك وزيران أجنبيان : واحد انجليزى وآخر فرنسى فى الوزارة . . وعندما قامت الحركة الوطنية التى ولدت فى مجلس شورى النواب انتقلت القيادة فى البلاد إلى المصريين .

وفى صراعه مع دائنيه الأوربيين حاول إسماعيل أن يستعين بالمصريين . . وهذا فى ذاته أخاف الأجانب . . لأن معظم الديون كانت غشا وتزويرا وسرقة . . فإذا أشرف مجلس النواب على الميزانية كان من حقه الإشراف على الديون وفحصها والتحقيق فى مبالغها الحقيقية وأسعار فوائدها . . أى إن شكل الصراع سيتغير . . ويصبح صراعا بين الوطنيين والأجانب . . وهذا ما كانت تخشاه أوروبا . . ولهذا سارعت بالعمل على عزل إسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق . . وقد تم هذا فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ . .

وانتقل الصراع من معركة بين المصريين والخديو وباشواته إلى معركة بين الأجانب والمصريين . . والأجانب هنا جبهة واحدة تشمل الخديو وحاشيته وباشواته والخوارج ما بين قناصل وتجار ووكلاء شركات وأصحاب بنوك فى مصر ويمثل بنوك فى أوروبا . . ويحيط بهؤلاء عدد هائل من اللصوص والنصابين والمحتالين وتجار الخمر والقوادين والعاهرات من الأجنبيات . . ومعظم هؤلاء وأولئك كانوا جواسيس للدول أو للخديو أو السلطان العثمانى .

ومصر فى ذلك الحين كانت سوقا رهيبية وميدانا للمعركة تستحل فيها كل أساليب الصراع المالى والسياسى الدموى أيضا . وكان البلد غنيا فإن مساحة الأرض المزروعة بلغت خمسة ملايين فدان . وهذه الفدادين تزرع قطنا وقمحاً وأرزاً وقصب سكر وكتانا وكل هذه كانت تصدر عن طريق العملاء الأجانب . والمصريون كانوا خمسة ملايين ولكنهم فى مجموعهم لم يكونوا يسيطرون إلا على جزء من خمسين من ثروة بلادهم فقد كان هناك ٥, ٤ مليون فلاح متوسط دخل الواحد منهم فى السنة لا يزيد على خمسة جنيهات مجيدة وكان المعروف أن المصرى لا يأكل إلا خبز الذرة والخبز والملوحة والبصل . . ولا يلبس إلا جلبابا واحدا طول حياته . جلبابا من البفته وهى كلمة إيطالية مصرية ومعناها نسيج القطن الردىء . .

وكان المصريون يعرفونها بالنسيج أو النيلة وهو صبغ مصرى يستخرج من نبات مصرى كان يزرع فى الواحات . . والسبب فى صباغته هو الرغبة فى إخفاء قذارته إذا اتسخ . . لأن اللون الأبيض تظهر فيه كل الأوساخ . . وأدخل الانجليز نوع قماش القطن المسمى

بالشيت وهى كلمة انجليزية ومعناها الصحيفة الرقيقة من الورق أو القطن أو المعدن والمفروض أن الشيت كان أرخص أنواع قماش القطن مثله فى ذلك مثل البفته . . باسم هؤلاء المظلومين وقف عرابي وإخوانه يتحدثون . . ولكن من الحق أن نقرر أنهم كانوا أقل من الموقف . . وهذا هو الطبيعي لأن المعركة كانت قاسية جدا وخصوصا المصريين كانوا بلا عدد أو رحمة أو إنسانية . . ولم يكن فى الباشوات المصريين الجدد رجل صلب حقيقة إلا أحمد عرابي باشا . . أما عبد العال حلمي وعلى فهمي الديب فكان فيهما ضعف شديد . . وبقية باشوات الحركة الوطنية كانوا قلقين غير مستقرين . . وكان اهتمام معظمهم موجهها إلى مصالح أنفسهم دون مصالح الوطن . . ومن أمثلة ذلك موقف محمود سامي البارودي باشا وهو الشاعر المعروف وأصله شركسي . . ولكنه انضم للحركة المصرية وكسب منها . . ولكنه من البداية أبدى استعدادا للتخلي عنها .

وعندما استقالت وزارة شريف باشا احتجاجا على التدخل الأجنبي فى أغسطس ١٨٧٩ اتفق أعضاؤها على ألا يشتركوا فى وزارة تعارض المصالح القومية . . وثبتوا على ذلك إلا محمود سامي البارودي ومصطفى فهمي . . فقد دخلا الوزارة التى ألفها الخديو توفيق برئاسته . . ومثل هذا التخلي عن مصالح الشعب كثير فى تاريخ الباشوات المصريين فإن الأديب المعروف محمد حسين هيكل باشا لم يصل إلى الوزارة إلا عن طريق السراى والانجليز . . واشترك فى حكومات كثيرة أذلت الشعب وتنكرت لحقوقه . . وهذه حقائق لا بد أن نعرفها . . ولا بد أن نقولها لأننا نكتب هذه الدراسات لنكشف الغشاوات والأوهام عن عقول الناس . . ولا ينفذ الأمم إلا الحق . . والحق مر ولكن كل شيء له قيمة فى الحياة لا نصل إليه إلا عن طريق مرارة الصراع وأخطاره . . ومن أكبر عيوبنا أننا نغفل عن هذه الحقيقة . . ونصر دائما على أن نحصل على حلوة الحياة دون مرارتها . . والنتيجة أننا لا نحصل إلا على المرارة وهذا هو الطبيعي . . ولو تحملنا مرارة الحياة لحصلنا على حلوتها . . وعندما ننظر إلى خريطة الأرض ونرى الروس يملكون وطنا يمتد من حوض الدنير إلى المحيط الهادى ينبغى أن نذكر أنهم فتحوا هذه الأراضى وعمروها ومات منهم فى سبيل ذلك ملايين . . ومثل ذلك يقال عن الأمريكيين أصحاب الولايات المتحدة فقد اقتحموا الفيافي والقفار وأصروا على الوصول إلى ساحل المحيط الهادى فى ملحمة مغامرات وخطرات مهما قلنا فيها فهي ملحمة بطولة . . وفى رواية أمريكية مشهورة اسمها المجد الشمالى الغربى عبارة عظيمة قالها قائد فريق من الذين قاموا بالتوسع الأمريكى ناحية الغرب ، فقد كانت أراضى أمريكا محددة بجمال الليجاني ، وأرادوا اقتحامها إلى الغرب عن طريق ممر شمالى غربى ، فتردد بعض الجنود فى الاقتحام فقال لهم القائد : سنقتحم ولو مات نصفنا ، وسأل أحد الجنود : ولماذا يموت نصفنا ؟ فكان الرد : ليصل النصف الآخر

إلى المحيط ، فقارن ذلك بوقوفنا بحدودنا عند الشلالات جنوب أسوان ولو أننا سرنا على سياسة المصريين القدماء واقتحمنا لكننا اليوم دولة عالمية كبرى . ونحن هنا لا نعقب على على مبارك ولكننا نقرر حقيقة وإذا كان على مبارك لم يستطع الصمود في الصراع الوطني ومال إلى الانضمام إلى جانب الخديو فهذا طبعه ولا حيلة لنا فيه . . ولا نستطيع أن نلوم الناس لأنهم ليسوا بشجعان فإن الشجاعة صفة قد تكون في الإنسان أو لا تكون .

ومنذ بداية الحركة العربية نجد الباشوات الأجانب يقفون كتلة واحدة ضد الباشوات المصريين . وعلى رأس الباشوات غير المصريين يقف الخديو توفيق ومصطفى رياض باشا ، وخلفهما كل المصالح الأجنبية . وعلى رأس الباشوات المصريين كان يقف أحمد عرابي يؤيده بإخلاص عدد قليل من الشبان لم يكن فيهم من الباشوات أحد ولكن كان فيهم بكوات يعدون من مفاخر تاريخ مصر . . أشهرهم محمد عبيد وكان بكباشيا أى مقدا . . وقد ظل كذلك حتى استشهد في سبيل مصر في معركة التل الكبير . .

أما محمد شريف باشا فقد كان رجلا حرا شجاعا شهيا . . ولكنه كان تركيا متمصرا وقد ناصر الحرية والدستور بكل بسالة وصدق حتى توفي بعد الاحتلال في مدينة جرانز في ألمانيا . وهو خليف بأن يعد في الباشوات المصريين .

وعندما نقرأ تفاصيل الحركة العربية نشعر بالحزن لحالة عرابي ومصيره . لأن الرجل كان يحارب وحده تقريبا . . وكان معظم الباقي خصومه حتى الامام محمد عبده . . فقد كان خصما صريحا لأحمد عرابي . . وله فيه آراء سيئة جدا . . وهو يقول إنه كان جاهلا مغرورا . . وعرابي لم يكن جاهلا قط وإذا كانت ثقافته محدودة فإن شعوره كان شعور مصري حر باسل . . وهذا لا يمنع من القول بأن المركز الذي وصل إليه أثر في نفسه فمال إلى الغنى والاستبداد . . وهذا معقول وطبيعي فإن الرجل الذي كان قائم مقام مجهولا سنة ١٨٧٠ وجد نفسه سنة ١٨٨٠ على رأس حركة قومية فريدة من نوعها في ذلك العصر . .

فقد كانت أفريقيا وآسيا كلها مستعمرات . ولكن البلد الوحيد الذي وقف ضد السيطرة الأوروبية واستبداد الحكام الخونة الظالمين كان مصر .

والثورة العربية لم تكن في نظر أوروبا ثورة محلية مصرية بل كانت بداية التمرد العالمي على السلطان الاستعماري كله . . ولهذا وقف الأوروبيون جميعا ضد الثورة العربية . . بل كان القنصل الألماني في مصر من أشد الناس كراهة لعرابي ومن أعنف الداعين إلى القضاء عليه . . بل كان هناك في الجيش المصري جنرال أمريكي يسمى شاييه لونج . . وكان المفروض أن يقف بعواطفه مع المصريين . . وكنا ننتظر منه أن يقف على الحياد على

الأقل . . ولكن شابه لونج الأمريكى كان من أكبر المطالبين بإعدام عرابى وأصحابه . . وهذا طبيعى لأنه وإن كان أمريكيا فإنه جزء من الرأسمالية الغربية التى كانت تخاف الثورة العربية .

وأمثال شابه لونج من الأمريكين كانوا أعداء الحركات القومية فى المكسيك وأمريكا الوسطى والجنوبية . . وقد قال احد رجال الحرية المكسيكيين عبارته المشهورة يرحم الله المكسيك . . وما أبعدنا عن رحمة الله وما أقربها من الولايات المتحدة . .

ومهما حدث من عرابى فنحن نعلمه . . ويكفيه موقفه فى يوم عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ . . لأن الذى فعله الناس معه فى ذلك اليوم لا يوصف إلا بأنه مأساة حتى زميلاه عبد العال حلمى وعلى فهمى أرادا التهرب والمسكين صعد إلى القلعة مرتين لكى يجمع إخوانه لأن اليوم كان عسيرا . وكان شعب مصر يعود إذ ذاك إلى مسرح التاريخ وقيادة بلده بعد غيبة مئات السنين . . وعرابى واجه فى ذلك اليوم الحاكم الأجنبى المستبد وأوروبا كلها متمثلة فى القناصل . . وفى وجه هذا كله وقف هذا الباشا الفلاح الباسل وهو - لهذا وحده - يستحق كل تمجيد مهما صدر عنه بعد ذلك . .

وعرابى خاض المعركة وانهمز . . ولم يكن له مفر من الهزيمة . . ولكن هذه الهزيمة . . كانت بداية النصر . . وما وصلنا إليه فى حرب ٦ أكتوبر بدأ عند أحمد عرابى وهو كبير الجليل الأول من الباشوات المصريين . .

خسر الباشوات المصريون معركتهم الأولى . . وعاد الخديو توفيق تؤيده قوات الاحتلال سنة ١٨٨٢ وألف الخديو وزارة جديدة من الباشوات غير المصريين : شريف باشا للرياسة والخارجية . . ومصطفى رياض باشا للداخلية وعمر لطفى باشا للحرية والبحرية . . وعلى حيدر باشا للمالية . . وعلى مبارك باشا للأشغال . . وأحمد خيرى باشا للمعارف . . وحسين فخري باشا للحقانية . . ومحمد زكى باشا للأوقاف . . ويعيننا هنا على مبارك باشا . . فهو باشا فلاح من المشتغلين بالعلم والتاريخ . . ولكنه دخل فى زمرة باشوات الترك ورفض أن يكون مناضلا فى سبيل وطنه . . وحتى عندما ندبته الجمعية الوطنية المصرية لإبلاغ رغبتها فى الاستمرار فى الجهاد ضد الخديو تخلى عنها وانضم إلى الخديو . .

وعين الخديو - رأس الباشوات الأجانب المنتصرين - باشوات من الترك مديرين للمديريات . . بل عزل الشيخ محمد الامباى شيخ الأزهر الذى اختاره العرابيون . . وأعيد الشيخ محمد العباسى رجل السراى إلى مشيخة الأزهر . .

وهنا وبعد هزيمة المصريين يتقدم نفر من كانوا مع عرابى فى الثورة إلى رياض باشا يعرضون تقديم هدايا وشكر لقواد جيش الاحتلال سيمور وولسلى ودرورى لو : وهكذا كانت الهزيمة كاملة . . فهؤلاء الناس لم يكتفوا بالهزيمة بل أضافوا إليها ذل النفس . . وهل هناك أذل لنفسك من أن تشكر خصم بلادك على العدوان عليها ؟ هذا ما فعله محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب الأسبق ومحمد بك الشواربى (كوفىء على ذلك بالباشوية) وعبد الشهيد افندى بطرس وعبد السلام المويلحى بك (كوفىء على ذلك بالباشوية) ومحمود بك سليمان والد محمد محمود باشا (كوفىء على ذلك بالباشوية) وأحمد بك السيوفى (كوفىء على ذلك بالباشوية) ولماذا فعل أولئك الناس ذلك ؟

محافظة على الأموال والأموال

فإن هؤلاء الناس جميعا حصلوا بفضل الحركة الوطنية على عقارات كثيرة قبيل الثورة وأثناءها . . فخافوا عليها وأسرعوا يركعون أمام العدو وحفاظا على المال . . وقدما قالوا أذل الحرص أعناق الرجال . .

ولماذا نذكر هنا هذه الحادثة ؟ . .

لكى يتعظ المصريون ويعرف ضعفاء النفوس منهم أن كل ما نفعله محسوب علينا . . الحقائق لا تخفى إلى الأبد والحقائق لا بد أن تظهر . وفى بقية تاريخ الباشوات سنرى بعد ثورة ١٩١٩ من حقارات أعمال بعض الباشوات ما يندى له الجبين . . ونحن نريد أن ينتهى ذلك إلى الأبد . . لأن مصر ينبغى ألا تقع فى أخطاء الماضى مرة أخرى فليست هناك مرة أخرى . .

وبعد الاحتلال فى سبتمبر ١٨٨٢ صنع الخديو والانجليز عشرات الباشوات أعطوهم الألقاب والأراضى والوظائف . . وعلى رقاب هؤلاء تسلطن عباس حلمى الثانى . . وحسين كامل . . وأحمد فؤاد . . إثنان من هؤلاء كانا لصين بكل معانى الكلمة عباس حلمى كان لصاً حقيراً ونشالاً . . وأحمد فؤاد كان قاطع طريق . .

وقامت ثورة ١٩١٩ يقودها باشا من الفلاحين المصريين هو سعد زغلول وجدير بالذكر أن الاثنين الآخرين اللذين رافقاه إلى دار المندوب السامى البريطانى وهما عبد العزيز فهمى باشا . . وعلى شعراوى باشا . . كانا من أحسن الباشوات الفلاحين (إلى ذلك الحين لم يكونا قد وصلا إلى الباشوية) .

ويظهر سعد زغلول وتأليف الوفد المصرى للمفاوضات تبدأ فى دخول الميدان أجيال جديدة من الباشوات المصريين .. الوفد الأول تكون من اثنين من الباشوات : سعد زغلول ومحمد محمود .. وثلاثة من البكوات هم : عبد العزيز فهمى بك .. وأحمد لطفى السيد بك .. وعبد اللطيف المكباتى بك .. والاثنان الأولان من هؤلاء سيصبحان باشوات .. ثم ضم الوفد إلى عضويته مصطفى النحاس .. وحافظ عفيفى .. وهذان سيصبحان باشوات .. ثم حمد الباسل باشا .. وإسماعيل صدقى باشا .. ومحمود أبو النصر (باشا) وسينوت حنا وجورج خياط .. وواصف غالى . وحسين واصف باشا وعبد الخالق مذكور باشا ..

وفى أثناء المناقشات حول موضوع من يمثل الأمة وقع الخلاف بين سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وعدلى يكن باشا وكيل الجمعية المعين ..

وعاد الصراع بين الباشوات القدامى .. ويمثلهم عدلى يكن .. والباشوات المصريين ويمثلهم سعد زغلول ..

وعدلى يكن كان دون شك من عظماء رجال الحركة الوطنية المصرية بالدور الجليل الذى قام به .. وبأخلاقه الرفيعة ونزاهته .. ولكنه يمثل باشوات الأتراك بموقفه العام إلى جانب السراى .. وبأسلوبه فى العمل فهو تركى من فرع أنسباء البيت الحاكم من اليكنية ..

وحول عدلى يكن تألف حزب الأحرار الدستوريين المناهض للوفد .. وموقفه العام حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كان إلى جانب الانجليز والسراى .. وكلما انفصلت عن الوفد جماعة انضمت رغماً عنها إلى صف باشوات السراى .. ثم ظهرت بدعة المستقلين .. وهم جماعة من المستورين وجدوا أن الأحسن لهم أن يقفوا منفردين فى سوق الوزراء لكى تأخذ منهم السراى والانجليز من يكملون به الوزارات أويؤلفون وزارات .. ثم ألقت السراى حزب الاتحاد من باشوات السراى .. ثم جاء صدقى باشا وألف حزب الشعب منهم أيضاً ..

والصراع الطويل الذى خاضته مصر من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ أخذ فى الواقع صورة صراع بين باشوات الفلاحين وباشوات الأتراك .. وليس من الضرورى أن يكون باشوات الوفد جميعاً فلاحين وباشوات الأتراك أتراكاً أو شركاسة .. بل المهم هنا هو الموقف والاتجاه والسلوك .. فهناك باشوات شعبيون يقفون مع الناس ويعيشون مع الناس .. وهناك باشوات أرستقراطيون لا يختلطون بالناس قط مع أنهم فلاحون أولاد فلاحين ..

وليس من الضرورى أن يكون باشوات الفلاحين أفضل من باشوات الأتراك .. لأن

المعسكرين حفلا بالأفاضل وغير الأفاضل . . بالوطنين والأنايين . . ومثال ذلك أننا كنا قبل الثورة نتندر بحلمى عيسى باشا الذى تولى وزارة المعارف مرارا كثيرة . . وتولى الحقانية والأشغال والأوقاف . . وبلغت السخرية منه أن صحف الوفد كانت لا تسميه إلا حلمى عيسى يصل باشا . . ثم انقضت أيام الباشوات بمجىء ثورة ١٩٥٢ وحضرنا اجتماع الجمعية المصرية التاريخية فإذا حلمى عيسى باشا عضو معنا يحضر الجلسات والمحاضرات وتدور بيننا وبينه الأحاديث وإذا بنا أمام رجل عالم لطيف . . يطلب العلم . . ويشاركنا أحاسيسنا . .

ولكن جمهور المصريين ظلوا يرون أن باشوات النحاس باشا هم باشوات الشعب . . ومن عداهم فليسوا من باشوات الشعب . . حتى أحمد ماهر والنقراشى بعد خروجهما على النحاس وتأليفهما الحزب السعدى أصبح الناس ينظرون إليهما على أنهما من باشوات السراى . . ونسى الناس لهما جهادهما الطويل . . وبالفعل كان أحمد ماهر والنقراشى . . قد دخلا فى زمرة باشوات السراى . . وقد تأكدنا من هذه بعد قراءة مذكرات حسن يوسف باشا . .

وهناك طائفة أخرى من الباشوات وصلت إلى القوة والشهرة عن طريق الكفاءة الشخصية . طلعت حرب باشا عن طريق الاقتصاد . . وعلى إبراهيم باشا عن طريق الطب . . ومصطفى مشرفة عن طريق العلم . . وأحمد عبود باشا عن طريق الصناعة . . والبدر اوى عاشور باشا . . والمنشاوى باشا والشيشينى عن طريق الزراعة ومحمد فرغلى عن طريق تصدير القطن وهكذا . .

وسواء أكان الباشا من باشوات الوفد أو السراى أو المستقلين فقد كانت أمور مصر كلها بيد الباشوات . . فالباشوات هم أهل الحكم وأهل المال وأهل القصر والحياة . .

ومع مضى الزمن تحول الباشوات جميعا مصريين وغير مصريين إلى أغنياء أصحاب أملاك وأموال ولوفى الظاهر على الأقل . . وكانت الوزارة طريقاً سلطانياً للغننى . . فالرجل منهم قد يملك خمسين فداناً مثلاً فإذا دخل الوزارة أصبحت مائة . . لأنه يشتري أراضي رخيصة ويسخر الفلاحين ورجال الدولة فى العناية بها فتصبح أرضاً جيدة . . وتصبح مائتين ثم ثلاثمائة وهكذا وهذه كلها كانت تزرع أحسن زراعة . . وتغل محصولاً عظيماً يبيعه الباشا إلى الخواجات . .

ومن بين هؤلاء الباشوات فئة تميزت بعلاقاتها الوثيقة مع الخواجات من أمثال إسماعيل صدقى باشا . . وحسن نشأت باشا وأمين يحيى باشا ومحمد فرغلى . . وقد اشتهر

صدقى باشا بأنه اقتصادى عظيم . . ولكنه كان عدوا لدودا للشعب . . والإهانات التى لحقت بالمصريين على يد صدقى وأحمد زيوار وتوفيق نسيم ويحىى إبراهيم وعبد الفتاح يحىى وأضرابهم لا تتصور وهؤلاء جميعهم كانوا يعملون باتفاق تام مع السراى والانجليز والخواجات . .

ولكن الباشوات جميعهم - باوشوات الوفد وغير الوفد والباشوات المستقلين وباشوات الأراضى كانوا فى مجموعهم طبقة واحدة من أهل القصور والسرايات والسيارات والخدم والحشم . . وأيا كان المعسكر الذى يقفون فيه فقد كانوا جميعاً يؤلفون قيادة المؤسسة أو « الاستابلشمنت » . . والاستابلشمنت مصطلح يطلق على كل العناصر القائدة لآى مجتمع سواء أكانت متعاونة فيما بينها أو غير متعاونة . . فالباشا الوفدى أيا كانت درجة تشدده متعاون ضمناً مع الباشا غير الوفدى . . ومتعاون مع السراى والانجليز والخواجات بصورة غير مباشرة . . لأن الباشوية تفرض على صاحبها مستوى معيناً من الحياة وطريقة متميزة بنفسها من التصرف . . فالمظهر عندهم مهم جداً ولا غنى لآى باشا عن الفيلا والسيارة والعزبة . . وعائلات الباشوات عائلات أرستقراطية . . وقد يكون الباشا رجلاً متواضعاً متبسّطاً . . ولكن السيدة حرم الباشا لا بد أن تكون هاغماً عظيمة ذات مظهر عظيم وجاه وشمخة . . وبنات الباشوات دائماً هوانم صغيرات متعلّقات فى المدارس الفرنسية . . وهؤلاء جميعاً لا يختلطون بالناس . . وكل قصور الزمالك وجاردن سيقى والمعادى وبعض مصر الجديدة وخط الزيتون والمرج ومحطات الرمل بالاسكندرية من استانلى وجليم فصاعداً كانت أحياء مقصورة على أفراد « الاستابلشمنت » وهم إما باشوات وإما بكوات فى الطريق إلى الباشوية وإما خواجات . .

وكان اقتصاد مصر كله بيد الخواجات وشركائهم من الباشوات . . قبل الثورة لم يكن من الممكن أن يعمل إنسان فى الاقتصاد أو التجارة الكبيرة أو الاستيراد والتصدير أو زراعة المستوى العالى : البساتين والقطن إلا إذا كان من الخواجات وأصحابهم من الباشوات ومن فى مستواهم . . وكل هؤلاء كانوا يتعاونون مع البنوك ويشترون فى مجالس إدارة البنوك . . وكلها فيها عدا بنك مصر كانت بنوكاً أجنبية . . والباشوات فى مجالس إداراتها كانوا أعضاء صامتين . . أو كمالة عدد . . وفى مجلس إدارة كل بنك أو شركة - حتى قناة السويس - كان هناك أعضاء من الباشوات وظيفتهم أن يقعدوا ساكتين . .

وكان من الواضح أن عالم الباشوات أيا كان طرازهم كان مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بالسراى والانجليز . والخواجات كلهم هيئة واحدة حاكمة . . تملك مصائر البلاد وكل خير فيها . . والعصر كان عصر الباشوات . . وكان من الواضح كذلك أن الملكية إذا

سقطت سقط معها الانجليز والباشوات والخواجات لأن « الاستابلشمنت » أى التركية الحاكمة فى أى بلد أيا كانت صراعاتها فيما بين بعضها وبعض ينتهى بها الأمر بأن تكون كتلة واحدة متماسكة متعاونة دون أن تدري .

وهذا التساند بين جماعة الباشوات من كل الأحزاب مضافاً إليهم المستقلون والسراى والانجليز والخواجات هو الذى قاد التركية أو الاستابلشمنت إلى عقد معاهدة ١٩٣٦ فإن كل عناصر الاستابلشمنت كانت قد تعبت واستهلكت : تعب النحاس باشا ووفده ، وتعبت السراى ورجالها . وتعبت الإنجليز وهم يرون الجو السياسى فى العالم يتلبد بالغيوم . . وأصبحوا فى حاجة إلى الاتفاق مع مصر . . وخاف الخواجات على أموالهم ومصالحهم بسبب التزعزع الهائل الذى شمل التركية كلها . . وخاصة عندما قامت وزارة النقراشى باشا بفصل الجنيه المصرى عن الجنيه الإنجليزى وبدأ سعره فى السوق يهتز . . عقدت معاهدة ١٩٣٦ وتمت تصفية كل القوى العاملة فى الميدان . . ولم تعد لها وظيفة لأن عالم ما بعد معاهدة ١٩٣٦ كان جديداً . . وله مطالب وبرامج إصلاحية داخلية لم يستعد لها حزب من الأحزاب بما فى ذلك الوفد . . وبعد معاهدة ١٩٣٦ مباشرة عقدت اتفاقية مونترو وانتهت الامتيازات الأجنبية . . وظهر بوضوح أن عالم الخواجات أيضاً يقترب من نهايته . .

وفى الفترة من ١٩٣٦ إلى يوليو ١٩٥٢ ظهر بجلاء أن كل القوى العاملة فى الميدان السياسى قد استهلكت . . والفراغ السياسى أصبح واسعاً . . ورشح الإخوان المسلمون أنفسهم لسد الفراغ . . وبدأ الصراع بينهم وبين الاستابلشمنت . .

وخلال سنتى ١٩٥١ و ١٩٥٢ ظهر بوضوح أن عالم الباشوات قد انتهى وأصبحوا عاجزين عن السيطرة على الأمور وقيادة المجتمع . . وحزب الوفد - والمفروض أنه حزب الجماهير أصبح حزب باشوات . . واتحد مع بقية الباشوات ومع السراى ، وإن ظل النحاس باشا يقول إنه زعيم الشعب . .

ومن بداية ١٩٥٢ ظهر تززعع التركية كلها . . وحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير كان نذيراً خطيراً وكان إنذاراً بيوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . وفى الفرنسية اصطلاح نصه - de chance d'un regime. إفلاس نظام . . فيظل النظام قائماً . . ولكنه خاوم من الداخل . . وقد فقد كل قوته وفاعليته . . وفقد ثقة الناس واحترامهم وتقديرهم . . واصبح سخرية .

هذه بالضبط كانت صورة عالم الباشوات قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢ ولابن خلدون هنا تعبير جميل أحب أن أختتم به هذا الفصل من تلك الدراسة فهو يقول : وتبقى الدولة قائمة بالوهم وقلة المطالب . . (بضم الميم) وهذا التعبير ينطبق تمام الانطباق على عصر الباشوات وكل الاستابلشمنت الذي كانوا جزءا منه . .





الملك فاروق

٤) خرج الباشوات ودخل السنويز باشوات



جمال عبد الناصر

قبل أن أترك عصر الباشوات وأدخل في عصر السوبر باشوات وباشوات السوبر . . أقف وقفة قصيرة لألقى نظرة على نظام الباشوات في مجموعه . . لنرى ما له وما عليه . . فيم أفاد ؟ لماذا عاش ؟ ولماذا مات ؟

ولد نظام الباشوات في مصر كما قلنا مع قيام دولة محمد علي باشا سنة ١٨٠٥م . . وكان كما رأينا نظاما تركيا امتد إلى مصر كما امتد إلى العراق والشام والسودان وبعض نواحي المغرب . . وكان الباشوات في مصر أتراكا وشركسا وأكرادا وروما ومغاربة - أى أجنب - أول الأمر . . وابتداء من عصر الخديو سعيد بدأ الباشوات المصريون في الظهور ثم زاد عددهم وأصبحوا طبقة مع بقية الباشوات من السادة من أيام إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) . .

ومنذ قيام مجلس شورى النواب (١٨٦٦) بدأنا نرى الباشوات الوطنيين أى الذين يتحدثون باسم الوطن ويقودون الحركة القومية . . ووقع الصراع الطويل بين الباشوات الأجانب في ناحية والباشوات المصريين والوطنيين في ناحية أخرى . . وهو صراع استمر متعادلا حتى نهاية أيام الملك فؤاد . . ثم رجحت كفة الباشوات المصريين ولم يعد في الميدان سواهم في أيام فاروق . . ولكن الباشوات في مجموعهم كانوا قد أصبحوا طبقة واحدة لا فرق فيها بين الباشوات الأجانب والباشوات المصريين . . وهذه الطبقة كانت العمود الفقري للاستابليشمنت (أى التركيبة السياسية والاجتماعية القائمة قبل الثورة) .

فلاحظ بصورة عامة أن طبقة الباشوات ولدت في مصر حاشية ملوكية . . وعاشت عمرها كله حاشية ملوكية . . حتى الباشوات الوطنيون الذين ظهروا ظهورا عظيما وتولوا قيادة الشعب من أيام مجلس شورى النواب من ١٨٦٦ ثم أيام الحركة العربية ابتداء من سنة ١٨٧٩ . . ثم قادوا ثورة ١٩١٩ حتى هؤلاء انتهوا آخر الأمر بأن أصبحوا حاشية ملوكية . . حتى عبد العزيز فهمى ومكرم عبيد وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين . . وكل الباشوات الزراعيين (البدرأوى عاشور والشبكشى ومحمد هاشم ومن إليهم) والباشوات الاقتصاديين (طلعت حرب وإسماعيل صدقى وحسن مظلوم وأمين يحيى وأحمد عبود ومن في طبقتهم) . . كل هؤلاء أصبحوا في النهاية جزءا من النظام الملكى القائم وحاشية ملوكية رغم ما كان بينهم من خصومات وحزبيات وصراعات وهم أيضا مرتبطون بالسفارة البريطانية ارتباطا وثيقا . . فالملك ينقل الحكم من طائفة من الباشوات إلى طائفة . . وعندما تسقط وزارة وتقوم وزارة يذهب الجميع ليقعوا في دفتر التشريفات . . والملك لا يستطيع أن يعهد إلى أحد في تأليف وزارة إلا بإذن الانجليز . . وعندما أراد فاروق أن يتجاهل حق الانجليز في هذه الناحية لطموه

على وجهه . . وأرغموه على قبول الرئيس الذى أرادوه وهو مصطفى النحاس فى حادث ٤ فبراير المشهور . .

ومن الغريب أن بعض المصريين استنكروا ما حدث يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ مع أنهم يعرفون أنه كان لا يمكن أن تقوم وزارة مصرية قبل الثورة إلا بإرادة الأنجليز . . وما حدث فى تلك المناسبة هو أن الملك ورجاله أرادوا مخالفة القواعد فأرغموا على العودة إليها . . وبعد قيام وزارة النحاس عادوا جميعاً حباباً وجمعهم كلهم مائدة السير مايلز لامبسون . .

ولم يكن من الممكن أن يعين رجل وزيراً أياً كان مركزه وانتمائه الحزبى إلا إذا كان على علاقة طيبة بالسراى . . ومن أكبر الدلائل على ذلك أن القصر لم يرض عن ترشيح طه حسين للوزارة سنة ١٩٥٠ ولكن النحاس باشا أصر على دخوله وكان على طه حسين أن يصحح فكرة السراى عنه . . فانتهز طه حسين فرصة افتتاح معهد الصحراء فى سنة ١٩٥١ وألقى خطاب ترحيب بالملك قال فيه عبارته التى استنكرها الناس جميعاً : «وأنت يا مولاي المثل الأعلى فى الأخلاق» وبذلك أثبت ولاءه وصحح مركزه وضمن أن يكون وزيراً مرة بعد أخرى . .

وبانتصار الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وعزل الملك فى ٢٦ يوليو انتهى عصر الباشوات جميعاً مهما كانت انتهاءاتهم الحزبية ومواقفهم السياسية . . لأنهم كانوا جميعاً جزءاً من القصر وحواشيه وقد تقطعت من زمن طويل الخيوط التى تصلهم صلة وثيقة بالشعب وقضاياهم ومشاكله . .

وهذه الصلة الوثيقة بين الباشوات والقصر هى السبب الأول فى سقوط عصر الباشوات . . والسبب الثانى لسقوط مجتمع الباشوات هى صلة هذا المجتمع الوثيقة بالانجليز ودار المندوب السامى . . فلم يكن من الممكن أبداً أن يدخل رجل الوزارة إذا كان للانجليز عليه اعتراض . .

ومن الغريب أن الباشوات - رغم اتصافهم الوثيق بالانجليز ودار المندوب السامى - لم يفهموا الانجليز قط . . وظلوا يرهبونهم كما كان باشوات الأتراك يرهبونهم أيام الخديو توفيق . . وفى كل أحاديثهم وتصرفاتهم لا نلاحظ أنهم - حتى عميلهم الصريح أمين عثمان باشا - فهموا الانجليز . . وعرفوا مواطن الضعف فيهم . . أو تنبهوا إلى الخلافات والحزازات بينهم أو لاحظوا التدهور البالغ الذى نال مركز انجلترا فى العالم بعد الحرب العالمية الأولى ثم الثانية . . ومصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمد محمود والنقراشى وكل باشوات العصر ظلوا يرهبون الانجليز رهبة شديدة . . ولو أنهم اهتموا بدراسة التطور

الشامل الذى دخل على الانجليز وحياتهم لتعاملوا معهم على صورة تمكن لهم تحقيق مكاسب ذات بال لبلادهم . .

ثم إن الانجليز فى مجموعهم لم يكونوا إلى عصر ما بين الحربين يتصفون بذكاء خاص أو بمستوى أخلاقى رفيع . . فرجال الحكم فى انجلترا كانوا مثقلين بالعيوب والنقائص الخلقية . . رجال السفارة البريطانية فى مصر كانت بينهم حزازات وخصومات . وكان المستوى الأخلاقى للكثيرين منهم موضع شك . . فكان فى بعضهم غباء شديد وصلف غبى . . وإدمان للمسكرات وميل للعريضة والانحرافات الجنسية . .

وكان العمل الأول للمستتر كين بويد رئيس الإدارة الأوروبية فى وزارة الداخلية المصرية مراقبة رجال السفارة البريطانية ونسائهم وتحذير المنحرفين منهم أو الإشارة بإعادتهم إلى بلادهم تحاشيا للفضائح . . وعلينا أن نقرأ الكتب الكثيرة التى تصدر الآن فى إنجلترا عن المجتمع الانجليزى بين الحربين لنرى أن باشواتنا كانوا جاهلين تماما بالانجليز ومن ثم فأنهم لم يعرفوا كيف يتعاملون معهم وخسروا كل معاركهم معهم . .

وتصور أن اللورد جورج لويد على جهله وتفاهة تفكيره وتصرفه الصبباني كان يخيف الباشوات المصريين وعلى رأسهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد بحكاية استدعاء الأسطول البريطانى وضرب الاسكندرية أو احتلال الجمارك . . مع أن ضرب الاسكندرية كان عمليا أمرا مستحيلا . . ولو فعلته انجلترا مرة واحدة لسقطت الوزارة البريطانية ، لأن مدينة الاسكندرية وميناءها كانا حتى قيام ثورة ١٩٥٢ مركزين للأجانب . . وكل البضائع الموجودة فى الميناء كانت أجنبية . . وكل وكالات الشحن والتفريغ وكل مراكب البضاعة والركاب - ما عدا ٣ مراكب لشركة البوسطة الخديوية . وكان يملكها أحمد عبود - كانت أجنبية . . ومعظم سكان العمارات والفيلات على الكورنيش كانوا أجانب . . وهناك أيضا كانت القنصليات وكانت أحياء رمل الاسكندرية أجنبية فى الغالب من شيزار وكامب شيوار حتى سان استيفانو وجليمونوبولو . . ومن هناك إلى المنتزه كانت ممتلكات اجانب أو باشوات وأملاك القصر فهل كانت مدافع الأسطول البريطانى تجرؤ على ضرب البلد والميناء بالمدافع لتقوم عليها الدنيا كلها . . ؟

وحتى احتلال الانجليز لميناء الاسكندرية احتلالا عسكريا دون رمى بالقنابل كان مستحيلا وعديم الجدوى . . لأن كل الميناء كان يخدم الأجانب . . والأموال التى فيه أموال أجانب . . وإذا أقدمت السلطات البريطانية على تحصيل إيرادات الجمارك لحسابها فإن تلك كانت تعتبر عملية سرقة تلقى أشد النقد فى العالم كله . . وما كانت انجلترا لتقدم عليها أصلا . . بل إن تسليم أحمد زيور بكل مطالب الانجليز بعد مقتل السيرلى ستاك كان

أمرا غير مفهوم . . فماذا كانت تستطيع انجلترا أن تعمله إذا رفضت مصر اداء الغرامة واستدعاء القوات المصرية من السودان ؟ كانت انجلترا ستستولى بالقوة على نصف مليون جنيه من حساب الحكومة في البنك الأهلي مثلا (ومديره كان إنجليزيا) وهذه كانت تعتبر عملية سرقة علنية بالإكراه . . تنشأ عنها فضيحة دولية لبريطانيا . . أما رفض سحب القوات فكان يؤدي إلى حالة حرب بين القوات الانجليزية والمصرية في السودان . . وهي حرب كان من الممكن جداً أن تخسر انجلترا جولاتها الأولى وتكسب جولاتها الأخيرة . . وهنا يكون أسر القوات المصرية ثم إخراجها إلى مصر عملا عسكريا من أعمال الاحتلال يزيد وحدة مصر والسودان في النهاية توكيدا . .

وبعض الباشوات يلقون التبعة في استسلام الحكومة المصرية بعد مقتل السردار على الملك فؤاد . . ولكننا نقول إن الملك فؤاد كان فعلا كارثة على مصر ولكنه إذا كان هو كارثة على مصر فإن جماعة الباشوات كانت كارثتين . . فإنها كانت مهما قلنا فيها قيادة جاهلة لشعب ذكي . . وهذا هو أخف الأحكام عليها . حين نقول أنها كانت جاهلة أو متواطئة . . وإذا نحن عذرنا أحمد عرابي لأنه أول مصري بل أول شرقي واجه أوروبا ، فهو معذور إذ لم يعرف عن الغرب وسياسته إلا القليل . . فما عذر أعضاء الوزارة الائتلافية التي واجهت بريطانيا في شأن قانون حرية الاجتماعات وإصرار بريطانيا على سحبه من مجلس الشيوخ في إبريل ١٩٢٨ ؟ كانت هذه الوزارة تتألف من باشوات : مصطفى النحاس وجعفر والي وواصف بطرس غالي ومحمد نجيب الغرابي وعلى الشمسي واحمد محمد خشبة . . واثنين من الباكوات في طريقهما إلى الباشوية (إبراهيم فهمي ومحمد صفوت) وأفندي واحد هو مكرم عبيد . . ما عذر هؤلاء جميعا في الخوف أو التظاهر بالخوف والتردد ومحاوله التراجع والتنازل ثم سحب المشروع من مجلس الشيوخ إرضاء لبريطانيا وتمشيا مع الملك ؟ مع أن بعضهم درسوا في بريطانيا وكان ينبغي أن يكونوا أحسن معرفة بالانجليز من أحمد عرابي ، وأعمق إدراكا لسطحية رجل مثل نيفيل تشمبرلين وزير الخارجية البريطانية الذي اشتهر في العالم كله بغبائه ومنظره المضحك وهو يجري بمظلته إلى ميونيخ ليستسلم أمام هتلر .

وإذا نحن التمسنا شيئا من العذر هؤلاء فأى عذر يمكن التماسه لمحمد محمود الذي لم يكتف بما لحق بالوزارة التي كان عضوا فيها من هوان في موقفها من قانون الاجتماعات بل رضى بأن يشترك مع الملك والسفير البريطاني في القضاء على هيئة الجبهة المصرية بتدبير استقالته وزملائه الأحرار الدستوريين لإسقاط الوزارة ثم توليها في يوليو ١٩٢٨ مشتركا مع صنيعة جعفر والي وأتباعه عبد الحميد سليمان وأحمد محمد خشبة . . وتأليف وزارة ضمت فيمن ضمت أحمد لطفي السيد . .

حقا إننا اليوم فى حاجة إلى إعادة تقييم كل رجال ما قبل الثورة من المصريين ابتداء من على مبارك . .

كل هذه كانت خطوات فى طريق تدهور جماعة الباشوات . . فإن مصطفى النحاس تراجع واحتفظ بشيء من كرامته . . أما محمد محمود ومن معه فقد جثوا على الأرض أمام صعايليك من ذوى الملكات المتواضعة والتخلف الفكرى الذى لاشك فيه . . فإن جيل أوستين تشمبرلين الذى خاف منه باشوات أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات هو الجيل الذى مسح به هتلر الأرض مسحاً . . وجعله ضحكة الدنيا . . وهتلر الذى نقول اليوم إنه كان مجنوناً كان عبقرياً بمعنى الكلمة إذا هو قورن بمجموعة باشوات ما قبل الثورة . .

أكان عجباً بعد ذلك أن يتلاشى الباشوات وعصر الباشوات ؟

سؤال أخير قبل أن نفرغ من عالم الباشوات .

هل كان الباشوات سعداء ؟

هل كانوا طبقة حاكمة قوية تتمتع حقاً بحياتها وبما أتيح لها من قوة ومال وسلطان ؟

الجواب : لا

لا كانوا سعداء ولا كانوا أقوياء . .

فهؤلاء الباشوات كان دخل معظمهم ما عدا الباشوات الزراعيين ونفراً قليلاً غيرهم . . مثل طلعت حرب وأحمد عبود ومحمد محمود وعبد الحميد سليمان وأمثالهم فى حدود الخمسمائة جنيه فى الشهر تزيد قليلاً أو تقل قليلاً . . فى وقت كانت فيه قوة الجنيه عشرين مرة مثل قوته اليوم . . ولكن نفقاتهم كانت أيضاً كثيرة لأنهم فى مجموعهم كانوا منفوخين على الآخر . . السراى أو الفيلا والسيارة والسائق والطباخ والسفرجى والدادة والخدم والجنايى والبواب وخولى العزبة وناظر الزراعة . . هذا عدا المحاسيب والدلايل . . وهناك الإنفاق على المظهر ، والملابس تعمل عند خياطين من مستوى ويليه ، وبعض الباشوات كانوا يغسلون ويكونون ملابسهم فى باريس . . ثم هناك الست هانم وبنات الهانم وملابسهن ومصاغهن وجواهرهن والحفلات . . وهناك فرش البيت : السجاد والجوبلان والكريستوفل والنجف . . والمصيف فى الاسكندرية الفيلا هناك بالخدم والحشم والمطبخ . . والكابينة على البحر والسهرات فى سان ستيفانو والمديترائية . .

وأخيراً هناك السفر إلى أوروبا . . وكل باشا يحترم باشويته مستوزراً كان أو غير مستوزر كان لابد أن يقضى ولو شهراً فى أوروبا فى السنة ما بين جنيف ولندن وباريس . . وعندما قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ كان معظم كبار الباشوات . . وفى مقدمتهم مصطفى النحاس وقواد الدين فى أوروبا . .

كل ذلك كان يتكلف المئات بل الألوف . . وعدد كبير جدا من الباشوات كانوا مدينين بصورة مستمرة . . وأملاك الكثيرين منهم كانت مرهونة . . وغالبيتهم كان واردتهم يغطي صادرهم بجهد بالغ . .

ثم إنهم في مجموعهم كانوا تعساء أو لم يكونوا سعداء على الأقل . . كانوا يعانون من الأحقاد والضغائن والصراعات والخوف على المركز السياسي والمالي والرعب من الخروج من الوزارة واضطرارهم بعد ذلك للتدخل للعودة إليها وكانوا جميعا مثقلين بمشاكل العائلة والمهموم بشأن البنات خاصة وكلام الناس والإشاعات والسنة السوء وتلميحات الصحفيين . . وقلم محمد التابعي خاصة كان يرهبهم ، ثم هناك الأمراض وأمراض الباشوات والهوانم : السكر والروماتيزم والنقرس والكبد والأمعاء الغليظة وتكاليف العلاج والاستشفاء في إفيان وإيكس ليان . . كل هذه كانت تأكل أموال الباشوات أكلاً . . وتحرمهم السعادة وهدوء البال والاطمئنان بل نوم الليل . . ويكاد يكون العزاء الوحيد للباشوات هو أولادهم وبناتهم . . فالحق يقال أن معظمهم عرف كيف يربي أولاده ويجعلونهم رجالا ممتازين أطباء ومهندسين وقضاة ومحامين ورجال اقتصاد . . والباقيون من أولاد الباشوات هؤلاء مازالوا زينة مجتمعتنا اليوم . . ومن حسن حظهم وحظنا أن الثورة أغلقت باب السياسة أمامهم فانصرفوا إلى أعمالهم . . كل منهم في تخصصه . . فكانوا خيرا على البلد وبركة . . وفي كلامي عن عالم السوبر باشوات سأحدث عن هؤلاء بشيء من التفصيل . .

وأختم كلامي عن الباشوات وعصر الباشوات بمشهد من واقع حياتي هو أشبه بالرمز على أفول شمس الباشوات . .

في صيف ١٩٥١ كنت عائدا من إيطاليا في طريقى إلى أسبانيا لدارسة موضوع معهد الدراسات الإسلامية هناك . . ومررت بجنيف . .

وفي سيرى في شارع الألب (روديزال) ألقى فكرى أباطة باشا يشترى شيئا في أحد المحلات . . وفكرى أباطة كان باشا . . ولكنه كان رجلا من طراز فريد ، كان أديبا صحفيا مثقفا وافر الكرامة محترما لنفسه . . وكان برلمانيا ممتازا . . وفوق ذلك كله كان رجلا مهذبا جدا . . وكانت بينى وبينه دائما صداقة وثيقة ترجع إلى عملنا معا في دار الهلال . .

وحياتى ببشره المعهود وحرارة مودته الصادقة . . وقال لى :
ما رأيك في أن تأتى معى إلى أوتيل دى برج . . أنا ذاهب إلى هناك . .

قلت : قد يكون عندك موعد .. ثم إنك باشا وكل من هناك من المصريين باشوات .. هذا بالضبط ما أحب أن تراه .. الباشوات في الخارج .. وأيامها كان فندق دى برج أعظم فنادق جنيف .. كان ملتقى الأرستقراطيين من كل أركان الأرض ومنها مصر .. ويهل على شرفة الفندق فكرى باشا .. وتكون التحيات والسلامات .. وأنا بالطبع لم يكذب يرانى أحد .. وأنا أحب ذلك .. لأن الله خلقنى متفرجاً .. وأسعد أوقاتى مع الناس هو الجلوس صامتاً أتفرج فلا تفوتنى كلمة ولا حركة ..

وأسمع كلاماً كثيراً كله تعليقات سخيفة وشتائم لباشوات فى باشوات .. يومها كان رئيس الوزراء صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس .. وكان فى الوزارة طه حسين وحامد زكى وزكى عبد المتعال من أساتذة الجامعة ..

وكانت أطقم وزارات السراى على الرف .. والرف فى الصيف كان جنيف ..

والذى سمعته من هؤلاء الباشوات المحالين للاستيداع المؤقت فى حق النحاس ووزراء النحاس وخاصة طه حسين وحامد زكى وزكى عبد المتعال وإبراهيم فرج وعبد اللطيف محمود بصفة خاصة .. كلام بذى لا يليق بباشوات أو جرسونات ..

وانصرف الباشوات واحداً بعد واحد .. وبقيت مع فكرى باشا لأننا كنا سنتغدى معاً فى مطعم أعرفه فى فيفيه ..

ويقترّب باشا أعرفه بالإسم من فكرى باشا .. ويطلب إليه أن يتحدث إليه على حدة .. ويستأذن فكرى باشا ويخلو بالرجل بعيداً عني .. وأنظر إلى الرجل فأراه يتحدث فى ذلة ومسكنة .. وملامح وجهه فيها استعطاف ورجاء .. وفكرى باشا الطيب القلب يربت على ظهر الرجل وذراعه .. وكأنه يواسيه .. والرجل يتحدث فى صوت متهدج وأظن أننى رأيته يمسح دموعاً ..

ويودعه فكرى باشا ويعود إلى .. ونمضى إلى المحطة .. ونأخذ القطار إلى فيفيه .. وفى المطعم الجميل وسط حديقة الكازينو حيث لا أثر للباشوات أجد فكرى باشا مهموماً جداً .. وأسأله .. فيقول وهو يهز رأسه : هل رأيت فى حياتك باشا متسولاً ؟ فهذا باشا متسول له ست سنوات لم يدخل وزارة .. استوزروه مرة لمدة سنة وبضعة شهور .. فسكن القصر واشترى سيارة باكار .. وأنفق كل ما عنده واستدان ثم سقطت الوزارة ووقف الرجل فى الطريق ..

والهوانم حرم الباشا وبناته دخلن عالم الهوانم من الباب الواسع .. واشتدت الأزمة

المالية بالمسكين فلم يكن يستطيع العودة إلى عالم عباد الله أمثالنا . . ولم يكن له معاش وزير . . وبعد أن حفيت قدماه عينوه ناظراً على وقف إحدى الأميرات براتب قدره مائة جنيه تمكن بها من الوقوف مستوراً بين الناس . . ولن أقول لك ما قاله لى عن ديونه وسوء حاله وقد أمر الله بالستر . .

ولماذا أتى إلى جنيف ؟ من أين المال ؟

أتى يا سيدى يجرى وراء على ماهر باشا . . فقد قيل له أنه هنا . . وهو كان بالفعل هنا ولكنه سافر إلى لندن من أسبوع والإشاعات تقول أن وزارة النحاس ستستقيل أو تقال وهناك وزارة في الطريق . . والمرشح لرياستها على ماهر باشا . . والمسكين لم يستطع أن يقابل على ماهر باشا في مصر . . فاستدان وأتى إلى هنا ليلقاه . . ولا تدهش فإن أمثال على ماهر تقابلهم بكل سهولة هنا وتجلس معهم كيف تشاء . . لأنهم يتركون ثوب الجلال والأبهة على ظهر المركب . . وما أكثر الوزارات المصرية التى ألقت هنا وهذا الباشا أتى إلى هنا ليرجو على ماهر باشا ألا ينساه في وزارته القادمة لينقذه من الإفلاس والفضيحة . .

- وماذا سيعمل الآن ؟

- استدان من صديق له ليسافر إلى لندن وراء على ماهر باشا . . ثم أن أحد هلافيت البرنسات أعطاه خطاب توصية إلى أحد رجال الخارجية وصاحبنا يرجو أن يتوسط له هذا الموظف لدى وزير الخارجية الإنجليزية لدى المندوب السامى لدى على ماهر ليدخل الوزارة القادمة . .

ولم يدخل هذا الرجل الوزارة بعد ذلك قط . . لقد دفن عصر الباشوات بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . . ولكنه مات قبل ذلك بزمان طويل . . مات لأن الباشوات كطبقة فشلوا في القيام بدورهم . . فإن هذه الطبقات أو الجماعات السياسية أو جماعات المصالح إذا لم تحسن القيام بدورها تلاشت . . فقد تلاشت طبقة النبلاء الفرنسيين : والأدواق والكونتات والمركيزات والبارونات . . لأنها عجزت عن القيام بدورها . . ثم لأنها ربطت نفسها ربطاً متيناً بالملكية . . وعندما سقطت الملكية تلاشت حواشيها . .

وتلاشت لنفس السبب طبقة النبلاء (أو الإيرلشكايت) الألمان الفورست والهيرتسوج والجراف والبارون والفراى هير لأنها ربطت نفسها ربطاً وثيقاً بالقيصرية من آل هو هنتوليرن . . وتعاضموا على الناس بشكل لا يتصور . .

وعاشت طبقة اللوردات لأنها عرفت كيف تقوم بدور نافع في المجتمع الإنجليزي في كل ميدان . .

وعاشت طبقة الساموراي والشوجن في اليابان لأنها عرفت كيف تتبنى قضايا الوطن . . وعندما أراد ملوك اليابان تركيز السلطة في أيديهم لمواجهة الضغط الأوروبي كان الشوجن يملكون معظم الأراضي . . وكان لكل منهم جيشه الخاص فذهبوا جميعاً وقدموا أراضيهم إلى الميكادو . . ووضعوا قواتهم تحت تصرفه . فنشأ الجيش القومي ووزع الملك الأرض على الفلاحين . . وعاشت طبقة الشوجن والساموراي وكل الأساء اليابانية التي تسمع عنها اليوم من أبناء الشوجن : ميزوبتسي وكشيمودا وسوزوكي ومن إليهم . .

أما الباشوات فقد ربطوا أنفسهم بالملك والإنجليز والخوارجات . . حقاً إنهم لم يكونوا في مجموعهم في المعسكر المعادي للشعب . . لأن الوطنيين منهم كانوا كثيرين بل لم يكن فيهم خونة أو فاسدون بالمعنى المعروف . . ولكن فاتهم أن يكون لهم دور إيجابي متميز في الحياة القومية . . وعندما زال عصر الملوك والإنجليز والخوارجات تلاشى الباشوات . .

وقبل أن أترك عالم الباشوات وأدخل في عالم السوبر باشوات لابد أن أعترف بأن في كلامي هذا تعميماً أحياناً . . والتعميم قد يوقع الإنسان في الخطأ . . فلا شك في أنه كان هناك باشوات يخرجون عن الصور التي وصفت . . ولكني أتكلم عن طبقة . . عن جماعة كبيرة دام سلطانها نحو قرن ونصف . . والأحكام هنا على الجماعة في غالبيتها . . لا على تفاصيلها . . خاصة أن هذه دراسة موجزة لا تحتل كثرة التفاصيل . فإن كان بعض القراء قد أحس بشيء يسوؤه فإنني أعذر له . . وأؤكد له حسن النية وسلامة القصد . . ونحن أولاً وآخرنا نؤرخ لمصر . . لا لهذا أو ذاك . .

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ فانتهى بذلك عصر من تاريخ مصر والعالم العربي كله . عصر انتهى . . وبدأ عصر . . وستحدث عن الذين ورثوا الباشوات . . في العصر الجديد في الفصل القادم وما يليه . ولكننا نقول هنا إن رجال الثورة حلوا في القيادة محل الملكية والانجليز والخوارجات ورؤساء جماعات الباشوات .

ولكن الباشوات ويتبعهم الباكوات كانوا يشغلون مساحات ضخمة من حياة مصر . . وقد سدت قيادة الثورة فراغ القيادة . . ولكن بقيت مساحات شاسعة وأموال ضخمة بلا شاغل أو مالك . .

هنا دخل واحتل وتربع وتملك طراز جديد من الناس . . هو طراز السوبر باشوات . . فمن هم ياترى أولئك الغزاة . . ؟



٥ ميلاد عصر السوبر باشوات



سامي شرف

وقد حاول الباشوات خلال الشهور الأولى للثورة أن يحتفظوا بجزء من الأرض التي كانوا يقفون عليها . . ومصطفى النحاس وعلى ماهر - أكبر باشوات ذلك العصر - وكلاهما كان صاحب مقام رفيع حاولا - كل على طريقته وأسلوبه - أن يعيشا مع الثورة . . ومصطفى النحاس كان أوضح وأسلم نية . . فقد كان يرى نفسه يمثل الشعب لأنه رئيس الوفد . . وهؤلاء الشباب الذين قاموا بالثورة ينبغي أن يعملوا معه ويساعدوه على التخلص من معارضيهِ ومنافسيهِ - وهم رجال الملك والانجليز في رأيه - وأن ينصروا الشعب وحكومة الشعب ويؤيدوا الوفد . . وكانت تلك هي خلاصة أحاديثه مع على ماهر ومحمد نجيب عندما عاد من أوروبا مسرعا عقب قيام الثورة ليتسلم الحكم أولي شترك مع أولئك الشبان الوطنيين الصادقين الذين سيطروا على الموقف السياسي عقب قيام الثورة .

والذي غاب عن مصطفى النحاس أنه هو نفسه وحزبه كانوا قد أصبحوا من زمن طويل جزءا من النظام الملكي الذي كان يوصف بأنه فاسد وصاروا قوة سياسية متعاونة تعاوننا فعليا مع الإنجليز المحتلين . . وإذا كان لابد أن يزول الاحتلال ويزول الحكم الملكي الفاسد . . فلا بد أن يزول في نفس الوقت حكم الباشوات وأحزابهم كلها . . وفي مقدمتها حزب الوفد نفسه وعلى رأسه صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا . .

والذي غاب أيضا عن مصطفى النحاس وبقية الباشوات أن بعض هؤلاء الشبان الذين قاموا بالثورة أو تزعموها على الأقل لم تكن لديهم فكرة واضحة عما حدث . . ولا هم تبينوا أهميته إلى ضحى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . أى عندما اتضح أن الحركة انتصرت بأكثر مما كانوا يتصورون وأن الشعب الظامى إلى العدالة والإصلاح يقف إلى جوارها . . فيعمل على أن يجعل منها ثورة لا مجرد حركة عصيان داخل الجيش هدفها إصلاح أحوال الجيش كما رأينا في نهاية الفصل الأسبق . . هنا فقط تبين لهم أن المنتصرين من أولئك الثوار هم سادة العصر الجديد وأصحاب السلطان فيه . . وأن الإنجليز الذين كانوا يبدون في نظر الباشوات والسراى قوة هائلة ظهروا بحجمهم الحقيقي : قوة ثانوية إلى جانب الأمريكيين ، وهم القوة الأجنبية الجديدة التي بدأت ترث الاستعمار من مثليه القدامى في الشرق الأوسط وكانت أولى خطواتهم في ذلك السبيل هو تأييد الحركة المصرية . . والسير رالف ستيفنسون آخر سفراء بريطانيا في عصر شبه الاحتلال تراجع وترك مكانه للمستتر جيفرسون كافرى سفير الولايات المتحدة ولهذا طلب الملك فاروق حمايته وبارح مصر تحت هذه الحماية . .

من ضحى ذلك اليوم . . وعندما تبين أن هناك دولة وسلطة وحكما وجاها وأموالا تنتظر المنتصرين بدأ الصراع على الغنيمة . . فمحمد نجيب الذى وضعه أولئك الشبان في

المقدمة ليتلقى الصدمة أصبح سيد الموقف نتيجة لذلك لأنه حولها من حركة ضباط داخل الجيش إلى ثورة قومية واستولى على قلوب الجماهير بشخصيته وعقله ووطنيته وسلامته نيته ومظهره . . هذا كله كان كافيا ليقرر شبان الحركة أن هذا الرجل لابد أن يخفى رغم أنه ظهر بمظهر محترم جدا . . وكان صورة جميلة لأول رئيس لأول جمهورية عربية - بل أفريقية أو أسيوية - تنصر على الظلم والملكية الفاسدة والاحتلال الخسيس . . لابد أن يخفى حتى يفتح الطريق أمام شباب الثورة إلى الغنائم الضخمة التي تراءت لهم . .

كان لابد أن يخفى محمد نجيب ويزول عن رئاسة الجمهورية بسبب إيجابياته بالذات . . فلو أنه كان لا شخصية له أو إنسانا ضعيفا أو حقيرا فربما كانوا أبقوا عليه أطول مما أبقوا . . ولكن الرجل كان يكسب أرضا وشعبية واحتراما عالميا يوما بعد يوم . . والسودان بالذات كان متمسكا به فهو نصف سوداني . .

ومن المرجح أن محمد نجيب لو بقي لثمت وحدة وادي النيل حوله . . فهو سوداني بقدر ما كان مصرياً . . وهو شعبي وبسيط دون تكلف . . وهو سليم من خبث السياسيين . . وأنا أتكلم هنا عن العناصر التي كان لها أثر في سير الحوادث . . أما ما يقال عن سلبات شخصية محمد نجيب فلا أقف عندها طويلا لأن الرجل لم يسمح له بأن يبقى حتى تظهر النواحي السلبية من شخصيته بصورة تؤثر في الموقف أو سير الحوادث .

ولا شك أنه كان له عيوبه ، ومن يخلو من العيوب ؟ . . ولكن الصورة العامة التي ظهر بها وشهرته بالنزاهة والبعد عن الصغار ومد اليد . . ثم ثقافته التي مكنت له من الظهور أمام العالم بمظهر مشرف جدا وكسبت احترام الرأي العام العالمي للثورة . . كل هذه كان من الممكن أن تكون بداية خط سليم لثورة قامت على مبادئ سليمة . . وما أعوزها من المبادئ السليمة أكمله الشعب الذي رمى بآماله وآلامه جميعا إلى الثورة ورجاها . . وتسامى بهم إلى مستوى خلقى وقومى يعدل آماله .

وإذا كانت الثورة قد اتجهت من بعد عزل الملك إلى أن تكون حركة عسكرية تتمثل في النهاية في صورة جماعة عسكرية حاكمة من الطراز التقليدي الذي كان سائدا في أمريكا اللاتينية وعرف بنظام الخونتا ملينار والخونتا فقط فإن الشعب بدد هذا الوهم . . وفرض على الثورة أن تكون ثورة شعبية قومية . . وكان محمد نجيب هو الممثل الصادق لهذا الاتجاه . .

ولكن من سوء حظ رجال الثورة - وغريب أن أقول ذلك - أنهم انتصروا بسرعة لم يكونوا يتصورونها في حركة الاستيلاء على مركز قيادة الجيش ومراكز السلطة . . والحركة دامت نصف ليلة . . وقام بأخطر أدوارها البكباشى يوسف منصور صديق وتولى الإشراف

عليها اللّواء محمد نجيب . . وفي الوقت الذي تمت فيه العملية الحاسمة وهي عملية الاستيلاء على مبنى رئاسة الجيش . . كان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بالقميص والبنطلون يتحسسان الأخبار بكل حذر وفي جيب كل منهما تذكرة دخول لسينما الفالوجة بمصر الجديدة لكي يكونا بآمن من العقاب في حالة فشل الحركة . . في حين أن أنور السادات كان بالفعل مع حرمه في سينما الروضة . . ولكنهم جميعا لم يلبثوا أن دخلوا في ثيابهم العسكرية وتجمعوا في غرفة القيادة حول اللّواء محمد نجيب الذي أصبح القائد الأعلى الفعلي للقوات المسلحة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . .

هذا النجاح السريع للحركة أضربها إضرارا شديدا . . فلم تدر في الحقيقة إلا معركة الاستيلاء على مبنى رئاسة الجيش والقبض على حسين فريد وحسين سري عامر . . ثم بدأت عملية اعتقال القيادات العسكرية والمدنية والاستيلاء على المباني الاستراتيجية الرسمية ومنها دار الإذاعة . . إن هذا النجاح السريع أتاح الفرصة للذين لم يشتركوا ليقولوا إنهم هم الذين قاموا بالحركة . . ثم التفوا بسرعة حول اللّواء محمد نجيب ليكونوا نواة القيادة الجديدة للبلاد . .

من ذلك الحين : ضحى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأت الصراعات . . فإن الغنime كانت عظيمة وسهلة . . ونظام الملك والباشوات تبدد . . وعلى ماهر ممثل حكومة الباشوات هرب خلال الأيام الأولى للثورة متابعا في ذلك أساليب الثعالب وبنات آوى التي سار عليها - ونجح - طول حياته وقد فصلنا ذلك في الفصل الماضي . . ففشل فشلا ذريعا . والملك كان قد ضاق بالملك وما أن أتاحت له فرصة التنازل حتى ابتدرها وخرج من البلاد في حراسة السفير الأمريكي (كما دخل عمه البلاد عقب فشل الثورة العراقية في حراسة الجيش الإنجليزي) . .

والشعب الذي كان مصطفى النحاس يحسب أنه معه تخلى عنه والتف حول القيادة السياسية الجديدة التي يقودها اللّواء محمد نجيب . . ولكن أعصاب القوة السياسية الحقيقية ظلت بأيدي العسكريين القابعيين في الظل خلف اللّواء محمد نجيب وبعد زوال القيادة العسكرية القديمة وتولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية وابتعاده عن الجيش أصبحت القوة الموجهة للحوادث هي قيادة جماعة الضباط الأحرار وعلى رأسها جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . . وحتى لا يكون هناك شك في أن جماعة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحدها هي التي كانت ما أصبح يسمى الآن بالثورة . . استبعد جماعة القابعيين في الظل كل الذين حملوا عبء الهجوم . . يوسف منصور صديق ومن معه وكما يحدث في مثل هذه الظروف يتلاشى أبطال الحركة الحقيقيون ويبقى ويتربع على العرش الذين ينقضون على الغنime . الجنود يموتون والقادة ينتصرون . .

وكانت الغنيمة ضخمة جدا . . فإن كل مراكز السلطة وكل مواقع القيادة بدت فارغة وكان لابد من ملئها . . دولة الباشوات سقطت وأصبحوا في نظر الشعب طائفة منبوذة لا تستحق أن تستبعد بل لا بد من عقابها بحرمانها من كل مال وشرف . . والقيادة الجديدة التي وقفت أمام الفراغ السياسي الهائل ولا تدري كيف تحتله أخذت ترسم خطتها للاستيلاء على كل شيء .

وقد كنا إلى حين قريب نصدق ما كانوا يزعمونه من أنهم كانوا مستعدين للتخلي عن السلطات والعودة إلى المعسكرات إذا وجدوا من يتولى القيادة السياسية . . ولكن تبين لنا الآن وبعد أن انكشفت معظم الأوراق والأسرار بعد مقتل السادات ونشر عدد عظيم من المذكرات والحقائق ومنها مذكرات بعض رجال الثورة كبارا وصغارا أنهم بعد أن اكتشفوا أنهم لم يقوموا بحركة بل بثورة . . وأن العصر القديم هم ورثته وتفتحت أمامهم أبواب السلطة والقوة السياسية . لم يعد واحد منهم يفكر في التخلي عن نصيبه بل قرروا إزاحة محمد نجيب من الميدان لأن الرجل كان يفكر في أن يشترك الشعب في بقاء النظام الجمهوري الجديد في حين أنهم جميعا كانوا قد استقروا على أن يتولوا الحكم باسم الشعب لا بإرادته . . وفريق منهم كان أقل من فريق آخر استنكارا لفكرة اشتراك الشعب في الحكم ولكنهم جميعا كانوا لا يميلون إلى التفريط ولو في جزئية من جزئيات السلطان . . وستردي سياق هذه الدراسة أدلة كثيرة جدا تؤيد هذا القول .

ولم يعد هناك إذن شك في أن القيادة الجديدة بدأت من اليوم الأول تعمل للقضاء على اللواء محمد نجيب حتى تكون الغنيمة كلها لها . . ولأن محمد نجيب مد جسورا بينه وبين الأمة والشرعية فتحدث عن الديمقراطية والدستور ورد الأمر إلى الأمة والاستفتاء . فقد كان لابد من إبعاده . . لأن هؤلاء لا يريدون ذلك وزعموا أنهم يخافون من العودة إلى الفوضى الماضية . . وقالوا أنهم يوقفون هذا التيار لكي يضمّنوا سير الأمور في طريق الثورة . . وكان ذلك خبثا من بعض منهم . . كما ترى عند جمال عبد الناصر ومن أيده من أمثال عبد الحكيم عامر والأخوين جمال سالم وصلاح سالم . . وسلامة نية وطيبة قلب من بعضهم كما نرى عند كمال الدين حسين وحسين الشافعي . . ودليلا على عدم وجود رأى خاص معين عند معظم الباقيين . . كما نرى عند عبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم . .

أما السادات فلم يكن له موقف يذكر في هذه المرحلة . . ولهذا فقد انضم في النهاية إلى معسكر جمال عبد الناصر وانضم خالد عيسى الدين إلى محمد نجيب فخرج من قيادة الثورة بخروج محمد نجيب . . وسار في طربو وحده حتى اجتذبه الشيوعية فمال إليها عن جهل بها لا عن علم . . والذي يعرف الشيوعية لا يكون شيوعيا أبدا . . ومعظم أتباعها يكونون

في العادة ممن لا يعرفونها إلا توها وتعلقا بآمال لا تصدق أبدا .

هنا - وفي مرحلة الصراع بين محمد نجيب من ناحية وجمال عبد الناصر ومن تبعوه من ناحية - تقتحم أبواب الميدان السياسي طائفتان كان لهما أسوأ الأثر على مصير الثورة ومسارها فيما بعد . .

الطائفة الأولى هي طائفة الطامعين والطامعين من شباب الضباط ممن لم يشتركوا في الثورة . . ولكنهم رأوا فرص الغنائم والقوة والجاه مفتحة في الفراغ السياسي الذي دارت المعركة حوله بين جمال عبد الناصر ومن عاونوه . . ومحمد نجيب ومن أيده . . وهؤلاء الصغار كانوا أتباعا في وظائف الجيش للكبار الذين تربعوا على عرش الثورة . . كلهم كانوا إلى ذلك الحين دون درجة العقيد . . وبعضهم كانوا ملازمين أوائل وثواني وربما نقيب . . هؤلاء وجدوا جانبيين يتصارعان من كبار ضباط الثورة . . جمال عبد الناصر ومن معه يدعون إلى الاستبداد وحصر الغنيمة كلها في الضباط . . ومحمد نجيب يريد أن يرد الأمر إلى الأمة ويقيم الانتخابات فانضموا بجملتهم إلى جمال عبد الناصر ومن معه حتى يظل الأمر في العسكريين وهم منهم . .

والطائفة الثانية كانت قد دخلت قبيل ذلك . . وهي طائفة بعض المدنيين ممن تمسحوا بالثورة ورجاها خلال الشهور الأولى لانتصارها وتقربوا إليهم متظاهرين لها بالرغبة في إفادتها بما لديهم من العلم من أمثال القانونيين سيد صبرى وسليمان حافظ وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء - عبد الرزاق السنهورى ومن غير القانونيين رجال لم يكن لهم في السياسة نصيب إلى ذلك الحين . . ولكن حركتهم الأطماع والسذاجة من أمثال أحمد فكرى أستاذ الآثار بجامعة الاسكندرية وإبراهيم سلامة وكان من أساتذة دار العلوم .

هؤلاء وأمثافهم جميعا عدا السنهورى حرصوا تحريضا شديدا على الاستبداد أملا في أن تصيهم الوزارة من يد المستبدين . . وهؤلاء جميعا - عدا السنهورى - عرضوا أنفسهم لسخرية الناس . . وسليمان حافظ أراد ان يدل الناس على بالغ تقشفه فكان يسير بينطلون قصير . . والوزارة التي كان يرأسها جمال عبد الناصر تحت رئاسة محمد نجيب كانت تفعل أشياء عجيبة . . كانوا يعقدون مجلس الوزراء طول النهار ويتناولون سندويشات الفول إظهارا للتقشف . . وكان بعضهم يزعم أنه يذهب إلى الوزارة في الترام . .

والشعب في أثناء ذلك تائه ضائع . . ينشدون أمامه أناشيد « الاتحاد والنظام والعمل » وهو يردد . . وتكون المعارك الحاسمة بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب في مارس ١٩٥٤ ويتولى القتال فيها نفر من الضباط كانوا صغارا فأصبحوا كبارا بالاعتداء بالضرب على أمثال السنهورى وكسب بهم عبد الناصر وشيعته المعركة الحاسمة التي قررت مصير الثورة . .

فاتتجه كل أمل في الديمقراطية والحرية ووئد الدستور المؤقت في مهده . . وتولى الرئاسة جمال عبد الناصر وشيعته القليلة ومن حولهم مئات الضباط الذين لم يسمع أحد بأسماء معظمهم إلى ذلك الحين .

وحكذا صار حكم مصر إلى صورة تذكرنا بما كان عليه الأمر أيام سلطنة المماليك : السلطان جمال عبد الناصر وأمراء المماليك من حوله وهم مجلس قيادة الثورة ثم الخشداشية وهم مماليك السلطان والأمراء وكانوا مئات : كل جماعة منهم في مكتب أمير من أمراء مجلس قيادة الثورة . . وتقاسم السلطان - من ناحية - جمال عبد الناصر ، وكانت له الحكومة المدنية والسياسية وكل ما يتعلق بمصالح الوطن . . وعبد الحكيم عامر - من ناحية أخرى - وقد سيطر على الجيش وحوله إلى عمدية ضخمة يتربع هو على مصطبتها ومن حوله ألف شيخ خفر وخفير . . واعتمد عبد الناصر على البوليس الحربي ومديره أحمد أنور الذي جعله سيفاً مصلتا على الناس . .

والرجل كان ينفذ ما يأمره به جمال عبد الناصر . . ولم يكن يستطيع إلا أن ينفذ . . لأن عدم التنفيذ معناه أن يصبح عدواً للجبهة الناصرية وهنا تدوسه الأقدام دون رحمة . . ثم إن ذلك المنصب كان يملك سلطات بلا حدود .

ودخلنا في دوامة الناصرية وتحول الحكم إلى استبدادية عسكرية وفرضت الرقابة على الصحافة وكل صورة من صور حرية الرأي . . وأصبح لمصر كلها سيد واحد . . وكان الإخوان أول الأمر شركاء لشبيعة جمال عبد الناصر . . فلما تم له النصر عصفت بهم فلم يستثن إلا الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي أعلن انفصاله عنهم قبل أن يدخل الوزارة .

وسارت الأمور من ذلك الحين إلى موت عبد الناصر بحسب ما كان يراه هو وحده . . ولا معقب على آرائه ولا تبديل لكلماته . . والذين يذكرون تلك السنوات التي انتهت بكارثة ١٩٦٧ يسألون الله ألا يعيدها أبداً لأنهم كانوا يعيشون في ظلام دامس وخوف بالغ وما رأيك في عصر لم يكن فيه إلا صحفى واحد يتمتع بحرية الكلمة هورئيس تحرير جريدة الأهرام ؟ . .

ومن مآثر عبد الناصر التي لا تنسى عصفه دون رحمة بكل من أيده من كبار الصحفيين وعلى رأسهم محمود أبو الفتوح وأحمد أبو الفتوح ومصطفى أمين وعلى أمين . .

ومن ديسمبر ١٩٥٢ أى من بدايات هذا الطريق المظلم بدأت الأعمال العنيفة التي ألحقت أسوأ الأضرار بهذا البلد . . لا لأنها في ذاتها كانت غير طبيعية سليمة . . فإن الكثير منها كان ضرورياً ولا مفر منه مثل الإصلاح الزراعي وإلغاء الملكية . . ولكن الشر جاء من

سوء النية والأناية التي أدت إلى الإسراع في اتخاذ القرارات دون تفكير سليم ودون تدبير محكم . .

وما دامت السلطة كلها قد انحصرت من ديسمبر ١٩٥٢ في يد جمال عبد الناصر وأمرائه وخشداشيته . . فلم يكن هناك مفر من الخطأ . . بل الخطأ الجسيم ، لأن الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا في خدمة المستبد من أهل التخصصات والخبرات كانوا بطبيعة الحال من طراز الندماء والأتباع ممن كانت أقصى أمانيتهم أن يرضى عنهم الحاكم بأمره لا بأمر الله . .

فقد كان إلغاء الملكية عملاً ضروريا . . لأن الأسرة العلوية فشلت في القيام بأى دور إيجابى نافع في تاريخ هذا البلد وأصرت على أن تظل أسرة أجنبية تحكم شعبا من الفلاحين الجُهلاء . . فكان لابد أن يجرى التصرف في أملاك أفراد الأسرة وأموالهم على صورة تضمن مصالح الشعب والحفاظ على أمواله . . وهذه الأسرة كانت تتكون يوم ألغيت الملكية من ١٧ أسرة تملك من القصور والأراضي والعقارات ما يمكن تقديره دون مبالغة بربع ثروة هذا البلد . . فالملك والأمراء والأميرات في مجموعهم كانوا يملكون مثلاً ما يقرب من المليون وربع المليون من الفدادين أى نحو خمس أراضي مصر . . وهذه كلها كانت ملكيات شاسعة ولكنها كانت تدار إدارة زراعية ومالية محكمة . . وهذه الأراضي كانت تغل من المحاصيل ما يعدل نصف إنتاج مصر الزراعى . . حقا كان هناك ظلم شديد على الفلاحين وكان من الممكن الاستيلاء على هذه الأراضي مع الاستمرار في إدارتها إدارة حكيمة مع رفع الحيف عن الفلاحين . .

والمشكلة كانت أن إدارة الخاصة الملكية ودوائر الأمراء كانت تدار على نحو يعطى الأمراء ورجال زراعتهم أربعة أخماس قيمة المحصول فلا يبقى للفلاح إلا الخمس . . وفي ذلك ظلم بين . . وكانت الحكمة تقضى بأن تنتقل ملكية هذه الأراضي وتدار على نحو لا يضر بمحصولها ، فيأخذ الفلاحون من الغلة نصيبهم الإنسانى العادل وتبقى البقية للأمة . . أما مصادرة أملاك الملك والأمراء وأموالهم وقصورهم ثم التفكير فيما نعمله بعد ذلك فإن النتيجة أن معظم هذه الأموال نُهبت منها . . فلا هى بقيت تحت إدارة الخاصة الملكية السابقة ودوائر الأمراء لتعرف أين هى . . ولا هى صارت إلى أيدي من يستحق على وجه سليم . . بل هى تبددت بصورة مزرية فأما الأراضي الزراعية فتدهورت . .

وأما الأموال فنُهبت وأما القصور وما فيها من جواهر وذخائر فقد نهبتها أيدي أمراء النظام المملوكى الناصرى وخشداشيته .

ونحن لا نقول هذا الكلام اعتباطا أو رجما بالغيب . . ولكننا نقول إن هذه الأموال كلها كانت موجودة في أول ديسمبر ١٩٥٢ وهى اليوم غير موجودة أو بقى منها النزر اليسير . . فإذا لم تكن موجودة اليوم فمن الذى يُسأل عنها . . ؟ يُسأل عنها الذين قاموا بعمليات الاستيلاء والمصادرة والجرد والحصر والتصرف . .

والفلاحون فى قرانا قاموا يتندرون بحكاية تنفعنا فى هذا المقام . . فهم يزعمون أن رجلا قال إن هناك طاحونة فوق شجرة عالية فاحتكم الناس إلى رجل ظنوا فيه العدالة والإنصاف فإذا به أروغ من ثعلب . .

سألوه : هل رأيت طاحونة فوق النخلة ؟

قال : والله لا أدري ولكنى رأيت البغال صاعدة بالقمح نازلة بالطحين . . وكلنا نبحث اليوم عن تلك الطاحونة ؟

ولم نكن على أى حال أول بلد ألغيت فيه الملكية وصودرت أملاك البيت المالك . . فقد سبقتنا إلى ذلك فرنسا والنمسا والمجر وتركيا وروسيا وإيطاليا . . ولا نقول إن شيئا من أملاك البيوت المالكة فى تلك البلاد لم يسرق . . فإن منع السرقات منعنا باتا فى هذه المناسبات مستحيل . . ولكن الناس تستفيد من التجارب .

ولم يكن من العسير علينا أن ندرس - ولو بصورة سريعة - ماذا فعلت هذه البلاد لنضمن انتقال الجانب الأكبر من ممتلكات الملوك والأمراء إلى الشعب . . ففى روسيا مثلا اتخذت قرار إلغاء الملكية ومصادرة أملاك البيت المالك حكومة كيريتسكى التى تولت الحكم فى صيف ١٩١٧ وقامت بتنحية بيت رومانوف واعتقلت أفراداه فى موضع مأمون ثم أقفلت القصور بما فيها إقفالا تاما . . وعينت الحراس خارج القصور لا بداخلها . . وظل الأمر على ذلك حتى جاءت ثورة أكتوبر ١٩١٧ التى قادها لينين فأرسلت أفراد البيت المالك إلى سيبيريا حيث تم إعدامهم ثم وضع نظام محكم لإحصاء ما فى قصور الملوك والأمراء بمعرفة لجان اشترك فيها بعض رجال الثورة مع رجال الشرطة والفنيين تحت إشراف القضاة فى كل ناحية . . وقد تم الإحصاء (الجرد) على يد هذه اللجان وسجلت كل المحتويات فى دفاتر بغاية الدقة . . ثم أعيد إغلاق القصور حتى قررت الحكومة على مهل ما تفعله بهذه الأشياء . .

ولكن الطريقة التي اتبعت في مصر عجيبية وربما كانت مقصودة . . لأن الأتباع والخدم والاشيعة أخذوا أوامر المصادرة ومضوا إلى القصور . . ومن ذلك اليوم لا يعلم أحد على وجه الدقة ماذا حدث لمحتويات هذه القصور جميعا . .

والطريقة التي اتبعت عندنا كانت أسوأ ما يمكن عمله . . فقد أنشئت لجنة للمصادرة وإحصاء ما في القصور برئاسة ضابط من المشهود لهم بالأمانة . . وهو البكباشي محمود يونس الذي كان إذ ذاك مشرفا عاما على المكتب الفني لمجلس الثورة وعضوية نفر آخر من رجال الثورة والفنيين . .

وهذه الطريقة التي سارت عليها اللجنة كانت انتداب رجال معظمهم من الضباط الصغار « إذ ذاك » وبعض المعارف والمحاسبين طبعاً . . وهذه اللجان تفاجيء القصر المراد إحصاء ما فيه . . والمفروض أنها تخصى ما فيه في دفاتر وتثبت بغاية الدقة ثم تغلق البيت إغلاقاً قانونياً أو تتركه في عهدة أصحابه وتسلم الدفاتر للجنة الجرد المركزية وكان مقرها في قصر القبة . .

وقد بدأت هذه العملية في أغسطس ١٩٥٢ أى في بداية الثورة . . والفوضى تشمل كل أعمال رجالها . . واستمرت بعد ذلك . . ثم جاء عصر الصراع بين عبد الناصر ومحمد نجيب على السلطان . . ثم عصر الصراع الداخلي بين رجال الثورة أنفسهم وهو صراع انتهى باستيلاء عبد الناصر وحده على كل شيء مشتركاً - على رغمه - في ذلك مع عبد الحكيم عامر الذي وضع يده على الجيش واستمر الصراع بينهما حتى انتهى بكارثة يونيو ١٩٦٧ ثم موت عبد الحكيم عامر . .

خلال هذه الفترة كلها - أى إلى موت عبد الحكيم عامر - كان السلطان على المستوى العالي في يد رجال مجلس الثورة ومن اتصل بهم . . ونقصد بالمستوى العالي مستوى السياسة العامة والتشريع والسياسة الخارجية وإدارة البلاد . .

أما ما تحت ذلك . . أى مستوى التنفيذ والحكم والتصرف في الأموال والوظائف فكان الأمر كله في يد الضباط الثانويين الذين ذكرناهم . . كانوا صغاراً وصاروا مع الزمن كباراً . . كانوا فقراء أو أوساط على أحسن تقدير - فأصبحوا جميعاً أغنياء . . وكل ضابط من ضباط مجلس الثورة كان له فريق من أتباعه ومساعديه . . هو يأمر وهم ينفذون بالطريقة التي يرون . . ومادام الضابط الكبير من أتباع عبد الناصر وأنصاره أو من أتباع عبد الحكيم عامر فلا سبيل إلى محاسبته قط . .

والذي حدث لقصور الملك والأمراء والأميرات لا يمكن أن يوصف إلا بأنه شائن . .

لأن كل ما تبقى من محتويات هذه القصور ١١٠٠٠ قطعة من المصاغ والجواهر محفوظة في خزائن البنك المركزى فى عهدة سيدة مريضة . . كانت موظفة فى وزارة الثقافة هى السيدة ثريا منجى مصطفى . . وهى تلح فى أن تعفى من هذه المسئولية وتطالب بمعونة مالية لها لتواجه مرضها . .

ولكن أحدا لا يصغى لها . هذا أمر مفهوم لأنه إذا كانت كل كنوز سليمان قد نُهبت ولم يبق منها إلا تاج الهدهد وهو من الريش . . فمن هو المجنون الذى يتسلم هذا التاج الرخيص لكى يسأل بعد ذلك عن كنوز سليمان ؟

الكلام كثير جدا . . والمقالات التى كتبت والكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كثيرة جدا آخرها كتاب حافل بالمعلومات والصور المحزنة وعلامات الاستفهام والتعجب عنوانه « مجوهرات أسرة محمد على والأربعين حرامى » (كذا) ومؤلفه السيد الأستاذ حسين الرملى . .

واعتقد أنه مادامت رئاسة الدولة اليوم تتسم بالنزاهة والجدية والحرص على صالح الوطن . . فلا بد من النظر فى هذا الموضوع واتخاذ قرار فيه . .

ولكن فيم يهمننا أمر الأملاك والقصور والجواهر وما ضاع منها وما بقى ؟ . . يهمننا لأن طائفة معينة هى جماعة من ضباط الصفوف الثانية وما تحتها . ممن كانوا يعملون فى مكاتب رجال الثورة . . ويتبعهم عدد ضخم من المحاسبين والأقارب والأتباع ، هم الذين تسلموا تلك الأموال والممتلكات الضخمة من أصحابها وكان المفروض أن يحصوها إحصاء دقيقا ويحافظوا عليها لتظل فى ملكية الشعب . .

وقد تسلموها . . ولا يدري أحد ماذا جرى لها بعد ذلك لأنها اليوم غير موجودة . .

والأمر هنا لا يقتصر على أملاك الملك ومحتويات القصور الملكية . . وهى ثروة قومية يملكها شرعا شعب مصر . . ولكن جاءت بعد ذلك مصادرات أموال كل طبقة الباشوات وأسرههم وأتباعهم ثم أملاك الخواجات وشركاتهم ومتاجرهم وأموالهم أى ثروة مصر القومية كلها ومدخرات مصر كلها خلال ١٥٠ عاما . .

كل هذه كانت موجودة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهى غير موجودة اليوم . .

فأين ذهبت ؟

إن الجواهر والأموال والرياش والفضيات والتحف لا تؤكل ولكنها تنهب تنتقل من قصورها إلى بيوت الناهبين أو تباع أو تهرب . .

كان عبد الناصر يسمى عصر ما قبل الثورة عصر النصف في المائة . . أى أن نصفاً في المائة من أهل مصر كان يملك مصر كلها بما فيها ومن فيها . . وبقية أهل مصر ٩٩,٥ في المائة لا يملكون شيئاً . .

وفي أيامنا هذه لا زال الـ ٩٩,٥ لا يملكون شيئاً . . فأين ذهبت أموال مصر ومدخراتها خلال قرن ونصف . . ؟

يُسأل عن ذلك السوبر باشوات . .

وعصر السوبر باشوات استمر حتى موت الرئيس السادات في ضحى ٦ أكتوبر ١٩٨١ . .

وأنا هنا لا أتهم ، ولا أحكم ، ولا أقول أن كل أتباع كبار رجال الثورة مسئولون عن تلك الأموال التي نهبت ، لأن الحق أنه كان فيهم أشرف كثيرون ، كان فيهم شباب أخلصوا وصدقوا ، ولم يدنسوا أيديهم بشيء من المال الحرام .



٦ جريمة الشريعة الثورية

تاريخ مصر سجل أعاجيب .

ولكن أعجب هذه الأعاجيب هي أن مخلفات من عثرنا على قبورهم من الفراعنة ملوك مصر القديمة ونسبتها إلى ما لم نجد إلى يومنا هذا أو وجدناه منهوبا فارغا لا تصل إلى واحد في الألف . هذه المخلفات يبلغ عدد قطعها أكثر من مائتي ألف قطعة . والمعروض منها في متحف الآثار بالقاهرة ٦٣٧٢ والموجود في المخازن يبلغ مثل هذا العدد . والموجود منها في متاحف أخرى يصل بالموجود من قطع الآثار فعلا إلى ما يزيد على ٢٠٠٠٠ قطعة . وإذا أضفنا إليها ما يوجد في متاحف العالم والمجموعات التي يملكها أفراد وما يوجد منها في متاجر الآثار بلغ عددها إلى ما يزيد على ٥٠٠٠٠ قطعة .

وهذه مخلفات ملوك وأمراء وأشرف مصريين مضى على وفاة أقربهم إلينا ٣٠٠٠ سنة . أما الباقي من مخلفات ملوك مصر وأمرائها من أسرة محمد علي - ولم يمس على عزل آخر ملوكها إلا ثلث قرن - فلا يزيد عدد قطعه على ١١٢٤٧ قطعة ، هي المحفوظة الآن في خزائن البنك المركزي !

وفي ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت كل تلك الذخائر والممتلكات في موضعها في قصور أفراد الأسرة ، أي أن معظم الدين أخذوها - سرقوها بتعبير أدق - مازالوا بيننا ، ومعظم القطع مازالت هنا ، مع أن بعض الذين سرقوا تصرفوا في الكثير منها بالتهريب إلى الخارج .

ومع ذلك فمازلنا عاجزين عن تعقب هذه المسروقات . وفي البلد اليوم حكومة على رأسها رجل هو الشرف بعينه . وإذا كان الرئيس السابق أنور السادات لم يكن يجب أن يطول البحث في ذلك الموضوع لأن بعض الرذاز أو الشظايا كان من الممكن أن يصل إليه ، فإن خلفه الكريم بعيد كل البعد عن هذه المظنة ، ولا بد أن يكون راغبا مثلنا في الكشف عن أسرار هذه المأساة . ولهذا فنحن نكتب ونرجو . .

وليس هدفي من هذه المقالات هو الفحص عن أمر هذه التحف والذخائر التي ضاعت ، فهذا عمل يحسنه غيري أكثر مما أحسن ، ولكن غرضي الحقيقي أعلى من ذلك . وهو الكشف عن الآثار المخربة لتلك الجناية على أخلاقيات الناس في هذه البلد .

وأصارع القارئ بما أريد أن أصل إليه . .

فإنه قد روعى كما روع غيري استثناء ما يسمى بتدهور الجهاز الإداري ، وزيادة شكوك الناس في الكثير من المسئولين ، وشكوك بعضهم في بعض ، وهم معدبون فلم

يسبق فيما أعلم أن ارتكبت مخالفات واعتداءات على القانون والأخلاق كما يحدث في أيامنا هذه وأنا - مثل مثل غيري من أبناء هذا البلد - أشعر بالقلق على الحاضر والمستقبل ، لأن الفساد كالتعفن إذا لم يوقف فلا بد أن يستشري ، لهذا فإنني أريد أن يقف هذا التيار .

ولكن يقف تيار الفساد فلا بد أن نعرف طبيعته ، لأننا كلنا نعرف أن الفساد ليس جزءا من طبيعة إنسان بلدنا ، فنحن فيما أعرف من تاريخ بلدنا شعب قليل الميل إلى الفساد ، شديد التمسك بالصلاح وسلامة الخلق والضمير والتصرف .

وإذن فهذه الموجة المخيفة طارئة وغريبة عن طبع هذا الشعب وما دامت طارئة وغريبة عن طبع هذا الشعب فمن الممكن إيقاف تقدمها ثم قطع دابرها .

وَلَكِنِّي نصل إلى ذلك فلا بد أن نعرف ماهي ؟ ومتى طرأت ؟ ولهذا فأنا أبحث وأنقب وأدرس وأتعقب ويهمني طبعاً أن توجد المسروقات ، ولكن الذي يهمني أكثر هو أن تقطع اليد التي سرقت . حتى يسلم لنا هذا المجتمع ، وحتى نستطيع أن نسلمه إلى الأجيال التي تأتي بعدنا ونحن آمنون . .

أما أن نترك السارق وما سرق ، فمعناه أننا نرضى عن السارق ونقره على ما سرق . وفي هذه الحالة نكون نحن وللصوص سواء ، وقواعد الأخلاق تقول : إن الساكت عن اللص لص مثله .

وأضيف هنا أن السرقة هي الاستيلاء على شيء وإدعاء ملكيته دون وجه حق سواء أوقعت السرقة في الخفاء أو غصباً أو بالحيلة أو بالتهديد أو خيانة الأمانة واستغلال النفوذ .

وأقول أخيراً إن كل سارق يعرف فيما بينه وبين نفسه أنه سارق ، فكل رجل من حولنا يعيش على مال وصل إليه عن طريق التصرف غير الأمين في أموال التأميمات والمصادرات والحراسات يعرف أنه لص . وكل من سلب من القصور شيئاً واحتفظ به لنفسه أو هربه أو باعه لمهرب يعرف أنه لص وكل من يجلس في بيت استولى عليه من الحراسات بغير حق أو غصبه من أهله يعرف أنه لص وكل من قبض مالا أو شيئاً ذا قيمة في مقابل خدمة بغير وجه حق يعرف أنه لص ، وكل من يضع قدمه النجسة على سجادة مسروقة يعرف أنه لص ، وكل من يضيء بيته بثريا مسروقة من القصور أو يأكل على مائدة مسروقة أو في صحاف فضية مسروقة يعرف أنه لص ، وكل من تلبس في يدها أو على صدرها أو حول رقبتها جواهر مسروقة تعرف أن يدها تستحق القطع وصدرها ورقبتها في النار . .

والمسروق كما نعرف ألوف الأشياء ، وللصوص وشركاؤهم وأسرانهم نتيجة لذلك

ألوف ، وكل منهم جرثومة فساد . .

ثم نتعجب من أننا كل يوم نعثر على لص أو فاسد ذمة أو آخذ رشوة أو خائن أمانة ! وكل يوم تقع أعيننا على ناس يتمتعون بأموال لا يشك رائيها في أنها مسروقة ، ونتعجب من فساد الذمم وانتشار الرشوة وإهمال المرافق وتهاون بعض المسؤولين كبارا وصغارا ! ثم - وهذا هو أسوأ ما في الموضوع - تسليم الناس بأن الأمر فسد ولا أمل في علاج .

وأعجب من ذلك أننا نرجو مع ذلك أن يصلح الله الأحوال ! والله سبحانه لا يصلح حال ناس يشتركون في الفساد أو يسكتون عن الفساد أو ينامون مع الفساد تحت سقف واحد .

وكلامى هنا موجه إلى الذين يقرءون قول الله سبحانه ، في سورة الرعد (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيص الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

فكيف والله نرجو أن يغير الله ما بنا ويرفع عنا البلاء ونحن نرى اللصوص ونرضى عنهم ونشاركهم العيش والطعام ؟ .

ومن أعجب العجب أن السارقين يخادعون الله فيحجون عاما ويعتمرون عاما . والحججات والعمرات كلها بمال مسروق . فإذا هم خدعوا الناس فهل يحسبون أنهم يخدعون الله ؟

(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم) البقرة ٩ . .

ما الذى حدث إذن ؟ وكيف بدأ الفساد ؟

كانت البداية أن أمرا صدر في ديسمبر ١٩٥٢ بمصادرة أملاك الملك وأسرتة وأملاك كل أفراد الأسرة المالكة من أراض وقصور ومحتوياتها وأموال .

وقمت العملية على أسوأ صور الفوضى . فإن وزير المالية إذ ذاك أصدر أمرا بأن يخرج كل أفراد الأسرة من بيوتهم . وتغلق وتشمع حتى يتسنى للجند حصر محتوياتها ، ثم تعاد إليهم على أن تعتبر القصور وما فيها عهدة في أمانتهم يُسألون عنها ، على أن يسمح لكل منهم بالإقامة في قصر واحد من قصوره وتترك له سيارة واحدة ويظل الأمر على هذا الوضع حتى تتخذ الدولة ما تراه في القصور وأصحابها وما فيها . .

أما قصور الملك ، وكلها ملك للشعب ، فكان المفروض أن تتسلمها لجان الجرد وتتخذ الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على كل شيء فيها ، وتكونت لجنة مركزية للمصادرة والجرد ، وجعل على رأسها ضابط من أهل الأمانة والذمة هو الصاغ محمود يونس رحمه الله .

والى كل قصر من قصور الملك والأمراء - وعدد أسرهم ١٧ أسرة ، ومعظمهم كان يملك أكثر من قصر - كانت تذهب لجنة جرد .

والمسألة بدأت بقصور الملك والأسرة المالكة ، ثم اتسع الموضوع بمصادرة أموال من سموهم بالإقطاعيين ، ثم - بعد حرب السويس في صيف ١٩٥٦ - بمصادرة أملاك الأجانب وشركاتهم وبيوتهم ومتاجرهم وبنوكهم ، ثم أصبح الأمر فوضى بلا ضابط . لأن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في حربهما - واحدا مع الآخر - انطلقا فيما أصبح يسمى : مزيدا من الاشتراكية ! مزيدا من الاشتراكية .

حتى أتمت مخازن ومحلات حلوى ومصانع أثاث ومتاجر صغيرة وما إلى ذلك ، لأن الأمر أصبح عملية نهب يقوم بها جيش من الغزاة .

وكل هذه العمليات يقوم بها مكتب رئيسي للجرد والمصادرة في جاردن سيتي تقوم فيه لجنة عليا للأموال المصادرة .

تصور والله أن لجنة عليا مثل هذه مركزها شقة في جاردن سيتي كانت تتولى عملية تنظيم استيلاء الغزاة على ما يمكن أن نسميه بأموال مصر ومدخراتها خلال قرن ونصف قرن من الزمن لأن الأمر بلغ أن كل من كان يطمع في شيء من رجال عبد الناصر وصاحبه كان يتقدم باتهام يعقبه الموافقة على المصادرة والتأميم ، وفي العادة يكون الاستيلاء والنهب قد تما قبل ذلك .

وأنا شخصياً شهدت عملية مصادرة وتأميم لمخبز إلى جوار منزلي القديم في حي الروضة ، ومن غريب المصادفات أن اسمه مخبز الإخلاص وشهدت بعيني كيف نهب كل ما فيه حتى الإخلاص .

فأما الذين خافوا على أنفسهم من لجنة المصادرات ومكتب الأموال المصادرة من أمثال الصاغ محمود يونس والبكباشي (إذ ذاك) مشهور أحمد مشهور فقد غسلوا أيديهم من تلك المأساة قبل أن تتحول إلى عملية نهب بشعة .

واللجنة العليا للمصادرات كانت تختار لكل قصر أو بيت أو مصنع أو متجر لجنة

مصادرة تذهب إلى المكان المراد ، وتفاجيء من فيه بالأمر الذى كان ينزل على الناس كالقضاء المحتوم يحمله شبان من الأتباع والأنصار والمحاسيب والخشداشية .

وأنا أذكر هنا الأحداث بلا أسماء لأن الأمر مع الأسف الشديد صار كما قال صديقى الدكتور إبراهيم عبده فى كتاب له ممتع عنوانه «تاريخ بلا وثائق» أى ميراث بلا وراث ، ومال سايب بلا صاحب وبوابة بلا بواب ، وبلد بلا عمدة .

والقصور التى كان أولئك الناس يذهبون ليصادروا أموال أهلها باسم الشعب لم تكن محتوياتها مسجلة فى دفاتر ، ومن هو الذى ينشئ دفتر جرد لمحتويات بيته ؟ ومن دواب الجيش الغازى إذن يستطيع أن يأخذ ما يريد ، وبدلاً من أن تحصي المحتويات فى مكانها ثم يغلق المكان أو يترك عهدة فى يد أصحابه كانت الأشياء الثمينة توضع فى حقائب وتأخذها اللجنة وتمضى ، إلى أين ؟ .

وأقرأ الخبر التالى الذى يرويه الأستاذ حسين الرملى فى كتاب : مجوهرات أسرة محمد على والأربعين حرامى :

« وأمسك الأستاذ أحمد رفعت وكيل نيابة الأموال العامة الذى يحقق فى هذه السرقات أكثر من دليل يثبت التلاعب وعمليات النهب والسرقة التى تعرضت لها هذه التحف والمجوهرات . إنها أدلة ثابتة على وقوع سرقات وإن كان الفاعل ما يزال مجهولاً ! يقول : إن مجموع الملفات الخاصة بمجوهرات أسرة محمد على بلغ عددها حتى الآن ١٢٠٠٠ ملف ، وكل واحد من هذه الملفات يحتوى على توصيف فى لكل قطعة من هذه التحف والمجوهرات على حدة واستطاع الأستاذ أحمد رفعت وهو يراجع هذه الملفات ورقة ورقة أن يكشف الكثير من عمليات (الكشط) والتزوير مما يؤكد أن تلاعباً قد وقع فى مجموعة هذه التحف والمجوهرات .

وهذا عن أملاك الأسرة المالكة والقصور ، وقد كتب عنها الكثير ولكن أحداً لم يكتب بتفصيل عما جرى للأمرء والأميرات وقصورهم وما كان فيها وقد قلنا أن أسراتهم بلغت عشية الثورة ٤١٧ لكل منها قصورها وأموالها وأملاكها ما بين أرض وعقار ، ومنقولات وأموال . .

أين ذهب ذلك كله ؟

وما الذى كان يحدث لأصحابه على أيدي رجال لجان الجرد والمصادرة ؟ وقد تبين للناس جميعاً مدى ما كان فى تصرفات رجالها من العدوان والنهب والاستخفاف بكل قيمة حتى لقد حكى السيد صلاح الشاهد كبير الياوران السابق أنه عندما تزوجت سيدة مصرية

تسمى فتحة من الرئيس نكروما كلفه الرئيس عبد الناصر باختيار هدية مناسبة لها من مجوهرات أسرة محمد على فذهب إلى مخزن هذه الجواهر في البنك المركزي حيث وجدها في أقفاص ١١ وتأكد عند النظر فيها أن الأثمان المبينة عليها فيها سرقة كبيرة . (اقرأ بقية الخبر في كتاب حسين الرملى ص ٧٦ وما يليها) .

والمهم هنا أن الرئيس عبد الناصر يكلف ياوره بأن يذهب ويختار «هدية مناسبة» لسيدة مصرية . مما يدل على أن سيادته ينظر إلى هذه الجواهر وكأنها ملكه ، وكما أهدى منها لزوجته نكروما فلا بد أنه أهدى منها لغيرها . ومن المؤكد على أى حال أن عبد الناصر والسادات وزجال الثورة جميعا كانوا يعتبرون كل تراث مصر ما قبل الثورة ملكا لهم يتصرفون فيه كما يشاءون ، وهذا يؤكد ما قلناه من أن هؤلاء النفر الذين قاموا بتنفيذ التأميمات والمصادرات ممن كانوا يسمون أنفسهم رجال الثورة ، كانوا يرون أنفسهم غزاة وأن كل ما وجدوه كان في نظرهم غنيمة . أقول إن ما حدث لقصور الأمراء وأموالهم كان أسوأ مما حدث للقصور الملكية وقصور الأمراء كانت في القاهرة والاسكندرية وفي مراكز أملاكهم في الريف

وفي كتاب الأستاذ الرملى أخبار عما جرى على هذه قصر وما فيها من نهب بلا حساب . حتى قصور الأمير عمر طوسون في شارع الهرم نهبوا ما فيه وحولوه إلى شبه مزبلة (ص ٨٥ وما يليها) وقد حوكم ضابط يسمى حسن عثمان لسرقته سجادة . سرقها من قصر أحد موظفى القصر القدماء . وهنا يقول الأستاذ الرملى : وإذا كان العقيد حسن عثمان حوكم لسرقة سجادة فإن غيره نقل مفروشات قصر الملكة نازلى بالأسكندرية إلى منزله بعد أن أهدى القصر للزعيم السودانى السيد الميرغنى دون استشارة زملائه ودون مساءلة لأنه كان (صلاح سالم) ص ٤٩ . وقد تبين لى أن العقيد حسن عثمان برىء مما نسب اليه ، وأن مسألة السجادة هذه دست عليه من خصوم له . وقد رد القضاء اعتباره فيا بعد . . .

وبمناسبة صلاح سالم أروى خبرا نقله السيد الرملى عن الدكتور إبراهيم عبده ، فقد قال أنه زار اللواء محمد نجيب في بيته في المرج . وكان مريضا ، وكان معه صديقان له ، قال الدكتور إبراهيم عبده : «فسألته عما يقال عن تبديد مجوهرات أسرة محمد على ، خصوصا أنه أول رئيس للجمهورية ، فإذا به يصيح على الفور : البداية صلاح سالم ، مع الأسف الشديد ، إن رجال الثورة انقلبوا رجال ثروة . . (ص ٤٧) ويل ذلك كلام كثير .

والكلام هنا طويل جدا .

وأنا لا أريد أن أستطرد فيه حتى لا تتحول هذه المقالات إلى سرد معاد ومكرر لأخبار رواها غيرى .

ولكن الذى أريد أن أصل إليه هنا هو أن الفساد بدأ من الرأس . فها هنا ذكر لصلاح سالم وفي كتابات أخرى ذكر لرجال الثورة سواء أكانوا من الكواكب الأحد عشر التى تربعت على عرش مصر بعد الثورة وتولت الوزارات والحكم أم ممن اشترك فى شىء من هذه الأعمال .

ولن أستطرد فى هذا الكلام لأن غايى ليست تقصى أمر هذه المسروقات . ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن معظم رجال الثورة - قد تلاشى فى حسابهم فى ذلك الوقت معنى الحق والقانون . فالأموال - وهى أموال الشعب - تنهب أو تترك لتذهب بلا حساب . والكرامات تهدر بلا اكتراث .

وقد زرت مرة المكتب الرئيسى للمصادرة والجرد فى جاردن سيقى فرأيت العجب من غطرسة العاملين فيه وإذلالهم للناس دون رحمة . وقد زرته فى صحبة سيدة مسنة كريمة كان لها أربعون فداناً تعيش من غلتها ، وكانت قد عهدت إلى محمد شعراوى باشا بإدارتها لأنها مجاورة لبعض أراضيه ، وكان محمد شعراوى قد قال كلاماً لم يعجب جمال عبد الناصر فأمر بمصادرة أملاكه ومساحتها ٤٠٠٠ فدان ، ولم يترك له حتى المائتى فدان التى كان القانون ينص على تركها لصاحب الأرض فى ذلك الحين . وعبد الناصر كان يضع القانون ويخالفه دون حسيب ، فكانت أملاك هذه السيدة ضمن ما صودر فذهبت معها أحاول توضيح الأمر للقائمين بأمر هذا المكتب فلقيت من المهانة فوق ما كنت أتصور ، وعادت السيدة المسكينة إلى دارها وهى لا تجد قوت غدها ، ولم ينفعنى فى هذه المناسبة إلا الشيخ الباقورى أطال الله عمره فقد راف بحال المسكينة ودبر لها من أموال الأوقاف ٢٧ جنيهاً فى الشهر عاشت عليها إلى وفاتها فكانت تدفع منها ١٤ جنيهاً لإيجار بيتها وخمسة نفقات صيانة البيت والبواب والباقي قدره ٨ جنيهاً تعيش عليها شهراً كاملاً ، وعندما اشتد بها المرض كانت تنفق خمسة جنيهاً فى الدواء وتشتري بالباقي خبزاً وتعيش على الخبز والماء .

ومن أعجب ما أذكره أن رجلاً من رجال اللجان زارنى مرة فى إدارة الثقافة أيام كنت مديراً وعرض على أن يخرج لهذه السيدة أربعين جنيهاً فى الشهر إذا هى كتبت سكنها باسمه ليرثها بعد وفاتها ، فرفضت وحذرته من المساس بها وقد توفيت هذه السيدة وأنا على سفر ، فلما عدت ذهبت أزورها ، فقال لى البواب إنها ماتت وأمضى إلى شقتها فيفتح لى الباب نفس الموظف وأجده أمامى كالبلبل فى بيجاما يقول لى فى سخرية وشماتة : عرضت عليك أن آخذه بمقابل فأبيت ، فها هو قد آل إلى (ببلاش) .

فتصور هذا الرجل ، وكيف يرصد هذه السيدة لينقض على بيتها إذا ماتت ولم يمنعه من الانقضاض عليها فى حياتها إلا أنه حسب أنها قريبة الشيخ الباقورى .

ولنصف إلى هذا أن ذلك كان أيام مطاردة الإخوان المسلمين . وفي الخمسينات والستينات كان مجرد شبهة الانتساب للإخوان تعنى ضياع الإنسان أو اختفائه ونفيه إلى الناحية المظلمة من القمر ، واتسع الأمر واستشرى حتى كان الرجل يلقي في السجن بلا أمل في الخروج لمجرد أن إنسانا وشى به وقال إنه قال في حق الثورة كلمة ، وشمل الاضطهاد الشيوعيين وبلغ أمر الاستهانة بحقوق الناس أنهم قبضوا مرة على ناس وألقوا بهم في السجن دون أن يقولوا للقائمين بالأمر في السجن شيئا عن جرمهم . فكتبوا في الدفاتر أمام سبب الحبس أنهم إخوان شيوعيون ولما نبههم رؤساؤهم بعد ذلك إلى تناقض التهمتين قالوا : وماذا نعمل ؟ مادمت لم تقولوا لنا شيئا : كتبنا التهمتين فإذا لم تصح واحدة صحت الأخرى .

وهذا الخلط معقول من عساكر السجن ، ولكنه غير مقبول من رجل من كبار رجال الثورة زعم - ولا يزال يزعم - أنه شيوعي ومع ذلك فقد استولى على قصر أمين باشا يحيى في الاسكندرية وسكن فيه إلى جانب قصر آخر في القاهرة ، وهذا الرجل تولى رئاسة الوزارة في أوائل الستينات فأغلق الباب على المصريين جميعا ، وجعل البلد سجنا ومضى لا يستحي أن يكتب مقالات عن الحرية والاشتراكية ، وما سماه بالرأسمالية الشعبية هي الغثاء بعينه . ومن أعجب ما قرأت في أيامنا هذه أن هذا الرجل - وقد عفى عنه - يحتج لأنهم يمنعونهم من السفر في زعمه ! سبحان الله ! يحكم على شعب كامل بالسجن سنوات ثم لا يطبق أن يحال بينه وبين السفر مرة واحدة !؟

وهذا الرجل الذي ظل يمتدح الشيوعية يسكن القصور ، وينسى أن شيخه لينين رفض أن يضعوا له تحت قدميه فرودب في الشتاء ، وصاح : من تظنون ؟ القيصر ؟ لا والله يا لينين ما كنت بالقيصر ولكن القياصرة هم الذين تحدثوا باسمك في بلدنا أم العجائب . . .

وما معنى ذلك كله ؟

معناه أن القانون زال في معناه ومبناه عند قيادة الثورة نفسها والأموال والأرواح والحرريات لم تعد لها قيمة من بعد قيام الثورة بقليل إلى وفاة عبد الناصر وتلك هي بداية ضعف القانون وتلاشى سيادته واستهزاء الناس به وما إلى ذلك مما نشكوه منه اليوم .

ثم يسألني الناس : ماذا جرى للبلد ؟

فهذا هو الذي جرى للبلد أيها الناس . . تلك هي البداية وهذه هي النهاية ، فأى مدعاة للعجب هناك ؟

وفى تلك السنوات السود التى هانت فيها الأرواح والأموال نشأ ما يسمى بالشرعية الثورية ومعناها أن الثورة لها شرعية خاصة بها تسمح لها بالاعتداء على الأموال والأنفس دون حساب أو محاسبة ، وأنه مما يؤلم النفس أن الذين أذاعوا فكرة الشرعية الثورية كانوا من زبانية رجال القانون الذين جعلوا أنفسهم مشرعين ومحللين ومحرمين وهم أساتذة ودكاترة وجهابذة باعوا العلم والضمير والشرف فى سبيل التقرب من الغاصب وتسويغ ما يريد . .

وفى تلك السنوات كان كاتب العصر ينشر فى الأهرام مقالات فيما سماه أهل الثقة وأهل الخبرة ، والأولون أولى بكل شئ ، والآخرين لهم اللعنات وإلى جهنم ، وهكذا ضيعوا العلم أيضا . . والذين يعرفون تاريخ مصر يعلمون أن هذا البلد نجا من أسوأ ما مر به من محن وأزمات بفضل شيئين اثنين : احترام الناس للقانون وثقتهم فى القضاة ، ثم احترامهم للعلم وأهله .

هذان هما العمادان اللذان قاما عليهما تاريخ مصر الحضارى كله ، فيجىء أولئك الناس فيعصفون بالقانون والقضاة وكرامات الناس جميعا على طول عشرين سنة . . وهذا ما سموه بالشرعية الثورية .

ويراد بها أن الثورة - بصفتها تغييرا شاملا لكل الأوضاع التى كانت قائمة قبلها - لها الحق فى أن تتخطى القوانين القائمة أو تلغيها . . تضع مكانها تشريعات أو قوانين يصدرها مجلس الثورة لحماية الحركة كلها من الأخطار التى لا بد أن تحيط بها بعد قيامها . وهذه القوانين والأوامر تعتبر شرعية ، وشرعيتها هنا لا تستند إلى قانونية ولا تصدر عن الطريق العادى لصدور القوانين وليس من الضرورى أن تعرض على مجلس الشعب لأن الثورة ، والمفروض أنها قامت بالشعب ولصالح الشعب ، تصبح هى الشعب ومجلس الشعب .

وبعد أن قضى جمال عبد الناصر على كل زملائه فى مجلس الثورة أصبح - اتباعا لهذا المنطق - هو الشعب ، وأوامره تصبح قوانين بمجرد إصداره إياها ، وليس من الضرورى أن تصدر مكتوبة أو موقعة . يكفى أن ينطق بها سيادته لتصبح قوانين واجبة النفاذ وأحيانا كانت حركة يد من السيد الرئيس تعتبر أمرا رسميا واجب النفاذ . فيقولون له مثلا : وماذا نعمل فى فلان ؟ فيشير بيده إشارة معناها : ارمه فى أى داهية ، ويرمونه فى أى داهية ، ويكون هذا أمرا رسميا داخلا ضمن ما سموه بالشرعية الثورية .

والذى يؤسف له أن رئيس الدولة وجد فى بعض رجال القانون من يؤيد هذا المنطق ، وبعضهم كتب كتباً فى الشرعية الثورية هذه . وكاتب العصر - وهو لسان عبد الناصر

المعبر ، وكانوا يسمونه « البرين - تراست » أى ملاك الرحمة الذى جادت به المقادير على هذا البلد - لإنقاذه هذا الكاتب كتب مقالات كثيرة دافع فيها عن هذه الجريمة وقال إن من حق رئيس الدولة أن يصدر من الأوامر ما يشاء إذا رأى أن صالح الثورة يستدعى ذلك .

ومن بين ملاحق هذا الكتاب صورة من قرار جمهورى أصدره الرئيس عبد الناصر استنادا إلى تلك الشرعية الثورية يأمر فيه بسجن المواطن صلاح وآخرين وهوشىء لم يسمع بمثله أبدا إذ أن الآخرين هؤلاء يمكن أن يكونوا أهل مصر جميعا ، لأن الذين تولوا تنفيذ هذا الأمر وطاروا به لينفذوه كانوا يستطيعون أن يجرؤا من يشاءون من قدميه ويلقوا به حيث شاءوا دون حسيب أو رقيب .

فهذا قرار جمهورى صادر من رئيس الدولة باسم الدستور وهو مشمول بالنفاذ .

إلى هذا الحد وصل الأمر فى الاستخفاف بالناس والحقوق والحريات .

وهذا ياسيدى دام طوال العصر الناصرى السعيد . بل هو بلغ ذروته بعد نكسة ١٩٦٧ واختفاء عبد الحكيم عامر وخلو الجو للرئيس وأعوانه فأصبح الكثيرون منهم يتصرفون فى أمور المواطنين دون رادع .

والبلد زال منه القانون وروح القانون والذى أصاب أموال الناس وأعراضهم وكراماتهم تحت ستار الشرعية الثورية لا يوصف ثم تجدد إلى يومنا هذا ناسا يقولون إنهم ناصريون .

وبعضهم معذورون لأنهم كانوا صبية وأطفالا فى العصر الناصرى ولم يعرفوا هذا العصر السعيد إلا سماعا . والكتب المدرسية التى درسوها وامتحنوا فيها كانت تقول لهم إن عبد الناصر بطل الأبطال وحامى الحريات وهو الذى خلق مصر ، ومصر قبله لم يكن لها وجود . وعساهم الآن أن يكونوا قد عرفوا الحقيقة .

ثم يسألوننى : ماذا جرى للبلد والأخلاق ؟!

هذا هو الذى جرى للبلد والأخلاق .

أما الحرية ، وهى أساس كل حضارة وتقدم فلم يكن لها فى هذا البلد منذ قيام الثورة إلى وفاة عبد الناصر وجود ! وإذن فهذه هى العلة ! .

إن البلد يخرج الآن من فترة مرض طويلة كان أولو الأمر يهدرون فيها بأيديهم وتصرفهم كل حق وكل قانون وكل علم وكل قيمة . . ولاشك فى أن الذى قام به السادات

فما سمي بثورة التصحيح كان شيئاً عظيماً : ولكن السادات أوقف سير الداء دون أن يشرع في العلاج ، وهو لم يتخلص قط من تراث العصر الناصري ، لأنه - كما كان يقول - جزء منه ومشارك في المسؤولية عن كل شيء وقع فيه .

وما عرفناه بعد موت السادات كثير ، وما نشرته الصحف أثناء محاكمة قاتليه أكثر ، وما فسرهُ الدكتور عبد العظيم رمضان في مجلة أكتوبر عن الآلهة وتحطيمها أكثر وأكثر . .

ولا يمكن قط أن تقفل الدفاتر على ما فيها ويقال : عفا الله عما سلف ولنبدأ من جديد لأن معنى ذلك أننا ندع الفساد يستشري في الجسد ، ولهذا قال رسول الله ﷺ وإنه لا ينحجر على ثار جرح ، فالجرح إذا لم ينظف ويظهر نفر وقتل . .

ومأساة السادات أنه أراد أن يقفل الجرح على القيق ، فكان هو أول ضحية للقيق . . وهذا الشعب موتور ، ولا ينبغي أن ينحجر جرحه على ما فيه ، ولهذا فسنمضي مع هذه الدراسة إلى غايتها ، وما نحن أولاء نرى أن السوبر باشوات كانوا يتكاثرون ، وشهرهم يزداد يوماً بعد يوم .



وقد وصلت جريمة الشرعية الثورية إلى ذروتها في الاعتداء الساخر على القضاء والقضاء .

وقد قص الأستاذ صلاح منتصر قصة الاعتداء كاملة وهو - بمركزه الصحفي الكبير - يعرف من حقائق الأمور أكثر مما نعرف ، وقد قصها في أحد مقالاته القيمة عن « الثورة وما بعدها » والمقال نشر في جريدة الأهرام في ٢٠/٣/١٩٨٣ وقد كنت أريد أن أجعله ملحقاً من ملاحق هذا الكتاب ، لأنه تكملة لازمة للكلام عن « جريمة الشرعية الثورية » .

قال الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان « غزو القضاء » وهو هنا يذكر القارئ بما كان يفكر فيه أهل الدول القوية الناجحة وما كنا نحن نفكر فيه .

في الوقت الذي كان اهتمام العالم فيه مركزاً منذ بداية الستينات على ملاحقة السباق الكبير الذي بدأ بين الدولتين العظميين أمريكا وروسيا لغزو الفضاء كان من بين اهتمام السلطة في مصر في ذلك الوقت ترتيب عملية غزو القضاء !

وكان من بين الأحداث الشهيرة التي تحمل صدام الثورة مع القضاء حادث اعتداء على عالم فاضل من كبار علماء القانون هو المرحوم د . عبد الرزاق السنهوري الذي كان خلال

أزمة الصراع بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب فيما يعرف بأزمة مارس ١٩٥٤ قد اختار الوقوف إلى جانب الديمقراطية ضد الديكتاتورية ، ودعا الجمعية العمومية لمستشارى مجلس الدولة إلى اجتماع قررت فيه تأييد الديمقراطية والحياة النيابية ، ولكن حدث فى أثناء الاجتماع أن وصلت مظاهرة تضم بعض عمال مديرية التحرير وآخرين « وتصادف أن كانت الحراسة قد رفعت من حول مبنى المجلس فى ذلك اليوم » فقامت المظاهرة باقتحام المبنى وقاعة الاجتماع وضرب الدكتور السنهورى وزملائه وتمزيق القرار الذى اتخذوه ، بل أكثر من ذلك إرغامهم على توقيع بيان آخر يؤيد مجلس الثورة .

وفىما بعد انتصار عبد الناصر على محمد نجيب تم إقصاء الدكتور السنهورى عن منصبه .

وقد كان تصرفا غير عادى مثل هذا الاعتداء بالضرب على رئيس مجلس الدولة ، وإن كان الذين دافعوا عن هذا التصرف قد عابوا على الدكتور السنهورى إقحام جهاز قضائى كبير مثل مجلس الدولة فى شبهة عمل سياسى اختار فيه الوقوف إلى جانب طرف من أطراف الصراع السياسى فى ذلك الوقت .

ولكن ما هى إلا سنوات قليلة حتى بدأت الثورة نفسها منذ الستينات محاولة جر القضاء كله إلى العمل السياسى من خلال الاتحاد الاشتراكى .

والاتحاد الاشتراكى هو أحد درجات السلم السياسى الذى حاولت الثورة إعطاء الحكم الفردى مظهر الديمقراطية من خلاله . ففى البداية كانت هناك هيئة التحرير (عندما كانت معركة الوطن هى تحريره من المحتل الإنجليزى) ثم تغيرت الالفة إلى الاتحاد القومى ثم إلى الاتحاد الاشتراكى .

وكان مفهوما أن هذا الاتحاد الاشتراكى هو الإطار الوحيد الذى يمكن من خلاله ممارسة أى نشاط سياسى . ولكن عندما بدأ طرح فكرة ضم رجال القضاء إلى هذا الاتحاد قيل تبريرا لذلك إنه ليس تنظيما سياسيا وإنما هو إطار يضم تحالف قوى الشعب العاملة وأن رجال القضاء هم بعض أفراد هذا التحالف الذى لا يجب بقاؤه خارجه وهكذا فى مرحلة الشعارات يمكن أن يكون هناك الشئ ونقيضه .

وكانت أوضح مظاهر عملية غزو القضاء فى مصر سلسلة من تسع مقالات نشرت فى جريدة الجمهورية فى الفترة من ١٨ إلى ٢٦ مارس ١٩٦٧ بقلم على صبرى الأمين العام للاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت .

وفى هذه المقالات التى كانت تعكس تفكيراً رسمياً من أكبر مسئول فى الاتحاد

الاشتراكي أوضح السيد على صبرى أن رجال العدالة لن يتمكنوا من القيام بدورهم الأساسى الهام فى المجتمع الاشتراكي إذا وقفوا بعيدين عن التنظيمات السياسية ، منعزلين عن العمل السياسى متباعدين عن نضال قوى الشعب العاملة (١)

وقال تأكيداً لرأيه إنه أصبح يعاب على رجال العدالة أنهم كونوا طبقة انفصلت على المجتمع وأصبحت أحكامها فى غير صالح المجتمع بل ولصالح المستغلين والمنحرفين الذين لم تصدر الأحكام ضدهم لعدم ثبوت الجريمة حيث إن التفتيش كان باطلاً أو لعدم كفاية الأدلة للإدانة .

وواضح أنه لم يكن الهدف من جر رجال العدالة إلى الاتحاد الاشتراكي - وهو باعتراف أمينه العام يعد عملاً سياسياً - إشراك هؤلاء الرجال فى بعض القضايا التى يناقشها هذا التنظيم السياسى وإنما أيضاً إملاء الأحكام التى يجب أن تصدر ضد الذين يرى هذا التنظيم أنهم يعملون ضد مصالح المجتمع بصرف النظر عن القواعد والأدلة القانونية التى تتطلبها إدانة أى منهم .

هكذا جاء عام ١٩٦٧ والاستعدادات أصبحت واضحة لاستغلال أية فرصة لإطلاق صواريخ غزو القضاء وإسقاط حصن استقلاله الذى ظل محتماً خلفه منذ انشائه ، لا ينطق إلا بما يمليه ضمير القاضى ، ونص القانون وروحه .

وكان هناك أكثر من صاروخ لتحقيق هذه الغزوة بدأت رؤوسها تطل فى ذلك الوقت وشملت على وجه التحديد :

- ١ - إدخال القضاء إلى الاتحاد الاشتراكي وإرغامه على العمل السياسى بكل ما فيه من مناورات ومؤامرات .
- ٢ - فصل جهاز النيابة عن القضاء وضمه إلى رئاسة الجمهورية .
- ٣ - إدخال ما يعرف بنظام القضاء الشعبى بما يسمح لغير القضاة المتخصصين بالجلوس فى مقاعد القضاء .

ولكن تعطلت الغزوة بسبب وقوع هزيمة ١٩٦٧ ، ثم حدوث التطورات التى كانت من نتيجتها ثورة الشباب فى الجامعات لأول مرة على الثورة وخروج مظاهراتهم تصرخ علناً بما كان الهمس قد بدأ به فى البيوت بعد أن طالت سنوات الصمت التى كان لا بد أن تنتهى إلى ما انتهت إليه فى ٥ يونيو ١٩٦٧ . .

ورغم أن الجامعات والمعاهد قد أغلقت جميعها بعد أربعة أيام فقط من بدء مظاهرات الطلبة ، فقد أحدثت ثورة الشباب آثارها العميقة فى قطاعات مختلفة من الشعب ،

فمجلس الأمة في ذلك الوقت ملأت صدور بعض أعضائه كمية غير قليلة من هواء الحماس الساخن الذي أطلقه الشباب ، ومن ثم عقد المجلس جلسته الفريدة في ٢٨ فبراير ١٩٦٨ وهي الجلسة التي لم يسبق أن عقد مثلها لا قبل ولا بعد هذا التاريخ . .

وفي محاولة من جمال عبد الناصر لامتصاص الانفعالات قام بتشكيل وزارة جديدة أخذت إسم « وزارة المثقفين » لأنه تم الاستعانة فيها لأول مرة بعدد كبير من مديري وأساتذة الجامعات وهو اتجاه لم تكن الثورة تعرفه من قبل بسبب اعتمادها على « أهل الثقة » من غير الخبراء والمتخصصين . .

وغير ذلك أعلن عبد الناصر أنه يعد لتغيير كبير من خلال برنامج سوف يطرحه على الشعب في بيان يلقيه يوم ٣٠ مارس . .

وفي هذا الجو المشحون ببخار الشباب الذي أفلت من الصدور وراح يلفح الكبار ويثير - ربما لأول مرة - تفكيرهم فيما وصلت إليه مصر ، اجتمع مجلس إدارة نادى القضاة يوم ٢٥ مارس لمناقشة ترتيبات الاجتماع السنوى للجمعية العمومية للنادى والتي كان قد حدد موعدا لاجتماعها يوم ٢٨ مارس . .

وإلى جانب الموضوعات العادية المألوفة قرر مجلس إدارة النادى أن يلقى رئيسه في الجمعية العمومية بيانا يعلن موقف القضاة من قضيتين أساسيتين :

الأولى عامة ، وهي قضية الهزيمة العسكرية وضرورة تعبئة كل جهود الجبهة الداخلية لمعركة تسترد فيها مصر بالقوة ما أخذ منها بالقوة . .

والثانية قضية خاصة ، وتتضمن الموضوعات المختلفة التي كانت قد أثارت حول القضاة والتي كان يرى المجلس أنها تهدد استقلاله . . وفي ذلك وضع المجلس بيانا يتضمن النقاط الأساسية التالية :

في مواجهة محاولة إدخال القضاء إلى الاتحاد الاشتراكي أعلن البيان البعد بالقضاة عن كافة التنظيمات السياسية حتى يتأكد لهم النقاء والتجرد والحيدة . .

وفي مواجهة فصل النيابة العامة عن القضاء طلب بيان النادى أن تبقى النيابة كما كانت منذ عرفت مصر التنظيم القضائي جزءا لا يتجزأ من السلطة القضائية ، يسرى على رجالها ما يسرى على رجال القضاء من ضمانات ويتوفر لهم ما لهؤلاء من حصانات . .

وفي مواجهة فكرة القضاء الشعبى أكد البيان ضرورة تخصص وتفرغ القضاة بل أكد أن ما حدث في بعض الأحيان من تجربة منح سلطة الحكم إلى غير القضاة المتخصصين

المتفرغين قد أثبتت فشلها في القديم والحديث . .

وقد انتهى اجتماع مجلس إدارة النادي بإقرار البيان الذى سيلقيه رئيس النادي المستشار ممتاز نصار يوم ٢٨ مارس فى الجمعية العمومية للنادى ، ومن بين الـ ١٥ عضوا الذين يضمهم مجلس إدارة النادي وقع ١٣ على البيان وتهرب اثنان من التوقيع وأحدهما أصبح وزيرا فيما بعد فى أيام الرئيس السادات . .

وعن طريق أحد الأعضاء الذين وقعوا على البيان تم إبلاغ « السلطات العليا » بمحتوى البيان ، وقد حاول شعراوى جمعة وزير الداخلية فى ذلك الوقت مع المستشار ممتاز نصار تارة بالإغراء وتارة بغيره أن يثنيه عن إلقاء هذا البيان أو حتى تأجيله إلى ما بعد ٣٠ مارس بعد أن يلقي عبد الناصر بيانه ، ولكن ممتاز نصار لم يستجب للإغراء ، ولم يخضع لغيره . .

وفى جلسة عاصفة عقدتها الجمعية العمومية فى موعدها المحدد يوم ٢٨ مارس ألقى ممتاز نصار بيانه ، وكانت المفاجأة الأكبر أن مجموعة صغيرة جدا من الأعضاء كانت قد رتبت سرا طبعه فى مطبعة شركة النصر للتصدير والاستيراد التى لم تفتن إلى محتوى البيان لأنه تم تغليفه داخل غلاف يحمل عنوان مجلة نادى القضاة التى كانت المطبعة تتولى طبعتها . .

وقد رفضت الصحف « عملا بحرية عدم النشر » التى كانت سائدة فى ذلك الوقت نشر شىء عن البيان ، ولم تكن هناك فى ذلك الوقت صحيفة معارضة أو حتى تحمل شبه المعارضة تقوم بنشر ما لا تنشره الصحف القومية . . ولكن لأنه تم إيداع البيان فى صالة النادي ، حصل الكثيرون من غير القضاة من المحامين وأساتذة الجامعات وغيرهم على هذا البيان الذى ثارت القيادة السياسية لصدوره .

وبدأت المعركة التى كانت تجرى سرا لغزو القضاة تأخذ صورة العلانية وخصوصا مع اختيار المرحوم المستشار محمد أبو نصير وزيرا للعدل ، وكانت له سابقة سنة ١٩٥٥ عندما أعد قانونا خاصا بتصفية مجلس الدولة من الذين لم تكن الثورة راضية عن تصرفاتهم وعن مواقفهم مع المرحوم السنهورى . .

ولكن إلى جانب وزير العدل الذى راح يدير المعركة علنا عن طريق حركات الترقيات والتنقلات والندب . كانت هناك عمليات سرية - لم تكشف إلا فيما بعد فى قضية مراكز القوى عام ١٩٧١ - فلقد تبين من وقائع المحاكمات التى جرت أنه كان للتنظيم الطليعى السرى التابع للاتحاد الاشتراكى فرع داخل القضاة !

وكان هذا التنظيم السرى معروفا كجهاز أعلن عبد الناصر عن إنشائه منذ عام ١٩٦٢ إلا أنه كان مجهولا كأفراد . . ولكن الذى لم يكن معروفا أن القضاء الذى كان بعيدا عن السياسة قد أمكن التسلل إلى صفوفه وغزو جبهته وتجنيد قلة من أفراده فى هذا التنظيم ، وأنه كانت هناك أكثر من مجموعة تعمل فى صورة منفصلة يقود كلا منها أحد البارزين من المسؤولين فى ذلك الوقت . .

ولم تكن المأساة فى قبول الذين يحملون وسام العدل مهمة التجسس على زملائهم وكتابة تقارير وافية عن تحركاتهم وأنشطتهم ، وإنما كانت المأساة الأكبر فيها تضمنه بعض هذه التقارير التى كانت ترفع لقمة القيادة السياسية فى ذلك الوقت بما يعكس إلى أى حد كانت مختلف الأطراف تفكر وتقرر . .

ومن مئات التقارير التى تم ضبطها - بعد مايو ٧١ - وعندى بعض صورها انقل رسالة كتبها مستشار (حوكم تاديبيا وترك القضاء) . .

كان يعد من أبرز الشخصيات العاملة فى مجموعة سامى شرف سكرتير رئيس الجمهورية لشئون المعلومات فى ذلك الوقت . .

تقول الرسالة وبالحرف :

أخى المناضل السيد سامى شرف ، يسعدنى أن أنقل لسيادتكم هذه الواقعة وهى صورة حية لحب الناس لسيادة الرئيس وإيمانهم برسالته ، رسالة الكفاية والعدل . توجهت أمس السبت مع زميل . . . وكيل النيابة لصلاة العصر فى مسجد السيدة نفيسة ، وبعد الصلاة وأثناء زيارة الضريح سمعنى زميل - وكان يقف بجوارى - وأنا أدعو لسيادة الرئيس ، فشاركنى الدعاء ، وقال لى إنه يعرف سيدة من أولياء الله الصالحين تقيم بجوار المسجد مباشرة وهى الشيخة نظيرة ، وأنها مبروكة ، وأشار على بزيارتها وأن نطلب منها الدعاء لسيادة الرئيس ، فذهبت معه . فاستقبلتنا بالترحاب وهى سيدة تجاوزت الستين من عمرها . وبعد أن تحدثت معها بعض الوقت طلبت منها الدعاء لسيادة الرئيس وانطلقت تقول « أنا دعياله . . وقلبي دعيله . . دا ملاك . . ده ابني . . هو جالى وأنا باشوفة فى الباطن وربنا شفاه وربنا راضى عنه . ثم تحدثت عن محمد نجيب وكيف أنها اكتشفت أنه - فى بداية الثورة - اتصل بالأغنياء والباشوات فاستاءت منه وأبلغت الأولياء وفى الصباح سمعت بخروجه

وبعد فترة وجيزة قالت لى أنها زعلانة من زميل الذى كان معى لأنه « كداب » فقد وعدها بأن يأخذها فى سيارته لزيارة سيدى إبراهيم الدسوقي ولكنه أخلف وعده معها ،

فاعتذر لها زميلي بأن سيارته تعطلت ومازالت في التصليح ، فقالت إنها لا تريد منه شيئا ثم ودعناها وانصرفنا ، وقد لمست في حديثها معنى أنها حقا من أولياء الله الصالحين وأنها تحب سيادة الرئيس وتؤمن برسالته ، وقد كنت أتمنى أن أحقق للشيخة نظيرة رغبتها في زيارة سيدى إبراهيم الدسوقي لتدعو الله في مسجده لسيادة الرئيس ولكن إمكانياتي لا تسمح لي بذلك . . لعدم وجود سيارة عندي ، ومن هنا فإنني أعرض هذه الرغبة راجيا أن تتفضلوا بتحقيق رغبة الشيخة نظيرة وأن تعرف أن سيادة الرئيس هو الذى حققها لها وأن يطلب منها مرافقتها الدعاء لسيادته في مسجد سيدى إبراهيم الدسوقي ومعدرة أن تقدمت بهذا الرجاء ودمتم يا أخى العزيز سندا لنضالنا ١٩٦٩/١١/٢٣ . وامضاء : المخلص . .

ولأنه على ما يبدو أن مثل هذه الرسائل كانت لها طابع السرعة والعجلة في العرض فإنه في اليوم التالى مباشرة - يوم ١١/٢٤ - أشر الرئيس على الخطاب بقوله ممكن يصرف لها تذكرة سكة حديد أو ثمن التذكرة ذهابا وإيابا ما رأيك . .

وفي يوم ١١/٢٥ - كتب السيد سامى شرف في ذيل الرسالة : أفاد السيد . . (صاحب الرسالة) بأن السيدة المذكورة مصابة بشلل في يدها اليمنى وتمشى بصعوبة جدا ويفضل تيسير سيارة ومعها مرافق لتوصيلها لمسجد سيدى إبراهيم الدسوقي وإعادتها بعد أن تقضى حاجتها هناك . .

ولكن رئيس الجمهورية حسم هذه القضية بتأشيرته كتبها بتاريخ نفس اليوم الذى عرضت فيه عليه هذه الملاحظة إذ كتب يقول : سيارة نأسف .

ولم تكن هذه إلا واحدة من مئات الرسائل والتقارير التى كانت تعرض على وجه السرعة والعجلة وتتخذ فيها القرارات ، ويكتبها بعض الذين حملوا وسام العدل ، وأقسموا يمين الولاء للقانون .

ثم عودة إلى معركة غزو القضاء التى كان أكبر فصولها إثارة قد بدأ مع موعد انتخابات نادى القضاة فى مارس ١٩٦٩ ، وكان المرحوم أبو نصير وزير العدل قد حشد لها كل ما يستطيع لانجاح مجموعة أطلق عليها « مرشحو السلطة » وهى مجموعة كانت تضم عددا من كبار الأسماء فى ذلك الوقت . . وعندما تم فرز الأصوات جاءت النتيجة بنجاح ٥ مستشارين هم : ممتاز نصار والمرحوم شبل عبد المقصود وعبد الوهاب أبو سريع والمرحوم عبد العليم الدهشان ومفتاح السعدى ، وخمسة من رؤساء المحاكم والقضاة هم يحيى الرفاعى وسليم عبد الله سليم وجمال خفاجى ومحمود بهى الدين عبد الله ، وحسن غلاب ، وخمسة من أعضاء النيابة هم المرحوم كمال زعزوع ومقبل شاكر وأحمد فؤاد عامر ومصطفى قرطام وحسن عابد . .

ولم يكن من بين هؤلاء الـ ١٥ الذين نجحوا اسم واحد ينتمى إلى « مرشحي السلطة » . .

وكان لابد من إنهاء الغزو وبعمل حاسم تحددت له ساعة الصفر يوم ٣١ أغسطس ٦٩ وهو موعد الحركة القضائية ، ولكي يكون مجلس الشعب في إجازة . .

وكان المرحوم أبو نصير بالاشتراك مع عدد من المخططين القانونيين قد أعدوا خطة الغزو في ثوبها القانوني ، ولكن وبعد ان استكمل أبو نصير كل تفاصيلها ولم يبق إلا لحظة التوقيع صدر قرار بإقالته من الوزارة وتعيين وزير جديد وضع اسمه على القرارات التي كان مفروضا أن يتوجها أبو نصير بتوقيعه ، ولكن التفكير ذهب في ذلك الوقت إلى اختيار شخصية جديدة تصدر القوانين في ظلها بما يعكس إخراج العملية في صورة بعيدة عن الشكوك التي كانت تحيط بأبي نصير . .

وهكذا في ٣١ أغسطس ١٩٦٩ صدرت خمسة قرارات بقوانين تحمل الأرقام من ٨١ إلى ٨٥ وتشمل :

- ١ - إنشاء محكمة عليا وهي التي تطورت فيما بعد إلى المحكمة الدستورية العليا .
- ٢ - إنشاء المجلس الأعلى للهيئات القضائية ، ولكن ، بعد أن أضيفت إليه النيابة الإدارية وأدارة قضايا الحكومة ولم يكونا في القانون القديم معتبرين من السلطة القضائية على أساس وجهة النظر التي تقول بأنهما يمثلان الحكومة بعكس القاضي أو عضو النيابة . .
- ٣ - إعادة تشكيل الهيئات القضائية بحيث من لا يجد اسمه ضمن هذا التشكيل يعرف أنه إما أحيل إلى المعاش أو نقل إلى جهة أخرى . .

وكان من بين الذين انطبق عليهم ذلك الاستبعاد أكثر من ٢٠٠ إسم أولهم كل أعضاء مجلس إدارة نادی القضاة والذين أشارت تقارير أعضاء التنظيم الطليعي إلى أن لهم نشاطا وطنيا ، وأكثر من نصف محكمة النقض وبعض الذين اشتركوا في إصدار أحكام لم ترض السلطات العليا وكذلك الذين أصدروا أحكاما بالبراءة في قضايا سبق وأن تحدث رئيس الدولة في خطبه عن المتهمين فيها وأدانهم أمام الشعب ولكن القضاء حكم ببراءتهم . واشهر هذه القضايا قضية السفير أمين سوكة الذي اتهم بالتجسس وحكم ببراءته في مارس ١٩٦٩ أمام دائرة يرأسها المستشار سعيد كامل بشارة ، ومحمود عبد اللطيف في وزارة الأوقاف وقد اتهم بتدبير محاولة انقلاب لنظام الحكم . . وحكم المستشار فؤاد رشيد ببراءته في ابريل ١٩٦٩ ، والدكتور السمني الذي كان من بين أعضاء المحكمة التي برأته عام

١٩٦٢ المستشار جمال المرصفاوى وكان قد سافر للعمل فى الكويت ورغم ذلك تضمنته قرارات العزل . .

- ٤ - حل نادى القضاة وتشكيل لجنة جديدة لادارته . .
- ٥ - إعطاء رئيس الجمهورية سلطة النقل والتعيين بقرار جمهورى . .

واستكمالا لمعركة غزو القضاء لابد من الإشارة إلى طعن واحد قدمه أحد الذين مستهم قرارات الإبعاد وقد كان الوحيد الذى تمسك بحقه فى الطعن فى خلال الثلاثين يوما التى حددها القانون للطعن فى القرارات بقوانين التى صدرت ، ورغم كل المحاولات التى جرت لسد الطريق عليه حتى لا يتمكن من كتابة الطعن على الآلة الكاتبة ومطاردة كل مكتب يقوم بتسليمه هذه الاوراق لكتابتها حتى يضيع عليه موعد الطعن فلقد استطاع يحيى الرفاعى سكرتير نادى القضاة فى ذلك الوقت والذى أبعد من العمل القضائى أن يصل بطعنه إلى محكمة النقض فى اليوم الأخير وقد طالب فى طعنه بإلغاء كل القرارات التى أصدرها رئيس الجمهورية على اعتبار أنها مشوبة بعيب اغتصاب السلطة التى يجعلها تنحدر إلى مرتبة الانعدام . لأن الأصل أنه إذا كان جائزا للحكومة فى غير دورات مجلس الشعب أن تصدر قرارات بقوانين لها صفة العجلة عند الضرورة ، فإن هذه القرارات بقوانين لا يجوز أن تعيد تنظيم السلطة التشريعية أو السلطة القضائية وإلا انفردت السلطة التنفيذية بحق السلطين الآخرين ، وإن مثل هذه القوانين التى تتعلق بنظام فصل السلطات لا تحمل أية عجلة وإنما يجب صدورهما فى شكل قوانين عن طريق السلطة التشريعية . .

وقد قبلت محكمة النقض الطعن وقضت بانعدام القرارات الصادرة وإعادة صاحب الدعوى إلى عمله وكان ذلك فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٢ . واستفاد بهذا الحكم جميع الذين عزلوا ولم يعودوا إلى مناصبهم حتى ذلك التاريخ . .

وفى الوقت نفسه وفى فترة حكم أنور السادات ألغيت القرارات التى صدرت فيما عدا القرار الثانى الخاص بإعادة تشكيل الهيئات القضائية . .

انتهى كلام الأستاذ صلاح منتصر . .

صدرت هذه القرارات فى ٣١ أغسطس ١٩٦٨ . .

وفى آخر مارس ١٩٦٨ كان قد صدر بيان ٣٠ مارس الذى قيل فيه إنه يفتح لمصر عصرا من الحرية والبناء والسعادة والرخاء وقد أشرت إلى مأساة هذا البيان . .

ثم يتساءلون عما جرى للناس . . فهذا أيها الاعزة هو ما جرى للناس . .
والذى جرى لهم وأفقدتهم الإحساس بوطنهم وواجبهم نحوه هو هذا الحكم الغاشم
الذى أحل لنفسه كل شئ وأهدر حرية القضاء وتسلبت على القضاة . .
ونتيجة لهذا كله أصبح الناس يشعرون أنهم يعيشون بدون قانون يحميهم أصبح
المصريون يعيشون في وطنهم خائفين من حكومتهم . . وأصبح هم الواحد منهم أن ينفى
عن نفسه تهمة الوطنية ، فإن الوطنية وحب الوطن والإخلاص له كانت تلك الحقبة
كلها جرائم يعاقب عليها صاحب السلطان ورجاله . .
وباسم جريمة كبيرة تسمى الشرعية الثورية ارتكبت جنایات أخرى كثيرة جدا أكبرها
مطاردة شعور الوطنية والولاء والإخلاص للحق والواجب والوطن . .

وهذا كلام أقوله لإخواني المصريين جميعا وأقوله - بصفة خاصة - للذين استمروا
الحكم في ظل جريمة الشرعية الثورية . .
فقد كانوا هم أنفسهم يعيشون في خوف في ظل عبد الناصر ، والواحد منهم كان فؤاده
يرجف ليل نهار ، خوفا على المركز والنفوذ والروح أيضاً . .
وبلغ من خوفهم أنهم كانوا يلجئون إلى العرافات وقارئات الكف ليستكشفوا الغيب
ويسبقوا المحذور . .
ورجال كانت بأيديهم مصائر الألوف كانوا يجلسون صغارا تافهين أمام قارئة الكف أو
كاشفة مندل تبيعهم أمان النفس بقروش . .
وهم معذورون

فإن الخوف إذا استشرى شمل الجميع . .

والأمن إذا استقر شمل الجميع . .

ولا شك أنهم اليوم يحمدون الله على عودة حكم القانون والأمن على النفس والمال .
وعسى أن يذكر ذلك كل من تحدته نفسه بالاستبداد ، وإهدار حريات الآخرين . .
لأنه هو نفسه سيكون - مهما بلغ - ضحية الاستبداد وإهدار الحريات والدماء . .

٧ السلطان وممالك السلطان



عبد الحكيم عامر

أما السلطان فلا شك في أنه كان رجلاً عظيماً وصانع تاريخ ، خرج من بني مر مركز أسويط من قرى الصعيد الأوسط وتزعم الثورة المصرية ، وواجه الاستعمار الغربي ببسالة نادرة .

وضرب بسيف البطل بين عيني الطغاة عندما أمم قناة السويس . فأفاق العرب وانفتحت أبواب الحرية للعالم الثالث ، وأوروبا لم تغفر لهذا البطل المصري جرأته فقررت القضاء عليه . وكان عليه أن يخوض معارك بلا نهاية ، وفي أثناء ذلك انطلق ممالك السلطان - السوبر باشوات - يفترسون مصر وكرامات أهلها وحرمة الوطن ، داسوا بأرجلهم كل القوانين ، ووسعوا هوة الخلاف بين السلطان جمال عبد الناصر والسلطان المساعد عبد الحكيم عامر ، وقامت الحرب الأهلية بين الاثنين ، وانتهزوا الفرصة وانتهبوا كل شيء ، وصاح السلطان دفاعاً عن نفسه : لقد أعطيت القانون أجازة ! وفي أجازة القانون بلغت غارة النهب والعدوان على الحريات والكرامات ما لم تعرفه مصر في تاريخها أبداً ، كل ذلك لكي يلتهم خشداشية السلطان كل ثروات مصر ، وصاح كاتب العصر :

أنا الصحافة والصحافة أنا ! « أنا الفكر وحرية الفكر ! ولا فكر إلا ما يقول السلطان . . لا مثقفين بعد اليوم ! لا ثقافة ولا علم ولا قانون ولا قضاء » وادعوا لمولانا السلطان بالعز والدوام وفي النهاية استدار ممالك السلطان وقضوا على السلطان نفسه ، وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ مات السلطان البطل واقفاً كما تموت الأشجار . . مات محسوراً مهزوماً وخلا الجو للممالك والخشداشية وبلغت موجة الظلم والإذلال والنهب مداها . .

السلطان وممالك السلطان .

لكي نفهم حقائق ما حدث خلال السنوات الأولى للثورة بعد أن أصبحت ملكاً خاصاً لجمال عبد الناصر وأعوانه لا بد أن أعود قليلاً إلى الوراء لأنني أريد أن نكون على بينة من أمرنا فيما نروى من الأحداث . . والماضي يشرح الحاضر ويفسره . . والذي يحدث هنا أن الإنسان يشعر أحياناً بألم ما في جسمه . . وعندما يذهب إلى الطبيب يتبين له أن العلة بدأت من سنوات فيعود مع مريضه إلى الوراء لكي يعرف العلة من البداية حتى يستطيع أن يسير في العلاج على بينة من أمره . .

كان توقيع مصطفى النحاس على وثائق معاهدة ١٩٣٦ توقيعاً على شهادة وفاة حزب الوفد . . لأن « وفد » سعد زغلول حصل على توكيل من شعب مصر للدفاع عن حقوقه وتحقيق الاستقلال وإجلاء البريطانيين عن مصر . . وعندما قال مصطفى النحاس إن تلك المعاهدة تعني الاستقلال فقد انتهت بذلك وكالة المحامي . . وكان ينبغي أن يتواري . .

ولكنه ظل في الميدان دون وظيفة . . والذي فعلته ثورة يوليو ١٩٥٢ هو أنها دفنت الحزب الذي رفض أن يتوارى بعد انتهاء دوره التاريخي . .

ولا بد أن نلاحظ هنا أننا بسبب قلة تجاربنا في عالم السياسة لا نكاد نفهم في حقائقها شيئاً . . ونظام الأحزاب بالذات نظام جديد علينا . . ولهذا نحن لا نفهمه . . ونتصور أحياناً أن الحزب هيئة أو جماعة من الناس وظيفتهم الرئيسية هي الصراع للاستيلاء على السلطان والبقاء فيه أطول مدة ممكنة والفوز منه بأكبر غنيمة . . وهذا هو التفسير المملوكي القديم للأحزاب . فإن الممالك كانوا أحزاباً وظيفتها الأساسية هي الاستيلاء على السلطان والاستيلاء على السلطان لا يعرف الأخلاق ، فهو صراع حياة أو موت . والسياسة عند أسلافنا من منتصف العمر الراشدي إلى بداية القرن التاسع عشر كانت مذابح . . وحكم كل خليفة أو أمير أو سلطان كان يبدأ بمذبحة وينتهي بمذبحة . . ولا وجود لأي فكرة قومية أو وطنية في هذه المذابح .

وعندما دخلنا في العصر الحديث وعرفنا أشياء جديدة جداً علينا مثل الدستور والبرلمان أخذنا نطبقها على نفس طريقة المذابح . . حتى الدستور كنا نذبحه إذا لم يعجبنا ونكتب دستوراً آخر مكانه . . وفي عصر الاحتلال الإنجليزي كنا نمارس الصراع الحزبي على طريقة المذابح . . ولكن بدون إراقة دماء . . وفي أول وزارة ائتلافية تكونت بعد وفاة سعد زغلول أراد محمد محمود أن يكون رئيس وزارة ، واستعان في ذلك بالملك واللورد جورج لويد السفير البريطاني فتعلل بحكاية إدارة أملاك الأمير سيف الدين ، وأراد أن يذبح بها مصطفى النحاس . . واستقال من الوزارة وتبعه في ذلك أنصاره وسقطت الوزارة وتولى محمد محمود رئاسة الوزارة ، وقال إنه سيطهر البلاد من الفساد وسيحكم لذلك بيد من حديد . . وألغى الدستور . . وهذا مثال من أمثلة ممارسة الحكم عن طريق المذابح الحديثة .

وعندما قامت الثورة قلنا إن ذلك كله انتهى وإننا دخلنا في عصر الحرية وسيادة الشعب وانتهينا من حكاية الأحزاب ومذابح الأحزاب . . وكان في البلد قبل الثورة حزبان اثنان جديران بهذا الوصف هما الوفد والأحرار الدستوريون أو حزب اللاوفديين . . وقد مات هذا الحزب موتاً طبيعياً بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ . وكان ينبغي أن يعرف حزب الوفد أنه هو الآخر مات . . ولكنه رفض أن يدفن . لأن فكرة أن الحزب تكوين سياسي يقوم على مبادئ وأفكار واتجاهات وسياسات محددة لم تكن معروفة عندنا . . أما المعروف فهو أن الأحزاب أشخاص فالنحاس باشا هو الوفد . . كل من خرج على شخص النحاس يفقد صفة الوفدية وإن كان من رجال ثورة سنة ١٩١٩ . . ولهذا السبب ظن النحاس باشا أنه

مادام هو موجوداً فإن الوفد موجود مع أن الوفد بصفته جماعة تأسست حول فكرة المطالبة بالحرية والاستقلال كان قد انتهى بالفعل بعد توقيعه معاهدة ١٩٣٦ التي جاءت كما قال النحاس نفسه بالاستقلال . .

ولا ينبغي أن يفوتني أن أذكر أن تلك المعاهدة كانت في نفس الوقت نهاية لأحزاب عصر الملكية والباشوات جميعاً . . وفيما بين ١٩٣٦، ١٩٥٢ ظلوا جميعاً في الميدان بلا عمل أو وظيفة . . كانوا يتبادلون الحكم فيما بينهم بطريقة ليس فيها من الجدية شيء . . والنتيجة أنهم تدهوروا كلهم . . وهذا هو السبب في الخلل المخيف الذي ساد العمل السياسي خلال تلك الفترة : الأحزاب بلا برامج . . زعماء بلا زعامة . . ووزراء بلا هيئة . .

ونياشين من صفيح على صدور خاوية كأنها الطبول . . وملك بلا جلالة . . وديوان ملكي تحول إلى وكر مؤامرات سياسية حيناً وإلى مكتب سماسرة وزارات حيناً آخر . . ونواب بلا انتخابات . . وقبة بلا برلمان . . وزفاف بلا عريس . . وموسيقى بلا فرح ووزارات تتألف لتتحل . . ورؤساء وزارات استهلكوا لطول مادخلوا وخرجوا . . وواحد منهم هو أحمد نجيب الهلالي باشا لقيته أول يوم لتوليته وزارته الثانية فخیل إلى أنني أنظر إلى رأس ديك رومي كله غضون وعروق زرقاء وحمراء وخیل إلى أنه يتنفس بصعوبة . . وملكني العجب . لأن هذا الجسد البالي الذي أراه غائر العينين أمامي . . تكلم بالأمس في الإذاعة وقال إنه سيصلح أمر مصر ويحكمها بيد من حديد . . والمسكين لم يطل عمره في رئاسة الوزارة يومين . . فقد تولى يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ وفي الليل بدأت الثورة وكان التحول العظيم . . وانتهى في ليل اليوم التالي العصر الطويل الثقيل الذي كان هو آخر رجاله . . ونجيب الهلالي ووجهه المعروق وتنفسه الذي يشبه الحشرجة وبده الحديدية التي كانت ترتعش بفنجان القهوة . . اختفى من عصره كله في ليل التاريخ . .

ولا يفوتني هنا أن أقول : إن معاهدة ١٩٣٦ رغم كل ما قيل عنها كانت خطوة لا بد منها لقيام الثورة . . فقد انتقل الانجليز بمقتضاها من معسكراتهم في قصر النيل وباب الحديد والقلعة في القاهرة ومعسكرات مصطفى باشا في الإسكندرية . . إلى منطقة القناة . . وانطلقت أيدي المصريين بعض الشيء لبناء جيشهم الجديد . . وفي منطقة القناة بدأت مقدمات الثورة . . على أيدي شباب الضباط الأحرار . . واكتمل تكوينهم أنفسهم أثناء حرب فلسطين . . وفكرة الثورة كلها اكتملت في ذهن جمال عبد الناصر وهو محاصر في الفالوجة ولم يكن من الممكن أن يتم التنفيذ على النحو الذي تم به ليلة ٢٣ يوليو لو كان الانجليز في معسكراتهم في قصر النيل وباب الحديد وقلعة القاهرة وهذا كله لا يتعارض مع ما قلناه من أن التنفيذ لم يتم على يد عبد الناصر وحده . . بل سبقه إلى التنفيذ والمواجهة

وتحمل الصدمة آخرون . . وهؤلاء الآخرون عوقبوا على ذلك بالإبعاد والاختفاء من مسرح الحوادث بطرق هي أشبه بالرمز على ظاهرة العدوان التي سادت العصر كله بعد ذلك . .

وقمت الثورة على النحو الذي نعرفه جميعاً . . وأيدها الشعب الذي طالماً انتظرها بكل ما فيه من قوة . . ورغم كل الخلافات التي وقعت بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر وجماعته . . وبين رجال الثورة بعضهم وبعض . . وهي خلافات ظهرت في النهاية في صورة صدع طولى بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . واستمر يتسع مع الزمن حتى أتى على الاثنين معا . رغم ذلك كله وتحت ضغط الشعب وتأييد شعوب العرب جميعاً دخلت الثورة كلها في غمار حركة سياسية إصلاحية واسعة النطاق . . ولم يكن رجال الثورة قد استعدوا لهذه الحركة قبل قيامهم بأحداث ٢٣ - ٢٦ يوليو ١٩٥٢ . . فكانت معظم المشروعات تبدأ وعليها طابع الارتجال . . وتستمر ارتجالية بعد ذلك ويتجلى هذا في أعمال مكتب الحراسات والأموال المصادرة . . وقد رأينا كيف أن الأمور كانت تجري هناك جزافاً بلا نظام أو قاعدة أو قانون أو قواعد ، والمسألة هنا لم تقتصر على جواهر أسرة محمد على التي طال الكلام عنها . .

فقد كانت هناك إلى جانب ذلك قصور وذخائر ورياش ونفائس أخرى كثيرة جدا تم التصرف فيها على أسوأ صورة يمكن تصورها من الهرج والفوضى ، واللجان التي كانت تحصل على أوامر الجرد والمصادرة وتنطلق بها . . كانت تجد نفسها في القصور أمام عائلات ملكها الذعر . . ومال كثير سائب ، والمال السائب يعلم السرقة . . ومادامت لجنة الجرد هي المرجع الأول والأخير فإن الدفاتر تحت يدها . . وهي تثبت فيها ما تريد وتهمل ما لا تريد . . وما لا تريد هذا كان كثيرا جدا . . ولا رقيب ولا حسيب . . وإذا كانت السيارة الرسمية الصغيرة التي حملت اللجنة إلى القصر المصادر لا تتسع إلا القليل . . فإن هناك سيارات وشاحنات أخرى كثيرة تجيء في الليل وتحمل الكثير . والمال السائب لا يعلم السرقة فحسب بل يربى للصوص . .

وقد حكى لى رجل ممن شغل في ذلك العهد مركزا ضخماً يسمح له برؤية كل شيء . . كيف كانت اللوريات تعبأ مرة بعد أخرى بكل ما غلا ثمنه وتطوف بالبيوت توزع ما فيها إلى الفجر . . وقد شمل التوزيع الجميع كباراً وصغاراً . وكلهم قبلوا ما جاءهم به السيارات وأجازوه . . ولهذا لم يمكنهم بعد ذلك الاعتراض على شيء . . وزوار الفجر الذين كانوا يطرقون أبواب الناس حاملين الموت والسجن وخراب البيوت لبعض الناس غانوا يطرقون أبواب آخرين حاملين السجاجيد والنجف وأطقم السيفر والفضيات والجواهر والأموال . . وكل شيء يتم في صمت .

وفي ذات يوم من أيام يونيو ١٩٦٣ رأيت في دار السفارة - حيث كنت أعمل - امرأة تطلب مقابلة السفير . . والسفير يرفض ويأمر بإخراجها من دار السفارة . . فانخرجوها . . ودخلت بعد ذلك ولقيت السفير لبعض شئون عملي وسألني إن كنت رأيت هذه المرأة . . فأجبت بأنني رأيتها . . فكان تعليقه : لقد أمرت بعدم إدخالها السفارة . . لأنها « حرامية بنت كلب » وسكت . . كأن هذا كان شرحاً واضحاً مفصلاً ومقبولاً . .

وبعد ذلك بشهرين ونصف دخلت مقهى مشهوراً في مدريد يسمى مقهى خيخون فوجدت هذه السيدة جالسة مع صاحبة لها فنهضت إلى ودعتني إلى الجلوس وحكت لي حكايات كثيرة عما سرق منها وما نهب منها ومن بيتها قبل أن تخرج من مصر فأصغيت إليها ملياً ثم قلت : إنني أرى من جواز سفرك يا سيدتي أنك يهودية مصرية . . وأرى في الجواز خاتم يقول : ممنوع من مغادرة البلاد لحين صدور أوامر أخرى . . فهل صدر أمر برفع هذا المنع ؟ . .

وتنظر إلى المرأة وتقول :

- لا لم يصدر . . وانظر في الجواز كيف شئت . . فلن تجد خاتم مغادرة البلاد . .

- إذن فكيف خرجت ؟

فكشفت عن ذراعها وأشارت إلى رسغها ثم إلى مرفقها وقالت :

- كان هذا كله من هنا إلى هنا مصوغات وجواهر . .

فهزرت رأسي . . وفهمت . . ونهضت بعد قليل لأنني لم أحب أن أسمع التفاصيل التي كانت تريد أن تقصها علي وأيامها كان خيراً للمواطن ألا يعرف شيئاً مما يجري في بلاده . . وهناك ناس كثيرون نالهم أذى شديد لأنهم كانوا يعرفون أشياء كثيرة . . والعصر كان عصراً يستحب فيه الجهل . . وصدق من قال « ومن العلم ما قتل » . . ولكني فهمت لماذا قال السفير أن تلك المرأة « حرامية بنت كلب » . . لأن هذا السفير كان نفس الرجل الذي ذكرت أنه شغل في وقت من الأوقات مركزاً خطيراً يسمح له بأن يعرف الكثير . . وهذه « الحرامية بنت الكلب » كانوا قد أخذوا منها أشياء كثيرة ووعدوها بأن يردوا لها بعضها بعد أن يدبروا لها أمر الخروج من مصر . . وها هي تأتي لتطلب أن يردوا لها بعض ما تم الاتفاق عليه فرفضوا حتى مقابلتها وقالوا أنها « حرامية بنت كلب » . .

وإذن فهذا المال السائب الذي تبدد معظمه داخل بيوت ناس كثيرين جداً ممن كانت يدهم مقاليد الأمور في الخمسينات والستينات كباراً وصغاراً ، ومعظم المال المنهوب صار

إلى أيدي الصغار . . وهؤلاء الصغار أصبحوا مع الزمن كباراً . . وبعضهم كان من رجال جمال عبد الناصر . . وبعضهم الآخر كان من رجال عبد الحكيم عامر . . وكلاهما كان يعطى ويغدق من مال الشعب وكان كله قد أصبح مالا سائياً . . والكثيرون كانوا يأخذون من هذا ومن ذاك . . والمال على أى حال كان مال الشيطان لا مال مصريين أو أجانب خرجوا أو طردوا من مصر في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر في خريف ١٩٥٦ . .

وواحد من هؤلاء عرفناه . . نال من شقق الحراسة أربعاً بما فيها من متاع فسكن في واحدة منها وفرق الباقي على أبنائه وبناته . . وواحد من الأبناء كان في التاسعة من عمره وله شقة بالتليفون في جاردن سيتي . . وقد زرت الرجل في شقته فوجدت نفسى في دار ملوكية . . أرضها سجاد وأبوابها مرايا وفرشها حرير مما يقدر بألوف بعد ألوف من الجنيهات . . ولم أسأل : من أين لك هذا ؟ . . لأننى كنت أعرف الجواب . .

المهم أن أولئك الناس الذين استحلوا المال الحرام ظلوا في الدولة وارتقوا في سلم الوظائف . . ووصلوا إلى الرياسات في كل ميدان بسهولة لا تصدق . . فالواحد منهم يكون في الجيش برتبة ملازم أول مثلاً . . وبعد ثلاث سنوات من الثورة والعمل في مكتب أحد الكبار . . يكون قد انتقل من بيته القديم في السيدة زينب أو شبرا أوروبى الفرج إلى شقة عظيمة مؤثثة أثاثاً جميلاً في حى جميل . . وكل ذلك لم يكلفه ملياً . . ويزداد رضا رئيسه عنه لأنه يأتية بخيرات الدنيا دون أن يتكلف حتى مشقة الطلب . . ويرتقى صاحبنا إلى درجة مقدم . . ويعطونه سيارة وسائقاً . . وهناك سيارة أخرى في البيت أخذها فيها أخذ من الأسلاب . . وهذه للست التى أصبحت سوبر هانم والأولاد الذين أصبحوا بهوات . .

ويبحث وهو جالس في مكتبه عن وظيفة كبرى ينتقل إليها . . ويغادر الجيش وكل الأبواب مفتحة أمامه وتحت تصرفه . . وهو يختار . . لأنه قد أصبح شخصية ذات جاه ومدود وإسم كالطبل . . دخول السلك السياسى . . ويرقى عندما يترك الجيش إلى رتبة عميد (هكذا كان القانون) . . ويدخل الخارجية مستشاراً أو وزيراً مفوضاً . . يدخل ويتخطى بمجرد دخوله مئات من المواطنين الذين تخرجوا في الجامعة قبل أن يحصل هو على الثانوية العامة . .

وهكذا يجد نفسه فوق الآخرين ورئيساً لهم . . وهو في الحقيقة أدنى منهم وأقل علماً . . ولكنه يعتبر ذلك حقاً له لأنه من طبقة أخرى غير طبقة الناس . . إنه من طبقة الغزاة الذين يستحلون كل شىء . . ولا يتصورون أن يجرؤ مواطن على استكثار أى وظيفة مهما كبرت على أى منهم . . ويرون أن من حقهم أن يفعلوا بأى مواطن آخر ما يريدون .

وكان هذا الأمر شائعاً . . شمل كل ميادين حياتنا حتى المقصورة منها على المتخصصين من أهلها . . لأن الموضوع لم يكن - فيما كانوا يقولون - موضوع تعيين ناس في وظائف . . بل كان موضوع توجيه حياة المصريين جميعاً في الاتجاه الثورى الصحيح بواسطة مواطنين من مستوى أعلى وإدراك أسلم وخلفيات أرفع . . وإذا كانت وظائف التدريس في الجامعات مثلاً لا تسمح لغير الجامعى في توليها . . فليكن الأمين العام في كل جامعة من أبناء هذه الطبقة الممتازة . . أو التى رأت نفسها ممتازة لمجرد أنها من نفس عجينة أعضاء مجلس الثورة . وتضخمت وظيفة أمين عام الجامعة حتى أصبحت رقابة عامة على كل من في الجامعة . . وإلى نكبة يوليو ١٩٦٧ لم يكن في مصر إلا ثلاث جامعات . . فكان لكل جامعة من هذه أمين عام من تلك الطبقة الممتازة . . ولأنه من هذه الطبقة فهو أقوى من مدير الجامعة . . ولهذا الغرض كان الجهاز الحاكم يتحرى اختيار مديري الجامعات من طراز سهل هين لين يؤمر فيطيع . . ويشار إليه بالأصبع فيهرول . . ونتيجة لذلك لم تعد مجالس الجامعات مجالس علماء أو أكاديميين بل أصبحت مجالس أنفار . .

وكان هجوم هذا الطراز الممتاز من المصريين شديداً جداً على الوظائف التى تعتبر ممتازة بطبعتها من الناحية المادية . . مثل وظائف وزارة الخارجية مثلاً . . لأن المسألة كانت مسألة غزاة يتقاسمون غنائم . . وفى يوم من الأيام كان ثلاثة أرباع السفراء والوزراء المفوضين والمستشارين من طبقة الغزاة هؤلاء . . وإلى جانب هؤلاء كانت تقوم مكاتب الملحقين العسكريين في كل بلد من بلاد الدنيا . . وكل مكتب كأنه سفارة . . فهناك ملحق عسكري ومساعد ملحق عسكري وكتبة ثم عدد كبير من الحرس في وظائف سعاة وسائقين وطباخين وسفرجية . . وهناك قصور فاخرة تؤجر للسادة الملحقين والأموال تجرى في أيدي هؤلاء كأنها الماء ولا حسيب ولا رقيب وكانت هناك حقائب دبلوماسية لهذه المكاتب . . والله وحده يعلم ما كان فيها رائحة غادية . . ولكل حقيرة « حامل » من المرضى عنهم . . ومن أغرب ما مر بي ان واحداً من حملة الحقائب هؤلاء فقد حقيقته ولم يتبين ذلك إلا بعد أن استقر في الفندق . . فقد كان في استقباله في المطار نفر من أصحابه وأصدقائه أعضاء المكتب وحراسه . . وفي زحمة السلامة والأحضان نسى الجميع الحقيقة . . ولما كانوا جميعاً لا يحسنون إلا اللغة العامية فقد كان علينا في معهد الدراسات الإسلامية أن نجرى كالمجانين لنسترد تلك الحقيقة . . وقد كنا نحسب إنها تضم أسراراً قومية خطيرة ولينا ما جرينا . . فقد كان معظم ما فيها - فيما علمنا - أشياء شبيهة بما يحمله « تجار الشنطة » في حقائبهم . . وكان اثنان أو ثلاثة من أعضاء السفارة إذ ذاك من رجال المخابرات . . فتصورنا - لسذاجتنا - أنهم سيبلغون خبر ما حدث إلى رئاستهم وسيكون سؤال وجواب . . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . لا سؤال ولا جواب . . وأذهب بعد ذلك

بستتين في إحدى رحلاتي إلى أمريكا اللاتينية فأجد صاحبنا الذي أضاع الحقبة وزيرا مفوضا في إحدى سفاراتنا هناك . . ويدعوني للغداء في بيته ، فأجده يسكن فيلا تروع النفس وسط فدان من الخضرة والأشجار . . وقد استأجرتها له الدولة المسكينة . . وأثنتها السيدة المصون حرمة بأعلى الرياش . . وتقول لي : فرشتها على طراز فيلتنا في المعادي . . وفي أثناء الحديث أعلم أن هناك في سفارتنا تلك - حيث لا رعية لنا ولا تجارة ولا مصالح - سفيرا من نفس الطراز . . وسيادة السفير هذا كان إذ ذاك متغيبا في القاهرة لتشطيب عمارته . . كما قال لي السيد الوزير المفوض . .

كان ذلك في إبريل ١٩٦٥ . . وبعد سنوات يعطيني صديق كريم هو الأستاذ أحمد رائف كتابا دون فيه مذكراته أثناء اعتقال طويل قاسى آلامه وأوصابه خمس سنوات لغير ما ذنب جناه

وأقرأ تحت تاريخ إبريل هذا وصفا مخيفا لما كان يعانيه منه هو ومئات ممن قبضوا عليهم وأودعهم السجن من تعذيب يفوق الوصف . . ولا أريد أن أعيد هنا على سمع القارئ ما قرأت في هذا الكتاب . . ولكنني توقفت عند قوله : « والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة فهي ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذي وضع فيها فقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون بينما مساحة الحجرة التي يطلقون عليها « المخزن رقم ٦ » متران في ثلاثة أمتار . . وكانت تفوح منها رائحة البول . . والصديد . . وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة . . فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت » . .

وعلى رغمي تعودى الذكرى إلى الفيلا البديعة وسط المرج الأخضر يعيش فيها رجل أقل ما يقال فيه انه مهمل مضيع . . ولكنه ياسيدى من طبقة السوبر باشوات . . وهؤلاء المعذبون في الأرض خارج السجون وداخلها من طبقة أولاد الكلاب . .

لا أعاد الله هذا العهد الكئيب . .

وألف رحمة من الله تنزل عليك يا أنور السادات أن أوقفت هذا البلاء ورفعت عن الناس سوط العذاب . .

كان عصرا أسود تلاشت فيه كل معايير العدل . . وهبط فيه قدر المواطن إلى الحضيض . . وكما هي العادة نزل البلاء بأصحاب الشرف والضمير والعلم والدين . . وتحولت مصر إلى سجن كبير . . لا دستور ولا قانون . . والطبقة الجديدة استحلّت كل شيء . . والذي ذكرته عن الخارجية ما هو إلا مثال . . ففي كل مكاتب الدولة ومرافق حياتنا دخل بلاء السوبر باشوات واقتصرت عليهم الوظائف الكبرى هم وأقاربهم

وأصهارهم والكارثة الحقيقية حلت بما يسمى بالقطاع العام . . فإن حركة التأميمات كانت كل يوم في زيادة . . وعبرة : « مزيدا من الاشتراكية . . مزيدا من الاشتراكية » كانت تخرب في كل يوم مئات البيوت والشركات والمحلة الناجحة لأن المسألة لم تعد تطويرا اقتصاديا بل توزيع أسلاب وغنائم . . حتى إن شركة كبرى مثل شركة الحديد والصلب كانت رمزا من رموز الثورة تحولت إلى كارثة قومية . وألوف المواطنين فقدوا أموالهم لأنهم ساهموا فيها وفي غيرها . . وكان المسئولون يجتهدون في إقناع المواطنين بالمساهمة في هذه الشركات ويعدونهم أرباحا طيبة . .

وكان الناس يتحمسون ويشترون ليتبينوا بعد ذلك أن أموالهم ذهبت إلى غير رجعة . . لأن المسئولين لم يكونوا يستحون من أن يعلنوا أن السهم في شركة الحديد والصلب مثلا . . الذى اشتراه الناس بجنيهين ورجوا أن يرتفع سعره إلى عشرة أو عشرين عدا ما يضاف إليها من الأرباح - هذا السهم نفسه قدره المسئولون بعد ذلك بخمسين قرشا . . وألوف الناس من صغار المواطنين خاصة ضاعت أموالهم دون أن يسمح لهم بمجرد الشكوى . . والمصيبة جاءت من أن الذين عينوهم لإدارة هذه الشركات كانوا أقارب ومحاسيب أى من السوبر باشوات . . وعلى أيديهم خربت الشركات وضاعت أموال الناس . . وأدهى من ذلك وأمر أن الواحد منهم كان إذا قام بواجبه وخرب الشركة كافأوه وعينوه مديرا لشركة أخرى يخربها هى الأخرى . .

ولكى أعطيك مثلا عن أنواع الناس الذين كانت الدولة إذ ذاك تعهد إليهم في إدارة الشركات المؤممة . . أذكر لك أننى استقبلت في مدريد إنسانا غريبا عرفت فيما بعد أنه كان ضابط بوليس . . ولكنه في ذلك الحين كان قد أصبح رئيسا لمجلس إدارة شركة مخازن كبرى في السيدة زينب . . نزل عليها سيف التأميم فقسمها نصفين . . وأصابها إصابة لم تقم منها بعد ذلك أبدا . . والسيد رئيس مجلس الإدارة يأتى إلى مدريد ليدرس نظام المخازن الشعبية في أسبانيا . . وأقول له إننى لا أعرف أن في أسبانيا شيئا يسمى المخازن الشعبية . . لأن أسبانيا في أيام فرانكو كانت دولة رأسمالية . . وأسبانيا على أى حال لا يمكن أن تشكو أزمة خبز أو قمح لأنها ثنى بلاد أوروبا إنتاجا للقمح بعد روسيا . . ويقول لى الرجل : كيف تقول إن أسبانيا رأسمالية مع أن السفير أعطانى نشرة تقول إنها بلد اشتراكى . . ؟

— وأين هى هذه النشرة أيها العزيز ؟

ويفتح حقائبه ويستخرج النشرة ويناولنى إياها . . وفيها فقرة وضع صاحبنا خطأ بالقلم الرصاص إلى جوارها . . والعبرة تقول : Espanaun estado Sindicalisto إن أسبانيا دولة نقابية : وهى عبارة من عبارات الدعاية قالوها في إحدى مراحل عصر

فرانكو . . ومعناها الحقيقي أن الدولة إذا كانت قد ألغت الحرية السياسية . . فقد نظمت النقابات وأطلقت لها حرية العمل وصاحبنا رئيس مجلس الإدارة فسر هذه العبارة بأن أسبانيا دولة اشتراكية وما دامت اشتراكية فلا بد أن فيها مخابز شعبية اشتراكية . . وما دامت فيها مخابز شعبية فلا بد أن يزورها سيادته ليدرس نظامها . . وهو لا يعرف أسبانية أو فرنسية أو انجليزية . . وفهمت من حديثه أنه يقوم بجولة دراسية في إيطاليا وفرنسا وانجلترا وأسبانيا لدراسة نظم المخابز . . ولما لم تكن هناك مخابز حكومية . . فقد جعلنا نأخذه إلى المخابز الخاصة . . وكلما زار مخبراً قال : عندنا أحسن . . وحرصت على أن أجده . . فكنت كل يوم آتية بقائمة مخابز ومطاحن يزورها . . وبعد ثلاثة أيام ضاق بي وقال :

— كفاية بقي أفران وقرف . .

— ولكن نقابة الطحانين والمخابزين وضعت لك برنامجاً حافلاً . .

— شوف يا حضرة . . دول جماعة مجانين . . وأسبانيا بلد متأخر ونحن قد سبقناها بمراحل . . والمخابز التي أديرها أحسن من أي شيء زرت في أسبانيا . .

ويجلس صاحبنا إلى مائدة الغداء عند السفير ويقول : تصورياً أحمد بك إنني عندما دخلت مبنى الإدارة في المخابز (في مصر) لم أجد فيها صورة واحدة للرئيس جمال . . فعملنا خمسين صورة ببروايز مذهبة . . وأقمنا يوماً سميناه يوم الرئيس . . علقنا فيه الصور . . وأعطينا العمال منحة من الرئيس لمدة ثلاثة أيام . .

ولسوء حظ صاحبنا أن السفير كان في تلك الأيام من حزب عبد الحكيم عامر . . فقد كان خصومه قد دسوا له عند جمال عبد الناصر فلجأ إلى الناحية الأخرى . . واعتصم بحبل من المشير . . وكانت تعجبنى فيه أحياناً صراحته والرئيس جمال عبد الناصر أقصاه إلى مدريد لأنه كان طويل اللسان ويعرف الكثير (وكان هذا كلامه لي) . .

وانتظر السفير حتى فرغنا من الأكل . . ثم أراد أن يشفى غليله في هذا الرجل . . ويربني في نفس الوقت جراته وعدم اكتراثه به . . فبدأ مع الرجل حديثاً أشبه بالتحقيق بداهة بقوله : —

— الآن وقد قمت بواجبك . ودعوتك إلى الغداء من حقى أن أعرف بصفتي سفيراً . . لماذا عيّنتك رئيساً لمجلس إدارة مخابز كبرى وأنت لا تفهم في الخبز أو الدقيق . .

— ويفاجأ الرجل . . ويفتح فمه دهشاً . . ويقول :

— وهل أنا عينت نفسي في هذا المنصب . . ؟ سيادة الرئيس هو الذي اختارني . .

— لأنهم كذبوا على السيد الرئيس وهو لا يعرفك أما أنا فأعرفك الآن . . وقد طلبت معلومات عنك بالشفرة . . وجاءتني : أنت زوج فلانة ، وفلانة أخت فلان . . وفلان أخوك . . وكلكم شلة يعلم بها ربنا .

والذي دار بعد ذلك من الحديث لا يتسع له هذا الفصل ولكنه مثال . . مجرد « عينه » من أنواع السوبر باشوات . . وما كان يجري بينهم من حديث . . وما كان يربط بعضهم إلى بعض من علاقات . .

ولماذا أقف عند هذه التفاصيل . . ؟

لكي يعلم القارئ أولاً حقائق السوبر باشوات وعصرهم . .

ولكي أقول ثانياً : إن ضحيتهم لم يكن شعب مصر فحسب . . بل كان ضحيتهم الأولى هو الرئيس جمال عبد الناصر نفسه فقد عرف أولئك الثعالب كيف يسيطرون على رئيسي الثورة : جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . . وقد رأينا في مقالات الدكتور عبد العظيم رمضان التي نشرها في مجلة أكتوبر تحت عنوان عام هو « تحطيم الآلهة » كيف أن السنوات السابقة لنكسة ١٩٦٧ كانت سنوات الذروة بالنسبة لصراع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . . وكل منهما كان محاطاً بسياج من الخشداشية كانوا هم الذين يقدمون إليه قوائم المعذنين والتقارير . . ويستصدرون منه الأوامر . . وجمال عبد الناصر الذي كان يدخل سيارته ليذهب إلى مكان يلقي فيه خطاباً سياسياً يهز الدنيا كانوا يتجهون به في سكرت ملتبسة ويقولون له : لم نسرك في هذا الطريق لأننا ضبطنا فيه وكراً للأعداء . . وفي المكان الفلاني قبضنا على جماعة دبرت مؤامرة لاغتيال السيد الرئيس . .

وعندما تقرأ في « البحث عن الذات » للرئيس السادات أنه هو نفسه لم يكن يعلم شيئاً عما جرى لجيش بلاده صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ . . وأنه ذهب إلى القيادة وهو يتصور أننا طحنا الأعداء طحنا فوجد جمال عبد الناصر في حالة ذهول . . ووجد المشير يمشي في إحدى القاعات ذهاباً وجيئة وفي عينيه حزن ودهشة . . فعرف أن مصر كلها والرئيس جمال والمشير عامر وقعوا في كارثة . .

عندما تقرأ ذلك تعرف جناية السوبر باشوات على البلاد ورئيسها وقائدها الأعلى في المقدمة . .

لهذا أكتب هذا الكلام . . إنني لا أريد لهذه المآسى أن تتكرر . . وهي خدمة متواضعة أقوم بها لبلادي . .

٨ السویر باشوات یأكلون السلطان

السوبر باشوات يأكلون السلطان

وبعد أن قتل المماليك البحرية سلطانهم سيف الدين قطز في بلبيس ،
تركوا أشلاءه دون دفن ، وأسرعوا إلى القلعة وسلطنوا عليهم ببيرس
وخرج المنادون في شوارع القاهرة يقولون : أمان يا أهل البلد أمان .
والعز والدوام لمولانا السلطان . .

أظن أن القارئ عرف الآن أنني أعود به إلى الماضي القريب لنبحث معاً عن أصول المحنة التي نعانى منها اليوم من اللامبالاه وعدم الشعور بالانتفاء وضعف الإحساس بصالح المجموع وإهمال القوانين ، فإن عصر سيادة السوبر باشوات هو الأصل في ذلك كله . في عصرهم أصبح المصرى الوطنى ، المصرى الذى يحس بالآلام وطنه ويتحرك لتخفيفها يعاقب لأنه وطنى ، والمواطن الذى يطلبه السلامة هو المواطن الذى لا يهتم بمصائر بلده ويتبرأ منها .

وفى يوم من الأيام جاءنى أحد الطلاب مروعاً لأنهم استدعوه إلى مصر ، ورجائى وهو فى فزع أن أكتب للوزارة وأقول إنه شاب فى حالة لا يتدخل فى السياسة أبداً ولا يقول حرفاً فى شأن من شئون وطنه ! وبذلت غاية وسعى فى حمايته دون أن أصمه بوصمة عدم اللامبالاة بوطنه ومصيره وكنت دائماً أسأل نفسى : سبحان الله : ننفق عليهم لكى يخدموا وطنهم ثم نعاقبهم إذا هم فكروا فى أمر هذا الوطن

ورئيس الوزراء فى فترة طويلة من ذلك العصر (١٩٦١ - ١٩٦٥) وضع مصر كلها داخل سجن كبير ، فلم يعد لأحد الحق فى الدخول أو الخروج ، ولكن أنصاره من السوبر باشوات فتح كل منهم لنفسه ثغرة فى الجدار الخلفى وأصبح يدخل هو ومن يريد كما يشاءون بإذن وبدون إذن ، بتأشيرة أو بدون تأشيرة . ولكل شىء ثمن . وقال رئيس وزراء السوبر باشوات هذا فى إحدى مقالاته العصماء : وما هى الحرية ؟ . الحرية هى : أن يغلق الإنسان بابه على نفسه وعياله ويتعشى وينام . وتلك هى حرية المواشى ! . . أما هو فقد سكن قصر أحد الباشوات فى القاهرة وقصر باشا آخر كبير فى الإسكندرية ، وعدد غرف القصرين معاً خمسون غرفة وفيهما تسعة حمامات ، واستحل لنفسه كل ما فى القصرين دون أن يدفع ملياً ، ومدير مكتبه أصبح محافظاً لمحافظة وبنى لنفسه قصرأ واجهته كلها من الرخام الوردى ، وهذا هو معنى الاشتراكية والحرية عندهم ، أما نحن بقية شعب مصر فقد أصبحنا مواشى يغلق علينا باب الحظيرة وأمامنا العلف نأكل منه وننام . .

هذا كل نصيينا من الحرية ، والويل لمن جرؤ على تخطى حدود المواشى . . وقد بلغ عدد السوبر باشوات ذروته من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٠ وسأجتهد فى تصوير الجو الذى عاشت فيه مصر فى عصر السوبر باشوات هذا بأمثلة يعرفها الكثيرون وأمثلة مما شهدته بنفسى ، ومعدرة إذا أنا لم أذكر الأسماء ، فهذا مع الأسف تاريخ بلا وثائق ، ولكن لدينا وثيقة واحدة تشهد على العصر كله ، والوثيقة لا يمكن إنكار صحتها أو المماراة فيها وهى ما سمى بهزيمة جيش مصر فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، فإن مؤامرات السوبر باشوات حالت بين جيش مصر ودخول المعركة والمعركة انتهت قبل أن تقوم ، لأن جيش مصر لم يدخلها قط ،

والذين دخلوها من رجال مصر حاربوا وأثبتوا بسالة وانتصروا في المعارك التي خاضوها

والرئيس السادات يحكى في كلامه عن مقدمات حرب أكتوبر أنه بعد أن أفاق من ذهول نكبة ١٩٦٧ سمع أن قائدا من قواد المعركة الذين حاربوا وانتصروا يتداوى من جراحه في مستشفى المعادى ، وأترك الكلام هنا للرئيس أنور السادات فهو يقول في ص ٢٤١ وما يليها من « البحث عن الذات » إتصلت فوراً بمستشفى المعادى العسكرى ، رد القائد فسألته إذا كان عنده أحد ممن حاربوا في سيناء فأجاب بأن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . كان قائدا للواء دبابات حارب في سيناء ومعه بعض ضباطه وهم في المستشفى على وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم وقلت للقائد انتظر فساكون معكم حالا . .

وأخذت سيارق واتجهت إلى مستشفى المعادى . .

وسألت كمال حسن على : قل لى يا كمال بصراحة : أنت حاربت في سيناء ؟ .

قال لى : أيوه يا افندم ، وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو . .

قلت له : طب طمنى : سلاحنا كان ناقص ؟ .

قال لى : أبدا يا افندم . الطلقة بتاعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة ، دى كانت من عنفها بتقلبها .

قلت له : طب احكىلى عن الهجوم .

قال مشيرا إلى ضابطين صغيرين كانا في انتظارى معه قبل إجراء العملية لهم : - دعهم يقصوا عليك ما رأوا وما حققوا فهم الذين فعلوا كل شىء ، أما أنا فعلمى يقتصر على إصدار الأوامر .

وكنت سمعت عن الهجوم المضاد الذى كان يقوم به لواء مصرى يوم ٧ يونيو ، صحف العالم أشادت به ، حتى موسى ديان كتب عنه ، ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهودا فرديا وأمرأ شاذ لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها على القتال . .

ولكننى بعد أن أدت حوارا كبيرا مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة ، وهو أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة ، وكل ما عداه هو الاستثناء لولا تخطيط القيادة وضعفها . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء في الثلاثة أيام الأولى ١٠٠٠ كيلومتر في عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير ، ولكن هذا لم يمنعهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو .

ورغم السيادة الجوية المطلقة لإسرائيل فلم يفقد هذا اللواء إلا عشرين دبابة على مدى ثلاثة أيام ، أى خمس قوته فقط ! . .

ثم يضيف السادات - عندما عرف أن الهزيمة لا ترجع إلى ما يقال من عجز المصرى على القتال أو عدم قدرته على استيعاب المعلومات والمهارات اللازمة لاستعمال السلاح الحديث إنما ترجع إلى إهمال القيادة وفوضاها واضطرابها - : إذن فإذا نحن هيأنا لجيشنا قيادة صالحة ونظاما واستقرارا أمكنه النصر .

وتلك كانت أولى خطوات السادات لتحقيق النصر . وأتيك فيما يلى بسطور كتبها ضابط شاب خاض حرب ١٩٦٧ وهو يصف لنا منها ما حدث كما حدث ، وكلامه مطبوع منشور فى كتاب متداول بين أيدي الناس ، صاغه مؤلفه فى صورة رواية إسمها « السمك الروسى » .

وقد أوردنا فى الملحق رقم ٧ من ملاحق هذا الكتاب فقرة من قصته تؤيد ما قلناه والكلام فى هذه الفقرة بلسانه وهو الذى اشترك فى الحرب وكلامه هنا وثيقة .

وهذا يا سيدى كلام ضابط من ضباط الجيش الذى قيل لنا أنه انهزم ١٩٦٧ والجيش كما ترى لم يدخل المعركة حتى يقال أنه انهزم أو لم ينهزم .

والذى نعرفه عن جيشنا فى كل تاريخه أنه جيش باسل . وضباطه وجنوده لا يفرطون قط فى واجبه المقدس ولكن أولئك الناس شوها سمعته وجعلوه أضحوكة فى أفواه الأمم . . وحرب الأيام الستة التى جعلت من موسى ديان بطلا دون بطولة هى كلها من صنع أولئك السوبر باشوات .

وهذه الكارثة كلها من أين جاءت ؟ . كانت من صنع السوبر باشوات خشداشية السلطان من ناحية والسلطان المساعد من ناحية أخرى وهؤلاء لم يكونوا يفكرون فى نصر أو وطن إنما هم كانوا غزاة نهاين حصلوا ويحصلون على غنائم وتأمينا لهذه الغنائم . . كان زعماءهم يفكرون على طريقة « بابراك كارمل » الذى أسلم بلاده أفغانستان للروس ووقف فى صف الجلادين الذين يعملون اليوم على الإجهاز على البقية الباقية من الحياة فى كيان ذلك الوطن .

كلام من عندى ؟

لا والله .

وارجع معى إلى كتاب « البحث عن الذات » لأنور السادات لكى ترى بعينيك عماليك السلطان يفترسون السلطان وسأتيك بعد ذلك بمصاديق تؤيد كلام السادات :

فقد ذهب السادات لزيارة عبد الناصر في يوم جمعة في شهر فبراير ١٩٦٧ ، ولنلاحظ هنا أن السادات لا يدافع عن نفسه إذ لم يكن له في الإدارة أمر ، فقد كان رئيس مجلس النواب ، إنما هو يعطى صورة في صالح عبد الناصر ، لهذا أرجو ألا ينكرها أنصار عبد الناصر الذين يريدون أن يقولوا للناس أجمعين أن مصر كلها لم توجد على خريطة الدنيا إلا يوم ظهر عبد الناصر وأنها زالت من على الخريطة يوم وصل السادات إلى السلطة وأعلن إصلاحات مايو ١٩٧١ التي انتشل بها بلاده من الهاوية والسبب في ذلك واضح : إن وصول السادات للحكم كان بداية النهاية لعصر السوبر باشوات .

وأنور السادات في هذا اليوم وجد جمال عبد الناصر - الذي كان إذ ذاك أكبر زعماء الشرق الأوسط فنحن في فبراير ١٩٦٧ وبيننا وبين الهزيمة والهاوية حوالى ثلاثة أشهر - وجده في أسوأ حال ويقول له السادات : مالك شاييل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟ واضح إنك شاييل الدنيا على دماغك . قال أيوه : أنا فعلا شاييل الدنيا على دماغى يا أنور . . البلد بتحكمها عصابة وأنا يستحيل أكمل بهذا الشكل ، أن أبقي الرئيس المسئول واللى يحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللى عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي ويتولى هو رئاسة الجمهورية ، وأنا مستعد أن أسأل عن الفترة اللى أنا قعدتها لغاية ما حانخرج ، أجاب عن أى شىء . .

ويستطرد السادات : كان واضحاً أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجرى في البلد : المشاكل المتراكمة ، منذ ١٩٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس ، وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوي جمعة وسامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحفى الأستاذ محمد حسنين هيكل وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الامتيازات .

قلت : مش معقول يا جمال تسبب رياسة الجمهورية وتقعد في الاتحاد الاشتراكي علشان عبد الحكيم عامر وأعوانه يحكموا مصر إنت عارف إن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه هم اللى تسببوا في فشل الوحدة مع سوريا ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى : تقول له : نشيل صدقي قائد الطيران ، يقول : قبل ما تشيلوه شيلونى أنا . خلقتة كده . ولذلك أعتقد إن أفضل شىء إنك تجيبه وتكلمه بينك وبينه . وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس إننا داخلين على كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لى : إن عنده ضيفا ، وانتظرت في حجرة مكتبه إلى أن يخرج الضيف وبعد ذلك جاء عبد الناصر وبادرني بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللى كان عندى دلوقتي ؟ قال : شمس بدران ، فاكّر حديثنا اللى قلت لك فيه على حكاية العصابة ؟ قلت له : آه .

قال لى : يا سيدى الحكاية كملت : شمس بدران جاى لى دلوقتي بيطلب رسمى ! إن المشير يأخذ رئاسة الوزارة وحجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى . مش عارف إن معظم الحاجات اللى بيشتكى منها الناس هى من تصرفاته وتصرفات أتباعه . .

ولابد أن أختصر الحديث هنا فإن المجال لا يتسع . ولكنى أقول إن عبد الناصر وافق على أن يتولى عبد الحكيم عامر رئاسة الوزارة بشرط أن يتخلى عن رئاسة القوات المسلحة ويخرج منها . وكان ذلك ذكاء بعيداً لأنه إذا نجح فى إبعاد عبد الحكيم عامر عن القوات المسلحة فقد انتهى عبد الحكيم عامر فى أيام .

ولا ننسى هنا أن عبد الناصر كان رجلاً سياسياً بعيد الغور . وعبد الحكيم عامر لم يثبت أمامه من دون زملائه أبطال الثورة إلا أنه تترس فى القوات المسلحة وملك زمام كبار رجالها والحكم كله كان حكماً عسكرياً على أى حال ، ومن يملك السلاح فهو صاحب الأمر ، عبد الحكيم عامر بعد هزيمة ١٩٦٧ فقد القلعة التى كان يتحصن فيها . ولم يلبث أن تصفى : انتحر أو قتل ، وأقرأ مقالات الدكتور عبد العظيم رمضان عن موت المشير لتعرف التفاصيل . ولكن عبد الناصر هنا يتبرأ من سيطرة السوبر باشوات مع أنه هو المسئول إلى حد ما عن وجودها . . فقد فتح الأبواب لطلائع هذه الطبقة لكى يقضى بها على محمد نجيب ثم على الذين كانوا يطالبون بحكم دستورى . والذين قادوا معركة ضرب السنهورى ومن إليه نالوا من المكافآت ما تمنوا : السلطان أعزه الله فتح لهم الخزائن وحفن وأعطى من مال الناس وأترك الكلام للرئيس محمد نجيب :

وأصبح واحد منهم مديراً لأكبر مشروع إصلاح زراعى واستصلاح أراضى قامت به الثورة . وأصبح بذلك أقوى وأوسع سلطاناً من أقوى الوزراء وقد ضاعت ملايين كثيرة فى هذا المشروع الذى تولى أمره رجل لم يسمع بالزراعة قبل ذلك إلا فى المكتب والثانى أصبح رئيساً لهيئة التحرير وكانت مهمتها تنظيم جماهير مصر تحت لواء الثورة . فكانت النتيجة أن فشلت هيئة التحرير فشلاً ذريعاً ، والثالث أصبح وزيراً ثم سفيراً وغيرهم . وكل من هؤلاء تصرف فى ملايين وفتح الباب لمئات الخشداشية ليصبحوا سوبر باشوات . ولما كان هؤلاء جميعاً أقارب ومحاسيب ، فإن مولاهم الأول كان عبد الحكيم عامر وزير الحربية ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . وكما كان عبد الناصر يكون فرقة ممالك خاصة به فقد كون عبد الحكيم عامر فرقة ممالك وتترس فى قلعة القوات المسلحة حتى لا يقضى عليه عبد الناصر كما قضى على رفاقه فى قيادة الثورة .

فلا حق لعبد الناصر إذن في الشكوى من المماليك والخشداشية لأنه مسئول عن استيلائهم على مرافق البلاد مسئولية عبد الحكيم عامر . والاثنان لم يعلما أن نفس التجربة ، تجربة الحكم بالأترك والمماليك انتهت بالعباسيين إلى سيادة الأتراك عليهم وبالأيوبيين إلى سيادة المماليك وخطيئة العباسيين أنهم فصلوا أنفسهم عن الأمة وترسوا في قلعة الجند المرتزقة فلم يصبح لهم من السلطان إلا اسمه ، وانتهى الأمر بزوالهم ، أما الأيوبيون فلم يكن منهم في الحقيقة إلا سلطان واحد عظيم اسمه صلاح الدين ، وصلاح الدين أصبح بطلاً بنصر حطين سنة ١١٨٧م ونصر حطين كسبه المجاهدون الأحرار من أبناء أمة الإسلام قبل دخول جند السلطان في المعركة ، ولو تولى المعركة قادة صلاح الدين من كرد وترك وتركمان لما كسبنا النصر أبداً . .

وأعود بك إلى كتاب « البحث عن الذات » لتتبع تاريخ المماليك والخشداشية . يقول السادات في ص ٢٢٢ وما بعدها :

« طبعاً كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت ، فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلى عنها لسبب من الأسباب ، فهي مركز القوة الأولى . بعد ذلك تطورت الأمور في لجنة الإقطاع (لجنة مصادرة أموال الناس وفرض الحراسات عليها للتصرف في أملاكهم بعد ذلك) فبلغت أقصى الضراوة في مارس وأبريل ومايو (١٩٦٧) حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة في تلك الفترة بالذات إلى تصفية العائلات ، وهي في رأيي مسألة خطيرة .

في تقديري - والله أعلم - أن مستشاري جمال كانوا يغذون هذا الاتجاه في نفس عبد الناصر وكان أهمهم هو مستشاره الصحفي (يريد الأستاذ محمد حسنين هيكل وكان أيامها رئيس تحرير جريدة الأهرام) فهو يمتك العائلات ويتحين الفرصة للشماتة فيها ، ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الناس ، حتى أن أهل الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجاً « آخذ نفقة زى الست » . .

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التي يدفعونها لمن تفرض عليهم الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة « نفقة » وهي نفس الكلمة التي تطلق على المبلغ الذي يدفعه الزوج ليعول مطلقة .

واستمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو ، حيث كان من المقرر أن يتم القضاء على العائلات كلها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة ، ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبة القائمة في أواخر مايو وأوائل يونيو (حرب يونيو ١٩٦٧) فأوقفت تلك الإجراءات فكل

كارثة لها جانب آخر . يقول المثل الإنجليزي (كل سحابة داكنة لها شريط فضي يبرق وسط العتمة) .

إلى هنا ينتهى كلام السادات .

وقد حكى السيد محمد فرغلى فى مذكراته التى نشرها تحت عنوان « عشت مع هؤلاء » أنهم بعد أن صادروا أملاكه وأمواله أرسلوا له شيكاً بنفقة وقدرها جنيهان ونصف فى الشهر وهذه سخريه عجيبه تدل على مدى حقدهم على الناس واحتقارهم لأقدارهم ، فيماذا نفسر تقديرهم جنيهين ونصف نفقة شهرية لرجل أخذوا منه الملايين ؟ بماذا نفسر ذلك إلا باستهتارهم بالناس والتلذذ بامتهان كرامتهم ؟ ويقول الرجل فى كتابه بهذا الصدد : والشريط الفضى الذى يشير إليه السادات هو إنقاذ العائلات وبيوت الأسر الكريمة التى صفوا أملاكها وأكلوها وأرادوا لإكمال الاقتراض بالقضاء على الناس أنفسهم حتى لا يبقى منهم أحد يطالب بالأموال المغتصبة فيما بعد .

والفكرة ليست غريبة عن الفكر الشيوعى الذى كان مسيطراً على رؤساء السوبر باشوات فى ذلك الوقت وأصلها عند لينين فإن لينين بعد أن انتصر على كيرنسكى رئيس حزب المنشفيك الذى قاد الثورة الروسية قبل لينين وعزل القيصر ، اتجه إلى التغيير عن طريق الانتقال من القيصرية العاشمة إلى الجمهورية الدستورية واعتمد فى عمله على أوساط الناس الذين تعودنا أن نسميهم البورجوازية ، والبورجوازية تنقسم إلى قسمين : البورجوازية العالية La haute bourgeoisie وهى من نسميهم فى مصطلحنا العربى بالملياسير ويدخل فيهم كبار التجار وأصحاب الصناعة ورجال المال والحرفيون من أهل التخصصات العالية الذين نسميهم اليوم بأصحاب المهن الحرة ويدخل فيهم المثقفون والمفكرون والناجحون من أهل الفكر ، والبورجوازية الصغيرة La petite bourgeoisie وهى ما نسميه بالعربية بالمسائير أى الحرفيين من أى تخصص كان ممن يكسبون ما يقوم بحاجتهم ولا زيادة وأقل هؤلاء كسباً يسمون بالبروليتاريا وهى كلمة لاتينية تعنى أهل الحاجة أى الذين لا يقى كسبهم بالحد الأدنى من حاجتهم ، وفى النهاية فى قاع المجتمع نجد الخرافيش وهم من يسمون فى مصطلح الشيوعية باسم بروليتاريا الأسما Lumpen proletariat .

وقد كان كرينسكى يعتز بالبورجوازية العالية والصغيرة فجاء لينين فاتجه رأساً إلى بروليتاريا الاسما .

وكان كرينسكى يريد مواصلة الحرب مع الألمان . فأعلن لينين أنه لابد من إيقاف الحرب ليتوقف التزييف الرهيب من جبهات الحرب مع الألمان . وكان جنود الروس فى أسوأ

حالة يمكن تصورها كانوا يجرون أقدامهم في أسمال فعلاً ، ولا سلاح ولا طعام ولا نصر ولا أمل في النصر فلقيت دعوة لينين قبولاً منهم ، وترك الملايين من الجنود المساكين جبهات القتال وانقلبوا عائدين إلى الوطن في أسمال فعلاً وانضموا تلقائياً إلى جبهة لينين ، وبهم وبغيرهم من الساخطين على القيصرية والحرب اكتسح لينين خصومه وأتم الاستيلاء على السلطة .

واتجه لينين بعد ذلك إلى إبادة البورجوازية جميعاً . وخاصة المياسير منهم ولكن لينين ورجاله كانوا أصحاب أيدلوجية أى عقائدين ولم يدسوا الأموال في جيوبهم ولم يسكنوا قصور الإقطاعيين والمياسير ولا هم نهبوا بيوتهم إنما استخدمت الثورة كلها في تحويل روسيا - التي كانت بالفعل مفلسة تماماً - إلى بلد أقوى . ولينين مهياً قلناً فيه كان رجلاً مثقفاً يدخل ضمن المثقفين وأصحاب الفكر والعلم ولهذا فلقد كان يحترمهم ويحرص على المحافظة عليهم ولهذا فقد أعفى من ضرباته أصحاب العلم والتخصص العلمي والفني منهم وخاصة ذوى النوايا الوطنية الطيبة . لأنهم ثروة الأمة الحقيقية ولولم يفعل لينين ذلك لما وجدت روسيا الشيوعية أساساً علمياً تبنى عليه .

أما السوبر باشوات الذين انقضوا على بلادنا والتهموا خيراتها من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ فلم يكونوا عقائدين ولا أصحاب مبادئ وكان فيهم جهل شديد وعنف أشد ، ولهذا فإنهم لم يحرصوا على علم ولا احتراموا عالماً . بل اتجهوا إلى معاداة أهل العلم معاداة صريحة لأن العلم كرامة ووطنية والمستبد الجاهل يكره صاحب العلم ويضطهده . ولهذا فإن عصر السوبر باشوات الذى اشتهر بالسرقة والنهب وإهدار القوانين وإيذاء القضاء وأهل العدل اشتهر أيضاً باحتقار العلم وأهله والأدب ورجاله وكل ما يتصل بالعلم والفكر .

وجدير بالملاحظة هنا ما أشار إليه السادات من أن أهم الساعين إلى القضاء على العائلات والمياسير وأهل النعمة - كبيرة كانت أم صغيرة - كان مستشار عبد الناصر الصحفى . . وكان هو أيضاً مستشاره الفكرى . . ففارق بهذا موقف مكسيم جوركى كبير رجال الفكر في الثورة الشيوعية وصديق لينين إلى آخر حياته . . فإن جوركى وقف حامياً للفكر والعلم والفن وأهلهم جميعاً . . وكان لا يتردد في مجادلة لينين وكف يد أتباعه عن امتهان كرامات الناس وإذلالهم . وإليه يرجع الفضل في حماية جانب كبير من تراث روسيا العلمى والفنى والفكرى . . ومكسيم جوركى كان صاحب مبادئ ، وقد ظل يعيش على الكفاف إلى آخر أيام حياته . . أما المستشار الصحفى للرئيس عبد الناصر فكان قد تحول إلى رأسمالى موسر عظيم . . وإلى هذا يرجع فيما أحسب بغضه لأبناء العائلات والمياسير والمثقفين عامة . . وهو هنا لا يختلف عن بقية مماليك السلطان . .

وأعود لأكمل كلام السادات فهو يكمل هذا الخط الذى أسير فيه بحثاً عن السوبر باشوات الذين امتهنوا كل كرامة ومدوا أيديهم إلى كل مال وجعلوا انتماء المصرى إلى وطنه جريمة يستحق عليها أشد العقاب . . قال فى ص ٢٢٢ من البحث عن الذات :

« سافرت فى ذلك الشهر - هو مايو ١٩٦٧ - إلى كوريا الشمالية ثم إلى موسكو . . حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقي خطابه فى أول مايو . . كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . . ويستشهد بحادث وقع فى قرية مجاورة لقريتى . . وسمعت يذکر إسمى . . فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر . . ثم تصدر الأحكام دون فحص لهذه الحقائق . . ؟

« القرية كانت كمشيش وقد كانت مسرحاً فعلاً لإقطاع لم تشهد له البلاد مثيلاً . . ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا فى الواقع أسوأ من الإقطاع الذى نشهد به جميعاً فى المنطقة . . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق الماركسية . . وفى هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع . . ولم يكن هناك ما يدعو لذلك لأننا صفينا الإقطاع فى هذه القرية . . ووزعت الأراضى على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة » . .

ويختتم السادات كلامه فى ذلك الفصل قائلاً (ص ٢٢٣) « على أى الأحوال فإنه بعد ٢٥ مايو ١٩٦٧ لم تنعقد لجنة الإقطاع . . إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ » . .

والرئيس السادات لم يفهم لماذا شرع نفر من السوبر باشوات (ولم يكونوا شيوعيين ولا ماركسيين إلا بالإسم) فى إبادة العائلات ظناً منه أن المسألة انتهت بمصادرة الأراضى وتوزيعها على الفلاحين ، ولكن الحقيقة أن الأراضى لم تكن هم السوبر باشوات ، لأنهم لم يكونوا فلاحين أو مزارعين على أى حال ، ولكن أصحاب تلك الأراضى كانت لهم بيوت وقصور فى القاهرة والإسكندرية . . وهذه كلها استولى عليها أصحابنا . . ولكى يطمئنوا إلى أنها أصبحت ملكهم إلى الأبد كان لابد من القضاء على أصحابها تماماً حتى ينعدم الحق بانعدام المطالب به .

وبمناسبة الاتجاه إلى إبادة أهل البيوت وذوى النعمة . . أذكر حادثاً صغيراً وقع فى السفارة فى مدريد . فقد كان لنا هناك مستشار من أبناء الأسر الطيبة . . وسأخرج عن دائرة عدم ذكر الأسماء هذه المرة لأن الرجل الذى يدور حوله الحادث معروف للكثيرين وهو

المرحوم محسن أباطة . . وكان من خيرة من عرفت من الأباطيين . . ولم يكن الرجل غنياً . . بل كان من أهل اليسار . . وكان شكله مهيباً محترماً وسلوكه سلوك من نسميهم بالذوات . . وهذا لم يعجب السفير الذي أتانا . . وكان سوبر باشا فجعل دأبه إهانة محسن أباطة الطيب والتعدي عليه حتى نهره مرة وطرده من مكتبه مع إهانة شديدة . . وخرج الرجل الطيب وهو لا يكاد يرى طريقه . . وأزوره في بيته فأجده يبكي . . وأتعجب من أمر السفير معه فأقول له - للسفير أقصد - بعد أيام وهو في حالة رضا : وما ذنب محسن يا سيدى السفير ؟ . .

وتكون الإجابة العجيبة .

- ذنبه : وهل هذا سؤال ! . . ألا يكفيك شكله ! إنه يتصور أننا ما زلنا في أيام الباشوات . .

- ولكنه ليس باشا ولا هو بغنى . .

- هو الذى يقول لك ذلك . . لا تصدقه . . إنه راقد على ألوفات ومراته عندها أكثر . . أتعرف من هو أبو مراته . .

- لا يا سيدى السفير .

- ما دمت لا تعرف هذه الأشياء فلا تتكلم . .

وأظن أن هذه كانت أول مرة في حياتى أرى فيها مواطناً يعاقب لأنه محترم ولأنه من أسرة كريمة . .

وما جرى للسلطان عبد الناصر على يد مماليكه وللسلطان المساعد عبد الحكيم عامر على يد خشداشيته يذكرنى بسطور قرأتها في خطاب قرأت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية منشوراً في مجلة لايف الأمريكية بعد موت عبد الحكيم عامر في صيف ١٩٦٨ . . وقالت المجلة أن عبد الحكيم عامر كتب الخطاب في سجنه قبل موته واستعان بأحد أنصاره في تسريبه إلى خارج معتقله . . والغالب أن الخطاب كله مفتعل . . ولكن فيه عبارة وقفت عندها طويلاً عندما قرأتها في حينها . . يقول فيها : كنت أعرف أن هناك اعتقالاً وضرباً وتعذيباً . . ولكنى لم أكن أتصور أبداً أن الموجة تصل إلى . .

وسواء كان الخطاب أصيلاً أو مفتعلاً . فإن العبارة كحقيقة تاريخية تصور تفكير الذين أنشأوا طبقة السوبر باشوات وسمحوا لهم بتلك العريضة بكل ثروات مصر وقيم مصر وقوانين مصر . وكل قيمة من قيم هذا البلد . .

وأظن أننى اقتربت الآن من تمام الإجابة عما يحيرنا الآن . . متى وكيف بدأت موجة عدم الانتباه والتسيب والعدوان على كل قانون وقيمة ونظام ؟ . . ؟

٩ سادة العصر الحزين

إن ثورتنا - من حيث التنفيذ - ثورة ليلة .. بدأ العمل التنفيذي لها في الساعة السادسة مساء ليلة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ .. وقبل أن تأتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى - ٢٣ يوليو - كانت قد تمت الضربة الحاسمة واستقرت الأوضاع .. وفى الساعة السابعة صباحا أذيع نبا قيام الثورة ونجاحها على الناس جميعا .. فرحبوا بها وأيدوها .. وتأكد نصرها بذلك لأنها أصبحت ثورة شعب بأسره لا ثورة جماعة من الضباط الأحرار .. وانتهى النظام السياسى القائم ولم يعد له حق فى ولاء .. واتجه الولاء كله للنظام الجديد الذى قام ..

بل هى - من حيث التنفيذ أيضا - حركة ساعة .. لأن المعركة كلها كانت معركة الاستيلاء على مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة بكوبرى القبة ، وعندما سقط هذا المبنى تم الجزء الأكبر من المعركة .. وبقية الخطوات كانت توكيدا وتثبيتا وتأمينا .. ولو أن يوسف منصور صديق فشل فى الاستيلاء على ذلك المبنى والقبض على اللواء حسين فريد لما نجحت الثورة كلها .. لأن الثورة لم تكن لها إلا خطة واحدة .. فلم تكن هناك خطة بديلة .. ثم إنها كانت حركة الضربة الأولى : من يكسب فقد انتصر .. ولو كان حسين فريد أقل غفلة مما كان لكان صاحب الضربة الأولى وفشلت الثورة ..

بل هى من حيث التنفيذ أيضا كانت معركة رجل واحد ضد رجل واحد : يوسف منصور صديق ضد حسين فريد .. كان النظام الملكى كله كان هذا الرجل المفرد حسين فريد .. وعندما وقع أسيرا أنتهى النظام كله .. لأن هذا الرجل كان الممثل الوحيد للنظام القديم فى مركز قيادته وقوته .. أما الباقون .. فكانوا فى بيوتهم أو فى مواقعهم .. على أى حال فمن وجد فى بيته اعتقل .. ومن وجد فى الطريق إلى مركز عمله أسر .. أما الملك فقد أسقط فى يده عندما رأى الجيش - وهو كان كل عماد قوته وضمان شرعيته - قد تخلى عنه .. أما الشعب فلم يكن للملك فيه أمل ولا مكان له عنده .. فقد سقطت الملكية العلوية من تلقاء نفسها .. لأنها كانت ثمرة ملصقة بغصن الشجرة لا نابتة من الغصن ..

وأما الوزارة التى تألفت فى اليوم السابق فحسب - وزارة أحمد نجيب الهملاى الثانية يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ - فقد تلاشت من الوجود وكأنها لم تتألف قط .. ومن عبر التاريخ أن خبر الثورة وصل الملك فاروق وهو فى حفل أقامه لآله وخلصائه فى قصر المنتزه تكريما لإسماعيل شيرين زوج أخته فوزية .. وكان فاروق قد ضغط على الهملاى ضغطا شديدا ليدخله الوزارة وزيرا للحربية .. وما كان الهملاى يعلم حين تأبى وعارض قبول إسماعيل شيرين أن رفضه وقبوله سيان .. فالوزارة كلها تألفت بعد قيام الساعة وانتهاء العصر كله .. فقد كانت خطة الثورة قد رسمت واستقرت .. وتقسمت أدوارها على الثوار ..

والثورات كالمعارك - يكون المعول فيها على التنفيذ أكثر من التخطيط ونحن جميعا قبل الثورة كنا نوارا بالتفكير والتخطيط ولكن الضباط الأحرار كسبوا فخرها بالتنفيذ . .

وقد قرأت قبل أن أكتب هذه السطور كل ما كتبه من تيسرت لهم الكتابة عن ليلة ٢٣ يوليو ممن شاركوا فيها . . وقد أحصيت كل الأسماء التي ورد ذكرها في أحداث تلك الليلة فما وجدتهم - أولا عن آخر - يزيدون على العشرين أقول : الذين ورد ذكر أسمائهم فحسب . . أى دون الذين شاركوا فيها وهم كثيرون والحمد لله ومهما نقرأ من الكتب فلن نجد إلا حوالى العشرين إسما . . ولولا أننى التزمت بعدم ذكر أسماء لا وردتها لك . . ولكن عندك مثلا كتاب جمال حماد (٢٢ يوليو ص ١٨١ وما بعدها) فلن تجد إلا نفس الأسماء تتكرر مرة بعد أخرى كأنها شخوص رواية . . والكتاب جيد . . وصاحبه شارك بنصيب محدود في صنع الأحداث والاعتماد عليه هنا مأمون خاصة أن صاحبه دخل الثورة وهو ثائر من الصف الرابع أو الخامس . . وظل بعد الثورة في هذا الموضع من مراتب رجال الثورة . . فلم يكن له صالح في أن يعيد ترتيب الأحداث على نحو يجعل دوره في صنع الثورة متوازنا مع ما وصل إليه بعدها . .

وثورتنا مثل كل الثورات لم تكن عادلة في انصاف من شاركوا فيها . . وسواء نظرنا في تفاصيل الثورة الفرنسية أو الأمريكية أو الروسية فأننا نجد أن المخططين للثورة يكونون دائما من أهل الإيمان بضرورتها مع هدوء الأعصاب واتزان العقل وضبط النفس . . أما الذين يقومون بتنفيذها فقد يكونون من بين أهل التخطيط وقد لا يكونون . . ولكنهم دائما يكونون من أهل الإيمان والبنسالة والاندفاع . . وهم في اندفاعهم يخسرون في كثير من الأحيان حياتهم . . ولا يجنون ثمرات الثورة في معظم الأحيان . . أما الذين يجنون الثمار فقد يكونون من خارجها ولا علاقة لهم بالتخطيط لها أو تنفيذها . . إنما هم دائما أهل ذكاء وتدبير وانتهاز للفرصة وسرعة في الحركة . . وهم لا بد أن يكونوا بعد ذلك من أهل الأنانية والقسوة وقلة الإحساس بالعدالة . . لأن الثورة إذا نجحت وجاء دور جنى الثمرات لم تعد المسألة مسألة إيمان أو استحقاق أو حق أو عدل . بل مسألة ضرب وخطف وحيلة . . ولينين أتى مع أصحابه من زيورخ في سويسرا في قطار ألماني محكم الإقفال . . فاختطف ثمار الثورة كلها وقضى على الذين قاموا بها . .

وأشياء من هذا كله وقعت لثورتنا . . والكثيرون شاركوا في صنع الثورة وحزنوا لأنهم لم يجنوا منها إلا المتاعب . . أذكر أن رئيس الحزب الشيوعي في ليننجراد ، وقف على رصيف محطة ليننجراد مع أعضاء اللجنة المركزية للحزب ينتظر لينين الذى كان قادما من فنلندا . . وكان الرجل قد حمل عبء الحركة كله في ليننجراد وبذل أقصى ما وسعه في تنظيم استقبال

لينين . . وما كاد القطار يقف ويظهر لينين على السلم ويحيى الجماهير حتى لمح الرجل في عيني لينين الرماديتين الجامدتين نظرة أحس فيها بالموت . . ولينين أهمله تماما واندفع إلى منصة ووقف يخطب الجماهير . . واتجهت إليه جماعات الناس . . ووقف رئيس اللجنة وحده وسار وحيدا إلى بيته . . وكان في أوائل من حكم عليهم لينين بالإعدام ونفذ فيه الحكم . . وقد حكيت القصة بتفاصيلها في دراسة سابقة . .

وقبل أن أنتقل إلى النقطة التالية أقول أن كل الأسماء التي تمر بها وأنت تقرأ أحداث ليلة ٢٣ يوليو - سواء أكانت لعشرين شخصا أو أكثر - قد أصبح أصحابها من الأثرياء كلهم اليوم في عداد أصحاب المال الوفير . . وكلهم نال من المناصب ما كان يتمنى وفوق ما يتمنى . . ما كان يستحق وما لا يستحق . . وأقلهم ثروة اليوم لا يقل غنى عن أغنياء عصر الباشوات . . وهذه حقيقة أقولها وأترك لك التعليق عليها . .

وأعود فأمسك بخيط الحديث حيث تركته من كلامي عن السوبر باشوات فأقول : إننا رغم قصر فترة تنفيذ الثورة - ليلة واحدة على أوسع تقدير - وعلى رغم قلة من ورد ذكرهم من أسماء من حملوا عبء التنفيذ لا نكاد نعرف الحقيقة . . لأن كل واحد من الذين كتبوا أحداثها فيما بعد - وهم نحو خمسة عشر من قرابة العشرين الذين أشرت إليهم - انفرد بحكاية بعيدة عن حكاية الآخر . . وواحد منهم له أكثر من رواية ، وكل رواية من رواياته تناسب مركزه في الوقت الذي كتبها فيه . . والمؤرخ العارف بأصول صنعته لا ينكر هذا ولا يلجأ إلى الاتهام بالكذب أو التدليس . . فهذه طبيعة السياسة والعمل السياسي . . بل هذه هي طبيعة البشر في كتابه التاريخ . . فإن الحركة أو الثورة إذا نجحت وتفتحت أبواب المراكز والمكاسب والمغانم اجتهد كل إنسان في أن يوسع لنفسه مكانا بين صناع الحركة . . وعندنا على ذلك مثالان لانزال نذكرهما لطلابنا تحذيرا لهم من تزيف التاريخ وأساليب التزييف . . المثل الأول هو خبر سرية (أى حملة) سيف البحر (شاطيء البحر) . . التي أرسلها رسول الله ﷺ في رمضان سنة الهجرة (مارس ٦٢٣ م) . . وهى أولى مغازى الإسلام فإن الثابت عندنا أن الذين اشتركوا فيها مع حمزة بن عبد المطلب خمسة عشر رجلا كلهم من المهاجرين . . ليس فيهم أنصارى واحد . . وذلك هو المعقول . . لأن الرسول ﷺ كان ملتزما إذ ذاك بما نصت عليه بيعة العقبة الثانية - وعلى أساسها هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة - وهى لا تلزم الأنصار بالاشتراك في القتال إلا دفاعا عن المدينة . . وهم بهذا غير مطالبين بالاشتراك في المغازى . . وكان أول اشتراكهم فيها في واقعة بدر . . ومع ذلك فلدينا روايات تورد أسماء ١٥ أنصاريا تقول أنهم اشتركوا في سرية حمزة . . وأصل الحكاية يرجع إلى التنافس بين المهاجرين والأنصار على مراكز الفضل في الإسلام وجماعة الإسلام بعد الانتصار . .

والمثل الثانى صورة فوتوغرافية ظهرت فى أيام ستالين وذاعت حتى أصبحت صورة رسمية . . وهى مع ذلك صورة مزيفة . . فإنها تصور لينين يخطب على منصة فى الميدان الأحمر خلال الأيام الأولى لتزعمه لثورة أكتوبر ١٩١٧ . . وعلى سلم المنصة كانت صورة ضابط من الحرس قريبا جدا من لينين . . فأمر ستالين برأس ذلك الرجل فأزيلت . . ووضع رأسه مكانها . . وبدا بذلك أنه - دون غيره - من رجال الثورة كان أقرب الناس إلى لينين منذ أيامها الأولى ومن ثم فهو أولى الناس بخلافته ، وأصبحت هذه الصورة الزائفة صورة رسمية طوال عصر ستالين . .

وبالنسبة لموضوع دراستنا هذه فهى تضع يدنا على أصل بعيد من أصول ما ذكرناه من تزيف الحقائق وقلة احترام الناس للمحق . .

ذلك أن نجاح الثورة السريع - والسهل كذلك - قلل من أهمية الدور الذى قام به العدد القليل جدا من الرجال الذين قاموا بالضربة الأولى واحتملوا صدمة الاستيلاء على مبنى القيادة العسكرية فى كوبرى القبة . . فإن العملية كلها لم تدم أكثر من نصف ساعة والهجوم الحاسم قام به ثلاثة : يوسف صديق وعمر محمود على وفؤاد عبد الحى . . والباقى كلهم وقفوا عند التنفيذ فى الصفوف الثانية وما يليها . . وهذا لا يقلل من أقدارهم . . ولكن الثورة إذا كانت قد فشلت فهؤلاء الثلاثة هم الذين كان يحق عليهم حكم الإعدام أما الباقون فكانوا سيعاقبون ولكن بعيدا عن الإعدام . .

وكان النجاح السريع للحركة وقلة المسؤولين الأساسيين عن التنفيذ ضارا بالثورة فى النهاية . . ولو أن الثائرين حاربوا شهرا أو شهرين أو سنة مثلا لتحددت بدقة أكثر مراتب رجال الثورة ومراكزهم ، والجنرال فرانكيسكو فرانكو ومن معه خاضوا غمار معركة الثورة الأسبانية على طول أربع سنوات (١٩٣٣ - ١٩٣٦) ومات فيها مليون من الناس على الجانبين . . وعندما انتهت الحرب لم يكن هناك شك فى أن فرانكو هو البطل الأول والأكبر للمعركة . . وأن نخوسيه أنطونيو دى ريبيرا هو مفكر الثورة . . لأنه وقع فى يد الأعداء وأعدم فى البكانتى (لقنت) فى الشهور الأولى لقيام الثورة . . فأصبح بذلك أول شهدائها ولم يعد هناك مكان لأن يزعم رجل آخر أنه أول الشهداء . .

أما فى ثورتنا فإن مساحة الصورة كانت واسعة . . والذين وقفوا فى الصف الأول منها كانوا قليلين جدا . . والأمور تمت بسرعة لم يستطع أحد معها أن يتبين على وجه التحديد من فعل ماذا ؟ . . وأصحاب التدبير وهذوء الأعصاب قفزوا بسرعة واحتلوا كل فراغ الصورة وأزالوا - دون صعوبة كبيرة - القليلين الذين وقفوا فى الصف الأول . . والأمر هنا لم يقتصر - كما فعل ستالين - على قطع صورة رأس جندى ووضع رأس نفسه مكانها . .

بل وصل الأمر إلى قطع رأس لينين نفسه ووضع رأس آخر مكانه . . وجمال عبد الناصر أزال صورة يوسف صديق ومحمد نجيب . . والرئيس السادات في إحدى رواياته لأحداث الثورة صغر حجم الرئيس محمد نجيب حتى أصبح لا يكاد يرى . . وأسقط ذكر يوسف صديق وعمر محمود وفؤاد عبد الحى جميعا . . وبذلك أخلى المقاعد الثلاثة الأولى لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم ولنفسه . . على الترتيب . . وبعد وفاة عبد الناصر ووصوله إلى الرئاسة وضع نفسه في البداية ويليه - وعلى مسافة محترمة - جمال عبد الناصر وعلى مسافة غير محترمة وضع عبد الحكيم عامر . . وبعد مدة قصيرة أعيد شمل الصورة واتسعت فيها مساحة السادات حتى لم يعد هناك سواه . .

وهذه كلها حقائق حزبية حول أسلوب العمل في ذلك العصر الحزين ، عصر العدوان الذى ملأ قلوبنا بالأحزان . . وأصل أحزاننا بدأ من الرؤوس أو الكبار . . فهم كانوا البادئين بالعدوان على المراكز والقيادات . . وأحزاننا كلها خلال ذلك العصر بدأت عندهم . . وعلى الدرب الخطر سار بماليكهم وأتباعهم . . والعصر كله عصر ظلم شامل لم يتوقف عن التوسع كأنه الحريق الهائل . .

كل ذلك لا يهمننا فى المكان الأول . . ولكن الذى يهمننا حقا هو أثر تلك العمليات فى الأخلاقيات التى سادت عصرى عبد الناصر ثم أنور السادات . . فإن تراث ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان فى الحقيقة ضحنا جدا والغنيمة ضخمة - ماديا ومعنويا - والبطل الحقيقى للثورة كان شعب مصر : هو الذى أيد وناصر وتحمل وغطى على أعمال الاغتيال المعنوى أولا ثم المادى بعد ذلك ، التى كانت تدور بين رجال الثورة . . والحقيقة أن توزيع الكراسى بعد النصر لم يتناسب قط مع حقائق الأدوار . . وجمال عبد الناصر بعد انتصاره على محمد نجيب ثم على زملائه الذين وزع عليهم الكراسى بحسب تقديره إياهم احتاج إلى رجال يملأ بهم فراغ الصورة فمد يده وأتى بناس من الصفوف الخلفية ووضعهم محل أصحابه الأول . .

وعبد الحكيم عامر دفع من قلعته فى القوات المسلحة برجال آخرين . . كل ذلك والبطل الحقيقى للثورة وهو الشعب لا يدري . . فإنهم لم يقولوا له شيئا . . والدولة أقامت وزير إرشاد وإعلام وظيفته ألا يعرف الناس شيئا . . وكان على الشعب أن يرضى بدوره الذى حددوه له فى الرواية : دور الهتاف أو التهتيف بينما انتزعت التركة المادية لعصر الملك والباشوات من أصحابها ولم ترد إلى الشعب . . بل استقرت فى جيوب من وضعوا اليد عليها . . ولم تعد الثورة ثورة مصر بل ثورة عبد الناصر . . بل أن اسم مصر كلها حذف وأصبحت مصر الإقليم الجنوى للجمهورية العربية المتحدة وهى سلطنة عبد الناصر

والذين وصلوا إلى قريب من السلطان ثم إلى السلطان المساعد أصبحوا أصحاب كل شيء . .

محل الولاء لمصر حل الولاء لعبد الناصر . . وعلم مصر ذو الهلال والنجوم زال وحل محله علم عبد الناصر . . ومصر نفسها لم يعد لها وجود حتى يكون لها ولاء وعلم ، ومحل الاستحقاق والأهلية والعلم والنزاهة والشرف واحترام النفس حلت ثقة عبد الناصر . . وقرأ مقالات «أزمة المثقفين» لكاتب ذلك العصر وتعجب كيفما شئت من أن حق العطاء والمنع . . حق الثواب والعقاب بل حق الحياة والموت انتقل من الله سبحانه وتعالى إلى جمال عبد الناصر وحق الشفاعة انتقل من رسول الله ﷺ إلى كاتب العصر ومن في مستواه من ممالك السلطان . .

ولماذا نكتب هذا الكلام . . ؟

لوجه الله وحبا لمصر . . فما رأيت عبد الناصر في حياتي ولا دار بيني وبينه حديث إلا في موقف واحد وهو موقف لا يستحق حتى أن يذكر . . والرجل لم ينفعي ولكنه أضر بي لأنه أنزل بيلادي مساءات كبرى وأنا أقول إنني أتمنى لكل رئيس من رؤساء مصر أن يكون جمال عبد الناصر في شجاعته وقدرته على صنع التاريخ وقيادة الحوادث وجلال شخصه وجمال صورته . . ولكنني لا أتمنى له أن يكون جمال عبد الناصر في عدوانه على الناس واحتقاره للقانون وحقده على ناس بعينهم واستصغاره للعلم وأهله وعدم توقيره للقضاء .

ولكن الثمن الذي دفعناه ليرتفع تمثال عبد الناصر كان باهظا فعلا وتركته ثقيلة جدا . . وإذا أمكن القول أن الخسائر المادية يمكن تعويضها . . فإن الخسائر المعنوية عسيرة التعويض . وإلى يومنا هذا نحن نخوض معركة إصلاح التركة المعنوية . والذين ألقوا بمسئولية التدهور الإداري والجرأة على أموال الدولة وفساد الإدارة واللامبالاة وضعف الانتماء القومي وما إلى ذلك على أنور السادات وحده يبدأون القصة من منتصفها الذي يعجبهم . . وكلامي هذا معاونة من مواطن متواضع لرئيس جديد صافي القلب ناصع الضمير من أبطال مصر فعلا . . فإن حقه علينا صدق النصيحة وقول الحق والحق في أيام عبد الناصر كان جنائية ، وفي عصر السادات أصبح جنحة ونريد صادقين أن يصبح الحق في أيام مبارك رأس الفضائل جميعا . .

وسأقص هنا قصة من قصص العصر الناصري شهدتها بنفسى واجتهدت وسعى في تلافي أضرارها ، وأنا أحكيها هنا لأنها تصوير حقيقي للجو الذي عاشت فيه مصر أيام عبد الناصر ، والطريقة التي كانت الأمور تدار بها في ظلّه والقيم التي حكمت سير الأحداث

خلال الستينات كلها ، وأنا أحكيها لأننى لا أتمنى أن تتكرر وأحذر أهل وطنى من الظروف التى جعلت وقوعها ممكنا . . . وكعهدى فى هذه الدراسة لن أذكر الأسماء . . . وتاريخ العصر كله تاريخ بلا وثائق . . . والشهادة فيما أروى لله وحده ولن أذكر البلد الذى وقع الحادث فيه حرصا على سمعتنا هناك . . . ثم إن القارئ يفهم عنى ، وعدد كبير جدا من المواطنين سمعوا بالحادث والآن آتيهم به على حقيقته . .

كان ذلك فى صباح يوم من أيام ابريل فى سنة من سنوات الستينات وكنت أيامها أعمل مستشارا ثقافيا فى إحدى سفاراتنا ومديرا لمعهد الدراسات الإسلامية هناك . . . وكنا أنا وزملائى فى المعهد نبذل أقصى الوسع فى إنجاز المبنى الجديد للمعهد والمحافظة على ذلك المبنى الجديد من عدوان السفير . . . والسفير كان مملوكا كبيرا من ممالك السلطان عبد الناصر ، وبعد أن جعله وزيرا أبعده إلى مدريد سفيرا . . . بالضبط كما «نفى» السلطان قلاوون مملوكه الأمير أرجون إلى بلاد الشام وجعله نائبا للسلطان هناك . . . وقال له فيما يحكى أمير المؤرخين المصريين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : والله لو عدت يا خشداش الكلب قصفت رقبتك . .

ولكيلا تقصف رقبة السفير جعل يتسلى بقصف رقبة كل قرش تصل إليه يده من أموال الدولة . . . ولا بد أن أقول هنا احقاقا للحق أن الرجل كانت فى أعماقه شهامة واحترام لمن يحترم نفسه وتقدير للعلم وأهله . . . وست سنوات عملت فيها معه لا أذكر أنه أساء إلى بكلمة . . . وليس بينى وبينه أى خصومة تميل بى عن الحق أو تحملنى على إيذائه براوية القصة . . . وعندما لقيته بعد سنوات وقد تاب إلى الله وأطلق لحيته وتوجه للحجاز سألتنى أن أدعوله وقلت له :

سيدى السفير إن الله سبحانه وتعالى يغفر من الذنوب كل خطأ فى حقوق الله - عدا الشرك - كالتقصير فى العبادات والكذب والنفاق وما إلى ذلك ويغفر لك من ذنوبك ما وقع ضرره على شخصك مثل الخمر ولكنه لا يغفر للعبد عدوانه على حقوق الناس أنفسهم وجوارحهم وأموالهم . .

قال :

- تصدق يا فلان أننى قارفت من هذه الأخيرة شيئا . .

- على أى حال أنت ذاهب إلى الله سبحانه وهو أعلم منى ومنك بما كان وما لم يكن ومغفرته تسع كل شيء . .

أقول إن هذا السفير استدعانى إلى مكتبه فأسرعت إليه لأجده جالسا فى مكتبه وكأنه

غضنفر غاضب يكاتم سورته ، والمستشار الصحفي أمامه منكمش داخل نفسه كأنه قط يتوقع وثبة الليث . . والملحق العسكري جالس بمدد الساقين وفي عينيه لمعان غريب ، وأحس فيجىء الرد بنفس الصوت الذى تسمعه فى رد التحايا فى صيوانات العزاء . . والسفير يسأل فى قلق عن المستشار . . والمستشار كان قد خرج لبعض شأنه ويعود قريباً . . إذن فكلنا فى انتظاره . . ويعود فيستدعونه إلى مكتب السفير ويدخل ويحس ويقف فى وسط الحجر . . وتدور عينه بحثاً عن كرسى فيقول السفير :

- خليك واقف . .
- فيه حاجه يا سيادة السفير ؟
- إنت قلت إيه لسامى شرف ؟
- سامى شرف . . أنا لم أقل له شيئاً . .
- بل قلت كثيراً وأريد أن أسمع ما قلت كلمة كلمة .
- إذن فهو تحقيق . . إذا كان تحقيقاً فانا أريد تحقيقاً رسمياً ولجنة تحقيق . .
- لجنة رسمية يا ابن الكلب يا حرامى يا ضايح يا شحات . .

(معدرة فانا لم أذكر هنا إلا أقل ما قيل من الشائم والباقي يجرح الحشمة . . والغضنفر وقف والشرر يتطاير من عينيه والكلام يخرج كأنه الحمم) : جبتك من الشارع وعملتك بنى آدم ووكلتك ولبستك يا جعان يا قليل الأصل . .

- يا سيدى السفير . . أنا لا أسمع . .

ويندفع السفير نحوه وهو يقول : وانت مين انت الى تسمع أو ما تسمعش .
والملحق العسكري ينهض بحجة أنه يحول دون الضرب «يكف» المستشار الصغير الحجم وكان ظهره قد أصبح فى الحائط والسفير ينهال عليه بالضرب . . وأنهض لا حول بينهما ولكن ميهات . . فإن الضرب ينهال والمستشار يصيح : شاهدين . . شاهدين . . ويسيل دمه والسفير يمزق له القميص ويقطع رباط الرقبة . . ولا أحد يسمع صوتى وأنا أرجو السفير أن يتمالك نفسه . فهذه أول مرة أرى فيها رجلاً محترماً يضرب على هذا النحو . . وأرى السفير يخلع حذاءه ويمسك بمقدمته ليضرب بالنعل ويمسك الخوف من أن تقع كارثة . . فضربة على الرأس من هذا النعل تكفى لقتل المستشار . . وأمسك بيد السفير وفيها الحذاء وأرجوه ألا يفعل . . ودم المستشار أصبح يسيل الآن بغزارة . . ونستخلصه من الموقف ونمضى به إلى الباب . . والملحق العسكري يتسم فرحاً بما حدث والسفير يقول : لا يخرج هذا الكلب من السفارة واغلقوا الأبواب . . ويصعد المستشار السلم إلى حجرته ودمه يسيل ووجهه كله جروح وكدمات .

والسفير يستدعيني والمستشار العسكري ويقول : أريد منك أن تقوموا بمجرد مكتبه وعمل محضر رسمي . . ابن الكلب الشحات بقى بنى آدم . . جيبته من الشارع عريان بفانلة ودلوقت عنده عمارة وأتومبيلات وفلوس . .

وصعدنا إلى غرفة المستشار لعمل الجرد . . إنه جالس على كرسي ورأسه إلى الوراء ليقف رعاها أصابه . . جاكته مقطعة على حجره وقميصه مهلهل . . وملحق شاب في السفارة يدخل ليحضر الجرد مرسلا من السفير ، علمنا فيها بعد أنه مخبرات . . ورغم كل ما أصاب المستشار من الضرب والأذى وما سال من دمه فهو يقظ متمالك أمره كالنمس . . نطلب منه مفتاح المكتب فيناولنا إياه . . ونفتح ونخرج الأشياء وهو ينظر بعيني صقر . . ونحن نسجل ما نخرجه من الأدراج قطعة قطعة . . ونجد منشورات بالرونو مما ترسله الوزارة فنكتب : عدد كذا من المنشورات فيقول : منشورات لا . . قولوا خطابات دورية ومطبوعات . . إنه يعرف أن لفظ منشورات قد يذهب به في داهية فهو رجل مخبرات وتحقيقات . . ونجد في الدرج فيلما ونريد أن نسجله فيقول : بلاش ده يا دكتور . . دى حاجات شخصية . . احرقه أرجوك . . وأوافق على حرقه . . والملحق الجاسوس يجرى ويبلغ السفير بأننا حرقنا فيلما . . والسفير يستدعيني ليحاسبني على ذلك . . وأقول له إنه كان فيلما خاصا ولا دخل له في الجرد . .

- خاص . . يعنى إيه خاص . . أنتم متأمرون معه على . .
- سيدى السفير . . كان فيلما خاصا به وبسيادتك . .

وتتسع عين السفير ويقوم مسرعا فيفتح الخزانة إلى جواره ويبحث فيها ويقول : المجرم سرق الخزانة . . فين الفيلم . .

- حرقناه . .

- هاته لى محروقا . .

ونأتيه به فيرتاح قلبه ويقول : كويس اللى اتحرق . . ولكن هذا الكلب لن يخرج من السفارة . . ساقيده وأحبسه في البدروم . .

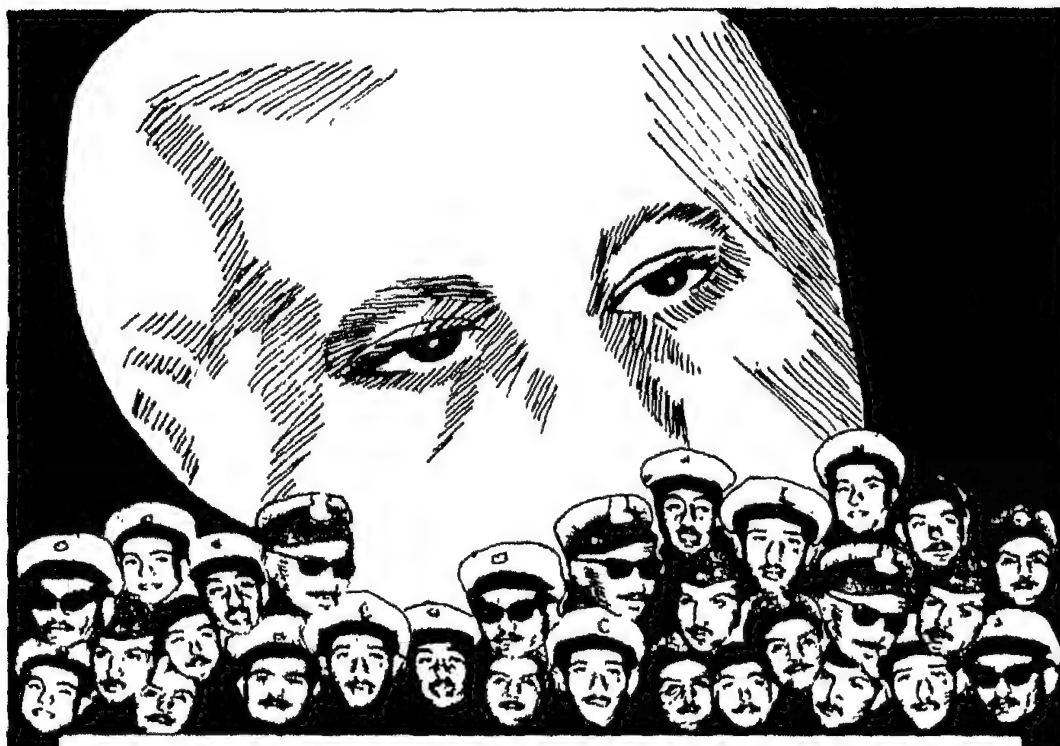
وينادى السواق والفراش . . وكلاهما مخبرات ويصدر الأوامر . . حاضريا فندم . . وأقول :

- هذا غير ممكن يا سيدى السفير .

- مفيش حاجة اسمها مش ممكن . . واحنا بقالنا عشر سنين بنضرب ونحبس . .
إيه اللى اتغير في الدنيا . .

- إحنا فى أوروبا يا سيدى السفير . .
- هذه سفارة أرض مصرية . . وده مصرى واحنا أحرار نعمل فى أرضنا زى ما حنا عايزين ومحدث له دخل . . أنا قلت الولد ده راح يتحبس فى البدروم مكتف يعنى يتكتف ويتحبس . .
- يا سيدى السفير هذا غير ممكن . . السفارة أرض مصرية . . ولكن ذلك لا يخرجها عن السيادة المحلية والسفارة لها حارس رسمى من رجال البوليس هنا . . وتحويل بدروم السفارة إلى سجن والاحتفاظ بسجين محبوس مقيد فيه أمر يمكن أن يؤدى إلى عواقب وخيمة . .
- وخيمة . . فيه حاجة اسمها وخيمة عندنا . . ؟ الظاهر انك مش فى الدنيا يا دكتور . .





١٠ عبد الناصر في بحر الظلمات

أواصل. هنا حكاية قيام السفير المصري بضرب مستشاره ومستشار السفارة . .
والحادث هنا يهمني لأنه يصور لنا بشكل واضح جدا عقلية السوبر باشوات . . وكيف كانوا
يديرين مصر على أنها ضيعة هم أصحابها وسادة كل من فيها . . ولا وجود في تفكيرهم أو
تصرفهم لشيء اسمه وطن أو مواطنون أو قانون . .

السفير ضرب المستشار ومزق ملابسه وأسأل دمه . : وهو بعد ذلك يريد أن « يكتفه »
ويحبسه في بدروم السفارة حتى يقرر ما هو فاعل به بعد ذلك . . وأحاول صرفه عن هذه
الفكرة فيقول : يظهر انك مش عايش في الدنيا يادكتور . .

وأقول : على أي حال . . قد قلت لك رأيي . . وأنت السفير وصاحب الأمر في هذه
السفارة . . ويقول الملحق العسكري الذي سره كل ما حدث : إحبسه فيه . . عندي ستة
من الحرس في المكتب وسأجعل بعضهم يقفون على مدخل بيته ولا يسمحون له بالخروج
ويمنعون الدخول عليه أو الخروج من عنده . .
والفكرة على غرابتها تعجب السفير فيقول :

— وأنا أرسل من هنا اثنين . . وعليك أنت ترتيب الحراسة بحيث تكون دائمة ليلا
ونهارا . .

ويقول الملحق الشاب الجاسوس :

— وأنا على مراقبة التليفون . . أنا أعرف مدير قسم كبير وبعض البنات في
التليفونيكا . . وبشيء قليل من المال نستطيع مراقبة تليفونه وتسجيل كل مكالمة منه أو
إليه . .

— برافو عليك . . وفلان - يريد الملحق العسكري - يدفع لك كل المصاريف . .

وكننت أعرف أن ما يقوله هذا الملحق مستحيل . . فمراقبة التليفونات في البلد الذي
كنا نعمل فيه كانت موجودة إذ ذاك . . ولكنها كانت اختصاصا من اختصاصات الدولة
ونخبائتها . . أما مسألة المدير الذي يعرفه والبنات اللاتي يعرفهن فلم يكن لهن في الواقع
وجود ولكن الذي كان له وجود هو النقود التي سيأخذها . . وهي نقود بلا إيصالات لا
عند الأخذ ولا عند العطاء . . مثلها في ذلك مثل الاعتمادات التي كانت تعطى لبعض
المكاتب الفنية الملحقة بالسفارات . . فقد كان المفروض أنها تدفع رشي . . (رشوى)
لبعض الناس مقابل « خدمات » وواحد منهم أخذ مالا كثيرا وزعم أنه أنفقه في تنظيم
مظاهرات قال إنها خرجت تهتف بحياة الرئيس عبد الناصر في قلب عاصمة أوربية
كبى . .

وواحد آخر منهم وقع في يده مقال يمدح الرئيس عبد الناصر ومعه رسم كاريكاتورى لطيف له يعبر عن قوته أمام الأوروبيين . . فيقطع المقال والرسم ويعطيه لمن يترجمه إلى العربية ثم يرسله إلى القاهرة ويزعم أنه أعطى الكاتب مبلغاً كبيراً من المال وأعطى المصور مبلغاً آخر . . وقال إنه لم يستطع أخذ إيصالات منهم ، لأن أمثال هؤلاء الكتاب الكبار لا يوقعون على إيصالات قط . . ثم وضع النقود في جيبه . . والمقال أعجب رؤساءه في القاهرة فارسلوا له خطاب شكر وتقدير . . وسيادة الرئيس أمر بزيادة اعتمادات الدعاية في مكتبه . .

وبالفعل سمح للمستشار بأن يعود إلى بيته ووضعت عليه الحراسة . . والحراس كان بعضهم رجالاً في غاية السذاجة والجهل . . ومن أول ساعة استطاع المستشار أن يخدعهم واستدعى طبيباً كشف عليه وأثبت إصاباته . . وكتب تقريراً قال فيه إنه أصيب بارتجاج في المخ وأن ذلك سيسبب له عاهة مستديمة وربما عجزاً تاماً عن العمل . : والطبيب استدعى طبيبين آخرين من مستشفى كبير . . وعقد الثلاثة « كونسولتو » بعد أن كشفوا على المخ والقلب بالكهرباء . . واعتمدوا التقرير مع بيانات الفحوص الكهربية من إدارة المستشفى ومن وزارة الصحة وكل شىء بضمنه . .

وعندما اطلعت على هذه الكشوف والتقارير المعتمدة بكل ما يمكن تصوره من اختتام قلت في نفسى : إذا كان هذا السفير داهية . . فإن المستشار مارد من الجن . . ورغم تهديدات السفير فإننى ظللت أزور المستشار . . وفهمت منه أن السفير كان قد سحب منه جواز سفره حتى يمنعه من السفر . .

وإلى هنا والحكاية - على بشاعتها - ربما كانت لا تستحق هذه الوقفة الطويلة عندها . . ولكن الذى حدث بعد ذلك كان أغرب . . وهويدل على نوع الحكم الذى كان يسودنا في عصر السوبر باشوات من القمة إلى القاعدة . .

فقد مر بنا في تلك الأيام رجل يعمل في الرئاسة وفهمت أنه ممن كانوا يستطيعون الدخول على عبد الناصر والخلوة به ليقول له ما يريد . وعبد الناصر الذى كان يتعالى عن أن يقابل وزراءه كان يمنح ساعات من وقته لشاويشية وخدم . . وكان يسمع لهم ويتأثر بكلامهم . . وجمال حماد الذى تعجب في كتابه (٢٢ يوليو ص ٢٠٦ - ٢٠٧) من أن الأخبار الهامة أيام الملك فاروق كانت لا تصل إليه إلا عن طريق محمد حسن السليمانى شماشرجى الملك وأمينه الخاص « وحلقة الاتصال الوحيدة به » لا بد أن يكون قد غير رأيه فيما بعد عندما رأى بنفسه أن أقرب الناس إلى أذن عبد الناصر كانوا في كثير من الأحيان أقل

من الشماشرجى محمد حسن السليمانى . . ونحن الذين نقرأ تاريخ دول الاسلام نعرف أن الذين كانوا يصنعون الخلفاء والسلاطين كانوا في معظم الأحيان الخصبان والنسوان . . وهذه كلها نتائج طبيعية للاستبداد . .

وهذا الرجل من الرياسة سمع القصة من المستشار . . وجاءنى ليسمع روايتى . . وأخذ معه حرم المستشار إلى القاهرة ودخل بها على عبد الناصر . . فحكى له الحكاية وأطلعته على قميص عثمان (أقصد قميص المستشار الممزق وفيه بقع الدم) . . فهل تتصور أن الرئيس استنكر الأمر أو هاله شيء فيه . . ؟

لا والله . . ولا هو ساءل السفير في شيء مما فعل . . إنما هم عملوا جواز سفر دبلوماسيا جديدا للمستشار وعادت به إلينا . . ولا أدري كيف ختموه في السفارة ليدونه عمل فيها بدلا من جواز السفر المفقود وأعتمدوه من الخارجية . . كل ذلك فعله وأداره من بيته ذلك المستشار الذى كان راقدًا في سريره يعانى - فيما قالوا - من حالة ارتجاج في المخ وإصابات ربما سببت له عاهة دائمة وعجزا تاما عن العمل . .

وأكون في بيتى ليلة فإذا التليفون يستدعنى . . وإذا المستشار يكلمنى من المغرب . . خرج من بيته وأخذ سيارته (المراقبة) ووصل بها إلى جبل طارق ثم عبر إلى المغرب . . وهناك استقبله زميل له مستشار سفارة أيضا كانت لديه تعليمات « بإحسان » إستقباله وصرف راتبه وملحقات المرتب وتيسير سفره إلى القاهرة ثم نسمع بعد ذلك أنه عين مستشارا في سفارتنا في بلد عربى . .

والذى علمناه بعد ذلك عما كان بين السفير ومستشاره قبل ذلك جعلنا نوقن تماما أننا نعيش في عصر عجيب مخيف . . فهناك داخل السفارة منافسات على نسوان وبنات . . وهناك أموال تصرف بلا حساب والقانون لم يكن في إجازة فحسب . . بل كان قد مات ودفنه . . ورئيس الدولة كان يعلم هذه الحكاية وأبشع منها . . وكل ذلك كان عنده معقولا أو عاديا على الأقل . . فإنه هو نفسه أزال القانون ووضع نفسه محله . .

ولم يكن يستطيع - بداهة - أن يعلم كل شيء . . فتولى الأمر من دونه السوبر باشوات دون حسيب أو رقيب . . ولا قيمة لإنسان أو لنفس أو دم . . وكل شيء أصبح جائزا مادام يخدم أغراض السلطان أو السلطان المساعد . . وقد سبق أن أوردت صورة قرار جمهورى بالقبض على رجل معين « وآخرين » وعندما تصل الفوضى والاستهانة إلى هذا الحد فمن العبث أن تتعجب من أى شيء . .

واسمع هذه الحكاية . . وأنا هنا لا أروى حكايات . . بل آتيك بشواهد ودلالات

تصور لك «نظام» حكم السوبر باشوات وما كان يجري فيه . وهناك الكثيرون غيرى ممن كانوا يعيشون في مصر ويعرفون أكثر مما أعرف . . ولكنني هنا أقتصر على ما شهدته بنفسى وأستطيع القطع بصحته . .

في ذات يوم يزورنى - بتوصية وتزكية من السفارة - رجل طويل أصلع في الأربعينات من عمره قيل لى أنه موظف كبير مكلف بمهمة قومية تتعلق بمساعدة مصر لثورة الجزائر . . كان ذلك في اوائل ١٩٦٠ . .

وقد قضى الرجل معى أكثر من ساعتين . . وأطلعنى على أوراق قال إنها وثائق سرية . . وبعد أن حكى الحكاية ترك الأوراق عندى إلى بعد الظهر فقد كان مدعوا للغداء مع السفير . . وجلست أفحص الأوراق واحدة واحدة . . كانت مراسلات وعقود شراء بما يزيد على المليون دولار بقليل من شركة اسمها شىء مثل المبادلات التجارية الدولية ومركزها في بروكسل . . وفهمت من الأوراق أنها كانت تتعلق بصفقة أسلحة وذخائر تشحن على سفينة من ميناء طنجة لتوصيلها إلى ثوار الجزائر في نقطة محددة على الساحل قرب مستغانم . . وقد بحثت فيما بعد عن هذه النقطة - وهى ميناء كما قيل في الوثائق - فلم أجدها ورجعت في ذلك إلى أطلس المستعمرات الفرنسية وفيه أوسع خرائط سواحل المغرب . . فلم أجدها .

وقد قال لى هذا الرجل شفاها أنه هو ومعاونيه دفعوا المبلغ كله على اقساط آخرها كان قبل تاريخ التسليم المتفق عليه بأيام ولكنى لم أجده في الأوراق إلا إيصالا واحدا بنحو ٩٨٠٠٠ دولار والباقى بيانات من رجال مصريين يقولون إنهم دفعوا كذا بتاريخ كذا . . وإلى جانب كل بيان منها إمضاء هو مجرد قوس أو عقدة وعليها ختم الشركة . .

والذى حدث إنهم - كما قال لى - بعد أن دفعوا الثمن كله ذهبوا إلى مركز الشركة في بروكسل فلم يجدوها في الشقة التى تعودوا أن يذهبوا إليها . . ولا وجدوا لافتة أو أى دليل على أنه كانت هناك شركة . . وعندما دقوا الجرس وفتحت لهم الأبواب وجدوا امرأة عجوزا وزوجها يعيشان في بيت عائلى لا مكتب فيه ولا سكرتارية . . والرجل نهرهم وقال إنهم محتالون وإنه يسكن هنا مع امرأته من ثلاثين سنة . . وهددهم بإبلاغ البوليس وأغلق الباب .

قلت : ولكن هذه الشركة لابد أن تكون في بيان الشركات أو في الغرفة التجارية في بروكسل . .

فقال : لم نبحث ولم نسأل . . ولماذا نسأل وهذه هى بطاقة الشركة وخطاباتها وظروفها

وعليها كلها البيانات الوافية مع أرقام التليفونات والسجل التجارى وكل ما شئت من البيانات . . وهذه بطاقات المدير ومساعدته ورئاسة السكرتارية .

ثم أطلعنى على صور يؤيد بها دعواه : صور له وبعض مساعديه في بيت المدير وعلى الشاطيء . . مع بناته . . لأن العلاقات بينهم لم تكن مجرد علاقات عمل . . بل علاقات عائلية . . والرجل ومساعداته من البنات يجلسن مع أصحابنا الذين فاضوا على الصفقة وعقدوها في جلسات لطيفة كلها ود وصفاء و « آخر مزاج » على شاطيء أوستند . .

ولكن هذا الرجل كله وشركته والسكرتيرات الجميلات والشاليه العائلى على البحر . . كل هذا اختفى الآن ومعه المليون دولار وزيادة . مكان هذا كله ليس لدينا إلا رجل عجوز وامراته وشقة يقولان أنهما يسكنانها من ثلاثين سنة . .

— وسفارتنا في بروكسل ما رأيها في الموضوع ؟

— سفارتنا هناك لا تعرف عن هذا الموضوع شيئا . . لا شأن للسفارات بمثل هذه العلميات . .

— والمطلوب مني ؟

— قيل لنا أنك تعرف طنجة جيدا وأن لك صداقات بالمسؤولين فيها . . وأنا الآن ذاهب إلى هناك لكى أتصل بمكتب الشركة هناك وأعرف ماذا تم في حكاية الأسلحة . . وكان المفروض أن يشحنها رجال الشركة على سفينة اسمها دافنى من سبعة شهور . .

قلت :

— حتى أستشير السفير . .

— قلت لك لا علاقة للسفارات بهذه الموضوعات . .

— ولكنك اتصلت بى عن طريق السفير .

— كان لا بد أن أتصل بالسفارة لكى يعلموا - مجرد علم - أننى أتيت إلى هنا كما كلفونى . . والسفير لا يعرف من الأمر شيئا . .

— يا أخى أريد أن أفهم . . أنت تغديت مع السفير أمس وفهمت منك أنه على علم تام بهذا الأمر .

— إنه لا يعلم شيئا . . لا تنس أنه رجل سورى . . وهذه مسألة مصرية . .

وكان ذلك أيام الوحدة مع سوريا - والسفير كان رجلا سوريا ممتازا ولكن السفارة كانت « شوربة » وزير مفوض سوري ومستشار مصري وسكرتير أول سوري وسكرتير ثان مصري . . وضابط طيران سوري طائش متزوج من بنت مصرية كأنها طفلة . . وأمها سيدة متصاية مصبوغة الشعر والوجه تبحث لنفسها عن عريس . . وملحق عسكري مصري يقيم في باريس . . ومساعد له سيأتى إلى هنا ونحن فى انتظاره . . والوزير المفوض السوري كاره للوحدة مع مصر يلعنها فى كل مكان لأنه كان قبل الوحدة يتسلم اعتمادات سفارته بالدولار ويحول منها بالعملة المحلية ما يعادل ميزانية سفارته ويضع الباقي فى جيبه . . ويزعم أنه من أبطال تحرير سوريا ويقول : حررناها من الفرنسيين ليستعبدوها المصريون . .

وسط هذه الفوضى كلها يأتينا ذلك الطويل الأصلح بحكاية حجمها مليون دولار انشقت الأرض وبلعتها . . وأحكى الحكاية كلها للسفير فأجد خبرها كله عنده . . لقد قصها عليه صاحبنا على الغذاء . ثم يقول لى أن السفير لا يعلم شيئا . . كذب على طول الخط ويقول السفير :

— وتريد أن تذهب معه ؟

— لن أتحرك من هنا ولو طلبت أنت إلى ذلك . .

— ذلك رأى أيضا . . سأقول له إننى لا أستطيع أن أسمح لأحد من أعضاء السفارة أن يشترك فى مهمة إلا بناء على أمر صريح من الخارجية . . ولكن كيف نقولها له ؟

— لا عليك أيها السفير لأننى لا أظن أنه سيتمسك بسفري معه . . لقد أحس أننى لا أصدق حرفا مما قال . .

وبالفعل . . لا هو سأل عنى بعد ذلك ولا أنا سألت عنه . .

وتنقضى على ذلك ثلاث سنوات . . ويأتينا سفير من ممالك السلطان ويسألنى عن هذه الحكاية ، فأحكيها له وأقول له :

— ألم يعلم أحد شيئا عن مصير المليون دولار ؟

— مليون إيه يادكتور . . دول ثلاثة وأربعة وخمسة . . وزى الحكاية دى كثير . .

— كلها ضاعت ؟

— كلها نهبوها . . وحكاية المكتب الذى يتعاقدون معه ويدفعون له الفلوس ثم

يحتفى بما فيه تكررت في بلجيكا وفرنسا وإيطاليا وهونج كونج وأصبحت روتينا . .
وبعد أيام أريه صورة هذا الطويل الأصلع مع مدير الشركة وامرأته في الشاليه على
البحر فيتأملها ويقول :

- هو بعينه . .
- وتعرفه يا سيدى السفير ؟
- وكيف لا أعرفه وقد كنت أمباشى الكلية ؟ أنه من دفعة عبد الناصر .
- ولا بد أنه في السجن الآن ؟ . .
- سجن . . سجن إيه يا حضرة ؟ إنه الآن مدير شركة أقطان وشريك الإمام الليثى
في الاسكندرية . . هذه حال بلدنا : عبد الناصر يرفد وعبد الحكيم يعين . .
- ولكن . . من هو الإمام الليثى يا سيدى السفير ؟
- حتى الإمام الليثى لا تعرفه . . ألم أقل لك إنك لست معنا في هذه الدنيا !
- وفي تلك السنوات - بعد الانفصال عن سوريا خاصة - بلغت فوضى الحكم في
مصر ذروتها ، والخلاف بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أصبح حربا أهلية . .
- وعبد الحكيم عامر ، السلطان الذى كان نائما في قصره ومقر ملكه في دمشق صبحا يوما
ليجد مماليكه الشوام قد خلعوه ووضعوه في طائرة وشحنوه إلى مصر مع عتاولته الذين كانوا
يتصرفون في سوريا كأنهم سادة عظام هبطوا من السماء ليصلحوا الكون . . وأموال بلدنا
تجبرى بين أيديهم كأنها ماء الترع ، وسهراتهم وعربدتهم في شقق سكنوها في ضواحي
دمشق كانت حديث الناس ، وبنات سوريا بيضاوات شقراوات ، ومكتب عبد الحكيم
عامر هناك يتضخم ويزداد عددا ، والجنهات المصرية تشتري من أسواق بيروت برخص
التراب وترسل إلى مصر في حقائب مكتوب عليها : « سرى جدا » وملحقنا الثقافى هناك
يرحمه الله يكاد ينفجر من الغيظ ، ومكاتب الإعلام في دمشق وبيروت تبتكر الأعاجيب عن
موت الناس في حب عبد الناصر . . ونشرات الدعاية التى لا تقرأ يدفعون فيها أموال
قارون من أموال اتعس فلاح في الدنيا إذ ذاك وهو الفلاح المصرى الذى كان مستورا أيام
الإقطاعيين فأصبح معدما بعد نعمة الإصلاح الزراعى ، فإن محاصيل القطن والأرز
والبصل وما إليها لا بد أن تصدر إلى روسيا وبلاد الكتلة الشرقية وفاء لأثمان الاسلحة التى
ضيعنا معظمها في وديان الشياطين في حرب اليمن ، والأيرللفت من القاهرة إلى صنعاء
أصبح شريانا مفتوحا ينزف دم مصر . . والفلاح غليه أن يعمل كرقيق الأرض لأن مده

الأسلحة لا بد أن يستمر . . خروتشيف يمتدح عبد الناصر لبيعه اسلحته القديمة التي لم تعد تنفع روسيا في شىء ، وحرب اليمن تصبح كابوسا على قلب عبد الناصر . . ولكنه لا يستطيع مساءلة المشير ، وحلم عبد الناصر البعيد في إرهاب أولئك الذين رفضوا الطاعة له من حكام الجزيرة يصبح كل يوم أبعد ، والمشير عبد الله السلال يصاب بحالة اكتئاب ويدخل المستشفى ويرسلون إليه المرحوم إسماعيل يسن ليضحكه ولكنه لا يضحك ولا يتسلى .

وتصل الأزمة بين عبد الناصر والمشير ذروة من ذراها ، ويخاف ممالك السلطان السلطان المساعد العاقبة فيتوسطون بين الرجلين محافظة على الإقطاعيات التي كانوا يتربعون على عرشها ، واحتفالا بالصلح لا بد أن تدخل مصر في عهد جديد من الإصلاح الحقيقي لا « لعب العيال » كما كان سفيرنا الذي كنا معه يسميه ، وهذا الإصلاح الجاد لا بد أن تقام له زفة ويكتب له كتاب ، والكتاب يسمى الميثاق والزفة تسمى المؤتمر الوطنى العام ، وعشرات اللجان تنعقد والمصريون الطيبون يتنافسون في تقديم أحسن ما لديهم لخدمة وطنهم ، وسفيرنا يعلن أنه ذاهب إلى القاهرة ، وأسأله :

— لكى تحضر المؤتمر الوطنى ؟

— مؤتمر وطنى إيه يا حضرة ؟ هذان الاثنان إذا اصطلحا انخرب بيتنا ، لا بد أن أكون هناك وإلا كنت أحد ضحايا الصلح ولا يمكننى الانتظار حتى يجىء فى الحقيقة خطاب يقول : اطلب الموافقة على أن يكون فلان سفيراً بعدك . .

وذهب . . ولم يحضر المؤتمر ولكنه زار هذا وزار ذاك . . وأخذ « من ده خمسة ومن ده خمسة » كما قال ، ولكن الذين تحمسوا للمؤتمر ورفعوا « الميثاق » إلى مراتب الكتب المقدسة كانوا أهل وزارة الطبل والزمير . وبعض الأبرياء المخفلين . . ظنوا حقاً أن هناك عصراً جديداً وعرساً يقام لافتتاحه ومبادئ سامية ترسم للوصول إلى العصر الذهبى .

وعبد الناصر يتمشى بين لجان المؤتمر ويتنازل بالاشتراك فى المناقشات ، وواحد من الأدباء تبهره أضواء الزفة ويظن أن هناك فعلاً عريساً يزف إلى مصر هو العصر الزاهر ، ويقف فى إحدى الجلسات ويفتح قلبه كله ويقول كل ما فى نفوس إخوانه ، ويجلس بعد ذلك سعيداً بما فعل ويشعر بالراحة التى يشعر بها مريض فتح خراجاً واستراح منه . والمسكين السليم النية لم يعلم أنه خرج بذلك من رحمة الله « وقع الشيخ فى حفرة » كما يقول شيوخ الحديث ، وكان عليه أن يخرج من الحفرة بأسرع ما يستطيع وإلا عانى فى بطن الحوت ما عاناه سيدنا يونس ، وفى نفس المؤتمر قام هذا الأديب الطيب القلب وأعلن أن

جمال عبد الناصر قد حرر الكلمة في مصر بكل معنى الكلمة ، وخرج من المؤتمر وهو لا يعلم إذا كان قد عرف « من أين يبدأ » أو من أين ينتهى . .

والحقيقة أن محنة الفكر والعلم وأهلها في ظل السوبر باشوات كانت شديدة جدا ، وأهل الرأي جميعاً زلزلوا زلزالاً شديداً ، وكان كاتب العصر وصاحب القلم الوحيد فيه يطرب لذلك ويحكى كيف « لعب » بوزير من وزارة التعليم العالى وسلط عليه كلاب الصيد فأكلوه ، وهذا الوزير كان محترماً جداً ، وكانت عنده أفكار كثيرة منها أنه أراد ضبط أمور الجامعة وأخذ أعضاء هيئة التدريس بشيء من الالتزام ، وطلب إليهم ألا يكونوا ضنينين بوقتهم على الجامعة التي كانت موجة التدهور وعدم الانضباط تتعالى فيها . . ويبدو أن عبد الناصر لم يرض عن هذه الحركة ، لأن الجامعة عنده كانت الطلاب الذين يهتفون له ثم الفراشين أما الأساتذة وبخاصة أحرار الفكر وأصحاب الرأي منهم فلم يكن بينه وبينهم عمار ، وكان أحب الأساتذة إلى قلبه أولئك الذين يقفون ببابه كالمسولين . . وكلما ألقى خطبة كتبوا المقالات في فلسفتها وما تتضمنه من الآراء التي لم تخطر ببال أرسطو وأفلاطون ، فأوعز عبد الناصر إلى كاتب مصر الأوحى بأن يفتح صفحات الأهرام لأعداء الوزير المصلح فتعاوروه بالمقالات حتى أهلكوه ومصر كلها كانت في رحلة مخوفة في بحر الظلمات يرفرف عليها علم القراصنة الأسود . .

ويحكى صاحبنا كاتب العصر والأوان وعبقري الصحافة والازمان حكاية زميل له كان رئيس تحرير صحيفة منافسة . . ورئيس التحرير هذا كتب افتتاحية ذات يوم . . وقرأها الرقباء على الجريدة قبل أن تطبع . . وكانت الصحافة بناء على « الميثاق » حرة تماماً وعبد الناصر كما قال أخونا حرر الكلمة في مصر بكل معاني الكلمة وأمر الرقباء رئيس التحرير بأن يعيد النظر في مقاله ، وكان الوقت متأخراً والطبع قد بدأ ، وأصدر رئيس التحرير أمراً بإيقاف الطبع ومصادرة الأعداد التي طبعت ، ووضع أى شيء مكان الافتتاحية التي ألغيت ولكن نسخها ذهبت إلى أصحاب الأمر والنهى القابعيين في مراكز السلطان . .

ويضحك الكاتب الكبير ويقول :-

— هذه أول مرة نسمع فيها أن رئيس تحرير صادر نفسه . ها ها ها والحكاية حكاها — كما قيل لي فيما بعد — في جمع من الصحفيين الأوروبيين وهم على عشاء معه في البنت هاوس على سقف مبنى دار الأهرام ، والبنت هاوس بالباء الثقيلة هي الدور العلوى الذي يقيمه الرأسمالي أو المدير العظيم في أعلى مبنى إدارته لكي يتعشى فيه - وهو على سقف الدنيا - مع مديره أو خالصائه ويشرب فيه مع خليلاته . .

وحكاية أخرى من حكايات محنة الفكر والعلم في ذلك العصر الزاهر : فقد كان السلطان قد تفضل واختار أستاذا من أساتذة كلية الحقوق وجعله وزيراً للتربية والتعليم ، واجتهد الرجل وأظهر همه كبرى ، ومضى يصلح التعليم ويزور المدارس والمعاهد ويضبط الأمور ، وتحدث الناس عن ذكائه وقدرته وما يمكن أن ينال التعليم من خير على يديه ، وسمعنا نحن جميعاً بذلك وحمدنا الله عليه ، ولكن ذلك لم يكن يعجب السلطان . . فما كان يطيق أن يذكر الناس إسمه إلى جوار اسمه ، والحكاية مشهورة والغيرة داء من أدواء السلاطين ، وكم من وزير من وزراء الخلفاء والسلاطين طارت رأسه ثمناً لاجتهاده وثناء الناس عليه . . وشئ من هذا حدث للوزير الهمام الناجح ، في ذات صباح وجد نفسه قد أقيـل ، والخبر نشر في الصفحة الأولى من الأهرام بأصغر بنط في ركن خفي في ظل اعلان ضخـم وأسأل كاتب العصر في ذلك فيقول :

— لا يستحق أكثر من ذلك . .

— ولم يزد عليها كلمة . . ولا هو حتى زانها بابتسامة . . إنما هو نفخ دخان السيجار في الهواء وكأنه يبصق على شئ .

— والوزير المذكور هنا هو الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد . .

وكنا نقارب نكبة يونيو ١٩٦٧ ومحنة الفكر وأهل العلم وذوى الكرامة والرأى قد بلغت ذروة رهيبة ، والسجون غصت بالأبرياء ، وأعمال التعذيب وصلت دركات رهيبة وأصبحنا فعلاً في هولوكوست . . وحكاية التأميمات والمصادرات أصبحت حريقاً التهم كل ثورة وكل مال ، وشملت الحركة محلات حلوى ودكاكين صغيرة ووراء كل قرار تأميم وقف واحد أو أكثر من السوبر باشوات ينتظر كأنه مستحق في وقف ، والقرار يصدر من هنا ويستولى هو على المحل بما فيه من هنا ، وكل محسوب يفصل من وظيفة يعين مديراً لشركة أو عضواً منتدباً لمجلس إدارة . . وناس أتوا من الشارع وتولوا إدارة شركات كبرى كانت كلها تربح فانتكس حالها وانحدرت إلى صف الشركات الخاسرة ، حتى شركة قها وشركة إدفينا وكان إنتاجهما يباع مقدماً لعدة سنوات بمكسب عظيم أصبحنا الآن في عداد الشركات الخاسرة ، والمسألة لم تكن اقتصاداً أو إدارة بل توزيع أسلاب على محاسيب ، حتى الخدم وسواقط العمل كوفئوا على الخيبة بوظائف كبرى ، ومن حسن الحظ أن الشركتين المذكورتين هنا قد خرجتا من عداد الشركات الخاسرة ، بعد أن تغير مجلسا إدارتهما وكان ذلك بعد أن انتهى عصر السلطان ، ذلك العصر الحزين .

١١ لا خطيئة بغير ثواب

صديق كريم يسألني : قل لي يا أخى : أنت مع عبد الناصر أم عليه ؟ وأجبت : أنا أوفر عليك العناء وأقول إننى أيها العزيز مع شيئين لا ثالث لهما : أنا مع الحق أولاً ، ومع وطني مصر ثانياً ، فأنا مع كل من مع الحق ، ومع كل من مع مصر وهنا لا يكون الأمر أمر أسماء أعلام ، بل مبادئ ، لأن مصر شيء وعبد الناصر شيء آخر ، والسادات شيء ثالث ، فإذا كان عبد الناصر مع مصر فهو يصبح مصر وأكون معه ، ونكون كلنا مع الحق ، وكذلك الأمر بالنسبة للسادات ، ونحن بعد تجارب السنين ومراراتها لا بد أن نكون قد فهمنا أنه ليس لنا إلا هذا الوطن . فإذا نحن خدمناه بصدق وإخلاص نجا ونجونا ، وأفلح وأفلحنا ، ولا يتصور إنسان أنه يفلح وحده إذا خسرت مصر ، لأننا وبلدنا شيء واحد ، وكلنا ينبغي أن نلخدم وطننا ، وينبغي أن نفهم أننا عندما نكون خدماً لمصر فإن مصر تعزّبنا ، ونحن نعزّز معها ، إنه صاحبها ، وله الحق في أن يستخدمها كما يريد ، فهو بذل نفسه دون أن يدري ومصر هي الأرض والناس ، وهي أرض مصر وناس مصر ، وعبد الناصر أذل أهل مصر ، وامتهن حقوقهم وكرامتهم ، ورفع قدر نفسه وهو يحسب أنه بذلك يرفع من قدر مصر .

وعبد الناصر ضيع جزءاً عزيزاً من أرض مصر . وأذل هذا الجزء من أرض مصر لأذل خلق الله بنص القرآن الكريم . ومحصلة ذلك كله كانت في مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة ١٩٦٧ عندما جلس عبد الناصر مسكيناً مفلساً حطياً يعتذر - بغير كلام - لمن أراد أن يقضى عليهم بمغامرته في اليمن ، لأنه أصبح الآن في حاجة إلى أموالهم وعطفهم وصفحهم ، والناس أعطوه وصفحو عنه . لأنه كان بالفعل قد مات وما بقى من عمره - بما في ذلك بيان ٣٠ سبتمبر - كان إجراءات تشييع الجنازة .

وشعب مصر الطيب العظيم عندما خرج في مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ يطلب إلى عبد الناصر أن يسحب استقالته ويظل في الحكم ، لم يكن يحب عبد الناصر ، ولا كان راغباً في المزيد من حكمه ، وإنما هو خرج يبكى الأمل الذي ضيعه عبد الناصر ، خرج يرفع العلم الذي سقط من يد رجال عبد الناصر ، وإذا كان لا بد أن يختفى عبد الناصر من الميدان ، فلا يكون ذلك أبداً بإرادة بن جوريون ، وموشى ديان ، بل يكون بإرادة شعب مصر . هم هزموه وحطموه ، ولكنهم لم يهزموا مصر ، فسارعت مصر ترفع العلم وتناوله لصاحب العلم ولسان حالها يقول : ارفع علمنا أيها الرجل وسر به ولنحاول من جديد .

ومثل هذا أقول عن السادات ، فلا يحسب أحد أنه يعرف قدره أكثر منى فأنا أعرف أنه الرجل الذي أزال عنا كابوس الذل والمهانة والآلام التي قاسيناها على يد رجال عبد الناصر ، وقوانين ١٥ مايو كانت ثورة بكل معنى الكلمة ، ثورة على الإذلال وامتهان

القانون والعدوان على الأموال والكرامات وأقدار المواطنين ، ونصر أكتوبر ١٩٧٣ نصر رائع بكل المقاييس ، نصر ينعقد فخره بلواء أنور السادات ، وفضله الأكبر يكمن في أنه أتاح لجيش مصر العظيم الفرصة لعمل ويظهر مواهبه ويكسب النصر ، وكل جندي من أولئك الأعزاء الذين بذلوا حياتهم رخيصة ، وعبروا وانتزعوا رايات النصر من العدو الخسيس له نصيبه وفضله .

وعندما أشهد فيلما من الأفلام التسجيلية التي تصور لنا مشاهد من معركة العبور فإنني أتمنى لو كان في ميسوري أن أنهض وأمسح التراب عن حذاء أصغر جندي من أولئك الذين أراهم يطلقون المدافع ، وينزلون القوارب ، ويمدون الجسور ، وأشعر في نفس الوقت بالعزة تملأ نفسي عندما أرى أسراب طائراتنا تكرر على العدو تحطم حصونه تحطيا ، لأنني أعرف أن هذه الطائرات بعملها هذا انتزعت مفتاح النصر ، وعملت ما عجز عن عمله عبد الناصر ، لأن رجال عبد الناصر قالوا له : لا تكن صاحب الضربة الأولى ، انتظر حتى يكونوا هم البادئين ، وعبد الناصر لم يعرف أن حروب اليوم ليس فيها إلا ضربة واحدة ، هي الأولى وهي الأخيرة ، من يكسب الضربة الأولى يكسب الحرب كلها : لأنه لا يوجد ضربة ثانية ، وقائد طيراننا في حرب أكتوبر كان يدرك هذا ، فأحكم ضربته الأولى فكانت قاصمة وقاضية ، وكانت هي النصر ، والقائد الأعلى في حروب اليوم يصدر الأمر بناء على تفاهم تام مع قادته العظام ، وقادته العظام يتصرفون في التنفيذ .

ومن حسن حظنا أن قائد طيراننا في تلك المعركة - محمد حسنى مبارك - عرف أنها حرب ضربة واحدة ، حرب دقيقة واحدة ، فضرب وكسب ونصر مصر ، فأنا عندما أعترف بالفضل للسادات فلا بد أن أقدر أن هذا الفضل قسمة بينه وبين قادته العظام ومن يليهم من رجال جيش مصر ، ولكي أكون مع الحق في كل ما أقول ينبغي أن أقول : إنني أعترف بالفضل لكل القادة العظام الذين جلسوا إلى مناضد العمليات ، واشتركوا في رسم خطة النصر وتنفيذها ، حتى الذين اختلفوا مع السادات بعد ذلك . وقال فيهم ما قال ، وقالوا فيه ما قالوا ، فهذا كان بعد ذلك ، ولا علاقة له بنصر أكتوبر ، ونحن لا ننسى قول الله سبحانه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وأنا أقرأ أخبار العصر الناصري ، وأقف عند باندونج في إبريل ١٩٥٥ ، وأشعر بالفخر إذ أرى بطلنا المصرى جمال عبد الناصر يتألق كواحد من قادة الدنيا في مؤتمر عدم الانحياز ، وأعجب به وبحسن تصرفه وشخصيته التي جذبت الدنيا إذ ذاك ، وأقرأ عن زيارة السفير الروسى شيلوف لعبد الناصر في يوليو ١٩٥٥ وعرضه تقديم أسلحة للجيش المصرى ، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر في سبتمبر ١٩٥٥ فأعرف

لعبد الناصر فضله ، وأعجب ببسالته . . فقد كان لتلك الصفقة أثر معنوى عميق في نفوس المصريين والعرب وأهل العالم الثالث ، وأنا هنا أشعر بالزهو ، لأن مصريا حرر الإرادة المصرية أولا ، ثم خطا فأصبح واحدا من أكابر زعماء الدنيا ، ثم خطا خطوات أخرى فأصبح أكبر زعيم سياسى فى الدنيا خارج أوروبا والولايات المتحدة وروسيا .

ولكننى عندما أطوى الصفحة وأنظر إلى أحوال المصريين فى ذلك الوقت فإننى أرى أن الثمن الذى دفعوه لكى يرتفع اسم واحد منهم يجعل الصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها المظهرية ، فغير معقول أن يذل كل المصريين لكى يعز واحد منهم فحسب ، وما كان يجرى فى مصر إذ ذاك كان أسوأ من أن يصدق ، والمصرى الذى عرف ألوانا من الظلم والحرمان فى العصور الماضية - أيام المماليك والأتراك مثلا - وعرف خيبة الأمل والخيبة ، والشك بل اليأس فى أيام الانجليز والملك والباشوات هذا المصرى بدأ يعرف لونا أسود من الظلم فى أيام عبد الناصر ، ظلم الخوف والإرهاب والسجن الطويل والتشريد والفصل من الوظيفة والحسرة لجوع الأولاد ، وإقفال الناس الأبواب فى وجه المغضوب عليه ، وذل الحاجة إلى القرش بل إلى الرغيف .

وإذا كان المملوك يسرق لأنه حقير ، والتركى يجلد لأنه غبى والباشا لا يكثرث لأنه كان مشغولا بجمع مال يجعله ضمن الأثرياء ، فإن عبد الناصر كان يذل الناس ويعذبهم ويمتحن كرامتهم لأنه كان يحس أن مصر لا تتسع لإنسان آخر عزيز النفس مرفوع الرأس إلى جانبه ، كأنما كان يرى أن تحرير الإرادة المصرية ، معناه ألا يبقى على وجهها إلا رجل واحد له إرادة حرة هو عبد الناصر نفسه ، وأى مصرى آخر يفكر فى أن له كرامة وعزة إلى جانب العزيز الأوحده إنسان منحرف ، ينبغى أن يزول ، ومتمرد لابد أن يحطم ، وخطر لابد من القضاء عليه .

وأذكر هنا حكاية قضّها على مملوك السلطان الذى جاءنا سفيرا فى مدريد ، وكان الرجل محتاج بين الحين والحين إلى رجل يفتح له قلبه لسمع نعمة غير نعمة الخضوع والذل والملق التى كان يسمعها من حوله ليل نهار .

كنا فى جزر الكنارياس ، ونزلنا العاصمة (لاسى بالماس دجران كنارياس) وزرنا حاكم المحافظة ، وهو قائد بحرى بدرجة أميرال ، ثم أبلغونا أن الأميرال سيمر على السفير فى الفندق ليرد الزيارة ، وجلسنا ننتظر فى صالون خاص أعده الفندق للمناسبة ، ولم يكن مع السفير غيرى ، وتأخر الحاكم بعض الشيء ، فظن السفير أن التأخير مقصود ، يراد به المساس بكرامة السفير المصرى ، فبدأ يتحدث فى الانسحاب إلى غرفته احتجاجا . وبينما نحن فى ذلك اذ حضر الأميرال المحافظ واعتذر عن التأخير ، وأبدى من الحفاوة بالسفير

ما ملأ نفسه سرورا ، ثم زاد على ذلك بما أطربه حقا ، وهو أنه حمل له هدية ذات قدر ، فإن في إشبيلية مصنعا لصنف ممتاز جدا من الخزف يسمى لاكارتوخا ، والهدية كانت طبقا بديعا للسفرة من هذا الخزف يملأ صندوقا ، بدا لي كأن حجمه متر في متر ، وزاد الأميرال على ذلك صينية صغيرة من الفضة لي ، ولما كان السفير - جريا على روح العصر - يرى أن كل شيء لابد أن يكون لمالك السلطان فقد ضم الصينية إلى « الصحارة » واعتبرها كلها هدية له ، ولم أحفل للأمر لأنك مع رجل كهذا لا تطلب إلا السلامة .

وكأنما أحس الرجل أنه افتات علي ، فأراد أن يعوضني عما أخذ بالتلطف معي والنزول إلى مستواي وفتح قلبه لي ، وفي عودتنا إلى الفندق نزلنا وطلب إلى السائق أن يذهب بالأشياء إلى غرفته في الفندق ، ثم يعود ليأخذنا ، لأنه يريد أن يتمشى معي على شاطئ البحر وأنشأ يقول :

— كل غسيلهم القدر قمت بغسله ، ثم « ينفوني » بعد ذلك إلى آخر الدنيا كما ترى ، هل تتصور يا فلان أن أحمد أبا الفتح كان صديقا لنا وحليفا للثورة قبل أن تقوم وبعد أن تمت ، وكنا نجتمع عنده لتتدارس وتتساور وتتسامر ، وتعشينا عنده ليلة ، وأسبغ الرجل علينا من فضله ، وسهرنا وتسامرنا ، وفي مساء اليوم التالي يناديني عبد الناصر ويقول :

— تذهب الآن إلى بيت أحمد أبي الفتح وتقبض عليه وتحبسه .

وأدهش للأمر وأنكره ، وأنظر إلى عبد الناصر وأقول :

— أمرك ياسيادة الرئيس ، ولكن هذا الرجل صديقنا ومنا وعلينا ، وأمس فقط كنا عنده على أحسن حال من الود والصفاء ، فإذا كان قد بلغك عنه شيء فدعني أستوثق منه فأنا عليم ببواطن الأمور ، ولكن لعل شيئا قد خفى علي . وينظر إلي عبد الناصر والشرر في عينيه ويقول في ازدراء :

— أنت عليم ببواطن الأمور ؟ أنت نائم على أذانك ، والمؤامرة تحاك من حولى ، إمض لما أمرك به ، وأرجوك ألا تناقشني فيما أمرك به بعد الآن ، وما دمت تتصدي للدفاع عن أعدائي فسأريك عاقبة تصديك ، عليك أن تأمر قائد السجن بأن يشدد عليه ويعذبه ، ومن الليلة لا ينام إلا على البرش . وليكن في علمك أنني لن أتردد في أن أدوس على إبنى نفسه بقدمي لو أراد أن يزحزحني عن الأرض التي أقف عليها .

وكان لابد أن أصدع بما أمر ، فأخذت رجالي وياوري وذهبنا لتنفيذ هذه المهمة ، وحتى لا أجد في نفسي حرجا من القبض على صديق أكلنا معه إلى الأمس خبزا وملحا

ظلمت في سيارتي ، وأمرت ياوري والعساكر بأن يصعدوا إلى البيت ويأخذوا الرجل ، وقام
الياور والعساكر بالمهمة ، وأتوا بالرجل فوضعه في « البوكس » دون أن أراه ، وبعد أن
أسلمناه للسجن وأبلغنا قائده تعليمات الرئيس قال لي الياور ونحن في طريق العودة :
— والفيلة ، ماذا ستصنع بها ؟

— أي فيلا ؟

— فيلا الرجل الذي أمسكناه الآن ، إنها شيء فاخر لا يليق إلا بك . فنهزته وقلت
له إنني لا أمد يدي على مال صديق ، ويكفي ما أصابه على يدنا .
فيقول الياور :

— إذن بعد أذنك ، آخذها أنا .

— تأخذها أنت ؟ أما أعطيناك الشقة التي اخترتها أنت بنفسك في جاردن سيتي ؟
— هذه أعطيها لأختي ، وآخذ أنا الفيلة ، ففيها حديقة ترد الروح ، والأولاد في
حاجة إلى حديقة .

قال السفير : فشتمته ولعنت أبا خاشه ، وقلت له : أما الرجل فقد قبضنا عليه
وأودعناه السجن ، ونفذنا أمر الرئيس ، وأما عائلته فهي في رعايتي ، ولن يمس أحد بيته
بأذى ، وأنا أذكرك أنت وأمثالك ، لو نظر واحد منكم إلى هذه الفيلة نظرة فالويل له مني .

وبعد أيام أكون مع عبد الناصر فيقول لي :

— منذ متى أنت وفلان حبايب ؟

فحكيت له الحكاية فقال بعد تفكير :

— عندما أقول لك أن فلانا عدولي وخطر علينا ، فمعنى ذلك أني متأكد بما أقول ،
وهؤلاء الناس كلهم يستحقون الحرق ، وليحمدوا الله على أننا نكتفي بوضعهم في
السجن .

— ولكن ياسيدي الرئيس ما الذي بلغك عن هذا الرجل ؟

— وهل تظن ياسي فلان أنني ليس عندي غيرك ؟ وهل تغيب عني حركة تصدر
منك ، أو من غيرك في هذا البلد ؟ افتح عينك يا فلان واعلم أن ألف خيط ترتبط بكل
أصبع من أصابعي هذه ، وأنا أقول لك هذا الكلام لأنك صديقي وأنا أحبك ، أما غيرك
فإنني أشد الخيط على رقبته حتى أخنقه .

ويسكت قليلا ثم يعود فيقول : إن صدرى ينفجر يا فلان ، وأريد أن أتحدث إلى رجل يفهمنى ، إنهم يأخذون العيال ويعملون منهم وزراء ، وفلان ياورى الذى حدثتك عنه أصبح الآن من أقرب الناس إلى أذن الرئيس ، ولولا أنه يعلم أننى عظمة زرقا. لأكلنى ، وعندما طال بى العهد فى العمل البغيض الذى ارتبط باسمى أعفانى منه ، وعينى وزيرا فى الحكومة الاتحادية مع اليمن ، وكانت وزارة تكسف ، وشكوت للمشير ، والمشير أشار بأبعادى .

وهذا الكلام أقوله لك لتعلم أننى مشكلة لعبد الناصر ، فأنا أكبر منه وأقدم . وقمت له بخدمات ما كان أحد يستطيع القيام بها غيرى ، ومن كانوا يجدونه يستطيع أن يقوم بصفع نقيب عمال على وجهه وكسر أنفه وسط الناس فى المطار إلا أنا ؟ لقد كان لابد أن نفعل ذلك ، وكان لابد من تخطيط رأس هذا الرجل الذى طغى وظن نفسه بنى آدم له كلمة وقيمة فما وجدوا والله لها غيرى ، ثم ماذا كانت مكافأتى ؟ وزير فى وزارة لا يحس بها أحد ، وفلان وهو عيل بالنسبة لى يمسلك واحدا من أعظم المشروعات الزراعية فى البلد ، ويضعون تحت يده الملايين ، وهو لا يفرق بين كوز الذرة وعود البرسيم ، وها هو ذا اليوم ملك زمانه ، وعنده ملايين لا يعلم بأمرها إلا الله ، وتحت يده موظفون بمرتبات وزراء والفساد سيارة مربوطة على بابيه كأنه ملك .

وأنا يعطينى المشير سيارة هالكة ، فأتى بها إلى هنا فيبلغون الرئيس أننى أخذت عشر سيارات أتاجر بها هنا ، والسيارة أنت تعرفها وقد رأيتها سيارة « خردة كحيانة » لا أعرف كيف أتخلص منها ، هل هذا عدل يا فلان ؟ .

وأصمت برهة من الوقت ثم أقول :

لا أدرى ياسيدى السفير ، ولكننى كنت أتمنى لو لم تقل لى من ذلك شيئا ، وقد كنت حمدت الله على أنك رضيت أن تتركنى فى حالى فى المعهد أخدم العلم بعيدا عن هذه الأمور ، والآن أنت تستودعنى أشياء تشبه الأسرار .

فينظر إلى ويقول : أسرار ؟ وهل تظن أن هذه أسرار أخشى أن تنتشر ؟ لو كنت أراها كذلك ما قلت لك منها حرفا ، وما قلته لك يعرفه مئات الناس ، ولا يضيرنى فى شيء أن ينضاف إليهم واحد ، ولك أن تحكى عنى كل حرف ، فأنا لا أخشى أحدا ، والرئيس يعرف ذلك ويحببى من أجله .

— ومع ذلك فأنا ياسيدى السفير رجل كتوم طول عمرى ، وما أسمعته من صديق لا يجرى به لسانى فى أى موضع آخر قط ، وقد سرنى أنك ألقىت إلى ببعض ما فى نفسك .

ورأيت في عينيه نظرة تقدير ومودة ، وعادت السيارة فأخذتنا .

ومن أطرف ما أضيفه إلى هذه المناسبة أن ذلك الرجل عندما نقل سفيراً إلى بلد أوروبي آخر كتب إلى من هناك خطاباً كله تقدير ، بدأه بقوله إنه لم يكتب في حياته خطاباً أكثر من عشرة أسطر ، وكان الخطاب يقع في ثلاث صفحات .

وبمناسبة ما ذكرته عن حبس هذا الأستاذ الصحفي الكبير أذكر أن موجة المصادرات والتأميمات والإعتقال والتعذيب كانت تتصاعد من ١٩٥٤ فصاعداً حتى بلغت درجة لم تعرفها مصر أبداً ، وشمل الخوف الناس أجمعين ، حتى أصبح المصري - أى مصرى - لا يضمن أن ينام في بيته الليلة التالية ، وألوف المصريين أخذوا من بيوتهم بليل ولم يعودوا إليها أصلاً ، أو عادوا بعد سنوات .

وصديق لنا من كبار أهل العلم ومفاخر هذا البلد ، فهو لغوى وعالم بالحديث ، وأديب لا ثنى له في عالم العرب والإسلام ، اخذوه من بيته بليل بوشاية حاسد ، والرجل الكريم الذى ينبغى أن تشتري كل لحظة من حياته بأعلى ما تملك قضى سنوات من سجن لسجن ، وخلال السنتين الأوليين لم يعرف أهله أين يكون ، فقد انقطعت أخباره ، حتى خيف عليه ، ولم يردوه إلى بيته إلا بعد أن أشفى على الهلاك ، ورجل آخر منهم عمل مع السوبر باشوات وكان من أوائل من عملوا في جرد القصور وإحصاء ما فيها ، وتلك كانت خطيئته فإن كل شيء رآه وإحصاءه نهب بعد ذلك ، ومن بين ما رآه بنفسه وأحصاه : ٢٤ فنجان قهوة بأطباقها وكلها من الذهب الخالص الرصين ، وقد قدر الخبير المثلث الذى عمل في اللجنة كل واحد منها بعشرة آلاف من الجنيهات ، فقد كانت كاساتها الذهبية مرصعة بالجواهر ، فلم يعد أحد في مصر يراها ولا عثر إنسان على دفتر الجرد الأول ، ولكن بعضها ظهر في فيينا ، وبعضها الآخر في باريس ، وصينيات مختلفة الأحجام من الفضة الخالصة مرصعة بالتوباز والعقيق والزمرد اختفت في مصر وظهرت في أكياسها من المخمل في الولايات المتحدة .

ولقد ذكرنى ذلك بمحافضة الفرنسيين رغم طول سنوات الثورة الفرنسية على كل قطعة من ذخائر قصور فرساي وتریانون واليتى - باليه وماليها ، فكلها ما زالت موجودة في قصورها أو في المتاحف ، وذكرت أيضاً حرص الروس على المحافظة على كل « خشبة » كانت في قصور القيصرية والأشراف ، وكل قطعة بلور في كل ثريا من ثريات المترو في لينجراد وموسكو ، وذكرت ذلك وقلت في نفسى : هذا هو الفرق بين ثورة تقوم على أيديولوجية وثورة تقوم على مطامع ، هذا هو الفرق بين ثورة يقوم بها ناس مثقفون يعرفون

قيمة الوطن وقيم الأشياء ولا ينظرون إلى السرقة والنهب لأن قلوبهم معلقة بمثل أعلى ، وثورة يقوم بها ناس ليس لديهم أى أيديولوجية ولا فكرة عن الثورات وكيف تقوم لخدمة الوطن لا لخدمة أفراد ، لقد أعدم روبسيير رجلا سرق خاتما أخذه من أصبع جندي من جنود الملك قتل في الهجوم على قصور التويلدى وأعاد الخاتم إلى وزير المالية ، وكتب بيانا بذلك قال فيه إن هذه ذخائر فرنسا ولا بد أن تظل لشعب فرنسا ، وأوجست روبسيير كان سفاحا كما نعرف ، ولكنه كان سفاحا له مبادئ وفي رأسه ثقافة ، كان يسوق الناس إلى المقصلة قبل أن يسوقوه لأنه كان معتقداً أن بقاءه هو نفسه ضمان لتحقيق أهداف الثورة .

ولينين لم يستطع الصبر حتى يعيدوا ترتيب ذخائر متحف الايرميتاج ، فذهب إلى هناك في صحبة مكسيم جوركى لكى يملأ أعينهما من رؤية ذخائر الفن التى تملكها روسيا . كان سفاحا للدماء ولكنه كان رجلا مثقفا له مبادئ وأيديولوجية ، ولهذا فإنه لم يكن لصا أو « حرامى » - كما نقول - لأن اللصوصية حقارة ، ولينين لم يكن حقيرا أبدا ، (وجفرى بك مملوك مراد بك كان أسرع - عندما تأكد من هزيمة المماليك في موقعة امبابه - إلى قصر مراد بك وسرق جواهر كثيرة ، وأمينه الحدادية - حرم مراد بك - بصقت في وجهه ورفعت السيف لتضربه به ، ومراد بك في انسحابه إلى الجزيرة بعد الهزيمة أسرع إلى بيته الصيفى في الجزيرة فوجد مماليكه نهبوه فلم يتردد في الهجوم على قصر البرديسى في طريقه ونهبه لأنه - مثله مثل جفرى بك - كان لصا ولم يكن فارسا أبدا ، وكل التركية المملوكية كانت تركية خدم ولصوص ونهابين بلا كرامة ، ولهذا فقد كانت تهون عليهم كرامات الناس ويذلون الناس ، ولا يذل الناس إلا ذليل ، ولن تجد أبدا رجلا كريما أصيلا عزيز النفس يرضى بذل أحد . وفردريك الأكبر ملك بروسيا عندما قبض على نفر من القواد كانوا يتآمرون عليه أمر بإعدامهم جميعا بالرصاص إلا واحدا تهافت وألقى بنفسه عند قدميه يقبلها ويستعطفه فأمر بشنقه لأنه نذل ذليل .

وإذا نحن صرفنا النظر عما نهب وتبدد في جيوب السوبر باشوات لأنه متاع ضاع ، والمتاع يمكن تعويضه - فإن أحدا لا يمكنه تعويضنا عما ضاع من احترامنا للنظام والقيم والأخلاقيات ولهذا فنحن لا نستطيع صرف النظر عنه ، لأنه ليس أضر بالشعوب من إخافة الناس وتهديد أمنهم وإهانتهم وإهدار كراماتهم ، وخاصة إذا جاء ذلك كله على يد أولياء الأمر ، لأننا شعب قروى منظم تنظيما عائليا منذ القدم تعودنا أن نلتمس القدوة في الكبار ، وشعب مثل شعبنا يتربى بالقدوة ويتعلم بالمثل الصالح ، فإذا كانت القدوة سيئة ، والمثل غير صالح كانت البلية بلا حدود .

وإننا لنصطدم اليوم بأمثلة مروعة من التعدى على أموال الدولة والناس ، واجتراء

بعض الأصاغر والأكابر على العرف والأخلاق فتتعجب ، ولا موضع للتعجب فيما أرى .
لأن عشرين سنة في مدرسة السوء هذه كانت كفيلة بأن تخرج هذه الصنوف من المردة
المتجرئين على كل مال وعرف ، وما دمت قد كملت الأفواه وكملت الصحافة والرأى ،
فكأنك أطفأت الأنوار ، وأطلقت اللصوص وقطاع الطرق وجراثمهم على النهب ، ودفعتهم
إليه ، وشاركتهم فيه ، وفي إخفاء جرائمهم عن الناس ، ولا يكتف الحقائق عن الناس
ويتستر على المجرمين والمعتدين إلا من كان شريكا لهم .

وفي القرن الهجرى الرابع ، العاشر الميلادى ، تولى امر بغداد رجل داعر من
البويهيين ، فاتفق مع عدد كبير من قطاع الطرق في بغداد على أن يتقاسم النهب ، وكان
البويهى معدوم الحياء أصلا ، فزعم لرؤسائه أنه إذا عهد بالشرطة إلى كبير قطاع الطرق
كف أذاه عن الناس ، وكان هذا اللص يسمى حمدي (بفتح الحاء والميم) فأقيم رئيسا
لشرطة بغداد ، وتقاسم الحاكم غنائم النهب والسطو مع اللص باسم القانون ، والقصة
مشهورة رواها أبو الحسن على بن مسكويه في « تجارب الأمم » وهو تاريخ الخلافة العباسية
في عصر الانحدار ، وهذا التاريخ مرسل في صورة أخبار وحكايات قصيرة

قال ابن مسكويه : إن مصيبة اللص رئيس الشرطة تعاضمت ، واشتدت البلوى
والبويهى يتعامى ويتصامم ، وفي ذات صباح خرجت أخت الحاكم واسمها « لطيفة » في
جواربها وخدمها إلى الحمام ، وتأخرن فيه حتى المغيب ، فإذا كن في طريقهن إلى القصر
كبسهن اللصوص ونهبوا الجمل بما حمل ، ووقعت لطيفة في المغنم وطلب الحاكم إلى شريكه
اللص أن يعيد إليه أخته وجواربها ، فلم يستطع ، فما كان من الحاكم الخسيس إلا أن أعلن
ان اخته لم تخطف ولم تختف ، بل هى لم تكن في الرفقة أصلا ، وهما هى ذى في دارها
مصون ، فلما سمعت لطيفة ذلك أعماها الغضب على أخيها ، وكانت قد وقعت في يد لص
زنيمة يسومها الخسف ، ويصر على أن ينزلها دار البغايا ، وبلغ غيظ لطيفة من أخيها الذى
أماها بالحياة أن استجابت لما طلب منها اللص ، وصارت تبذل نفسها للرجال وتقول : أنا
لطيفة أخت زفت الدولة ، فتهافت عليها أهل الفسق ، ووجدت نسوة الدار أن هذه
الدعوة تجلب المال فصارت كل منهن تقول أنها لطيفة .

ويكمل القصة أبو حامد الغرناطى في « تحفة الألباب » فيقول إن البويهى عندما دبر
قتل أخته لطيفة لم يستطع ، لأن كل بغي في البلد أصبح اسمها لطيفة ، يقول أبو حامد :
فلم يبق في بغداد داعر إلا أصاب من شرف الوالى الخسيس بالاسم أو بالوهم .

ومن العجيب يا أخى أن هؤلاء السوير باشوات لا يصيبهم المكروه أبدا ، والمكاسب
وأبواب الثراء تتفتح أمامهم دون جهد ، فيبدأ الواحد منهم بدار من الحراسة ، وبعد قليل

تجد الدار قد امتلأت رياشا وتحفا وذخائر . وبعد ذلك تجده أصبح مالك الدار والأرض دون أن يدزى أحد كيف ، ثم تجد الدار تعلو طبقة بعد طبقة حتى تصير عمارة ، والعمارة تلد عمارة ، والسيارة تلد سيارة ، وحسابه في البنك يلد حسابات .

وقد كان عبد الناصر إذا غضب على إنسان أو بلغته في حقه وشاية ألقى به في السجن فإذا كان السجين رجلا طيبا من الأبرياء أو من أهل الدين والتقوى لم يخرج من السجن إلى آخر أيامه ، فإذا خرج فعلى نقالة ، وإذا كان من السوبر باشوات لم يمكث في السجن إلا ريثما يستجم ، ثم يشمله العفو فيخرج من السجن برىء الذمة ، ولا بد من تعويضه ، والبركة في شركات القطاع العام أيام عبد الناصر ، فنجد صاحبنا مديرا لشركة ، والشركات عندهم كانت «على قفا من يشيل» ، والشركة لا بد أن تنحسر ، ولكن صاحبنا المدير لا بد أن يكسب ، ثم يضيف إليها شركة أخرى أو شركتين ، ويدفع فيها بأبنائه المحروسين وبناته وأزواج البنات ، وتكية السلطان واسعة . ثم تجد أبنائه قد فتحو شركات استيراد وتصدير أو مقاولات ، والمال ينصب عليهم كالسيل وإذا لم يكن للسوبر باشا مزاج في الشركات ، فأقل ما يعرض عليه وظيفة وزير مفوض أو سفير رأسا ، وهناك يكون النهب التمام ، وهكذا تجدهم جميعا كل يوم في مال أوفر ، ونعمة أسبغ .

وقد عرفنا سفيرا استقدم قريبا له ، فأنشأ شركة تجارية غير بعيدة من السفارة ، ومع أن السفارة كان يتبعها مكتب تجارى فإن الطلبات ترد إلى السفارة ، فتتلكأ في الدرج شهورا ، ثم يعهد بها إلى مكتب التجارة الجانبى بحجة أن المكتب التجارى لا يعتمد عليه ، لأن الذى يعمل فيه خريج التجارة ، والمفروض عندهم أن خريج التجارة ، لا يفهم في التجارة ، ولا خريج الهندسة يفهم في الهندسة ولا خريج الأزهر يفهم في الدين ، وهم وحدهم الذين يفهمون كل شيء : تجارة وزراعة وطب وهندسة وآداب وإعلام ودين ، وصاحبنا يورد كل شيء ، والوقت ضاق بسبب تأخر الأوراق في درج السفير ، ولم يعد يتسع لمناقصات أو ممارسات ، ويتم الاستلام وتصرف الفواتير ، وغيرها ، والمال الحرام يستمر إلى ما لا نهاية .

وفي ذات يوم قيل لنا أن قريب السفير هذا وقع ، وصل إلى مطار القاهرة فقبضوا عليه وقلنا : جاء وقت الحساب ، وبعد سنتين وشهور أكون في باريس وأدخل فندقا عظيما لكى أسأل عن صديق ، فما يطبق مثل تكاليف هذه الفنادق ، فأجد صاحبنا الذى قبضوا عليه متمددا في البهو كأنه ملك الزمان وإلى جانبه مقصوفة الرقبة امرأته حمالة الحطب ، وفي جيدها - سبحانه الله يا أخى - عقد الماس إياه ، والقاعدة في عصورهم كانت لا خطيئة بغير ثواب ، واسترسالا مع المنطق قالوا لا حسنة بلا عقاب ، والذين سرقوا ونهبوا فازوا

بالثواب كله ، والذين أحسنوا وصدقوا ونصحوا حلت بهم النعمة ، وحق بهم العقاب أو الإهمال أو الازدراء على الأقل ، وأقل ما كان السوبر باشا يصل إليه درجة وكيل وزارة ، وهنا يتدب حظه ويعد نفسه في المظلومين .

وأعجب من ذلك كله أنك لا تذهب إلى الحجاز في حج أو عمرة إلا وجدت منهم طائفة ، نهبوا ثواب الدنيا وسبقونا إلى ثواب الآخرة ، وفي لباس الإحرام يتبخر السوبر باشا والمصحف في يد والمسبحة في يد وفوق رأسه هالة القداسة : من ذهب مرصعة بجواهر القصور .



١٢ الجمـل وما حمـل

كان الرئيس جمال عبد الناصر يبذل في عمله جهداً مضمناً . كل الذين عرفوه وخالطوه وعملوا معه يشهدون أن الرجل كان في جهد متصل من الصباح الباكر إلى الليل . وفي الليل المتأخر عندما يخف ضغط المقابلات والاجتماعات كان الرجل يجلس إلى مائدة الطعام الواسعة وقد جعلها مكتباً ، وبسط عليها الملفات والتقارير والكتب ، وأخذ يقرأ ساعات طويلة من الليل . وإلى جانبه تليفونات تصله بمراكز القوى والخلصاء ليتصلوا به إذا دعت الحاجة ، وليتصل بهم وقتما يريد .

والرجل كان ينام مجهداً ويصحو مجهداً ، وما أكثر الأيام التي بدأ يومه فيها وهو في غاية التعب ، واستمر يعمل ويغالب الإجهاد إلى الليل . وقد ظهر عليه الإجهاد خاصة بعد أن أصيب بالسكر وأصبح في حاجة إلى شيء من الراحة ، ولكن المشاغل كانت كثيرة جداً وكان هو يستعين عليها بالتدخين . أحياناً كان يصل ما يدخنه إلى أربع علب في اليوم وثمانون سيجارة هي في ذاتها مرض .

وكان عبد الناصر إلى جانب ذلك زاهداً في الأموال والخيرات . كان السلطان حبه الوحيد ولذته الوحيدة ، كان طعامه أقل طعام ، ولم يكن ينعم بالأكل إلا في النادر . وفي الليل بينما كان غيره - ممن يعيشون من يديه - ينصبون الموائد ويأكلون ويشربون لذماً في الدنيا من مأكلاً ، ويسكنون في قصور كل ما فيها فخامة وترف - وكله من خيره هو - كان هو يتعشى خبزاً وجبناً أبيض ، ومعه أحياناً شيء من الخيار أو الخس . وفناجين القهوة السادة التي لا تنتهي .

وأنا عندما أسمع هذا الكلام لا أشعر بإعجاب أو إشفاق ، لأن أمثال هذا الرجل حملوا هذه الأعباء الضخام لأنهم أرادوا أن يقبضوا بأيديهم على كل شيء ، لأنهم عشاق السلطان المطلق ويريدون أن يكون كل شيء في قبضتهم ، وقد روى عن عبد الناصر أنه قال مرة : لن أستريح حتى يأكل الملايين الثلاثون - وهم سكان مصر أيامه - من يدي هذه ، أى يكون هو المعطى الوهاب ولا معطى ولا وهاب غيره ، ويكون هو الباسط والقباض فلا رزق ولا مال إلا من كفه . وهذا تحميل للبدن فوق ما يطيق ، ولا يقدر على القدرة إلا القادر كما يقولون ، ولكن أصحابنا عشاق السلطان وهواة التحكم في رقاب الناس يجدون لذة في تعذيب أنفسهم بهذا الإرهاق .

وعبد الناصر كان له مساعدون كثيرون جداً . ولكنه كان لا يثق في أحد منهم ، وكانوا هم يعرفون ذلك ويعرفون كذلك أنه لا يحترم لهم رأياً لقلة ثقته فيهم ، فهانت عليهم نفوسهم نتيجة لذلك ولم يعودوا يجلسون من شيء ، ثم إن الناس كانت ترهبهم ظناً منهم أنهم موضع ثقة الرجل .

والصحفى الكبير الذى كانوا يقولون أنه مخزن الفكر للرئيس لم يكن فى الحقيقة وفى أعظم أيام عزه وسلطانه أكثر من نديم أو مشير . وعبد الناصر كان يضرب بكرامته عرض الحائط إذ أراد . وقد تبينت ذلك من قراءتى للمذكرات التى كان يكتبها فى جريدة الشعب خاصة بما جرى على الصحفيين الكبيرين على أمين ومصطفى أمين وما أصابهما من سجن وضرب ، فأنت تجد صاحبنا يشير على عبد الناصر بالرأى أو يطلب منه الطلب وعبد الناصر لا يكاد يصغى إليه . ولا يتم إلا ما فى ذهن عبد الناصر نفسه ، لأنه لم يكن يثق فى هذا الصحفى أو غيره ، أما أنه يدخل عليه ويتصل به وقتما يريد فمسألة لا معنى لها لأن عبد الناصر كان فى حاجة إلى أن يتصل بأحد ، وكان لابد أن يكون له سمير أو نديم أو إنسان يتحدث معه ، وصاحبنا كان نديما سميرا واسع الذكاء كثير المعارف واسع الاطلاع . وعبد الناصر كان يجد فى الجلوس إليه والاستماع منه تسرية عن نفسه وتسلية وتخفيفا من وطأة العمل . أما أن هذا الرجل كان صاحب رأى عبد الناصر فغير صحيح إلا فيما يتعلق بالتوافه والشكليات . وقد كان هذا الصحفى يعرف عن أحوال الجيش قبيل اعلان حرب ١٩٦٧ الشئ الكثير ، ولكنه لم يجرؤ مرة واحدة على أن يقول الحقيقة لعبد الناصر ، بل لم يصارحه بما كان يدور فى ذهنه ، وكان هذا الصحفى يسمع من الأمريكيين كثيرا جدا عن احتمالات الهزيمة أو أنها مؤكدة . ولكنه لم يقل لعبد الناصر حرفا لأن وظيفته لم تكن البحث عن الحقائق وإطلاع الرئيس عليها بل التحرى عن الحقائق التى يريد عبد الناصر أن يؤكد لها لنفسه فيبلغه ما يشتهى ، وإذا أراد أن يرتفع بإنسان أتته صفحة الرجل بيضاء من غير سوء .

وهكذا كانت للرجل ألف عين ومع ذلك فهو لا يرى إلا ما يريد أن يراه . وقد خطر له مرة أن يؤدب نيكيتا خروتشيف فقال فى بعض خطبه كلاما يتضمن نقدا شديدا لسياسة الروس حيال العالم العربى ، فلم يعن خروتشيف بالرد عليه وتبيان وجوه خطئه فى كل المعلومات التى قالها ، ولكنه « سرب » المعلومات إلى الإسرائيليين والمخابرات الإسرائيلية التى تولت — بطريقتها — إيصال « حقائق » عن عبد الناصر ورجاله لم يكن يعرفها هو عن نفسه ومساعديه ، وقد أرسلتها له عن طريق أصدقائه من الأمريكيين الذين لم يكن بينه وبينهم حجاب ، ولم يوصلوها عن طريق رجال عبد الناصر وعميونه لأنهم كانوا يعرفون أن رجاله وعميونه غشاشون ، وقد أحاطوا به بعد ذلك وأفهموه أن خروتشيف يغار منه ولم يقل عبد الناصر شيئا ، وفى أحد خطبه قال خروتشيف أن عبد الناصر مرهق سياسى وأنه لا يزن كلماته وأفعاله حق الوزن وهذا الخطاب مشهور ، والذى تأدب فى النهاية كان عبد الناصر فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومن المعروف أن الذين أنزلوا به الهزيمة — أو بنا نحن بتعبير

أصدق — كانوا الأمريكيين والإسرائيليين . وتلك كانت في نظر عبد الناصر نهاية الدنيا ، ولهذا فلم تقم له في عالم السياسة الدولية بعد ذلك قائمة وإن كان الاستبداد الناصري بلغ ذروته فعلا بعد الهزيمة والقضاء على عبد الحكيم عامر وخلو الميدان من كل منافس أو معترض .

وما الذي كان عبد الناصر يقرأ ؟ ومن الذين كان يقابل ؟ وما هي المسائل الرئيسية التي كانت تشغل ذهنه وقلبه ؟

أشياء كان يقدمها له ويشغله بها من حوله ومنهم الكثير من السوبر باشوات . ومنهم أيضا ناس طيبون أكفاء ولكنهم كانوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئا كثيرا وكان فيهم الكثير من الأمريكان والروس وبعض أهل ثقته وبعض خاصته من العرب أو مندوبوه في العواصم العربية سواء أكانوا سفراء أم ملحقين فنيين أم مندوبين خاصين .

وكان حول جمال عبد الناصر زحام شديد من الناس ، من هؤلاء وغيرهم ، لأنه بعد أن كسب معركته مع محمد نجيب في فبراير ١٩٥٤ بدا بوضوح أنه القوة الجديدة المحركة في عالم العرب واتجهت إليه الأنظار والآمال ، وأصبح — بسبب تدافع الحوادث في المنطقة — محور النضال السياسي فيها . واستغرقت شئون السياسة العربية والدولية وقت عبد الناصر كله ، وانصرف عن الشئون الداخلية وتركها لمن كان يظن أنهم خدمه المخلصون ومعظمهم سوبر باشوات .

وتفتحت أبواب المغام والمكاسب أمام هؤلاء . ومصر كانت إلى ذلك الحين بلدا غنيا وخزائنها عامرة وبتروول العرب لم يكن قد دخل الميدان بعد بكل وزنه . وقد غابت عن عبد الناصر الحكمة الذهبية التي تقول : لكي تكون سياسيا قويا خارج بلدك ينبغي أن تصرف كل جهدك لشئون داخل بلدك .

ومركز القوة الحقيقي لأي سياسي يكون داخل بلده لا خارجه . ففي نفس الوقت الذي وصل فيه عبد الناصر إلى الرئاسة المطلقة في مصر سقط أديب الشيشيكلي رئيس سوريا ، ودخلت المشكلة السورية في مرحلة حافلة بالأخطار ، وأصبحت من ذلك الحين إلى يومنا هذا جرحا داميا في الجسد العربي ينزف دون توقف . والجانب الأكبر من متاعب العرب في العصر الحديث أصله سوريا ، لأن سوريا — وهي القطعة الكبرى من القطع الأربع التي أنشأها الاستعمار من أشلاء بلاد الشام القديمة — أصبحت جغرافيا وبشريا وسياسيا واقتصاديا عاجزة عن القيام بأمر نفسها . وبلاد الشام القديمة (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) كانت وحدة جغرافية بشرية سياسية اقتصادية كاملة ، فلما مزقوها قطعاً

أصبحت كل قطعة كيانا كسيحا لا يمكن أن يقوم بنفسه قط ، وخاصة بعد أن أقاموا على معظم أرض فلسطين ذلك الكيان الاستعماري المصطنع لإسرائيل . لأن الجيوبوليتيكا تقول أن الدول لا تعيش إلا إذا كانت أجسادا كاملة الأعضاء والأجهزة ، مثل الوحدة المعنوية والتاريخية للعنصر البشري وكفاية الموارد والمواصلات والاقتصاد ، وهذا الكلام لا ينطبق على بلاد الشام وحدها بل على كل بلاد الدنيا التي مزقتها الاستعمار لخدمة مصالحه ، فاضطرب أمرها ولم تعرف الاستقرار أبدا ، وعند العرب شطربيت من الشرعيعبر عن هذا المعنى يقول « ولو ترك القطا ليلا لنا » أى أن طير القطا إذا كان قلقا في عشه فلأن هناك شيئا يؤلمه أو يخيفه ويقض مضجعه ، ولو أنه ترك في حاله لنام . . .

وهذه هي حالة البلاد التي نشأت عن تقسيمات استعمارية قديمة مثل بلاد افريقية التي قامت على حدود مستعمرات فهي ليست وحدات سياسية منسجمة البناء وإنما كيانات سياسية مصطنعة ، ولهذا فإن أمورها لن تستقر أبدا ، ولا يسودها الهدوء إلا مع حكومات الاستبداد والظلم وكبت الأنفاس - والاستبداد لا يدوم - ولا بد أن يحدث الانفجار .

ولهذا فإن كل البلاد الافريقية كالبراكين الخامدة : معرضة للانفجار في كل حين . وأكثر الكيانات السياسية في العالم قلقا هي إسرائيل لأنها صناعة غربية بحثة ، وكل دولة أوروبية أو أمريكية أيدتها جعلت ذلك لخدمة مصالحها هي . ولا يمك إسرائيل بعضها ببعض في الحقيقة إلا كراهية العرب وضعف العرب واختلاف بعضهم مع بعض . ولو تماسك العرب وتوحدت كلماتهم عشر سنوات متوالية لترعزت أركان إسرائيل . ولكن ذلك مستحيل لأن الكثير من البلاد العربية نفسها صناعة استعمارية فهي تحمل في كيائها عوامل ضعفها ، وأوضح مثل على ذلك سوريا ولبنان .

وهذه أيضاً هي حال وحدات بلاد الشام الأربع : سوريا ولبنان والأردن وفلسطين . فالتقسيم في ذاته كان جريمة قتل ، وعلى هذه الجريمة بنيت جريمة أبشع وهي إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين . وإسرائيل - مهما قالوا فيها - كيان قلق يشعر دائما بالضيق لأنه غير طبيعي ، فليس هناك شيء اسمه الشعب اليهودي . إن الشعب الإسرائيلي شيء أنشأوه صناعيا لخدمة أغراض سياسية واقتصادية ، مثله في ذلك « الأمريكان فروت كومباني » . فلكي تعيش إسرائيل لابد من شيئين : دعم سياسي ومالي وعسكري متصل من الغرب والشرق على السواء ، لأن إسرائيل حائط مائل لابد أن يشد بالدعائم من الخارج ، والشئ الثاني هو أنه لكي تعيش إسرائيل فلا بد من أن تموت بقية الوحدات السياسية التي تمزقت إليها بلاد الشام : لبنان لابد أن يموت وسوريا لابد أن تموت والأردن لابد أن يموت ، وطبعاً فلسطين لابد أن تموت .

والموت هنا سياسى ، وله أشكال شتى ، منها - مثلا - أن تصبح هذه البلاد كلها محميات أو مناطق نفوذ إسرائيلية ثم جاءت انجلترا فجعلت الأردن محمية بريطانية . وقد تمكن الملك حسين من رفض هذه الحماية وشد بنیان مملكته الهاشمية ولكن متاعبه لا تنتهى ، وجاءت فرنسا فأرادت أن تجعل من لبنان امتدادا فرنسيا كاثوليكية وأنشأت لنفسها أو هى حاولت أن تنشئ هناك قلعة فرنسية ، وجاءت الولايات المتحدة وحاولت نفس المحاولة وأنشأت هناك قلعة أمريكية وأفلت الزمام من رجال الدولة اللبنانية ، وتكاثرت القلاع وقامت الحرب بينها وهى الحرب الأهلية وانتهزت اسرائيل الفرصة وعملت على أن تنشئ لها هناك قلعة فى لبنان وعلى عهدها من الطمع أرادت أن تجعل من لبنان كله قلعة إسرائيلية ، أو قل امتدادا سياسيا لها . وانضمت القلعة الأمريكية فى لبنان إلى القلعة الإسرائيلية وهذا هو الذى تعمل أمريكا له الآن . وكل ما ترى وتقرأ مهما اختلف عنوانه أو لونه أو شكله هو محاولة أمريكية إسرائيلية لجعل لبنان امتدادا سياسيا لإسرائيل أو أمريكا أو هما معا والنتيجة واحدة على أى حال . . . والذين يعتقدون أن إسرائيل وحدها هى التى تؤيد أنطون لحود خليفة سعد حداد مخطئون ، والذين يظنون أن لبنان فيها سعد حداد واحد مخطئون أكثر وأنطون لحود كان ولا يزال ضابطا فى الجيش اللبنانى .

والذين يتعجبون من اعتماد سوريا على روسيا لا ينبغي لهم أن يتعجبوا الآن .

فسوريا وحدها لا يمكن إلا أن تكون كسيحة . ولهذا لابد لها من الاعتماد على سند خارجى . ومادامت إسرائيل تستند على أمريكا فلا بد أن تستند سوريا على روسيا ، والذين يسرعون إلى إمداد سوريا بالمال من العرب - ظنا منهم أنهم إذا لم يقدموا هذا العون سقطت سوريا - واهمون . لأن النظام السورى سيسقط عندما تتخلى عنه روسيا مهما دفعوا له من أموال .

وهذه الأموال التى يقدمها العرب لسوريا لن ينال منها الشعب السورى شيئا على أى حال ، لأنها تدخل خزانة رئيس الحزب ولا تخرج منه . وخزانة الحزب هى خزانة رئيس الحزب وأسرته . وحزب البعث السورى مات من زمن طويل أو قل هو ولد ميتا . فلا وجود لشيء اسمه البعث إلا فى أذهان ميشيل عفلق وطارق عزيز حنا عبدالمسيح . . . ولكنهم فى سوريا لأمر ما لا يدفنون الموتى بل يعبدونهم . . . ومنهم من يعبد الحاكم بأمر الله الفاطمى إلى اليوم - ومنهم نصارى فى ثياب مسلمين هم النصيرية - ومنهم حافظ الأسد ، ومنهم وثنيون فى ثياب إسلامية مثل السامرة . . . فمأساة فلسطين هى مأساة بلاد الشام . . . ومأساة بلاد الشام هى مأساة العرب المعاصرين . وكل من يحاول علاج مشكلة فلسطين وحدها أو لبنان وحدها أو سوريا وحدها أو الأردن وحده واهم ، لأن المشكلة الشامية واحدة لا تتجزأ

وعندما تحل - يسمع الله منا - ستحل بقية مشاكل الشام والعرب ، ولن يكون هناك مكان لإسرائيل دون أن يفعل العرب شيئا للقضاء عليها . .

في هذه الغابة الشامية - التي لا يعرف أحد طريقه فيها - ألقى عبد الناصر بنفسه منذ انفراد بحكم مصر في ابريل ١٩٥٤ . .

ومصر لم تكن تبحث إذ ذاك عن زعيم بل عن طريق ، وجمال عبد الناصر عندما انفراد بأمر مصر قال إنه يعرف الطريق إلى الغاية ، وعندما عاد من باندونج زعيما عالميا قال إنه هو نفسه الطريق والغاية والهدف وكل شيء ، وسوريا التي تبحث دائما عن زعيم مدت إليه يدها ودعته إلى أن يكون زعيمها ، والشاب المصري الذي أصبح سياسيا عالميا تحول إلى زعيمين ، ومصر أصبحت الإقليم الجنوبي من كيان سياسي جديد اسمه الجمهورية العربية المتحدة . .

وهنا أصبح جمال عبد الناصر مشكلة أمريكية روسية . . لأن الدولتين الكبيرتين لم يعجبهما أن يظهر بين العرب زعيم . . وحكايتهما مع عبد الناصر أقدم من ذلك . لأن كلا منهما كانت تحاول الاستيلاء عليه بطريقتها ، فروسيا قدمت صفقة الأسلحة في سبتمبر ١٩٥٥ ، وأمريكا المفزوعة من شبح أيام دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته البالغ الذكاء والغباء معاجون فوستر دالاس - لجأت أولا إلى الاحتياك عليه . . فأحاطته بعدد لا نهاية له من رجال السياسة والمخابرات والأصدقاء والأعداء ، وعبد الناصر الذي ازدهاه أنه أصبح زعيم العرب وشخصية عالمية رحب بهؤلاء جميعا وأصبحوا جزءا من حياته وتفكيره وعمله ، فهم يكتبون عنه المقالات بل الكتب .

ومنذ عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة لم يقل عدد الأمريكيين المحيطين بعبد الناصر عن عشرة في أي وقت ، نذكر منهم على سبيل المثال كيرميت روزفلت ووليام (بيل) راونترى ومايلز كويلاند ، وهؤلاء جميعا كانوا يعملون بناء على خطة مرسومة في دوائر السي - إي - آيه (المخابرات الأمريكية) والبيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية ، ووظيفتهم الأساسية أن يكون عبد الناصر تحت نظرهم دائما ، وكل واحد منهم يدرس منه ناحية ، وهم حريصون جدا على ألا يخلو عدد من تايم ماجازين أو نيوزويك أو الواشنطن بوست أو النيويورك تايمز من ذكر له ، حتى شعر أنه مركز السياسة العالمية . وكلما زاد النشر عنه زاد ترحيبا بهم وأنسا بمجالستهم . ومع ذكائه وحرصه فلا بد أن أسرارهم تتسرب إليهم والأسرار لا تهمهم في المكان الأول لأن السر الأكبر عندهم هو عبد الناصر نفسه . . إنهم يريدون أن يعرفوا حقيقة شيئا فشيئا ففهموه تماما وملكوا مفتاح شخصيته ، وعرفوا كيف

سيكون رد فعله لهذا الحادث أو ذاك بل وصلوا إلى أن يعرفوا كيف يجعلونه يقول « نعم » إذا أرادوا . . و « لا » إذا أرادوا . . فمن المعروف لنا أنه رجل عنيد جدا وشديد الاعتزاز بنفسه وهو حذر وبالغ الذكاء « يفهمها وهي طائفة » كما يقولون وهو يرى أنه أذكى بمراحل من دوايت أيزنهاور وأنطوني إيدن وجي موليه وكريستيان بينو وغيرهم من أقطاب السياسة العالمية في وقته ، ويعتقد أن خروثشوف خاتم في أصبعه ، أما نوري السعيد وفاضل الجمالي وكميل شمعون والملك حسين والجنرال جلوب فهم عنده أطفال . .

وهؤلاء الرجال لا يدرسون عبد الناصر وحده ، بل كل من حوله : يدرسون أصدقاءه واعداءه ، وأدواته الذين يعمل بهم . . وهؤلاء هم الخشداشية أو الشماشرجية . . ومنهم وزراء . . هؤلاء الأمريكيون يعرفون كل القيادات حول عبد الناصر ومن يليهم ومن يليهم إلى سائق السيارة التي يضعها عبد الناصر تحت تصرفهم ، وهذا السائق في الحقيقة رجل مخبرات . وعبد الناصر يظن حسب ثقته في نفسه أنهم لا يعرفون ذلك ، وقد تعلم عبد الناصر منهم كيف يتكلم الإنجليزية دون صعوبة . . بل كيف يبدى ملاحظات ساخرة في أسلوب لاذع أمريكي سليم ، وهو يخاطب السفير الأمريكي هنري بايرون باسم التذليل الذي يخاطبه به خلصاؤه « هانك » . .

وقصة عبد الناصر مع الأمريكيين حكى أطرافا منها أمريكيون وإنجليز كثيرون كتبوا عنه كتباً ، ولكن واحدا منهم هو مايلز كوبلاند كتب كتابا يعتبر أساسيا في دراسة الأساليب الأمريكية في السيطرة على زعيم من زعماء العالم الثالث والكتاب يسمى The Game of Nations

ونحن نترجمه عادة باسم (لعبة الأمم) ولكن يغيب عنا إن لفظ game له معنى آخر هو الصيد . . وصيد الحيوانات الكبيرة مثل الأسود والنمور يسمى The big game وإذن فإن موضوع الكتاب هو في الحقيقة « صيد الأمم » كيف تصطاد الأمم بعضها بعضا وكيف يصطادون الزعماء

عبد الناصر الذي كان يظن نفسه وحشا كاسرا يخيف الدنيا تقلمت أظافره شيئا فشيئا وأصبح في النهاية شابا عنيدا عصبيا لا يخيف دون أن يدرى . وخطوة خطوة تمهد الطريق للإيقاع به على النحو المحزن الذي تم في يونيو ١٩٦٧ وكان « الغزال » الذي أغروه به ليطارده ويقع في أثناء ذلك في الشرك هو سوريا ، تلك المعشوقة الفاتنة التي جرت وراء عبد الناصر ملهوفة لكي يكون منقذها ، وعبد الناصر ربما لم يحب سوريا ولكنه أحب نفسه زعيما لسوريا .

وفي فبراير ١٩٥٨ عقد زفاف عبد الناصر على المحبوبة وفي ابريل ١٩٥٨ ذهب عبد الناصر - فتي النيل الأسمر الطويل القائمة البهي الطلعة - إلى سوريا الزوجة الواهة ، ومن حلب إلى دمشق خرجت الجماهير تحيي وتهتف حتى تنشق حناجرها ، وفي الميدان خارج قصر الرئاسة في دمشق نامت ألوف السوريات الشقراوات زرقاوات العيون في انتظار الصباح ليسعدن بنظرة من المصرى الفاتن ، وقلب عبد الناصر خفق ، وشكرى القوتلى . الزوج العجوز السابق للعروس الفاتنة والذي قام بدور المأذون يقول لعبد الناصر - غلصا هذه المرة - : ربنا يعينك على ما بلاك ، لأنه كان يعرف بلاده جيدا ، وجمال عبد الناصر عين عبد الحكيم عامر نائبا للسلطان في دمشق ، وعاد إلى مصر ليؤاسى زوجته الأولى التي أصبحت قديمة ، والفلاحة الطيبة الأصلية التي تغفر لزوجها كل شىء استقبلت عبد الناصر بالدموع والزغاريد ، ورئيس مصر أصبح يؤلف ثلاث وزارات في وقت واحد واحدة مركزية وثانية للزوجة الأولى الفلاحة التي أصبحت تسمى الإقليم الجنوبي ، وواحدة للزوجة الجديدة البيضاء الشقراء التي أصبحت تسمى « الإقليم الشمالى » .

وهذا العز أو ذاك الزواج لم يكونا حقيقيين أو سعيدين أبدا ، والزوجة الجديدة مطالباها لا تنتهى ، ومشاكلها - كما قلت في أول المقال - لا تقبل الحل ، والتجار السوريون هجموا على مصر واستولوا على شوارع بأسرها من قلب العاصمة ، والتهريب من سوريا إلى القاهرة أصبح سيلا متدفقا فهناك تعليمات بالا تفتح حقيبة لسورى ، ونائب السلطان في دمشق أنشأ لنفسه حاشية محترمة والسوبر باشوات وهم الذين انحرفوا عن الخط السليم للثورة اتخذوا شققا للأنس في أحياء مثل المهاجرين وقاسيون ونهر النيل أصبح يصب في سوريا ومصر التي كانت بلدا غنيا لها في بريطانيا رصيد من الذهب قدرة ٥٠٠ مليون جنيه (اضربها في ١٥٠ لتعرف قيمتها الحقيقية) أصبحت اليوم بلدا على وشك الإفلاس والزوجة السورية تعرف ذلك وكما يحدث في أفلام كثيرة رأيناها عندما يفلس المعلم وتخلو محفظته وتصبح مجرد كيس فارغ تبدأ الزوجة « الواعية » في تدبير الطلاق وفي سبتمبر ١٩٦١ يكون الانفصال على طريقة المعلمات القارحات ونائب السلطنة يصحو صباح يوم من أيام الحريف ليجد أنه لم يعد نائب سلطنة بل لم تعد هناك نيابة سلطنة أصلا ويعود إلى القاهرة ومعه حقيبة ملابس الزوج السابق فارغة .

وبعد أن هدأت الأحوال بدأت تصل إلى القاهرة تباعا حقائب حاشية عبد الحكيم عامر ، جاء بها الخدم والأتباع الذين ظلوا هناك بعد هزيمة الانفصال ، وكانت حقائب كثيرة جدا مترعة بالأموال والغنائم . والذي حكى لنا حكايتها ضابط سورى كان يعمل في المخابرات المصرية . . وقد قاسم أفراد الحاشية المصريين غنائمهم . . وبعد أن وصلت

الحقائب كلها إلى مصر كافأناه على إخلاصه بتعيينه في الجامعة العربية ضمن حصة مصر . . والرجل كان ذكيا فأنشأ مع إخوته تجارة في مصر . . وعندما نقلت الجامعة العربية من مصر كان عند هذا الرجل من المال ما يستطيع أن يشتري به مبنى الجامعة نفسه .

وكان انفصال سوريا عن مصر ونهاية الوحدة ضربة أليمة جدا للرئيس عبد الناصر . ولم يؤلمه شيء في حياته السياسية مثل تلك الضربة . كان شعوره دائما شعور الإهانة الذي يحس به عاشق خائنه الحبيبة الغشاشة . وقد ظل سنوات طويلة بعد ذلك يحاول استعادة سوريا فلم يستطع ، وكان تعلقه بسوريا في النهاية هو سبب كارثة ١٩٦٧ .

فقد كان الروس والأمريكيون يعرفون ولعه بسوريا وشوقه في أن يثبت للسوريين أنه رجلهم وحاميهم ، والإثنان تعاونوا على إيهامه بأن إسرائيل تحشد قواتها للهجوم على سوريا ، والسوريون استغاثوا به ، والآخرين عيروه بأنه ترك مضايق تيران منزوعة السلاح بعد جلاء الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين عن سيناء ومنطقة القناة سنة ١٩٥٧ . . وتحمس الرجل ونهض لأنه كان بطلا ، وكانت الكارثة .

وعندما نقرأ بعناية كتاب « لعبة الأمم » نفهم أنهم كانوا يعدون لها من زمن طويل ، وصديقه الذي كان يحبه ويفتح له قلبه ما يلز كوبلاند كان من كبار المدبرين للكارثة ، لأن الولايات المتحدة كانت تريد إخراج عبد الناصر من الميدان ، ورتبت لذلك بعناية وصبر وذكاء ، وهذا لا يمنع من القول أن مايلز كوبلاند ، أعجب بعبد الناصر وأحبه ، وقد أفادت أمريكا من ذلك الحب . .

وجمال عبد الناصر الذي كان لا يقابل وزرائه ولا يجلس مع وزير ويناقله في خطة أو سياسة ، جمال عبد الناصر هذا كان يذهب ليتناول العشاء في شقة مايلز كوبلاند في القاهرة ، وفي صفحة ١٧٨ من ذلك الكتاب نقراً : وفي أثناء ذلك (يناير ١٩٥٥) وصل هنري بايرون إلى القاهرة (وتسلم عمله سفيراً للولايات المتحدة خلفاً للمستر جيفرسون كافر) وأتى بايرون وعبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامي لتناول العشاء في بيتي كما سبق أن ذكرت ، وقبل ذلك كنت بالاشتراك مع انجلبرجر قد بينا للسفير بايرون آراءنا في سلبات حلف بغداد ، وبايرون - بعيداً عن الجو الذي كان يعيش فيه في واشنطن - اقترب بعض الشيء من آرائنا إلى درجة أنه أثناء العشاء حث عبد الناصر على أن يترشح في إعلان رأيه (في الحلف) وأن يذكر أن الأمور يحتمل ألا تسير في الطريق الذي كان يبدو إذ ذاك أنها سائرة فيه ، على الأقل فيما يتصل بتأييد الولايات المتحدة وبريطانيا للحلف .

وهؤلاء جميعاً كانوا يجتهدون في توجيه ذهن عبد الناصر في الاتجاه الذين يريدون

وهو — لفرط ثقته في نفسه — يظن أنه هو الذى يقودهم ، والحقيقة الأليمة هنا هى أنهم درسوه ، أما هو فلم يدرسهم ، وبلغ من ثقته فيهم وتصوره أنه يقودهم ، ويقود السياسة الأمريكية عن طريقهم ، أنه أعطاهم حق الدخول إلى مقر القيادة على النيل ، وهذا المقر كان قصرا من قصور الملك أنشىء في نهاية « الجزيرة » إلى جانب حديقة النزهة التى كانت منتزها للشعب ، وحديقة النزهة أقفلت وتحولت إلى خرابة ، والمصريون فقدوا حديقتهم وحرم عليهم المسير في الشارع المؤدى إلى مقر القيادة ، أما الأمريكيون فكانوا يدخلون ويخرجون كيف شاءوا ، وعبد الناصر يشتمهم في كل خطبة من خطبه ويلعن سياسة أمريكا ، والشعب يصفق ، وبعد الخطبة يتغدى البطل مع الأمريكيين وهو يظن أنه مسح بهم وبسياستهم البلاط ، كان عبد الناصر يلعن حلف بغداد ، وأصدقاؤه الأمريكيون يشجعونه على أن يلعنه ، ويؤكدون له أنهم غير راضين عنه ، ويقولون إن انجلترا هى التى وراء الحلف ، وهم وراءه بالباع والذراع . .

وطول عمرى أقول إن الشعب المصرى طيب وخير وصبور وغنى بما وهبه الله من صفات وخصائص ، مثله في ذلك مثل الجمل : تعطيه القليل جدا فيعطيك الكثير جدا : تعطيه العشب الجاف والماء الأجاج والخطب فيعطيك لبنا وفيرا سائغا كالشهد ووبرا كثيرا ناعما كالحرير . . ويصبر طويلا ويتحمل كثيرا ولكن رأسه دائما في السماء .

وبينما كان عبد الناصر يندفع في متاهات السياسة العربية والسياسة الدولية ويدخل لعبة الأمم أو صيد الأمم فإنه قد فاتته أن يعد بلاده لتكون سنده في اللعب أو الصيد ، وفاته أكبر حقيقة من حقائق السياسة ، وهى أن أى رجل من قادة الأمم لا يستطيع أن يؤثر في مجرى السياسة العالمية إلا بالقدر الذى يستطيعه شعبه ، الشعب هو الأساس والسياسيون والقادة هم الذين يقيمون البناء ، وهم مهما فعلوا لا يستطيعون أن يقيموا إلا بالقدر الذى يحتمله الأساس ، مهما ظن القائد أنه بطل أو موهوب فإن البناء على غير أساس من الشعب لن يقوم ، وكل شىء سينهدم على رأس بانيه .

وكونراد أديناور يعتبر من أساطين السياسة في عصرنا هذا لأنه عندما تولى أمر المانيا عرف هذه الحقيقة جيدا ، فبدأ بينى وطنه أولا ، بدأ كمتسول معتمدا على معاونات مشروع مارشال ، وخلال السنوات الثمان الأولى من قيادته لم يفتح فمه في سياسة دولية . قام هوولودفيج إيرهارث بينيان الاقتصاد الألماني في صمت ، والشعب الألماني بنى مع قيادته بناء سليما قويا ، وألمانيا التى كانت حطاما في أواخر الأربعينات أصبحت مصانع ومدنا زاهرة في أواخر الخمسينات .

وعلى هذه القاعدة القومية الشعبية جلس أديناور يقول كلمته في السياسة العالمية ،
وفرنسا أحست أن ألمانيا تفوقت عليها فسارعت ومنحت دييجول ثققتها ، والجنرال شارل دي
جول بدأ بإنشاء قاعدة دستورية جديدة ، واعتمد على الفكر والعلم ورجال العلم
والصناعة ، وجاء برجل من أعلام الفكر هو أندريه مالرو وجعله وزير ثقافة ، وأندريه
مالرو لم يتنازل لدييجول عن ذرة من حرية فكره أو صراحته أو علمه ، كان دييجول يتحدث
إليه ساعة ليقتنعه بشيء ، وفي النهاية يقول مالرو : لا ياسيدى الجنرال ، لا أستطيع ذلك
لأننى غير مقتنع ، ويقول الجنرال : أنت رجل عنيد ناشف الرأس ، فيقول الوزير : أنا
الذى أوصف بذلك يا سيدى الجنرال ؟ ويفهمها دييجول ويحترم رأى وزيره . ويوم الأحد
يتغدى أندريه مالرو على مائدة الجنرال فى بيته الريفى فى قرية كولومباى لى دوز اجليز ،
ومدام دييجول هى التى تطهو الطعام ، وكل ذلك تجده فى مذكرات مالرو التى أطلق عليها
اسما يصعب ترجمته إلى العربية .

وعبد الناصر يقولون له إن وزيرا من وزراء التربية والتعليم يخالف سياسة الرئيس فى
وزارته ويريد أن يستقيل أو أن يكون وزيرا حقيقيا ، وهذه جريمة فى نظر عبد الناصر وهو
لا يسمح للوزير بأن يستقيل ، لأن الاستقالة معناها أنه يرفض العمل معه وهذا تطاول
وقح على المقام العظيم ، وبعد أيام يُقال الوزير المخلص المجتهد بضربة بالقدم تلقى به فى
الطريق .

والخبر ينشر فى سطرين كلهما احتقار ، وأقول لصحفى العصر وصاحب رأى الرئيس
« أو ما يسمى بمخزنه الذهبى » فيقول ساخرا : لا يستحق أكثر من ذلك !



١٣ الحساب الختامي للعصر الناصري

أتابع هنا دراسة عصر عبد الناصر لا لكي أنبش الماضي بل لكي أنير طريق المستقبل . لأن الماضي لا وجود له في مفهوم التاريخ . وكل ما نسميه ماضياً إنما هو حاضر . وما حدث اليوم بدأ بالأمس وأول أمس . والذي يعني منا عصر عبد الناصر وما جاء بعده هو أن نصل إلى جذور مشاكل اليوم : الفوضى وعدم احترام القانون وضعف الإحساس بالجماعة وقلة الشعور بالانتماء . لقد رأينا كيف أن راعي الجمل المصري وقف في النهاية وحيداً فريداً . الجمل كل وبرك . وحمل الجمل ضاع وأحلام النصر ذهبت مع أمس الدابر .

وعزاؤنا عما حدث هو أن غيرنا ممن كنا نظن أنهم أدري منا بحقائق الحرب والسياسة اقترب نفس الخطأ . ذلك أن موسوليني عندما أراد أن ينشئ إمبراطوريته الأفريقية بادئاً بإتمام إخضاع ليبيا ثم غزو الحبشة فاته أن الشعب الإيطالي لا يريد هذه الإمبراطورية وغير مستعد أو مؤهل للعمل في إنشائها . بل لم يكن الشعب الإيطالي راغباً في دخول الحرب العالمية الثانية أصلاً ، ولهذا فقد حلت الهزائم بالإيطاليين في ليبيا والحبشة . ثم في الحرب الكبرى والإيطاليون اليوم يقولون أنهم لم ينهزموا في أي من هذه الحروب لأنهم لم يدخلوها بإرادتهم بل كان موسوليني هو الذي حشرهم فيها .

ومهما بلغت عبقرية موسوليني فإنه لم يكن يستطيع أن يفعل .

وقد وقفنا في الفصل الماضي عند واحدة من الحقائق التي أدت إلى هذه النتيجة وهي أن عبد الناصر غابت عنه حقيقة الأمة وأنها الأساس ، وأن أي زعيم مهما بلغت عبقريته لا يستطيع أن يحقق إلا ما تستطيعه أمته فعلاً ، فعبد الناصر كان يريد أن ينشئ إمبراطورية عربية ، ولكن شعب مصر لم يكن يريد أن ينشئ تلك الإمبراطورية ، ولا هو كان قادراً على إنشائها ، كان يريد أن يعيش مع إخوانه العرب في سلام ، كان يريد أن يتعاون مع أولئك الإخوة في تأمين الوطن العربي من الأخطار ، ولهذا فعندما ذهب عبد الناصر للاشتراك في حرب اليمن ذهب وحده . والذين أرسلهم إلى اليمن معظمهم لم يذهب للحرب بل للمتاجرة والكسب . والقليلون المخلصون هم الذين حاربوا مع أحرار اليمن وماتوا ، وهم الذين جعلوا لمشاركة مصر في ثورة اليمن معنى وقيمة .

وقد سبق أن قلت مرة بعد أخرى إنني أعرف قدر عبد الناصر وحقيقة دوره في تاريخ العرب وتاريخ مصر ، وعندما أقول ما أقول الآن فإنني أريد أن أصل إلى الحقائق التي تنفع هذه الأمة ، والحقائق وحدها هي التي تبقى وتنفع . وإذا كانت الأمة قد غابت عن عبد الناصر فقد غابت عنه حقيقة أخرى وهي أن الحرية هي القاعد الأساسية التي لا يستطيع شعب أن ينهض بدونها ، وأن الحرية قوة للحاكم قبل أن تكون قوة للشعب ، والحاكم مهما

كانت قوته المادية والعسكرية لا يستطيع أن يصل إلى النصر إذا كان شعبه مكبلاً بالأغلال . والشعب الألماني نفسه - وهو من أقوى شعوب الأرض وأوفرها علماً وأكثرها مهارات - خسر الحرب لأن هتلر سلب هذا الشعب حريته ، وهتلر الذي حرم على شعبه الحرية وعاقب الناس عليها انتهت حياته منتحراً في قبر تحت الأرض ، فكان بذلك أشد الناس خسارة وأصبح في نظر التاريخ مجرمًا .

وجمال عبد الناصر الذي بدأ حياته بطلا ، فارغم الإنجليز على توقيع معاهدة الجلاء في أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وأمم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ اعتقد أنه صاحب الفضل الوحيد في ذلك كله ونسى أنه لم يكن يستطيع أن يصل إلى شيء منه إلا بتأييد شعبه ، وأن كل قوته لا ترجع إلى شخصه بل ترجع في الحقيقة إلى إرادة الشعب ، ولأن عبد الناصر لم يكن يؤمن بالحرية فقد عادى كل الذين يحتاجون للحرية من المواطنين لكي يعملوا أو ينتجوا ويفيدوا بلادهم ، وهم المفكرون والكتاب والعلماء والفنانون ، وهؤلاء هم عيون الشعب التي ترى وعقله التي تفكر وألسته التي تتكلم ، فإذا أخفيت الحقائق عن هؤلاء وإذا حيل بينهم وبين الوصول إلى الحق ، وحرم عليهم الكلام والكتابة أصبح الشعب كله بلا قيادة حقيقية ، وأصبحنا لا نعرف ماذا يريد الشعب أو ماذا لا يريد ، لأن جماهير الشوارع طيبة وساذجة ، وهي قوة ضخمة ولكن لا قيمة لها إلا إذا كانت على نور ، والزعيم الذي يعتمد على تصفيق الشوارع يعتمد على هواء ، لأن رجل الشارع لا يفكر في العادة وإنما هو يتصرف تصرفاً جماعياً ويسير مع التيار وواجب الحكومة الصالحة أن تنور هذا الشعب بالحقائق وألا تكذب عليه أبداً حتى لا يتحول الشارع إلى قوة مخربة .

وعبد الناصر غابت عنه هذه الحقائق ، ولهذا فقد سار في طريقه غير مكترث بالشعب أو رأى الشعب بل عملت أجهزة الدعاية بأمره على تضليل هذا الشعب وتسييره في الظلام . والغريب أن عبد الناصر الذي كان يقف مع شعبه هذا الموقف كان رغم كراهته للأمريكيين لا يخفى عنهم حقيقة . وأريك جونسون وكيرميت روزفلت وباتريك سيل كانوا يعرفون من عبد الناصر نفسه حقائق كل شيء يجري في مصر وقرأ كتاب لعبة الأمم لترى ذلك بنفسك . وقد فات عبد الناصر أن أولئك الناس كانوا حوله ليدرسوه ويصلوا إلى مفاتيح شخصيته ، ووصلوا إليها وتحكموا فيه دون أن يدري ، فقد عرفوا أنه رجل عزيز النفس عنيد معتد بنفسه وأنتك مهما قلت له فإنه سيفعل العكس . فكانوا إذا أرادوا منه أن يفعل شيئاً طلبوا منه العكس فيفعل ما يريدون . وسرى أن عبد الناصر اختلف هنا تمام الاختلاف عن أنور السادات . فهناك مفاتيح لشخصية عبد الناصر . وأنت تستطيع إذا عرفت المفاتيح أن تتوقع ماذا سيفعل ، أما السادات فقد استعصى على بريجنسكي وعلى

هنرى كيسنجر ، وهذا سر حملتهم عليه فى بعض ما كتبوا وسننظر فى هذا فى الفصل القادم إن شاء الله .

أما المصريون الذى احاطوا بعبد الناصر وألحقوا به أشد الضرر فهم الذين كانوا يقولون دائماً : حاضر يافندم !! ولماذا كانوا يقولون ذلك ؟ لأنهم كانوا يعلمون أن عبد الناصر لا يقبل غير الطاعة دون جدال ، فإذا أنت جعلت نفسك خاتماً فى أصبعه بلغت منه ما تريد . وعبد الناصر - كما قلنا - كان زاهداً فيما يطعم فيه الناس من خير ومتاع ونعمة ومال وترف . فلا مانع عنده من أن يعطيك بكلتا يديه إذا أنت كنت أداة من أدواته تخدمه بالصورة التى يحب : هو يأمر وأنت تطيع ، فلا يستكثر عليك شيئاً : تريد أن تكون وزيراً ؟ فكن وزيراً ! تريد أن تكون سفيراً ؟ فكن سفيراً ! تريد أن تسرق ؟ فاسرق ولا تخف ! بل كان عبد الناصر يفضل الذى يخطيء على الذى لا يخطيء لأن الخطأ ذلة للرجل فى يده ، وأنا هنا لا أذيع سرا أو أكتشف اكتشافاً لأن هذه الحقيقة عرفها عنه كل الناس وليس معنى ذلك أن كل الذين عملوا معه وأطاعوه كان معييين ، فقد كان فيهم ناس كثيرون محترمون خدموا بأمانة ونصحوا ، ولكن الطاعة كانت الصفة الأولى التى أحبها فيهم . إنه لا يحب المعارضة ولا يطيقها ، والويل لمن يعارضه ، ولكن لماذا كان عبد الناصر لا يرضى بغير الطاعة الكاملة ؟ لأن الغرام الأكبر لعبد الناصر كان السلطة أو السلطان ، أو القوة السياسية ، وهنا نقف وقفة قصيرة عند موضوع القوة السياسية .

المراد بالسلطة هنا هى السلطة السياسية أى السيطرة على الشعب أو الأمة وحكمها . وسنرى بعد قليل أن لها طريقين ، شرعياً وغير شرعى ، ولكن الذى يعنينا هنا هو . . السلطة فى ذاتها ما هى ؟ إن مظهرها هو أن من يملكها يأمر فيطاع . يصدر الأمر فينفذ ذلك الأمر ، ولكن كيف يقبض صاحب السلطة عليها ؟ إن الموظف العادى فى الحكومة أو فى شركة من الشركات يتمتع بسلطة فى حدود القرار الذى صدر بتعيينه ، وقوة هذا القرار تكمن فى الإمضاء الذى عليه ، فأنت مثلاً مدير عام بقوة إمضاء صدر بتعيينك ممن فوقك ، وهو وكيل الوزارة وإمضاء وكيل الوزارة هو الذى أعطاك السلطة فى مجال وظيفتك ، ووكيل الوزارة يستمد سلطته من قرار الوزير بتعيينه ، وهكذا حتى نصل إلى رأس الدولة ، وهو رئيسنا جميعاً .

فالسلطة إذن يمكن أن نقول أنها خيط من الحبر يبدأ من الرئيس الأعلى ويستمر حتى يصل إلى أصغر العاملين فى الدولة أو الشركة . وهذا الخيط رمزى كما قلنا ، وشرطه الأول هو أن يكون متصلاً من خروجه من قلم الرئيس الأعلى إلى أسفل السلم . وشرطه الثانى هو أن يكون تفويض السلطة كاملاً ، فإذا أقام رئيس الدولة رئيساً للوزراء فينبغى أن يدعه

يتصرف تصرفاً كاملاً في حدود ولايته ، فلا يتدخل فيها ويتنقص من سلطته إلا في الحدود التي يعيها القانون ورئيس الوزراء ينبغي أن يكون تفويضه للوزراء كاملاً دون تدخل منه إلا في حدود القانون ، فإذا وقعت تدخلات وتعديلات خارج القانون فسد النظام كله ، ومن طبع الفساد أن يستشري كالمرض المعدى ، إذا لم يوقف استمر ينتشر وينتشر حتى يعم الجميع .

وعندما نصل إلى رئيس الدولة يكون السؤال : من أين يأخذ رئيس الدولة خيط الحبر الذي يعطيه قوة التصرف ؟

في نظام ديمقراطي مثل نظامنا الحالي ، الجواب واضح : إن رئيس الدولة يحكم بمقتضى تفويض أعطاه الشعب إياه . وهذا التفويض حصل عليه الرئيس بالانتخاب ، نحن دعينا لانتخاب رئيس الدولة في يوم معين فذهبنا واختارناه أو اختارته الأغلبية . وبمقتضى نتيجة هذا الانتخاب قام مجلس الشعب المنتخب منا أيضاً بتسليم السلطة إلى الرئيس الجديد . فهو يحكم بتفويض منا وتأيد ، وهويعين الوزراء ، والوزراء يعينون من يلونهم وهكذا ، وكل شئوننا تجري وفق نظام للسلطة والحقوق والواجبات هو الدستور ، فالدستور هو الإطار القانوني العام لكل تصرف أو ملك (بكسر الميم) أو سلطة ! هذا في النظم الديمقراطية أى الشورية مثل نظامنا الحالي منذ ولاية الرئيس حسنى مبارك وهو لهذا واثق منا ونحن واثقون فيه ، وهو مطمئن إلينا ونحن مطمئنون إليه ، وهو يحكم بالدستور ونحن وضعنا الدستور . فهو آمن ونحن آمنون ، وهو ونحن جميعاً في حى الدستور والقوانين ، فكيف تولى عبد الناصر ؟

عبد الناصر انتزع السلطان من الرئيس محمد نجيب انتزاعاً بالقوة في فبراير ١٩٥٤ . كان محمد نجيب قد تولى السلطة بترشيح من الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر ، كانوا يريدون منه أن يكون صورة يحكمون في ظلها ، ولكن الشعب تعلق بمحمد نجيب ولذلك لا بد من إبعاده . بالقوة أصبح عبد الناصر الرئيس الفعلى ممثلاً للضباط الأحرار ، وبعد أن صار رئيساً بالفعل طلبوا من الشعب تأييد الأمر الواقع وبدأوا يحكمون جماعياً ، ولكن عبد الناصر كان يحس في نفسه أن هذه الثورة كلها من صنعه ، وأن النظام الجديد ملكه ، ولن يصلح إلا إذا كان هو صاحب السلطان الوحيد فيه ، ولم يكن هذا بالشئ الجديد في التاريخ ، بل هو يحدث كثيراً بعد قيام الثورات .

ذلك أن الثورة إذا قامت يكون لها هدف واضح يشترك فيه القادة والشعب ، ولكن الذى لا يكون واضحاً هو الطريق إلى تحقيق هذه الأهداف ، وبعد انتصار الثورة يتبين قادة الشعب والثورة أن هناك أكثر من طريق ، ويبدأ الخلاف بين القادة على الطريق ، وهنا

ينتصر الأذكي والأجراً والأقسى والأسرع والأعنف ، وليس من الضروري أن الذي ينتصر هو صاحب الطريق الأسلم والأقرب أو الأكثر استقامة ، هنا تتلاشى الأهداف والمثل العليا في زحمة الصراع ، وقد يكون المنتصر في النهاية هو أبعد الناس عن الغايات الأساسية والمثل العليا .

والذين بدأوا الثورة الفرنسية بالاستيلاء على الباستيل في ١٤ يوليو ١٧٨٩ وألغوا الملكية وأعدموا الملك والملكة ، لم يكونوا يعرفون أنهم يزيلون ملكا ليفسحوا الطريق أمام امبراطور ، والامبراطور نابليون الأول الذي رفعه مجلس الشيوخ إلى المنصب ، في ١٨ مايو ١٨١٤ أصبح يعتقد أنه هو الثورة وهو الطريق وهو الأهداف وهو كل شيء ، وكان هذا بداية لتجارب مريرة وآلام كثيرة ، ولم تشعر فرنسا أنها استقرت فعلا إلا في سنة ١٩٥٩ عندما تولى ديغول وأعلن الجمهورية الخامسة بإرادة الشعب فعلا وبلا تزييف .

شيء من هذا حدث لثورتنا ، فإن جمال عبد الناصر عندما انتصر على محمد نجيب وأصبح رئيسا بالفعل دعا الشعب إلى تأييد هذه الرئاسة وأقام استفتاء وأعلن دستوراً مؤقثاً ، ولكن عبد الناصر أصبح يشعر أنه الثورة كلها وهو الطريق وهو الغاية ومصر كلها أصبحت عليها أن تتخذه عبد الناصر ، وعبد الناصر لم يكن له إلا حب واحد : هو السلطة مثله في ذلك مثل نابليون وهتلر وموسوليني .

وهؤلاء الرجال الذين يتملكهم حب السلطان يتلاشى في اعتبارهم كل شيء الا أشخاصهم . مصر كلها لم يعد لها وجود لأن الوجود كله كان لعبد الناصر ، وفي إحساسه أنه ليس ابن مصر بل مصر من صنع يده . قبله لم توجد مصر (إلا في خطبه) وبعده لا يمكن أن توجد مصر . وفي حديث له مع مجلة لايف الأمريكية سنة ١٩٥٨ سئل : ماذا تظن أن يحدث لمصر بدونك ؟ فكان الجواب الغريب : تنقسم إلى حزبين : حزب مع روسيا وحزب مع أمريكا ! ومادام قد وصل إلى السلطان بالقوة فقد أصبحت القوة عنده وسيلة سهلة لتحقيق ما يريد ، والقانون أصبح هو عبد الناصر ، هذا يفسر لك كل ما حدث في عصر عبد الناصر ، الحسن والقيبح على السواء ، كل ما يتخذ سلطته فهو حسن وكل ما لا يتخذ هذه السلطة فهو سيء من يخدمه ينل الدنيا ، ومن يعارضه يمض إلى الجحيم ، إذا أراد أن يحالف روسيا فإن مصر كلها تريد أن تحالف روسيا ، وإذا أراد أن يغزو اليمن فمصر كلها لا بد أن تغزو اليمن ، وإمام اليمن لا بد أن يزول لأنه لم يؤمن بعبد الناصر ، لا يهم كم ستخسر مصر في حرب اليمن ، لأن المهم هو أن عبد الناصر يريد ، ولأنه يريد فمصر كلها لا بد أن تطيع .

ولكن : من الذي يفتح الطريق أمام المستبد ليصل بالاستبداد إلى مداه ؟ حاشية

السوء أو من نسميهم هنا بالسوبر باشوات . كبار المستبدين يكونون دائماً من عشاق السلطان لا طعام يغريهم ولا شراب ولا نساء ولا ترف ولا متاع ، السلطة فقط ، هكذا كان لينين وستالين وموسوليني وهتلر ، ولينين لكي يضمن السلطان المطلق جعل ستة من اليهود وزراء في مجلس وزراء يتألف من تسعة أشخاص ، لأن أي يهودي لن يطمح إلى رئاسة روسيا ، وهؤلاء اليهود الوزراء أدوات مأمونة من أدوات استبداده . وجمال عبد الناصر عندما أصبح رئيساً للجمهورية قرب إليه رجالاً من الصفوف الخلفية واتجه إلى التخلص من كل رجل من أصحابه له شخصية ، أنور السادات فهم هذه الناحية ، واكتفى بأن يكون رئيساً للمؤتمر الإسلامي أو رئيساً لمجلس النواب ، هكذا يكون قريباً وبعيداً في نفس الوقت ، هكذا يكون داخل الحاشية وخارجها معا ونفر من أعضاء مجلس الثورة جعلوا من أنفسهم هراوات في يد عبد الناصر ، وبهراواته ضربوا الآخرين ، لهذا كان لا بد أن يمنحهم عبد الناصر شيئاً من السلطان . عندما قام كل من هؤلاء بما أراد منه عبد الناصر كان لا بد من إبعاده لا كراهية فيه بالضرورة ، بل لكي يستعيد عبد الناصر ما أعطاهم من سلطان ، إذ لا يجوز أن تكون ذرة من السلطان في يد إنسان غير عبد الناصر .

إن عاشق السلطة يغار عليها بأشد مما يغار الرجل على امرأة يحبها ، والمستبد عندما يريد أن يتخلص من رجل لا يهتم بالطريقة ، المهم أن يختفى ، وهتلر عندما أراد التخلص من رودولف هيس أو عزز إليه بالهرب إلى إنجلترا ليكون وسيطاً في الصلح ، وعندما وصل هيس إلى إنجلترا أعلن هتلر أنه خائن مرتد ، والرجل مازال إلى يومنا هذا يؤدي العقوبة التي حكم بها هتلر عليه ، إنه سجين سباندאו .

وعبد الناصر عندما بدأ التأميمات لم يكن يطمح في شركة من شركات أحمد عبود ولا كان يطمح في مصنع سيد ياسين للزجاج ، ولكنه كان يريد أن يجرّد كل مصري من أي سلطان ولو على مصنع زجاج أو سجاد ، وعبد الناصر وزع شركات عبود على أنصاره ومحاسبيه ، وأخذ شركة مصانع الزجاج من سيد ياسين وهو مواطن تفخر به مصر ، وأعطاهما لواحد من أنصاره ، لم يكن يعنيه ماذا حدث للمصنع ، ولكن الذي كان يعنيه هو أن يجمع كل السلطة في يده ، والثلاثون مليوناً لا بد أن يأكلوا من يده كما كان يقول ، لقد ضرب الاقتصاد المصري كله بتأميماته لكنه لم ينظر إلى شيء من ذلك ، المهم ألا يبقى على ظهرها رجل رافع الرأس إلا هو .

والحاشية أو السوبر باشوات يسرهم ذلك ، لأن كل شركة تؤمم يقعد على تلها واحد منهم ولا حسيب ولا رقيب ، وينفتح الباب أمام الأقارب والأصهار ويتسع المجال لكل

مخالفة ، وجمال عبد الناصر رأى أن الإخوان المسلمين يطمعون في السلطان فنزلت الضربات عليهم دون رحمة هم وأقاربهم وأصهارهم وأصدقائهم ومعارفهم إلى سابع جار . هنا يدخل الإرهاب . والإرهاب سلاح خفيف عرفته الإنسانية من آلاف السنين . ولكن لينين جعله علماً له أساليبه وسيكولوجيته : اقْبِضْ على عشرة رجال في الفجر واسحبهم من أرجلهم إلى السجون ودع نساءهم يبكين وأولادهم يصرخون يرتجف البلد كله . وقد سبق أن شرحت ذلك في دراستي عن لينين ، وجوزيف جويلز وزير دعاية هتلر كان شيطاناً عبقرياً . وهو الذي ابتكر عبادة الزعيم وطقوس تلك العبادة وهو الذي اخترع تنظيم القمصان البنية ومواكبه التأييد وأساليب الفرع والإرهاب وهو الذي اختار هاينربرش وهيملر جعل الإرهاب فناً أسود ، وبستالين رمز الإرهاب الدموي تعلم الكثير من هيملر ، وفي مدرسة هيملر تعلم رجال موسوليني ورجال ألمانيا الشرقية وفي مدرسة الروس والألمان الشرقيين تخرج زبانية الإرهاب في العصر الناصري ، ورمزهم الأكبر حمزة البسيوني ، ومن الغريب أن هؤلاء الإرهابيين الدمويين لا يتمتعون بشيء في الدنيا ولن ينالهم خير في الآخرة وعبد الناصر كان يعرف أن حمزة البسيوني رجل تعيس ولكنه كان يعتقد أنه سعيد بهذه التعاسة .

لقد أشار الرئيس السادات في البحث عن الذات إلى واحدة من حوادث التعذيب في العصر الناصري وهي حوادث تعذيب الناس وامتهان كرامات المواطنين والاتجاه إلى تصفية العائلات في كمشيش منوفية (ص ٢٢٢ - ٢٢٣) و صدر أخيراً حكم القضاء في إحدى قضايا التعذيب هذه نشرته جريدة الأحرار في ٣٠ مايو ١٩٨٣ ، ولن آق به بنصه هنا ولكني سأكتفي بفقرات منه تكفي للغرض من هذه الدراسة ، قالت المحكمة في حيثيات الحكم : « إن الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية ، فيما بين سنتي (١٩٦٦ - ١٩٦٧) ، هي أسوأ فترة مرت بها مصر في تاريخها القديم والحديث ، وهي فترة قد ذبحت فيها الحريات وديست فيها كل كرامة للإنسان المصري ، ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال » . وأنوقف هنا عن إيراد بقية الحثيات لأن يدي لا تطاوعني على كتابتها لبشاعتها .

وهذا حكم قضاء مصري ، وهو وثيقة تاريخية حاسمة ، ولماذا دفعت مصر هذا الثمن الباهظ كله ؟ لكي يحكم رجل واحد . .

ومع هذا فإن هذا الرجل لم يحكم وحده أبداً ، كان هناك دائماً نائب السلطان عبد الحكيم عامر ينغص عليه ملكه ويشاركه فيه بحق النصف ، وعبد الناصر كان يحتفظ لنفسه بحق التصرف المطلق فيما يتصور أنه المسائل الكبرى : العلاقات مع الدول الأجنبية وخاصة روسيا وأمريكا والعلاقات مع الدول العربية ، وما إلى ذلك ، هنا كانت كلمته هي

الأولى والأخيرة ، أما ما عدا ذلك فكان عبد الناصر يعتبره مسائل صغيرة يتركها للمعماليك والحشداشية . .

وقد فات عبد الناصر أن هذه الأمور التي كان يعتبرها مسائل صغيرة هي ثلاثة أرباع اهتمامات الناس ، والمواطن العادي تشغله في المكان الأول تلك الأشياء الصغيرة : لقمة العيش والسكن والمواصلات ودخول الأولاد المدارس وحرية التصرف والعمل والقبول والأمن على النفس والمال والأهل . . هذه كلها تركها عبد الناصر لمساعديه ، هم الذين كانوا يتولون التموين والزراعة والصناعة وشركات القطاع العام والحراسات والتصدير والاستيراد وما إلى ذلك ، وهذا كله تقاسموه فيما بينهم وتصرفوا فيه كأنه تركه صارت إليهم ولا حسيب ولا رقيب ، كانوا إذا أرادوا الاستيلاء على بيت رجل لفقوا لصاحبه أى تهمة وألقوا به في السجن وشردوا أسرته أو فصلوه من وظيفته وجعلوه متسولاً . ويقولون لعبد الناصر إنه عدو للنظام وأنه من الإخوان أو شيوعى أو أى شىء ونادراً ما كان يهتم بالتحقق مما يقولون . وحوادث كمشيش التي أتينا بطرف من حيثيات حكم القضاء فيها قيل لعبد الناصر أن ضحاياها إقطاعيون خطرون ، وهذا كان مبرراً أكثر من كاف لإنزال أسوأ العقاب بأى إنسان .

وهذا يفسر لك كيف أن جماعة السوير باشوات وهم خدم عبد الناصر وعبد الحكيم عامر استولوا على ثروات مصر وخربوا شركاتها ودمروا أرضها الزراعية ، بينما عبد الناصر يسعد بإلقاء الخطب التي كان يتصور أنها تهز الدنيا ، وما كانت في الواقع تؤثر في سير الحوادث إلا بقدر محدود جداً بل كانت تأتينا بأسوأ النتائج ، فقد أهلكنا عبد الناصر ليسقط نوري السعيد وأنفق في سبيل ذلك الملايين ، ومع ذلك فإن الذي جاء بعد نوري السعيد كان عبد الكريم قاسم ، ونوري السعيد مهما قلنا فيه كان باشا محترماً يعرف الأصول ، وفي محادثات سرسنة كان صلاح سالم يتناول عليه وكان نوري السعيد يرد بأدب ، حقاً إنه كان خبيثاً ولكنه كان مهذباً . أما عبد الكريم قاسم فقد كان خبيثاً وقليل الأدب وحقيقياً ، وفي بغداد أقام سيركاً سماه محاكمات الثورة وأتى بقريب له يسمى عباس المهداوى وجعله رئيس المحكمة ، وأذيعت المحاكمات بالتلفزيون ، والذي قاله عباس المهداوى في عبد الناصر وزعماء مصر وثورة مصر يندى له الجبين ، ومن راديو صوت العرب بالقاهرة كان يرد عليه المسكين أحمد سعيد ، بشتائم أقسى وأشد إقذاعاً .

وهذه هي صورة الكفاح العربى في عصر السوير باشوات ، ولكى يسقط جمال عبد الناصر رجلاً مثل كميل شمعون أنفق في بيروت الملايين بلا حساب ، ونصفها استقر طبعاً في جيوب السوير باشوات ، والذين يقولون أن عبد الناصر هو الذى وضع أساس ازدهار

بيروت المالى ابتداء من ١٩٥٤ بما ألقى فيها من أموال مصر يقولون الحق ، وباليات هذا كله نفع فى شىء فإن جمال عبد الناصر لم يُسقط كميل شمعون رغم ذلك كله ! وأيام كميل شمعون كان الحكم فى لبنان مشتركاً بين الموارنة والسنة والشيعة ، أما اليوم فإن الكتائب وحدها هى التى تحكم لبنان ، ونار كميل شمعون ولا جنة الكتائب . .
وهل هذه كانت كل خسائرننا ؟

لا والله خسرننا ما هو أهم من الأموال والجواهر والقصور خسرننا فرصة ذهبية نحاول اليوم أن نستنقذ بعضها ، فإن عبد الناصر بعد أن انفرد بالحكم من أبريل ١٩٥٤ كان يستطيع أن يفعل لمصر ما فعله لينين لروسيا وفرانكو لأسبانيا وتيتو ليوغوسلافيا وماوتسى تونج للصين .

كل هؤلاء كانوا مستبدين ولكنهم على الأقل استخدموا الاستبداد فى النهوض ببلادهم وإدخالها فى عصر جديد لأنهم كانوا يملكون حصيلة طيبة من العلم والثقافة .

ففى سنة ١٩٥٤ كانت مصر مازالت بخيرها كله ، كان عدد سكانها أقل من ٣٠ مليوناً وكان سكان القاهرة مليونين . . والناس كانوا يثقون فى عبد الناصر ثقة بلا حدود وكانوا مستعدين للسير معه فى طريق الإصلاح ، وكان البلد حافلاً بالرجال والكفايات والعلماء . وكان لينين رغم كل شىء يحترم العلم والعلماء ، ويعتبر جامعتى موسكو وليننجراد معقلين وطنيين وكذلك كان فرانكو ، وهذا الرجل الأخير وضع قيوداً تمنع الرأسماليين من الانحراف ثم أطلق لهم حرية العمل دون أن يصادر أموالهم فقاموا بالنهضة الاقتصادية الكبرى وجعلوا أسبانيا تاسع الدول الغنية فى العالم اليوم وأول بلاد العالم فى السياحة . .

ومشكلة التموين التى نعانى منها الآن كان حلها ممكناً منذ أيام عبد الناصر ، والتقارير والدراسات التى قدمها إليه العلماء والمتخصصون المصريون كانت كفيلة بالعلاج أيام كان العلاج ممكناً ، ولكن عبد الناصر كان يلقي بها فى الأدراج ولا يقرأها ويخذ مثلاً واحداً : مترو الأنفاق مشروعه وضع وقدم لعبد الناصر سنة ١٩٥٦ ولم تكن الشوارع قد غصت بما فيها كما هى اليوم ، وكان تنفيذه أيسر من اليوم عشرات المرات . ونحن سننقق فيه اليوم ما بين ٢٥ ، ٣٠ مليوناً . أما فى سنة ١٩٥٧ فكانت تكاليفه ٥ ملايين وكانت المدة المقدرة للتنفيذ ٥ سنوات أو ١٠ ، مهما كان فإن مترو الأنفاق كان قد تم . وكنا تفادينا مشاكل المواصلاات المستحيلة .

ومشروعات إنشاء المدن الجديدة فى الصحراء كلها قدمها لعبد الناصر رجال مصريون

مخلصون ، ولكن عبد الناصر كان يحترق العلماء ويحتقر الكتاب والأحرار ويحتقر كل صاحب رأى وكرامة ، وقد تقدم له مهندس مصرى صادق بكل وجوه النقد والنقص فى مشروع السد العالى ، وكل ما قاله هذا الرجل المخلص كان حقا ونحن نعالجه اليوم ولكن عبد الناصر عاقب ذلك الرجل وطرده من الحكومة ، وأنا أكتب هذه السطور ويقرأها عالم مصرى جليل كان يشرف سنة ١٩٥٥ على مجلس أبحاث الذرة ومجلس العلوم ، وكان قد وضع مشروعا يجعل مصر صاحبة أول مفاعل ذرى خارج أوروبا سنة ١٩٦٢ ، ولكن عبد الناصر اضطره وطرده والرجل غادر مصر وعمل فى الأمم المتحدة وأنشأ إحدى منظماتها الكبرى وأصبح ثالث رجل فى الأمم المتحدة كلها . .

ولنين وفرانكو وتيتو نهضوا بجامعات بلادهم واحترموا مجالس الأبحاث وعلموا الناس النظام والنظافة ، ولنين كان يستقبل الناس جميعاً وهو جالس إلا مديري الجامعات ومدير أكاديمية العلوم ومحافظ متحف الارميتاج فى ليننجراد وهو الوحيد الذى كان يغلف فى الكلام للنين كما كان الأديب مكسيم جوركى ، وكان لنين يستمع لكلامه بكل احترام .
تلك هى خسارتنا الكبرى بسبب الاستبداد وهو رأس الرذائل السياسية كلها . .



١٤ السادات وحصانه الأبيض



الفريق محمد فوزى

آن الأوان فيما أحسب لكى نفرغ من هذه الدراسة فإن غايته منها كانت منذ البداية مراجعة الحساب الختامى لما حدث فى مصر فى عصرين متوالين : ما قبل الثورة وما بعدها . ولم يكن غرضى التأريخ للعصرين ، فهذا مطلب آخر يتناوله المؤرخ بطريقة أخرى وعدة أخرى .

ولم أكن أقدر منذ البداية أيضاً أن أقول الكلمة الأخيرة فى كل موضوع تناولته هذه الدراسة ، بل أردت مجرد فتح طريق جديد فى النظر إلى تاريخنا . وكل الذى قلته هنا إنما هو رأى ، والرأى يثير الرأى ، فتتلاقى الآراء ويكون الحوار ومن الحوار السليم تخرج الحقيقة وهذه - فيما أحسب - هى وظيفة الكاتب : أن يحرك الأذهان ويفتح الباب للحوار السليم . أما الكاتب الذى يظن أن كلامه هو فصل الخطاب ولا معقب عليه فليس حزم ولكن يضايقنى منه استبداده برأيه وقوله دائماً : « وهذا هو الحق الذى لا مرية فيه ولا معقب عليه » . وهذا أيضاً مالا يعجبنى فى العقاد أحياناً وهو إحساسه بأن ما ينتهى إليه فكره وما يجرى به قلمه هو الحق والمنطق والعلم جميعاً ، ومادون ذلك فما هو بحق أو منطق أو علم .

والذى يعجبنى فى كتابات مفكرى ما قبل الثورة الفرنسية : فولتير ومونتسكيو وروسوود الامبير وبقية الموسوعيين ومن عاصرهم من أهل الفكر فى انجلترا وألمانيا هو أن كتاباتهم تفتح دائماً باب الحوار ، فإن الميزة الكبرى لهؤلاء جميعاً هى أنهم حركوا الفكر وأخرجوه من الجمود إلى الحركة . وهذا هو الذى يجعلك تقرأ ما كتبوه مرة بعد أخرى ، وفى كل مرة تتكشف لك نواح جديدة للفكر والرأى .

إلى شىء مثل هذا قصدت عندما استقر رأى على أن أكتب فى هذا الموضوع وجعلت أشرع فى جمع المادة له منذ صيف عام (١٩٨١) وكل ما كنت آمله هو أن أكون كمن يرمى الكرة فى الملعب ويسعد برؤيتها تنتقل من واحد إلى واحد . وهذا فيما أعتقد هو أحسن تصوير لما نقوله - دون أن نطبقه - بعبارة الرأى والرأى الآخر . فكل الذى قلته وأقوله رأى ، ولكل قارئ بعد ذلك رأيه . ولو أن المناقشة تتجلى فى النهاية عن أنى أخطأت فى معظم ما قلته فهذا لا يقلل قط من شعورى بأننى أسهمت بنصيب ما فى توجيه الأذهان إلى ما ينبغى أن تتجه إليه وهو البحث عن الحقيقة .

ولكى أكون متفقاً - منذ البداية - مع القارئ أقول إن العبرة عندى فى كل عمل هى النتائج التى يعتد بها والتى يعود خيرها على الشعب . فإن الأمة عندى هى البداية وهى النهاية . وكل خير لا ينال الأمة كلها فهو ليس بخير . وكل خير يقتصر على طائفة دون

طائفة فهو شر . ومن هنا كانت حملتنا على السوبر باشوات لأنهم استولوا على الثمرات المادية لكل عصر الباشوات وانفردوا بها غصباً وسرقة وتدليساً . وهذا أيضاً هو لباب نقدي للرئيس عبد الناصر رغم أنني أعرف مكانه الضخم في تاريخ مصر والعالم العربي المعاصر كله ، فقد نادى بالحرية ثم جعلها احتكاًراً لنفسه فحسب ، وطالب بحقوق الشعوب ثم انفرد وحده بكل الحقوق وقال : ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عصر الاستعباد ثم عمد إلى قطع رأس كل مواطن حاول رفع رأسه ، ورد الناس بذلك إلى عصر من الذل والخوف هو أسوأ من كل ما رأت مصر في تاريخها . وقد أتينا بفقرة من حكم محكمة مصرية على ذلك العصر في حيثيات حكمها في قضايا تعذيب كمشيش وهو حكم حاسم فيما نرى .

وقد أخذ على بعض القراء أنني في كلامي عن طبيعة الحكم في العصر الناصري اعتمدت على عبارات وردت في كتاب « البحث عن الذات » للرئيس السادات . وقالوا إن هذا رأى مفرد لا يصح التعويل عليه وحده . وقالوا أيضاً إن السادات لا يمكن اعتباره شاهداً منصفاً على عصر عبد الناصر . وهؤلاء الإخوة عندهم حق في ذلك . ولكنني تصورت أن أحسن حكم على عصر عبد الناصر هو عبد الناصر نفسه ، وما دام عبد الناصر يقول للسادات إن البلد في أيامه كانت تحكمها عصابة ، فهذا كان كافياً في رأى ، فإذا لم يكن كافياً فيللى القارئ رأى الفريق محمد فوزى ، وهذا الرجل الجدير بالإعجاب هو القائد العظيم الذى بقى في الميدان بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ : عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وشمس بدران قدموا استقالاتهم ولزموا بيوتهم . وبقي هذا الرجل وحده يجمع شتات القوات المسلحة التى مزقوها ، وأقل ما يقال في هذا الرجل أنه عسكرى مصرى شهم وصادق وقد قلنا مثل هذا الكلام عن الرئيس حسنى مبارك واللواء كمال حسن على .

والفريق محمد فوزى يقول إن الصراع المرير على السلطة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر انتهى إلى سيطرة ما يسميه « بالبيروقراطية العسكرية » وإن المنتصر في هذا المجال كان عبد الحكيم عامر ومن يسميهم جنرالاته ، فلم يبق لقائد الثورة ورئيس الجمهورية نفوذ على تلك القوات إلا مجرد التوقيع على قرارات ترقية الضباط إلى رتبة الفريق والفريق أول فقط ومنذ عام ١٩٦٥ دخلت البيروقراطية العسكرية بثقلها في الحياة المدنية للبلاد وأوكل عبد الناصر للمشير عامر وأعوانه مهمات داخلية مدنية صرفة مثل القضاء على الإقطاع وإصلاح بعض المرافق والتحقيق في بعض القضايا السياسية ، واستخدمت القوات المسلحة أجهزتها الكثيرة والقوية . . . واستخدمت الغش والإغراء والتعذيب . . .

وهذه السطور تكفى لتأييد ما قلناه . ومن عصر عبد الناصر . . . أنتقل إلى عصر السادات .

. . . وأحب أن أذكر القارئ الكريم هنا بأننى لا أؤرخ لعبد الناصر أو السادات وإنما أنا أؤرخ لمصر . وأزن الأمور بمقياسها الأقرب سلامة وهو جدواها أو ضررها على الأمة . فان الأمة هى الباقية . وما يبقى لها أو فيها هو الذى يهمنى فى المكان الأول . ولو أن عبد الناصر أشرك الأمة معه فى رأى وأعانها على تحمل مسئولياتها وترك لها من الحرية ما يمكنها من المشاركة فى صنع تاريخ بلدها بالقدر الذى ينبغى لها لما كانت مسئوليته بهذه الجسامة . ولكنه كما قلنا قصر الحرية وصنع القرار على نفسه . ووجد الأمة كلها من كل رأى . وأخافها وأفزعها وأسكت صوتهما وتحمل وحده كل المسئوليات . فكان عليه أن يتحمل كل التبعات . وقد حاول بعد هزيمة ١٩٦٧ أن يلقي التبعة على عبد الحكيم عامر لكيلا يكون هو مسئولاً عن هزيمة يتحمل هو مسئوليتها الكاملة دون الجيش . فإن الجيش كما يقول نجيب محفوظ فى عبارة بالغة الحكمة : « تلقى أمراً بالهزيمة فانهمزم » وسأعود إلى عبارة نجيب محفوظ برمتها قبل الفراغ من هذه الدراسة لأنها حكم دامغ على الاستبداد ومصائبه وهى رجاء صادق فى ألا يعود . وهذا أيضاً رجاؤنا . وهذه فى النهاية هى الغاية الكبرى التى توخيتها من وراء هذه الدراسة .

ليس لدينا دليل واحد يؤيد القول بأن أنور السادات كان الخلف المنتظر لجمال عبد الناصر . حقاً إنه كان نائباً لرئيس الجمهورية ، وكان مرشحاً بالتالى لأن يكون خلفاً لعبد الناصر لو أن الأمور كانت تسير إذ ذاك سيراً دستورياً . لكن العصر الناصرى كله دارت حوادثه ، أو معظم حوادثه ، خارج الشرعية والقانون والدستور بل الإنسانية ، لأن عبد الناصر كان قد جعل نفسه الشرع والقانون والدستور .

وبعض الكتاب يقولون إن عبد الناصر وصل إلى هذا الوضع الغريب برضا الأمة ، لأنه كانت هناك فى زعمهم رابطة كارزمية بين الشعب المصرى وبينه . وكارزمية هنا مشتقة من Charisma ويراد بها الهبة أو القداسة التى تكون لشخص ما على قلوب الآخرين مثل هبة الولي فى قلوب مريديه أو الموهبة التى يتمتع بها بعض الناس وتجعلهم قادرين على السيطرة على الجماهير .

وأدولف هتلر مثلاً كانت له شخصية توصف بأنها كارزمية على تابعيه . وإلى حد ما نستطيع القول بأن كارزمية عبد الناصر كانت حقيقة بالنسبة لأتباعه من العرب ، لأن دكتاتورية عبد الناصر لم تكلفهم شيئاً . والشعب المصرى وحده هو الذى تحمل نفقات إمبراطورية عبد الناصر ، أما بقية العرب فلم يروا من عبد الناصر إلا خيراً - فيما عدا السعودية من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٧ وهى فترة تدخل عبد الناصر فى اليمن - وعبد الناصر كان يحفن مال مصر بكلتا يديه ويلقى للعرب . ومن أغرب تصرفاته فى هذا المجال أن الطلبة

العرب في جامعات مصر كانوا جميعاً يتعلمون دون مقابل . وبعد إعلان الوحدة مع سوريا منح عبد الناصر الطلاب السوريين والفلسطينيين راتباً قدره ١٢ جنيها لكل منهم في الشهر مع السماح لهم بتناول الوجبات في المدن الجامعية دون مقابل . فلما وقع الانفصال عن سوريا صدر أمر عبد الناصر بأن ترفع مكافأة الطلاب السوريين والفلسطينيين إلى ٢٤ جنيها في الشهر ، ومن كان منهم مقيماً في إحدى المدن الجامعية أعفى من كل الرسوم بالإضافة إلى الراتب المضاعف . وهذا كله لكي يرى السوريون أبناء الزوجة الناشز أن زوج أمهم رجل بطل كريم إلى أقصى حدود الكرم .

وعبد الناصر دائماً كان بالنسبة للعرب المعلم البلدي « الفيس » الذي ينفق على أصحابه في المقهى بكتلتا يديه في حين أن امرأته (مصر) في البيت تضرب رأسها في الحائط ومعها نصف ريال تركه لها المعلم لتدبر منه كل شيء . وفي آخر الليل يعود وقد أفق ما في جيبه ويطلب من الزوجة التيسرة أن تقدم عشاء عظيماً . . فإذا لم تسارع به إليه ضربها .

ولا يتصور مصري مقادير الأموال التي ألقاها عبد الناصر في بيروت لبنى أسطوره . وصحفيون كانوا لا يساوون قلامة ظفر أصبحوا أصحاب ملايين من أموال مصر التي أعطاها عبد الناصر ، وأي هلفوت لبناني كتب سطرأ في مديح عبد الناصر تقاضى ثمنه ذهباً . وهنا ، وفي عالم أموال تصرف من اللعنة التي تسمى المصروفات السرية ، حيث تعطى الأموال بلا إيصالات وحيث يكون النهب هو القاعدة لا تعرف من أخذ ماذا ! ومئات المصريين ذهبوا إلى لبنان للقيام بما يسمى بالدعاية وعادوا أغنياء ، والاستعلامات أصبحت لها أيام عبد الناصر حقيقية وربك أعلم بما كانت الحقائق تفعل .

ثم إن عبد الناصر كبل مصر بالأغلال ووضع شعبها في التخشيب فكانت تلك فرصة العمر للبنان ، والقاهرة التي كانت مركز الكتاب العربي فقدت مركزها ، وبيروت أخذت مكان القاهرة وأخونا سعيد لأنهم هناك يهتفون : يحى عبد الناصر بطل العرب ! وكل لفظ من هذا الهتاف كلفنا ملايين . وإذا أنت قلت إن عبد الناصر هو الذي أنشأ بيروت لم تبالغ . وكارزمية عبد الناصر في العالم العربي بنيت ببال المصريين أما كارزمية عبد الناصر عند المصريين فقد كانت رهبة وخوفاً . حقاً إنه أعطى العمال ما سماه بالمكاسب الاشتراكية ولكن العطاء هنا كان من رأس المال الحي ، من رأس مال الشركات والهيئات . وكان الحق أن يعطى العمال هذه المكاسب ولكن مع العمل على زيادة الإنتاج وتحسينه فيكون العطاء جزءاً من الربح لا فضلاً و « حسنة » من المعطى .

وكل الدنيا أعطت العمال كل الحقوق وكل التأمينات ولكنها عرفت في نفس الوقت كيف نرفع كفاية العمل لتغطي زيادات المرتبات والتأمينات والمعاشات دون إضرار

بالشركات ورؤوس أموالها . وعمال الشركات في إيطاليا وفرنسا وألمانيا يأخذون خمسة أضعاف ما يأخذه العامل المصرى . ولكن قدرتهم الإنتاجية وكفايتهم المهنية تزيد عشرة أضعاف على كفاية العامل المصرى ولهذا فإن الميزان لم يخلأ أبدا هناك والرخاء عم الوطن وعماله . أما هنا فإن الزيادات لم يصاحبها أى جهد للارتفاع أو التوعية القومية والمهنية للعمال . فزاد الإنفاق وقل الإنتاج ، وفي يومنا هذا معظم الشركات المؤممة تخسر لأن نفقات العمال تستهلك ٨٠ في المائة من ميزانيات الشركات والمؤسسات ولا يبقى إلا ٢٠ في المائة للإنتاج الحقيقى ولتعويض استهلاك الآلات والمنشآت فضلاً عن تجديدها . . وهذا كلام أقوله لأبين كيف أن أسلوب العمل الناصرى جعل النعمة نقمة .

لم يكن السادات إذن الخلف المنتظر . ورجال اللجنة المركزية الذين عرفناهم باسم مراكز القوى كانوا ينظرون إليه في ترفع عظيم . ولم يكن لديهم شك في أنهم سيصنعون الرئيس الجديد على هواهم . وهذا في ذاته نفع السادات . لأنهم استناموا إلى هذا الغرور ، بل بلغ من غرورهم أنهم قدموا استقالاتهم ليحرجوه ، ولكنه أثبت أنه أذكاهم أجمعين فتحرك بسرعة وذكاء ، وارتكن إلى مركز القوة الحقيقى وهو الشعب ومجلس الشعب ، وفي أيام قلائل كان قد تخلص منهم وأودعهم السجون . وبوضعهم في السجون سقط حكم الإرهاب وتمهد الطريق لإعلان قوانين ١٥ مايو ١٩٧١ وهى المعروفة بثورة التصحيح ، وهى ثورة فعلاً . وللمرة الأولى من عشرين عاماً هبت على مصر والمصريين نسائم الحرية وتمهد الطريق إلى نصر أكتوبر العظيم .

وهناك من يقولون إن صاحب الفضل الحقيقى في النصر هو جمال عبد الناصر لأنه بعد بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ بدأ في بناء الجيش المصرى من جديد . وهذه كلها فروض وأوهام . وعبد الناصر ما كان سيوفق إلى الانتصار على إسرائيل أبدا . . والسبب ؟ كما سترى في فصل الثورة والثوار من هذا الكتاب .

السبب أن عبد الناصر لم يؤمن بالحرية قط . ورغم هزيمته وما أعقبها لم يتخل عن استبداده أبدا . ولا هورفع عن المصريين فتيلاً من القيود التى قيدهم بها . ومن المستحيل على أى شعب أن ينتصر في أى حرب إذا كان خائفاً مقيداً بالأغلال . والشعب الألمانى نفسه - وهو من أعظم الشعوب المقاتلة في التاريخ وأقدرها على صنع السلاح - خسر الحرب لأنه كان خائفاً مقيداً بالأغلال أيام هتلر . وقد قال هذا الكلام وينستون تشيرشيل في مذكراته قال إنه لم يشك في النصر على الألمان في أحلك سنوات الحرب بينما كانت طائرات الاستواكا تدك لندن والمدن الانجليزية دكا خلال عامى ١٩٤٢ - ١٩٤٣ وكان سبب إيمانه بالنصر هو أن الشعب البريطانى شعب حر وحلفاؤه أحرار يحاربون ثلاثة طواغيت : هتلر

وموسولينى والقيصرية اليابانية .

والسادات بثورة التصحيح خطأ أول خطوة نحو النصر . وكان رجال الجيش المصرى أسعد الناس بتهوانين الحرية . وفى مذكرات الفريق محمد فوزى عبارات تدل على أن كل عمليات الإرهاب التى مارستها مراكز القوى على الشعب امتدت إلى داخل الجيش . وذلك طبيعى لأن الجيش هو الشعب . قال الفريق فوزى : « وتعرض ضباط كثيرون للطرده والمحاكمات السرية والإحالة إلى المعاش من غير الطريق التأديبى » . وخطوات التحرير التى قام بها أنور السادات كانت أساسية لأنها أزاحت عن صدور المصريين جميعاً - مدنيين وعسكريين - كابوساً رهيباً . وبدأ رجال الجيش يعملون ليكسبوا نصرهم الذى يستحقونه .

واستجابت الأمة لخطوات التحرير . وأيدت رفع الحراسات وإعادة ما تيسرت إعادته إلى الناس من الأموال المصادرة . وكسب السادات أول انتصاراته وثبتت مكانته وبدأت شخصيته تتجلى وتخرج من الظل الذى كان عبد الناصر يسطه على كل من كان حوله .

ونشطت المخابرات الأمريكية للإحاطة بالسادات وإيقاعه فى نفس الشرك الذى وقع فيه سابقه ، ولكن اتصالاتهم الأولى به أظهرت لهم شخصية شروداً عسيرة على التحديد أو البرمجة ، ذلك أن السادات - نتيجة لطبيعة المغامرة وتجربته الطويلة فى ميدان المغامرات - لم يكن إنساناً سهلاً ، وقد نشر نفر من أكابر رجال السياسة الأمريكية الذين تعاملوا مع السادات مذكراتهم . وبين أيدينا الآن مذكرات هنرى كيسنجر وزبيجنيو بريجنسكى وجيمى كارتر - تكشف لنا عن مدى الغرور والسطحية وسوء النية التى تنطوى عليها قلوب أولئك الذين يصنعون السياسة الأمريكية .

وأنا أدهش لما قرأته فى مذكرات بريجنسكى ، فهذا أستاذ جامعى صار سياسياً ، فلما كتب كانت كتابته كتابة أستاذ ولكن الشئ الذى استوقف نظرى هو الشر العظيم الذى ينطوى عليه هنرى كيسنجر نحو مصر والعرب رغم كل ما كانوا يقولون عنه . ومذكرات كيسنجر تكشف عن حقيقة أخرى لابد أن نعرضها ، وهى أن شاه إيران كان عدواً لدوداً لمصر والعرب . وقد ساء انتصار مصر فى حرب أكتوبر وبذل أقصى جهد لإيقاف النصر المصرى ومنع الطائرات السوفيتية المحملة بالأسلحة من المرور فى أجواء إيران .

وعندما نقرأ هذه المذكرات كلها قراءة إمعان يتبين لنا أن السادات كان يخوض فعلاً - حتى قيامه بالمبادرة - معركة عنيفة ذات جبهات متعددة وأدوار مختلفة . وأنه كان بالفعل كما يقول بيت شعر عربى معروف : « هزبرا أغلبا لاقى هزبرا » .

ويمكن أن نقسم فترة رياسته كلها إلى أربع مراحل : المرحلة الأولى مرحلة تثبيت مركزه . وقد استمرت حتى حرب أكتوبر . والمرحلة الثانية هي مرحلة استرجاع الأرض المصرية المحتلة . وقد انتهت تلك المرحلة باتفاقيات كامب ديفيد . والمرحلة الثالثة هي مرحلة إقناع المصريين وغير المصريين بالدخول في علاقات سلام مع إسرائيل . وخلال هذه المرحلة خسر السادات معظم أصدقائه في العالم العربي . والمرحلة الرابعة الأخيرة هي مرحلة ما بعد السلام . وتلك كانت أخرج مراحل حياته رئيساً لمصر لأنه كان يستطيع الانتفاع بما وصل إليه من نجاح في تحرير الأرض لانتهاج خط إصلاحى حقيقى داخل مصر . ومصر من الناحية الداخلية والنفسية كانت في أشد الحاجة إلى الإصلاح الداخلى ، وكانت تحتاج إلى رجل يعرف تماماً ما هي حاجات شعب مصر الحقيقية ، وحجم متاعب هذا الشعب . رجل يعرف أن أشد ما تحتاج إليه مصر من قيادتها بعد معارك الحرب والسلام هو الجلوس في هدوء ودراسة المشاكل الداخلية وإعادة تنظيم الشعب المصرى ومواجهة مشاكله مواجهة جادة .

وكانت أمام السادات فرصة ذهبية لبداية السير في ذلك الطريق من منتصف ١٩٧٨ ولكن السادات أضاع هذه الفرصة وتصور أنه بلغ ما لم يبلغه إنسان قبله وما لن يبلغه إنسان بعده وتصور أنه هو وحده كسب حرب أكتوبر . وهو وحده استعاد سيناء . وهو وحده الذى يعرف ماذا يُعمل وماذا لا يُعمل . وأخذ صورة سيد ارستقراطى عظيم له في كل ركن من أركان مصر قصر ملكى يقيم فيه . وحاشية ضخمة تجرى وراءه لتخدمه في قصوره وأسرة ملوكية تصاهر أصحاب الملايين . وهو في الشتاء في أسوان والاسماعيلية وفي الصيف في الإسكندرية . والدنيا كلها تجري لتسعد بلقائه حيث يكون . والسيد العظيم يستيقظ في الحادية عشرة صباحاً ويبدأ العمل في الواحدة بعد الظهر . وطائرة بوينج ٧٠٧ وطائرة هليكوبتر مربوطتان ببابه كما كانت الخيل تربط بأبواب الخلفاء والسلطين . والملابس تصنع عند ديور وبيير كاردان . وسيد مصر العظيم تحول إلى « ستار » عالمى . ومجلة شيترن تنشر صورته على غلافها وفي يده وردة وتمنحه لقب أشيك رجل في الدنيا . واللغة الوحيدة التى تعجبه هي المديح وهو لهذا لا يحتمل النقد ، وصدره يضيق بأية مراجعة وتلك هي فترة أخطاء السادات التى كلفته ثمناً باهظاً . تلك هي فترة الأخطاء والاكسترافاجانسيا القاتلة . ومعظم الذين أبغضوا السادات داخل مصر تكونوا خلال هذه الفترة لأن المصريين يحبون الغنى والترف لأنفسهم فقط فإذا وصل غيرهم إلى الغنى والمال فلا بد أن يكون لصاً ، ولا يمكن أن يكون ماله حلالاً أبداً .

وقد قرأت كل ما كتب عن السادات خلال تلك الفترات الأربع من حياته ولو أردت

أن أقف موقف الدارس والمحلل لطالعت هذه الدراسة وتجاوزت حدودها ولكنني أوجز آرائي على قدر فهمي لما قرأت ، ولا ننسى هنا أنني أؤرخ لمصر وشعب مصر . فأنا لست ناصرياً ولا ساداتياً ولكنني مواطن مصري عادي لا يعنيني إلا ما يصل إلى شعب مصر كله من خير . . .

ومن المؤكد من هذه الزاوية أن قوانين مايو واستعادة سيناء وقناة السويس ونقل مصر من المعسكر الروسي إلى المعسكر الغربي كل ذلك كان خيراً لشعب مصر ومجداً حقيقياً للسادات . ومن المؤكد أيضاً أن الصورة التي أخذها السادات بعد السلام مع إسرائيل كانت صورة ضارة به أمام شعب مصر . فمصر بعد السلام والإخراج من المعسكر السياسي العربي كانت في حاجة إلى رجل يخلع عن نفسه زهو السلطان وأبهة الملوك ويجلس للدراسة والبحث والعلاج . لأن مصر كانت محتاجة إلى طبيب يداوى وقلب يواسى ويد حانية تأسو الجراح . ولم تكن قط بحاجة إلى سوبر ستار عالمي . وجراح مصر تكاثرت بعد السلام بقدر ما كانت تتكاثر قبله . وعلاج جراح مصر العميقة التي أصبحت صدوعاً طويلة خطيرة ما كانت لتعالج بزيادة المساعدات الأمريكية ولا تعالج بل تتزايد بمزيد من الانضواء تحت جناح أمريكا ، والسادات بعد السلام كان يقول إنه لا يزال في معسكر عدم الانحياز . والسؤال هو : كيف تكون غير منحاز وأنت تتلقى ١٥٠٠ مليون دولار مساعدات من الولايات المتحدة كل سنة ؟

أنور السادات خلال المراحل الثلاث الأولى كان بطلاً حقاً استعمل ذكائه كله في خدمة مصر وكسب . كان فوزه بالرياسة وتغلبه على مراكز القوى وإعلان قوانين التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١ ضربات معلم . ومن أغرب ما قرأت في ذكريات مراد غالب أن الرئيس عبد الناصر كان خلال ١٩٧٠ يعد عبد اللطيف البغدادي ليخلفه . وعبد اللطيف البغدادي من أعظم قادة ثورة ١٩٥٢ وأكثرهم جلالاً وأوفرهم احتراماً في قلوب المصريين . مثله في ذلك مثل كمال الدين حسين . ولكن مشيئة الله أرادت أن يكون أنور السادات هو خليفة عبد الناصر .

وأنور السادات حقق لمصر أعز ما كانت تصبو إليه : النصر وتحطيم أنف إسرائيل واستعادة الكرامة والثقة في النفس ثم استعادة الأرض وفتح قناة السويس والتحرر من السوفييت . ومرة أخرى ينبغي أن أقرر أن هذا كله لم يحققه السادات وحده بل حققه بتأييد شعب مصر الكامل . ولا أقول هنا الشعب والجيش أو الجيش والشعب ، لأن جيش مصر هو شعب مصر . وأبطال الجيش الذين أقدموا وانتزعوا النصر وحققوا ما كان يبدو مستحيلاً هم أبطال شعب مصر . وكيف كان السادات يستطيع الوصول إلى النصر دون قادة الجيش

العظام ؟ وقادة الجيش العظام كيف كانوا يستطيعون تحقيق النصر دون شباب ضباطهم البواسل ؟ وكيف كان شباب الضباط يحققون مهامهم لولا جنودهم العظام ؟ والجنود العظام كيف كانوا يستطيعون دك حصون الإسرائيليين على رؤوس من فيها إلا إذا كانوا الطليعة المقاتلة في الجبهة لشعب عظيم كان كله في المعركة وراء الجبهة ؟ .

والذى عاناه السادات في مفاوضات السلام من أجهزة السياسة الأمريكية بكل تياراتها وأنانياتها وصراعات رجالها وتعقد الخيوط التى تتكون منها ، ومن بينها الخيط أو قل الحبل الإسرائيلى الذى كان يمثله رجل خطر مثل سيمحادنيز سفير إسرائيل فى الولايات المتحدة ، الذى عاناه السادات من تلك السياسة الأمريكية وخبوطها المخيفة شىء لا يصدق ، وخروجه سالماً من تلك الغابة يؤكد أنه بطل حقيقى ، والذى عاناه من المناقش الأكبر والثعبان الصهيونى الإسرائيلى الأخطر وهو كيسنجر كان أمراً رهيباً .

والذين يلعنون اتفاقات كامب ديفيد لا ينبغي أن يلعنوها لأن الذى فعله السادات ليخرج منها بأرض بلاده كان شيئاً لا يستطيعه إلا أنور السادات وحده بكل ما يعجب أنصاره وما لا يعجب أعداءه . وعندما رأى كيسنجر أن السادات يعرف ما يريد وهو تحرير الأرض ويتجه إليه فى تصميم وإصرار أراد أن يفرقه . وكيسنجر الذى يعلم أن أى محاولة للسادات ليكسب أكثر مما كسب لن تعود عليه إلا بالخسارة كان يقول . . ارفض هذا واطلب أكثر نعطك أكثر ، بالضبط كما يلح صاحب الكازينو على من يكسبون فى مواصلة اللعب ويغريهم بمزيد من الكسب لكى يفرقهم فى الخسارة ، ولكن السادات المقامر الأبدى كان بطل هذه اللعبة . وعندما نجا السادات من المخاطر وأخذ ما يريد صاح كيسنجر : . هذا الرجل لا يحلم إلا بدخول السويس على ظهر جواد أبيض ، . كأن هذا عيب ! وحتى فى هذا تفوق السادات على كيسنجر وكل جهابذة الإدارة الأمريكية فلم يبدأ بدخول السويس على الحصان الأبيض ولكنه بدأ بدخول العريش وأق بالديب من ديله حرفياً .

ويسويحون : ولكن جزءاً من سيناء منزوع السلاح ! ياللسذاجة ! إن كل اليابان منزوعة السلاح ، وكل ألمانيا الغربية منزوعة السلاح فانظروا أين اليابان وأين ألمانيا الغربية . هناك أشياء يأتى بها القائد وأشياء لا بد أن يأتى بها الشعب ، والسادات أتاكم بما كان عليه أن يأتىكم به والباقي علينا . نحن نستطيع أن نغزو إسرائيل فى سيناء نغزوها بالمنتجات والمحصولات والصادرات . أليس هذا بالحرف هو الذى فعلته اليابان ؟ غزت أمريكا وهى منزوعة السلاح وتحت الاحتلال ، يا خسارة ! هذا العمل العظيم كله ضاع جزء كبير من ثوابه على السادات لأنه نسى أن معركة ما بعد السلام لم تكن تحتاج إلى بذلة

الفيلد مارشال هيرمان جيرنج التي أصر السادات على أن يحشر نفسه فيها وفيها مات . نسى أن الشعب المصرى شعب طيب فقير لا يجب أن يرى بطله يعيش في عشرة قصور ويصلى الجمعة في قفطان من صنع بيير كاردان ، ويغمض عينه على كل أعمال السوبر باشوات القدامى الذين تربوا في عصر عبد الناصر والجدد الذين تربوا تحت جناحه أو وراء ظهره . وجمال عبد الناصر الظالم المستبد الزاهد المتقشف ظل في مكانه من قلوب المصريين والعرب بطلاً خالداً : البطل الذى جعله سوء بخته بطلاً أكبر . حكمتك يا مقلب القلوب !

وبعد كتابة هذا أتاني من يبلغني أن الرئيس السادات لم يكن يصنع ملابسه في باريس ، وإنما كان يصنعها له خياط مصرى معروف ذكروه لى باسمه ، وأنا أصدق هذا ولكنى أقول إنه بالنسبة لشعب مثل شعبنا يحلو له أن يتظاهر بالفقر (خوفاً من العين) .

حتى المياسير منا يحلو لهم أن يصوروا أنفسهم فقراء ! وبالنسبة لشعب كهذا تكون الأوهام والشائعات أفعل من الحقائق . ومظهر السادات كان أكثر من أن يقبله هذا الشعب بعقليته التى ذكرناها . وأنا شخصياً كان يعجبني مظهر السادات وأناقة السادات بل كان لا يعينى في كثير أن يقال أنه يشتري بعض ملابسه من محلات شارع فويور سانت أو فوريه في باريس ، فإن نفرا من أعظم رجال الدنيا يشترون ملابسهم من هناك ، ولكن ، عندما يكون تعاملك مع شعب تربى على أن يستكثر أى نعمة على الآخرين ، ويستقل أى نعمة على نفسه ، يكون مظهر السادات هذا خطأ يعاقب عليه ! .



١٥ أمس واليوم وغدا

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
فامض لا تمنن على يدا منك المعروف من كدره
ضل من أسرى إلى سفر غير مأمون مدى سفره
«أبونواس»

بهذا الفصل كنت أرجو أن أختتم هذه الدراسة . . لا لأنها انتهت بل لأن دورى فيها هو الذى انتهى . . ودورى الذى لا أجرؤ على أن أتعداه هو فتح باب الدراسة الجادة المخلصة الصادقة لمعرفة أمس وأول أمس . . لكى نعرف أين نحن اليوم وأين سنكون . . غدا . . لأن أمتس لم يمض . . لا ولا مات أول أمس ، وقد انتهينا - جماعة المؤرخين - إلى أن «الماضى» لا وجود له . . فكل التاريخ حاضر . . وكله مستقبل . . وتأمل ذلك فى أمر نفسك . . فقد كنت أنت أول أمس صبياً وبالأمس كنت شاباً . . وإذا كنت اليوم شاباً فإنك كنت بالأمس صبياً . . وأول أمس كنت طفلاً . . فلا الطفل مات فى كيانك لا ولا الصبى ولا الشاب ماتا . . وتجارب طفولتك حية فى كيانك . . وكذلك صبتك . . والزمان يمضى وأنت معه . . ومهما تتقدم بك سنوات العمر فإن صباك يلزمك وشبابك يظل حياً فيك . . وعندما تغلق عينيك فى ساعات الاسترخاء فإن شريط حياتك يمر أمام عينيك ويعطى حاضرك قيمة ومعنى . . وفى النهاية تشعر أنه لا أمس هناك ولا أول أمس ولا اليوم . . إنما هو نهر الحياة يمضى وأنت معه . . أو أنت تشهده من موقعك على المجرى . . وأحداث كثيرة جداً مما حدث لك فى صبتك تصبح مستقبلاً لأنك تتمنى أن تعود . .

وأظن أن هذا رد يقنع الذين كانوا يقولون لى ناصحين : دع الماضى يمض إلى حال سبيله ولا معنى لنش القبور . . ولكنهم يرون الآن أن هذا الماضى نفسه لا وجود له . . وليس فى التاريخ قبور . . وقد كان أسلافنا يكتبون على القبور عبارة إسلامية هى الغاية فى العمق والحكمة وهى : هو الحى الباقي . . وهم لا يريدون بذلك أن يذكروا الموت بأن الله حى لا يموت لافإن الموت لا يقرءون. ما على شواهد القبور . . ولكن الذين يقرءون ذلك هم الأحياء . . وكل أعمالهم باقية يحاسبهم عليها الحى الباقي . .

لقد كتب أكثر من كاتب يقولون : «عفا الله عما سلف» وهم يرددون بذلك جزءاً من آية كريمة من سورة المائدة بشأن تحريم الصيد فى الحرم والله سبحانه عفا عما سلف من باب الرحمة والتحذير . . والمراد أن صيد الحيوان فى الحرم لا ينبغى أن يتكرر . . ولكن الذين ظلوا يرددون هذه الفقرة من الآية الكريمة دون فهم أو إحساس مهدوا الطريق لصيد الناس فى الحرم . . ومسلم بن عقبة المرى جلس على كرسي عند الحرم وأمر جنوده بأن يصيدوا

المسلمين في الحرم . . فهل يعفو الله سبحانه وتعالى هنا عما سلف ؟ وهل يوجد في حساب التاريخ شيء يسمى ما سلف ؟ إن أصحابنا هؤلاء يستطيعون أن يقولوا آمين : عفا الله عما سلف . . لأنهم كانوا فيما سلف جالسين آمين في مكاتبهم . . أما غيرهم فلا يستطيعون أن يقولوا ذلك لأن الكثيرين منهم أصيبوا بأمراض مزمنة في الكلى والكبد وهم في ظلام المعتقلات فيما سلف . .

وأول أمس هو عبد الناصر وجيله . . وأمس هو السادات وجيله . . واليوم نحن أمام جيل متحير يبحث عن الطريق . . وقد أظلتنا حرية لاشك فيها . . ورئيس هذا الجيل يطالبنا بالصدق والإخلاص والعمل والإنتاج . . ويقول صادقاً إن هذا هو طريق الخلاص الوحيد . . ولكن الطريق مليء بالصخور والعقبات . . وهذه الصخور والعقبات هي تراث ما سلف . . وحيثما تلفتتنا وجدنا عتالة ما سلف يسدون الأفق فكيف نسير ؟ إنهم مترسون في قلاع قامت كلها على السلب والنهب والكذب . . وهم مفروضون علينا كأنهم قدر عثوم . . وهذه الشركات التي تخسر جميعها لماذا تخسر ؟ ومصانع النسيج التي كان لا بد أن تكسب لماذا تخسر ؟ وشركات كانت بالأمس تدر الخير فلماذا أصبحت عبثاً علينا ؟ ولماذا تتكرر حوادث تصادم القطارات ويد العقاب لا تصل إلى المسئول أبداً ؟ ولماذا تنهار العمائر على رؤوس الناس ولا تصل يد القانون إلى المسئول ؟ كل هذه نتائج ما سلف الذي يطالبوننا بأن ننساه . . وكل هذه نتائج العصر الذي ساد استبداد عبد الناصر ورجاله . . ثم السادات وأسلوبه في سياسة أمور هذا الشعب . . هذه نتائج استفتاءات السادات التي كان يجريها له رجال داخلية ويعلنون له نتيجتها في منظر يندى له الجبين ورئيس الدولة واقف كالعروس . . والوزير يلقي أمامه قصيدة مدح ليس فيها كلمة صدق . . والتلفزيون يصور الكذب بالألوان . . ونحن جالسون نتأمل هذا كله ونتساءل : هذا في بلدنا أو في بلاد نيام نيام ؟

لقد ذرفنا دموعنا كلها على أنفسنا وعلى وطننا وعندما كان مصرع السادات الرهيب لم تكن في عيوننا قطرة دمع . . إننا نعرف قدر الرجل وما أدى لمصر من خدمات : نعرف أنه أخرجنا من الظلمات بثورة مايو ونعرف أنه فتح أمام الجيش العزيز أبواب النصر . . ونعرف أنه استعاد لنا سيناء والقناة وحطم كبرياء إسرائيل وأنشأ في المنطقة كلها وضعاً جديداً . . ولكننا لا ننسى أبداً أنه هو وعبد الناصر أضاعا علينا فرصة الأبد . . فبينما كانا يضيعان وقتنا في هزليات ومسرحيات ومؤامرات وحروب عربية أهلية كانت إسرائيل تبنى وتنشئ . . كانت تنشئ المزارع والطرق والمطارات تحت الأرض وتبنى مصانع السلاح . . كانت تعلم شعبها النظام والقانون . . ونحن نحارب القانون . . كانت تحيل الرمال إلى مزارع ونحن نحيل المزارع إلى رمال . . وقوانين الاشتراكية لم تصدر عن حب

العمال أو الزّراع وإنما عن حقد على كل من كان صاحب مال أو نعمة . . ومصر أنفقت قرناً ونصفاً لكى تنشئ في بلادها قاعدة من المثقفين والعلماء فجاء عبد الناصر ليعلن الحرب على كل مثقف وصاحب علم . .

والذين أنشأوا المصانع وفتحوا لنا أبواباً للعلم والتقدم عوقبوا ونزعت منهم مصانعهم وأعطيت لمن يخرّبها ويفسدها . . وما يسمى بالمكاسب الاشتراكية أصبح نتيجة للحقد وسوء النية والجهل مصائب قومية . . والعامل المصرى الذى قالوا له إنه سيدخل اللجنة مازال إلى يومنا هذا يبحث عن اللجنة . . والجنّيه الذى كان أيام الباشوات جنيهاً أصبح في أيام السوبر باشوات وعباقرّة الاشتراكية عشرة قروش . . والعامل الذى تهلّل عندما سمع إعلان القوانين الاشتراكية وظن أنه تخلص من استبداد صاحب رأس المال وجد أنه تخلص من سيد ليجد نفسه عبداً لمائة سيد . . وهؤلاء السادة الجدد متسولون يريدون أن يتحولوا إلى سادة أغنياء . . وكلهم أصبحوا أغنياء ، وهو وحده الذى حصّد الهشيم وقبض الريح . .

وعندما يقف اليوم عامل ويصيح : يا ناس . . أشتري البطيخة بأربعة جنيهات ؟ فينبغى أن نقول له : ليس الذنب ذنبنا ولا ذنب الاشتراكية . . وإنما المسئول أنت أولاً . . ثم الذين قدموا لك الاشتراكية على هذه الصورة . . فإذا كنت تريد أن يقف غلاء الأسعار فلا بد أن تسمح لنا في أن نعيد النظر في الصورة التى قدمت إليك بها الاشتراكية فقد قالوا لك : هذه هى المكاسب الاشتراكية . . والاشتراكية مكسب حقاً . . ولكن لا بد أن ندفع ثمن هذا المكسب بالعمل الصادق المخلص . . لأن لكل شىء ثمناً . . وليس هناك كسب دون ثمن . . وأنت تريد الاشتراكية فادفع ثمنها وهو العمل والاجتهاد وتحمل مسئولية الإنتاج والمحافظة على المواعيد . . أما أن تأخذ دون أن تعطى فهذا الأمر مستحيل . . وأنت تشكو من أن كيلو اللحم وصل اليوم إلى خمسة جنيهات فما فوق ونحن نقول لك إن كيلو اللحم في طريقه إلى العشرة جنيهات وستدفعها . . بل سيגיע اليوم الذى لا تجد فيه اللحم . . لا بعشرة ولا بعشرين . . فإذا شئت أن يقف هذا التيار فلا بد أن نجلس نحن وأنت ، ونعيد النظر في كل ما قدموه إليك باسم الاشتراكية . . فتأخذ ما لك وتعطى ما عليك . . وبدون هذا لن يتصحح المسار أبداً . . ومن أين تأتى المصاعب التى تعانيتها في الجمعية التعاونية ؟ . . أليست تأتى من عمال آخرين مثلك ؟ إنهم يطبقون الاشتراكية بنفس الطريقة التى تطبقها أنت في مصنعك . . ولكنك تحس هنا بالتعب لأنك تدفع الثمن . . أما تصرفك غير المعقول في مصنعك فإن الذى يدفع ثمنه هى الأمة كلها . . ولهذا فأنت لا تحس به . . فإن كانت الاشتراكية الناصرية تعجبك ولا تريد أن تتخلى عن

شىء منها فلا أحد يناقشك فى ذلك . . وهذا حقك . . ولكن ينبغى أن تكف عن الشكوى فى هذه الحالة . .

ومن أعجب العجب أن عبد الناصر والسادات كانا يصران على أن تنفرد الدولة بكل الأخطاء . . كأن ذلك حق من حقوق السيادة . . أما الشعب فليس من حقه أن يجرب أو يخطئ . . والنتيجة هى ما ترى . . دين يصل إلى ١٣ مليار دولار . . وفى مخازن الدولة بضائع غير قابلة للبيع لسوء نوعها بستة آلاف مليون دولار . . فالمجموع ١٩ مليار دولار . . وقد كانت كل المصانع تخسر أيام عبد الناصر والسادات . . ولكن البلد كان فيه رصيد مدخر من عصر الباشوات الذى لعنوه . أما الآن فقد انتهى الرصيد . . وكان ينبغى أن تحمل علينا بركات الاشتراكية . . ولا بركة للاشتراكية الناصرية لأنها عطاء بدون عمل . . عطاء يدفع الآخرون ثمنه . . والآخرون أفلسوا الآن . . والاشتراكية ليست إحساناً من الدولة على الناس . . ولا هى تدليلاً من الدولة للعمال . . إنها أخذ وعطاء . . ومكاسب الاشتراكية كان لابد أن تتحقق من عمل العمال واجتهادهم وجودة إنتاجهم وصيانتهم لمصانعهم . . أما أن يخربوا آلات المصنع . أما أن يعمل الواحد منهم ساعتين بدل ثمان . . أما ألا تكون هناك أى رقابة على نوع العمل ومستواه . . أما أن يكون هناك ثواب ولا عقاب . . فهذا أمر لا يجوز ولا يكون . . والخاسر فى النهاية هو العامل .

والعامل المصرى الذى يتمسك بما يسميه المكاسب الاشتراكية فى مصر . . هو نفس العامل الذى يهرب منها إلى بلد هو قمة الرأسمالية مثل السعودية أو الكويت ويعمل هناك ويكسب لأن صاحب العمل هناك إذا كان فى حاجة إلى خمسة عمال فليس هناك قانون يلزمه بأن يأخذ خمسين . . وليس هناك نظام يلزمه بأن يدفع أجر عامل متمارض أو عامل يترك العمل ليزور أخته . . والمصنع الكبير هناك يدار بعشرة عمال مصريين يبدأون العمل فى الثامنة صباحاً ولا يفرغون منه إلا فى السادسة بعد الظهر . . والعامل الواحد هناك يأخذ أجر عشرة عمال فى مصر . . ولهذا فهو يتفانى فى عمله ويستغنى عن سراب المكاسب الاشتراكية . . وفى بيروت مطابع لا يعمل فيها إلا عمال مصريون . . وهؤلاء العمال يعملون بدون قوانين بل بدون عقود . . ولكن صاحب العمل ينتفع بقدراتهم إلى أقصى حد ويعطى الواحد منهم عشرة أضعاف ما يأخذه فى مصر ويكسب هو عشرين . . والكتاب يطبع فى بيروت بأيدٍ مصرية . . ويتكلف نصف تكاليف الكتاب الذى يطبع فى مصر . . والعامل المصرى هناك عامل فحسب . . أى يؤدى عمله ولا شأن له بصاحب العمل أو أمواله . . أما هنا فإن العضو فى نقابة العاملين فى المصنع يتساءل : كيف يركب المدير سيارة ؟ ومن أين ؟ لأنهم يقولون له : أنت صاحب المصنع . . مع أن المصنع ملك

الأمة ككل . . ولأن العامل عندنا يحسب أنه صاحب المصنع فإنه انتهى وتلاشى كعامل . . وأصبح لا يأخذ أجراً وإنما نصيبه في وقف كبير . . وأعلى ماكينة في الدنيا يخربها العمال في يوم ويستمترون في تقاضى أجرهم . . وهى مغرورية معطلة . .

وعندما أنشأوا دار الكتب الجديدة أتوا بآلة ثمنها مئات الألوف وظيفتها أن تحمل الكتب على سير من المخازن إلى حيث يجلس القارئ . . كما هو المتبع في أحدث دور الكتب في الدنيا . . وعمالنا خربوا هذه الماكينة من أول أسبوع وتوقف (السير) الذى يحمل الكتب . . وعدنا إلى نظام دار الكتب القديمة . . والكتاب تطلبه وتنام ساعتين ثم لا يأتيك . . وكل العمال الذين عينوا ليدبروا الماكينة . . يأخذون رواتبهم كاملة مع العلاوات والحوافز والمكافآت . . وهؤلاء العمال كان ينبغي أن يقال لهم إن رأس مال البلد الوحيد هو عمل عماله ولا مورد آخر غير هذا . . فإذا كان لابد من أن تكون هناك مكاسب اشتراكية فهذه المكاسب لابد أن تأتى من عملنا وجهدنا كلنا . . وليس من المعقول أن نهمل وننهان ونخرب ثم ننتظر مكاسب . . لأن عملنا هو رأس المال فمن أين نعيش ؟ هل نعيش على المعونة الأمريكية ؟ وهل أمريكا تعطى المعونات دون ثمن ؟ إن هذه الدنيا كلها قائمة على نظام . . ولا يمكن أن تقوم أبداً على خطب الرئيس عبد الناصر . . والرخاء لن يتحقق أبداً بتسليق أعمدة النور والأشجار والهاثاف : بالروح والدم نفديك يا سادات وياليتكم مع ذلك كله فديتموه . .

وعبد الناصر كان يقول للناس إن هذا البلد يتكون من طائفتين عمال وباشوات والعمال هم الأشقياء . . والباشوات يعيشون على كدح العمال . . فأوجد بذلك صدعا طويلا خطرا في البناء الاجتماعى لمصر . . مع أنه كان يعلم تماما أن كل الصادقين المخلصين من أبناء هذا البلد عمال . . فأنا عامل والطبيب عامل والمهندس عامل والمدرس عامل . . وكلنا نعمل متكاتفين لما فيه صالح بلادنا . . ونحن في مصر بسبب قصورنا عن إدراك حقائق الحياة نقول : إن في إنجلترا حزب عمال . . مع أن الذى في إنجلترا هو حزب عمل لأن العمل يشمل الجميع . . والوزير نفسه عامل . . ولهذا فإن أحداً في الدنيا لا يناقش في حقوق العمال لأنها حقوق العمل والعاملين جميعاً . . وأنا أعتبر نفسى عاملاً وأؤدى عملى بإخلاص العامل المجد وصدقه . . ولأننى أؤدى عملى بإخلاص وصدق فإننى أقبل مبدأ الثواب والعقاب ولا أجد شيئاً من الظلم في أن أتحمّل عقوبة عمل غير متقن قمت به أو تقصير وقعت فيه لأن هذه هى القاعدة . .

وأنا أقول لكم إننا لو اتبعنا جميعاً قواعد العمل السليمة وعرفنا أن كل كسب يصل إلينا لابد أن يأتى من جهد أيدينا لكنا أسعد بلد في الدنيا . . وأنا مستعد لأن أعطى أى عامل في

مصر خمسة أضعاف ما يأخذه لو اتبع قواعد الاشتراكية السليمة لا الاشتراكية الشوارعية التي نادوا بها ولم نجن منها إلا الفقر والأزمات والغلاء . . وينبغي ألا يتكرر منظر الرئيس السادات وهو يزور مزرعة قالوا له إنها نموذجية . . ووضعوا أمامه أكوام الخضروات ويقلبها سيادته ويمسك واحدة ويكسرها ويدوقها ثم يقول :

— عظيم . . بكم تبيعون الكيلو للناس ؟

— بخمسة قروش يا سيادة الرئيس . .

— لا . . كفاية ثلاثة . . هذا كفاية عليكم . .

ثم يمضى سيادته وعدسة التلفزيون تصور . . وثمان كيلو الخضار أصبح بأمر من الرئيس ثلاثة قروش . . ولكن في التلفزيون فقط لأن الرئيس نفسه كان يعرف أن سعر الكيلو في السوق ثلاثون قرشاً . . هذه هي اشتراكية التلفزيون . . وهذا هو رخاء البوليتيكا . . والنتيجة أن سعر الكيلو من الخضار اليوم أصبح خمسين قرشاً . . وغدا يصبح ستين . . لأن حياة الشعوب حقائق وليست لعباً . . والاقتصاد علم له قواعد وقوانين لا مدخل إليها من لعب السياسة وأساليب الجلا جلا . .

ألم تكن يوما من الأيام ملوك القطن ؟ ألم يكن قطننا ذهباً تتزاحم الدنيا على شرائه . . ؟ ألم تكن مصر أكبر مركز لصناعة الكتاب العربي ؟ ألم يكن الناشرون الطيبون في حى الأزهر يصدرون من المصاحف ما قيمته إذاك خمسة ملايين من الجنيهات في العام ؟ ألم تكن نطبع الكتب الأندونيسية والملاوية والأوروبية ونحتكر صناعتها في العالم ؟ فكيف خبنا اليوم وأصبحنا عاجزين حتى عن طبع الكتاب العربي ؟

ألم يكن بلد مصرى واحد هو دمياط يصنع الأثاث لنصف العالم العربى ؟ ألم يكن تجار الموبيليا في دمياط يعاملون الدنيا كلها ويبيعون بالملايين من مصانع صغيرة ؟ أين ذهب ذلك كله ؟ وهل كان عمال المطابع في مصر إذاك يموتون من الجوع ؟ وهل كان صناع الأثاث في دمياط لا يجدون ما يطعمون به أولادهم ؟ عندكم شيوخ العمال فاسألوهم . . كانوا سادة عظاما وأسطوات ومعلمين ملء الهدوم . . وهؤلاء المعلمون أرسلوا أولادهم إلى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعة ودفعوا لهم المصاريف من كسب يدهم لا من إحسان أصحاب المصانع . . لقد كانوا سادة بعملهم وصدقهم وإخلاصهم . . وأولادهم اليوم أطباء ومهندسون وحرفيون تفخر بهم مصر . . وكان الوالد يحتفظ بولد واثنين للصناعة الشريفة . . وفي ذلك العصر عرفت مصر الرخاء والاستقرار وعزة العمل والعمال .

ومأساة العصرين الناصري والساداتي هي قلة الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس .. فكل شيء يتم وكأننا في مسرحية . وكل الذين أمامنا ممثلون .. ممثلون غير مجيدين .. ولكنهم ممثلون ..

وعبد الناصر دخل حرب اليمن وهو يقول إنه يساند الحرية .. ثم اتضح بعد ذلك أنه أرسل قواتنا إلى اليمن لكي يعاقب رؤساء عرباً تجرأوا على نقده .. وقرأ خطب الرئيس عبد الناصر خلال سنتي ١٩٦٢ و ١٩٦٣ لترى ذلك بكل وضوح .. وقرأ مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل في الأهرام بتاريخ ٣٠ فبراير ١٩٦٢ تحت عنوان : وداعاً يا صاحب الجلالة . ثم اسأل نفسك : وهل كان شعب مصر يريد العدوان على أي جار عربي حتى نجرد الحملات العسكرية لقلب الأوضاع في الجزيرة العربية ؟ .. وهل كان شعب مصر يريد إنهاء مرحلة التضامن العربي والدخول في حرب أهلية داخل الوطن العربي نفسه ؟ إن هذا بالضبط هو ما قرره الميثاق بإملاء من عبد الناصر .. فقد جاء في الفصل التاسع منه .. إن الاستعمار اتحد مع الرجعية العربية وأصبح من المحتمل ضربهما معاً .. وهل كان من صالح شعب مصر أن تسخر قواته وموارده لخدمة طموح رجل واحد أو خدمة عواطفه والانتقام من خصوم شخصيين له في العالم العربي ؟ ثم ألم يكن في البلد برلمان يستشار ؟ هل مصر كلها عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ؟ وهل كان من اللائق أن يقال إن مصر تدخلت في اليمن لنقل الشعب اليمني إلى الحضارة ؟ (خطاب عبد الناصر في عيد العمال في ١/٥/٦٤) وهل كان شعب مصر يتمتع إذ ذاك بالحرية والعدل حتى يذهب شعب مصر برسالة إلهية إلى اليمن لنشر العدل والحرية فيه ؟ (خطاب عبد الناصر في استقبال القوات العائدة من اليمن في ٣٠/٥/١٩٦٣) أم أن الحقيقة أن عبد الناصر وعامر أحسا بعد الانفصال عن سوريا بأن مركزهما قد اختل في العالم العربي فسعيا إلى الدخول في مغامرة جديدة على حسابنا وعلى حساب قواتنا ؟ عندك فصل كامل عن هذا الموضوع في كتاب أحمد يوسف عن « الدور المصري في حرب اليمن » ص ٤٢ وما يليها فاقراه لتعرف المزيد ..

هذه التصرفات كلها كانت نتيجةها أن المصري العادي .. وهو أساس الشعب المصري فقد الثقة في نفسه وفي عمله .. ومن هنا جاءت نكبة اللامبالاة وعدم الانتباه .. لأن الشعب عندما يحس أن قيادته غير صادقة معه تنتابه حيرة ويأس ويفقد الطريق .. ومادام قد فقد الطريق فإنه يهيم على وجهه دون توجيه أو غاية .. ومعظم الهائمين ينتهي بهم الأمر إلى اليأس والخمود .. ولكن بعضهم يندفع وراء اتجاهات خطيرة لا يعلم إلا الله مداها .. والسادات عندما كان يسخر مما سماه انتفاضة اللصوص كان لا يشعر أنه يسخر

من نفسه . . لأن اللصوص هؤلاء كانت فيهم جماعة أدى بها التيه في بيداء اليأس إلى الوقوع في أيدي أصحاب الاتجاهات الضالة ، هؤلاء وضعوا في يدهم السلاح . . والمأساة انتهت كلها في مشهد المنصة الرهيب في ظهر السادس من أكتوبر ١٩٨١ . .

في ذلك اليوم لم يؤد السادات حساب أخطائه بل حساب أخطاء كل المتسلقين على أكتافه والآكلين من يده والشاربين من دم مصر . . هو دفع الثمن وهم ظلوا في أماكنهم . . كل واحد منهم مازال متربعا على ما سرق ونهب . . وكل واحد منهم كتب ما وراءه وأمامه لأولاده وامراته . . واطمأنوا بذلك على أنهم أنشأوا طبقة السوبر باشوات جونيور . . لقد كان الثمن الذى دفعه السادات باهظا جدا لأنه سدد بذلك فواتير ألف لص ولص وألف متسلق ومخادع ووصولي وغشاش ونصاب . . وآدم سميث قال إن كل المطالبات المالية لا بد أن تسددها جهة ما في النهاية . . ثم قال إن هذه الجهة هي الشعب . . وفي حالتنا هذه كان السادات هو الذى سدد في دقيقة واحدة فاتورة حسابه وألوف الفواتير الخاصة بسوبر باشواته . . وكلهم عادوا ليلة الكارثة إلى أهلهم (وبعضهم عاد إلى عشيقته) وجلسوا سعداء في بيوتهم التي اشتراها لهم السادات . . وكلهم اتصلوا بالتليفونات مع أولادهم وبناتهم في مساكنهم الفاخرة ليطمئنوا على أن كل الأسرة بخير . . حتى سيارات الأسرة وكابيناتها في المنتزه ظلت بخير . . ونسوانهم جلسن يتفرجن على أفلام الفيديو لأن تليفزيون الشعب المصرى كان في حداد . وهم لا شأن لهم بهذا الشعب المصرى وما أصابه . . وسوبر باشوات الانفتاح فتحوا السيارات وأخرجوا زجاجات الويسكى التشيفاس والدembler : ميه ولا صودا وجلسوا ساقا على ساق ينتقدون السادات والرجل الذى أتاها بهذا كله قضى تلك الليلة في مخرج مثلج مظلم . . وفي الصباح وورى التراب . .

والآن . . وهذا هو الفصل قبل الأخير من تلك الدراسة يسألني الناس : وما العمل ؟ وكيف يكون العصر الجديد عصر رخاء ؟ وجوابي على ذلك أنه لا يصح إلا الصحيح . . وكل شيء ينبغى أن يطابق مسماه . والحقائق ينبغى أن تكون ملك الجميع . . والحرية الصادقة لا بد أن تكون طريق الوطن . . والصدق لا بد أن يكون أساس كل المعاملات . . صدق مع النفس . . وصدق مع الله . . وصدق مع الناس . .

وصدقوني : لو أن السادات خطر بباله أن ينشئ أكاديمية للقطط تتعلم فيها كيف تتصرف في مفتاح الكرار لتقدم ألف جهبذ صعلوك ليدير هذه الأكاديمية . . وكتب كل منهم المقالات في فلسفتها . . مثل هذه العريضة بالقيم والمعاني ينبغى أن تخفى وكل سارق ينبغى أن يعاقب على ما سرق . . وكل رجل غير كفء لا بد أن يزال من مكانه ورجل يتولى وظيفة كبرى في الحزب الوطنى الديمقراطى لا يجوز له قط أن يبيع فيلا يملكها بمليونى جنيه . . لا

ثمنا للفيلا في ذاتها بل ثمنا لتصريح حصل عليه بفضل مركزه بإقامة مبنى ارتفاعه ثلاثون دورا مكان الفيلا . . وكل ذلك باتفاق مع المشتري قبل توقيع العقد .

مثل هذا العمل جريمة في حق الوطن وينبغي أن يعاقب الجاني . . والرجل الذي فعل ذلك يدهش كيف وصل الخبر إلى رجل مثلي قابع في بيته . . ولكني أقول له : أيها الإنسان : إذا كانت عينك لا تريان إلا ما هو أمامك فإن عيون الناس ترى كل شيء : داخل الجدران وخارج الجدران . . وعين الله ترى ما تحاول أن تخفيه أنت في أعماق نفسك السوداء . .

وأنا الآن أسأل : هل هناك جدوى من وراء إنشاء كلية تسمى كلية الدراسات الوطنية ؟ أو كلية السادات للعلوم الإدارية ؟ وماذا يدرس فيها غير ما يدرس في كليات العلوم السياسية والاقتصاد في جامعاتنا ؟ تريدون تخريج كوادر ممتازة للحزب ؟ إذن فنحن أعضاء الحزب نقول لكم إن هذه تجربة خطيرة وقد سبقكم إليها الملك فاروق عندما أنشأ الحرس الحديدي . . وحزب الوفد عندما أنشأ القمصان الزرقاء . . فهل انتفع فاروق بحرسه الحديدي ؟ وهل انتفع الوفد بقمصانه الزرقاء ؟ . .

ثم ما هي دورات التدريب لشباب قادة الحزب ؟ هل سمعتم مثلاً أن حزب المحافظين أنشأ - على حساب الدولة - معاهد تدريب لشباب يرشحهم للقيادة ؟ ولماذا نختار شباباً بعينهم ونعدهم ليكونوا سادة هذا الشعب في المستقبل ؟ . . وإذا كانت جامعاتنا الأصلية «غرقانة» في متاعبها . . وطلابها لا يجدون سبيلاً إلى العلم ويتخرجون في الجامعات ليجدوا أنفسهم أمام الضياع . . فلماذا ننشئ معهدا لطائفة من المحظوظين ليكونوا هم وحدهم الناجين وسط أجيال المساكين ؟

إن الاشتراكية أيها الناس ليست توزيعاً للعاسة بالقسطاس . . ومستقبل مصر موضوع جدى فلماذا تلعبون به ؟ إن رئيسنا الحالي ينادى صادقاً بأن طريق النجاة الوحيد أمامنا هو الإنتاج الجيد الذي يطلب في الأسواق . . فلماذا لا نصغي إليه ؟ لماذا لا نقف معه نؤيده بالصدق المطلق والعمل الجاد والأمانة الكاملة ؟ . .

وبقيت سطور أريد أن أعذر فيها لكل من ساءته مني كلمة أو إشارة . . فما قصدت غير الحق . . ولا كان لي مطلب وراء الصدق . . ولا صالح لي غير صالح مصر ، مصر التي خرجت إلى الدنيا وهي مستعمرة وقضيت عمري أحلم بأن أراها أسعد بلاد الدنيا . . ولن أتنازل عن هذا الحلم أبداً . .

أعتذر لكل من آلمته كلمة . . وعذرى لديكم أن نفسى لو كشفتم عنها لما وجدتكم فيها
غير الآلام . . ولا يعزىنى ويمسكنى فى الحياة إلا حب مصر والأمل فى مصر والرجاء من الله
سبحانه . .

أعتذر للأخ اللواء محمد حسن عثمان عما بدر منى عن غير قصد . . وأشكر كل من
تعهدنى بتصحيح الأخطاء على طول دراسة أعددت لها ثلاث سنوات . . وآخر ما أختتم به
هذا الفصل شكر من القلب وتمنيات من القلب بالتوفيق للسيد الرئيس حسنى مبارك .
فلولا الحرية التى ننعّم بها معه ما وصلت إلى القارىء كلمة واحدة من هذا كله . . والله
سبحانه من وراء القصد . . وهو رب القلوب ورب الأحرار الصادقين . .



١٦ سورة والشوار

يكتب إلى كثيرون خطابات - تعليقا على ما أكتب عن الباشوات والسوبر باشوات يزعمون فيها أنهم من أبطال الثورة وصناعها . . وبعضهم يتفضل فيبين في حكايات طويلة النصيب العظيم الذى قام به فى التمهيد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والعمل البطولى الذى قام به ليلة الثورة والأيام التالية لها ، وبعضهم يؤكد أن نصيبه فى عمل الثورة كان نصيب المخطط والمفكر ، أى أنه - باختصار - صانع الثورة ، وبعضهم يؤكدون أنهم أصحاب مشروعات كبرى هى من مفاخر الثورة ، ولولاها لما كانت .

ولهؤلاء جميعا أقول - بعد أن اتضحت لنا جوانب كثيرة من الصورة كانت خافية عنا ، وبعد الكلام الكثير الذى كتب ونشر - إن الذى قام بهذه الثورة هو شعب مصر دون سواه ، إنه بطلها الوحيد . والذى تم ليلة ٢٣ يوليو كان حركة محدودة المدى والأهداف ، حركة جيش داخل الجيش نفسه ، والذى جعلها ثورة هو دخول شعب مصر فى الميدان ، وإخراجها من نطاق حركة إصلاح داخل الجيش إلى ثورة عامة توضع حدا لعصر من عصور تاريخ مصر وتبدأ عصر آخر .

وإليكم البرهان على صحة ما أقول :

ولن آتى هنا بشيء من عندى ، بل سأستشهد بآراء كتاب آخرين أفاضل يعرفون بحكم مواقعهم فى السياسة والصحافة أكثر مما أعرف ، وسأبدأ بمقال - وهو فى الحقيقة وثيقة - نشره الصحفى الكبير الأستاذ صلاح منتصر فى عدد الأهرام الصادر فى ٢٤/٧/١٩٨٣ (ص ٧) هو الحلقة الأولى من سلسلة تحقيقات عظيمة القيمة عن الثورة وما بعدها .

قال الأستاذ منتصر فى هذا المقال العظيم القيم فى تفصيل حقيقة ما كان رجال الثورة يريدونه ، وما حدث فى نفس الليلة من تدخل الرئيس محمد نجيب فى صيغة البيان الذى كان رجال الثورة يعدونه لإذاعته على الشعب صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو تدخل أساسى كانت نتيجته تحول الحركة المحدودة داخل الجيش إلى ثورة شعبية قومية عامة .

إن إحدى الحساسيات الغريبة التى كانت عند جمال عبد الناصر ، ومن بعده أنور السادات ضيق أى منها بمن كان يحاول وضع ما حدث يوم ٢٣ يوليو ٥٢ فى إطاره الصحيح . .

ذلك أن ما حدث فى هذا اليوم لم يكن من باب اليقين انقلابا ، ولم يكن من باب التوثيق « ثورة » .

لم يكن انقلابا لأن الذين اشتركوا في عمليات تلك الليلة ودبروا لها لم يكن في فكرهم — كما أثبتت الأحداث والدراسات — التخطيط لاختطاف الحكم ، وهو هدف أى انقلاب .

ولم يكن ثورة ، لأن الثورة في مفهومها العلمى تعنى فلسفة سياسية واقتصادية واجتماعية حددها سلفا الذين قاموا بها واتفقوا عليها بحيث يمكن التعرف — ولو من باب الشكل — على هذه الفلسفة من خلال البيان الأول الذى أذاعه أنور السادات صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكما يروى جمال حماد أحد الضباط الأحرار والذى وثق أسرار يوم ٢٣ يوليو وما قبله وكان شاهدا على أحداثها ، فإنه بعد أن سيطر الضباط الأحرار على مبنى رئاسة الجيش ، ووصول اللواء محمد نجيب تحول مكتبه إلى أشبه بخلية نحل فقد جلس حول المكتب عدد من قادة الضباط الأحرار وكانت المناقشات تدور بينهم بشأن الموقف بأصوات مرتفعة .

وكما يقول جمال حماد حرفيا : في هذا الجو المليء بالضجيج انسحب ضابطان من وسط المجموعة التى كانت في مكتب محمد نجيب هما عبد الحكيم عامر وجمال حماد ، ودخلا غرفة المؤتمرات التى كانت تواجه مباشرة مكتب اللواء محمد نجيب ، وأغلقا باب الغرفة عليهما من الداخل وجلسا على مقعدين متجاورين على مائدة المؤتمرات الخشبية الفخمة يلتقطان أنفاسهما ويستعيدان الهدوء الذى افتقدها خلال وجودهما بمكتب اللواء محمد نجيب .

وكان الغرض من هذه الجلسة المغلقة هو كتابة البيان الأول للثورة الذى سيوجه من اللواء محمد نجيب إلى الشعب المصرى من دار الإذاعة فى الساعة صباحا واتفق الزميلان على النقاط الأساسية التى ينبغى أن يضمها البيان ودوناها فى ورقة صغيرة ثم لم يلبث عبد الحكيم أن ترك زميله وحده بالغرفة ليتيح له فرصة صياغة البيان الأول للثورة فى هدوء .

وعكف جمال حماد على صياغة البيان وفقا للنقاط التى تم الاتفاق عليها مع عبد الحكيم وبعد عدة مسودات استقر رأيه على الصيغة النهائية التى كتبها على ورقة فولسكاب بيضاء بقلمه الحبر . ولم يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة عاد بعدها عبد الحكيم إلى الغرفة حيث قرأ البيان فى اهتمام وأبدى رضاه التام . . وعندما عرض البيان على اللواء محمد نجيب وافق على الصيغة . ولكنه رأى إضافة بعض الكلمات إلى البيان فأخرج قلمه وكتب بعض الكلمات حشرا بين السطور المكتوبة ثم وقع على البيان يامضائه . وانحصر التعديل فى عبارة واحدة كانت فى الأصل : وإنى أؤكد أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن متجردا من أية غاية فأصبحت بعد التعديل وإنى أؤكد (للشعب المصرى) أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن (فى ظل الدستور) مجردا من أية غاية .

هذه هي رواية جمال حماد الذى كتب البيان الذى أذاعه أنور السادات صباح يوم ٢٣ يوليو ، وقد كان المفروض كما يروى جمال أن يذيعه هو ، أى جمال حماد بنفسه ولكن تم تكليفه بمهمة أخرى منعتة من إذاعة البيان .
ومن المؤكد أن جمال حماد كان صادقا فى كل ما كتب .

وبعض التفكير فيما حكاه عن البيان الأول الذى عرف الشعب المصرى منه ما حدث فى الجيش المصرى فى ذلك اليوم يمكن استكشاف ما يلى :

١ - أن هذا البيان بكل الأهمية الكبيرة التى يعكسها تم وضعه باتفاق بين شخصين اثنين . . أى أنه لم يكن تعبيرا عن فكر ثورى لمجموعة ذابت فى فلسفة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية واحدة ، وإنما كان جهدا شخصيا لاثنين من الذين اشتركوا فى عمليات تلك الليلة وليس هكذا تكون الثورات . .

٢ - أن قائد العمليات الحقيقى وهو جمال عبد الناصر لم يقرأ البيان طبقا لرواية كاتبه بما يعنى أنه لم تكن لهذا القائد الفلسفة الثورية التى لابد أن يرجع إليها من كتب البيان حتى يتضمنها بيانه . . وليس هكذا يكون قواد الثورات . .

٣ - أن الإضافة البسيطة التى أضافها اللواء محمد نجيب والذى كان فى سن الأب لمجموعة الضباط الشبان الذين خرجوا ينفذون عملية ٢٣ يوليو أشارت إلى ما لم يتنبه إليه الجهد الشخصى للشابين عبد الحكيم عامر وجمال حماد اللذين فكرا وكتبا البيان . .

٤ - لقد أضاف محمد نجيب عبارتي (للشعب المصرى) ، (وفى ظل الدستور) وهاتان الإضافتان تعنيان أن الفكر الذى كتب به البيان كان بعيدا عن أن البيان موجه إلى الشعب - لأهداف أى ثورة - وأن هناك دستورا ينبغى احترامه . . .

ذلك أن عبد الحكيم عامر وجمال حماد عندما فكرا فى البيان وكتابته كان تفكيرهما متجها كلية إلى إبلاغ باقى وحدات الجيش بما حدث لأن ما حدث هذه الليلة لم يكن ثورة وإنما كان كما أطلقوا عليها - عن حق - حركة قصد بها الجيش . ولهذا جاء البيان الأول لهذه الحركة يقول بالنص . . . اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون والمعرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين ، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها .

وعلى ذلك فلقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم ، وفي خلقهم وفي وطنيتهم ، ولا بد أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب . . . أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب ، وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجردا من أى غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس في صالح مصر ، وإن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس ، وإنى أطمئن لإخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولى التوفيق .

إمضاء لواء أ . ح محمد نجيب

ولا أظن أن أية دراسة لهذا البيان الأول لما جرى يوم ٢٣ يوليو يمكن أن تخرج بفلسفة ثورة أراد البيان التعبير عنها أو فكر معين تسعى إليه . .

كان كل ما يدور حوله البيان هو ما كان يجري داخل الجيش ، وقيام هذا الجيش بتطهير نفسه من الذين كانوا يتولون أمره من الجاهلين أو الفاسدين . . ولهذا كان أصدق تعبير عما جرى يوم ٢٣ يوليو أنه كان بالفعل حركة تطهير داخل الجيش باركها الشعب وأيدها .

ولأن فاروق كان يمثل فمة الفساد الذى يرأس هذا الجيش فقد كانت الخطوة التالية بعد تطهير الجيش من قيادته الفاسدة تطهير مصر كلها من رأس هذا الفساد . . من الملك . .

وكان اعتقاد شباب الحركة من الضباط الأحرار أنهم بذلك يستطيعون تسليم الحكم للسياسيين المحترفين أعضاء الأحزاب السياسية في ظل الدستور القائم ولكن كما شاركت الأحزاب أثناء وجود الملك في فساد الشارع السياسى فإنها بعد خروج الملك شاركت في تحويل حركة الجيش إلى سلطة تسعى إلى الحكم ويتصارع رجالها أولا من أجل الإمساك بسلطة الحكم ، ثم بعد ذلك تحديد أهدافها لتصبح ثورة . . .

وإنما أبدأ بهذه الفقرة الكبيرة من مقال الصديق الأستاذ الصحفى الكبير صلاح منتصر على تواليها لأنها صادرة عن رجل محايد وباحث عن الحقيقة مثلى ، ولا يمكن اتهامه فيما أظن بما يوجه إلى في بعض ما أتلقي من خطابات الكثيرين الذين يزعم كل منهم أنه صاحب الثورة أو صاحب جزء رئيسى فيها ، ومن ثم فإن هؤلاء السادة يكتبون إلى باسم الثورة

متحدثين باسمها لأن كلا منهم يزعم أنه هو صانعها أو أحد صناعها ، ويوجه إلى الكلام على أننى وأمثالى دخلاء على الثورة والفكر الثورى ، ومن ثم فأنا فى تصورهم أجاوز قدرى إذ أكتب عن الثورة .

ومن أيام دار حوار بينى وبين رجل أعتقد أنه ابن من أصغر المشاركين فيما وقع ليلة ٢٣ يوليو ، وقد زعم أنه هو الذى دبر الثورة وأن دوره فيها يفوق بمراحل دور جمال عبد الناصر وأنور السادات ، والآن أقول لهم ، إننى أكتب لأننى وأمثالى من المواطنين المتواضعين حقيقة أصحاب الثورة ، لا يشاركونا فى ذلك إلا الرئيس محمد نجيب فهو الوحيد بين الذين قاموا بالحركة الذى كان يشعر بأن هذه الحركة إنما هى ثورة تحرير لا مجرد حركة إصلاح داخلية فى الجيش ، ولهذا فقد أضاف بيده الإضافتين اللتين نقلهما السيد جمال حماد فى كتابه ، مع أنها تعنيان المفترق الضخم بين الحركة التى قام بها عبد الناصر وزملاؤه ليلة ٢٣ يوليو ، والثورة التى حدثت بعد ذلك ، وقادها محمد نجيب طوال مدة رياسته القصيرة وباركتها جماهير شعب مصر والسودان والأحرار فى العالم العربى . وكان ذلك يناقض اتجاه جمال عبد الناصر وبعض زملائه الذين رأوا فى انتصار الحركة فرصة لكى يستولوا عليها كلها ، وقد كان جمال عبد الناصر يتمتع بقدرات كبيرة فى مسائل التدبير الخفى والتحرك الواعى نحو القبض على السلطان .

ونحن الذين ندرس التاريخ نفترض أن هذه طبيعة معروفة وجدت فى الكثير من حالات الثورات الأخرى ، وأكبر مثال على ذلك نابليون بوناپرت الذى عرف كيف يتحرك خطوة خطوة بعد نجاحه فى الحملة الإيطالية والعودة من الحملة المصرية وفى سرعة الفهد عرف كيف ينقض على الفريسة التى كان يترصد بها . وتمكن من القيام بانقلاب ١٨ نوفمبر من السنة الثامنة للثورة (١٧٩٩) وأقام حكومة القنصلية وكان هو القنصل الأول ومعه سيسيس ودوكلو وعقب هذا الانقلاب مباشرة سارع بوضع دستور ١٧٩٩ وأجرى على أساسه انتخابات فى فبراير ١٨٠٠ وحصل فيها على ثلاثة ملايين من الأصوات . بينما لم يحصل منافسه على أكثر من ١٥٠٠ صوت . وبهذا أصبح نابليون رئيسا للدولة فى فرنسا ، وصاحب الكلمة المطلقة فيها ، والثورة الفرنسية التى قامت لتعزل ملكا وجدت نفسها فى ١٨ مايو ١٨٠٤ تتوج امبراطورا ، بعد أن هز قلوب الفرنسيين بعد انتصاره فى أولى مواقعه (الكبرى) وهى مارنجو (١٤ فبراير ١٨٠٤) . وقد ارتكب فى الطريق جرائم بشعة مثل مقتل الدوق .

وكذلك كان الحال مع الثورة الروسية التى قامت فى أكتوبر ١٩١٧ لتحرر الإنسان الروسى من سلطان القيصر ورجال الإقطاع والكنيسة فوجدت نفسها فى النهاية فريسة

لأعنى مستبد عرفه التاريخ وهو لينين . وقد قصص في كتاب طريق الدم كيف تمكن لينين خطوة خطوة وبسرعة خاطفة أيضا وبمواهب المدير الخطر القادر على التدبير الخفى من وضع يده على السلطة الكاملة في روسيا كلها وإبادة خصومه باسم الثورة والحرية ووضع قواعد نظام الاتحاد السوفيتى القائم إلى اليوم .

ومعنى ذلك أن لكل ثورة من الثورات تاريخين ، تاريخ ظاهر وهو الواضح المعلن للناس ، وفيه يصور ذلك المدير الخفى الساعى إلى القبض على السلطة نفسه — بعد انتصاره — فى صورة البطل المجاهد فى سبيل العدل والحرية وحقوق الجماهير ، وتاريخ باطنى — هو الحقيقى — الذى يحكى قصة صناع الثورة الحقيقين الذين التهمهم المدير الخفى الخطر فى طريقه ، وكيف تمكن بطل الحرية بأساليب الغدر والأنانية وجمود العقلية من القبض على السلطان والقضاء على الحرية .

وهذا هو الذى حدث لثورتنا . وأحب أن أقول إن ذلك ليس عيبا ولا عارا وإنما هو الحقيقة التى ينبغى أن يعرفها الناس حتى لا يخدعوا مرة أخرى ، وحتى لا تجوز عليهم الحيلة وتتكرر لعبة خداعهم وتسخيرهم لصالح مستبد طاغية آخر . والتاريخ تجارب ، وتجارب الأمم مهما كانت مريرة فهى دروس ، وهى تساوى المتاعب التى يلاقىها الشعب فيها إذا عرف هذا الشعب كيف يستفيد من التجارب . وهنا وظيفة المؤرخ الدءوب المتحرر عن الهوى الذى يعود إلى تاريخ الثورة ويستعين بشهادة رجالها وشهود من شارك فيها إذا تسر له ذلك ليكشف الحقائق ... أو ما يرى أنها حقائق — ويعرضها للناس .

وقد قلت إن محمد نجيب انفرد من بين الذين قاموا بالحركة بفهم معنى الثورة والإيمان بالحرية والديمقراطية والصدق فى معاملة المواطنين واشترك معه فى ذلك نفر من شباب ضباط الثورة أهمهم خالد محى الدين ويوسف صديق وأحمد شوقى ، فأما الأخيران — وهما اللذان قاما بالعمل الأكبر ليلة ٢٣ يوليو — فقد كان لابد أن يزالا من الطريق حتى تعاد كتابة أحداث الثورة على نحو يجعل من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بطليها الوجهدين وكل من عداهما يحىء فى مرتبة ثانية أو ثالثة أو لا يذكر أصلا .

أما محمد نجيب فلم يكن من المستطاع إزاحته من الطريق بنفس هذه السهولة ، فهو رئيس الجمهورية ، وهو رجل صلب العود متمسك بمبادئه وقد اعتزم جمال عبد الناصر أن يأتى به ويتخذنه واجهة يسيطر بها على الجيش ويقنع الشعب والرأى العالمى بها ثم يزيله ويضع نفسه فى الرئاسة مكانه كما عزل ستالين صورة لينين وهو يخطب على نحو يجعله هو التالى له فى الرئاسة فى المثال الذى ذكرناه آنفا .

وقد تم لجمال عبد الناصر التغلب على محمد نجيب وإزالته من الرئاسة والحلول محله ولكن على صورة من العنف والقسوة أساءت إلى عبد الناصر أكثر مما أساءت إلى محمد نجيب ، فأما نجيب فقد عزل ووضع فيما يشبه المعتقل في بيت في المرج ولكن ظل له مكانه في تاريخ الثورة ممثلاً لروحها ولبابها وضحية لمؤامرات الذين انتزعوها من أيدي الشعب وفرضوا عليه الدكتاتورية .

وقد حكى الأستاذ صلاح منتصر في مقال نشر في جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٣/٧/٢١ في سلسلة مقالاته القيمة عن الثورة كيف كان كل جهد جمال عبد الناصر في أثناء رئاسة محمد نجيب القصيرة موجهاً إلى إزاحته عن الطريق ، وفي سبيل ذلك جمع أعضاء مجلس الثورة حوله - عدا خالد محيي الدين - لأنهم - مثل عبد الناصر - كانوا قد جلسوا في مقاعد الرئاسة والقيادة وذاقوا طعم السلطان ولم يعودوا يطيقون أن يتخلوا عنه أو يشركوا أحداً معهم فيه . أما يوسف صديق فقد أقصى وعوقب بالإبعاد ولم يلبث أن توفي وكذلك حدث لأحمد شوقي .

والحكاية طويلة ولكن الذي يهمنا هنا هو الطريق الذكي الملتوى الذي سلكه عبد الناصر ليصل في النهاية إلى الرئاسة المطلقة مستخدماً في ذلك معظم أعضاء مجلس الثورة . فأصدر المجلس في ٢٥ فبراير ١٩٥٤ بياناً قال فيه إن محمد نجيب رئيس الجمهورية لم يكن قائد الثورة ولا له فضل فيها . إنما هو دخيل عليها لم يعرف عنها شيئاً إلا قبل قيامها بشهرين ، ولم يرأس مجلسها إلا بعد شهر من قيامها ، وأنه لا هم له من يوم تنصيبه رئيساً إلا إقصاء إخوانه الضباط الشبان أبطال الثورة من مراكزهم ، وإنه يحاول العودة بالبلاد إلى الوراثة وتسليم الحكم للأحزاب القديمة وعندما وقف مجلس الثورة أمامه موقفاً حاسماً قدم استقالته فقبلها المجلس .

وفوجيء جمال عبد الناصر مدبر ذلك كله بأن جانباً من الجيش يقف مع محمد نجيب وكذلك قام الرأي العام يؤيده ، فقد كان الرجل قد كسب لنفسه صورة شعبية جميلة ، وأصبح في نظر العالم كله رمزا على حركة تحريرية تقدمية تسير بمصر في طريق الديمقراطية الصحيحة . وأثارت شخصيته في السودان محبة كبيرة فالرجل نصف مصري ، ونصف سوداني وقد خدم في مصر كما خدم في السودان ، وعواطفه مصرية سودانية ، وقد أحس السودانيون بذلك إحساساً عميقاً وبدأ منهم استعداد لتحقيق وحدة وادي النيل تحت رياسته ، ونتيجة لهذا كله قامت مظاهرات عنيفة خلال يومي ٢٠ ، ٢١ فبراير ١٩٥٤ مؤيدة محمد نجيب ، وانتهى الأمر بأن اضطر مجلس قيادة الثورة إلى الرجوع فيما كان قد قرر ، وأعلن في مساء ٢٧ فبراير ١٩٥٤ في بيان قصير عودة نجيب إلى رئاسة الجمهورية .

واطمأنت الخواطر إلى ذلك البيان ، وحسب الشعب أن ثورته عادت إلى مجراها السليم ، وجاء التأييد من السودان لمحمد نجيب ، ولكن عبد الناصر لم يئأس وإنما بدأ يرتب من جديد لإزاحة محمد نجيب والتخلص من كل القوى التي أيدته فيما كان يدعو إليه من عودة الحرية والديمقراطية .

وقد اتجه عبد الناصر إلى تركيز جهده كله على الجيش مستعينا في ذلك بعبد الحكيم عامر ، وكانت شئون الجيش قد وكلت إليه وكان أيامها أصفى أصفياه وموضع ثقته الكاملة ، فتمكن من استمالة معظم رجال القيادة إلى جانبه وجانب عبد الناصر ، فلما تم لهما ذلك قاما بالضربة الحاسمة في ٢٥ مارس ١٩٥٤ فأعلن مجلس الثورة أنه اتخذ قرارات بحل نفسه والسماح بعودة الأحزاب وإجراء انتخابات حرة مباشرة خلال ثلاثة أشهر أو أربعة ، تأتى بمجلس نواب ويؤلف مجلس النواب الجديد لجنة تأسيسية تكون لها سلطة البرلمان وتنتخب رئيس الجمهورية .

وكان جمال عبد الناصر قد ضمن تأييد الجيش له وعرف أن معظم رجاله سيرفضون تلك القرارات وسيطالبون مجلس الثورة بالاستمرار في عمله ؛ وكان يعرف كذلك أن شعب مصر كله لم يكن إذ ذاك ينفر من شيء قدر نفوره من عودة الأحزاب القديمة وأن الجماهير لا بد مطالبة باستمرار مجلس قيادة الثورة ، حاسبة أن محمد نجيب سيطر في رئاسة الجمهورية ، وتلك هى الضربة التي أحكم تسديدها جمال عبد الناصر فإن الجيش الآن معه ، والرأى العام معه ، وكان قد عمل حسابه على تنظيم جموع ٢٩ مارس ١٩٥٤ التي قضت على محمد نجيب وكل مؤيديه وكل دعاة الحرية والديمقراطية تحت ستار حماية الثورة . وكان الرأى العام إذ ذاك مبعضا لعصر ما قبل الثورة لا يريد عودته بأى سبيل فاستغل عبد الناصر هذا الميل عند الجماهير وأخذ يقويه ، وزعمت دعايته أن محمد نجيب يريد أن يعيد عصر الباشوات ، وأن النظام الجديد فى حاجة إلى تأييد الشعب فيما سيتخذه من إجراءات ثورية للحيلولة دون الارتداد إلى عصر الباشوات وما كان يسمى إذ ذاك عصر الإقطاع والأحزاب الفاسدة .

وقد عرف عبد الناصر كيف يتخلص من محمد نجيب وكل خصومه فى سرعة خاطفة قبل أن تفيق الجماهير ، وكانت وقائع ٢٩ مارس ١٩٥٤ المؤسفة التي سلمت زمام مصر لعبد الناصر وحده بتأييد جماهير قليل إنها شعبية غاضبة للثورة .

وسأرجع هنا فى تفصيل ما وقع إذ ذاك إلى كلام محمد نجيب نفسه فى كتابه «كلمتى للتاريخ» وهو كتاب رجل أمين صادق ، وسأستعين هنا بحديث أداره معه صحفى مصرى شاب هو محمد عبد القدوس ، ابن الصحفى الروائى والصدى الكريم الأستاذ إحسان

عبد القدوس ، نشره في جريدة «الوفد» بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٨٤ . وسأخذ الكثير من كلام محمد عبد القدوس لأنه يعبر عن إحساس جيل جديد من شباب المثقفين في مصر نحو ما فعله عبد الناصر إذ ذاك لكي يصل إلى السلطان المطلق في مصر .

قال ممهدا للحدث الذي أجراه مع محمد نجيب :

يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٥٤ كان يوماً حزيناً وكثيباً في تاريخ مصر . في هذا اليوم انتصرت الدكتاتورية التي كان يقودها جمال عبد الناصر على التيار المنادي بالديمقراطية ويطالب بإطلاق الحريات والذي كان يتزعمه اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية . في هذا اليوم المشؤم ألغيت كل القرارات التي كان قد سبق إعلانها - تحت ضغط القوى الديمقراطية - في يومي ٥ و ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤ ، والتي كانت تتلخص في إطلاق حرية الأحزاب وإجراء انتخابات حرة . وإلغاء الأحكام العرفية . . ثم بدأ الحكم الديكتاتوري .

وجاء انتصار الديكتاتورية النهائي بخطة وضعها عبد الناصر وزمرته تقضى بتدبير مظاهرات مفتعلة تهتف بسقوط الحرية !!! وهذا ماحدث فعلاً .

ففي يوم السبت ٢٧ مارس سنة ١٩٥٤ بدأت أغرب مظاهرات في تاريخ مصر وربما في تاريخ العالم . . تهتف بسقوط الحرية . وتلعن الديمقراطية !! وهذه المظاهرات كانت مكونة أساساً من خمس فئات هم عمال مديرية التحرير ، تم نقلهم بسيارات اللواري إلى القاهرة وقوات من الحرس الوطني ، وقوات من البوليس الحربي ، بعد أن ارتدوا جميعاً الملابس المدنية وتم تسليحهم بالعصى والآلات الحادة ، وعدد من أنصار هيئة التحرير ، وعدد من القيادات العمالية تم شراؤهم للوقوف إلى جانب الديكتاتورية مثل رئيس اتحاد عمال النقل .

وأخذت المظاهرات تطوف بشوارع القاهرة وهي تهتف بهتافات لم يسمع بها أحد من الأولين أو الآخرين مثل تسقط الحرية !! تسقط الديمقراطية !! يسقط البرلمان ! يسقط المتعلمون !!

وطبقت المظاهرة الشعارات التي ترفعها إلى واقع عملي يدل على طبيعتها . . ولأول مرة في تاريخ مصر نجد مظاهرة تهاجم مجلس الدولة - حصن القضاء - وتعتدى على رئيسه الدكتور عبد الرزاق السنهوري بالضرب الشديد وكانت إحدى الصحف قد نشرت أن الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع بدعوة عاجلة من رئيس المجلس ، بصورة تشعر بأن الاجتماع له صلة بالأحداث الجارية فما كان من المتظاهرين إلا أن اقتحموا

المجلس وكادوا يفتكون برئيسه . وقد اتهم الدكتور السنهورى أمام النيابة العامة جمال عبد الناصر بتدبير الحادثة ، كما أنه رفض مقابله عندما زاره بعد الاعتداء عليه . وتكررت المظاهرات التى تهتف بسقوط الحرية مرة أخرى لمدة يومين متتاليين حتى استجابت لها الديكتاتورية وألغت كل أثر للديمقراطية وبدأ الحكم البوليسى . وبعد الاعتداء على مجلس الدولة انتهى عصر القانون وحقوق الإنسان وبدأ عصر الغاب .

* لقاء مع : محمد نجيب

نحن الآن فى شهر مارس ١٩٨٤ . . . مرت ثلاثون سنة كاملة على سحق الديكتاتورية للحرية . . . الدنيا تغيرت . . . الأحوال تبدلت . . . مات عبد الناصر . . . وخلفه السادات ، ثم قتل السادات وخلفه مبارك ، وأخذت شمس الحرية فى الشروق من جديد . . . وعودة الوفد هى إحدى العلامات المؤكدة على ذلك .

ولكن ماذا عن أخبار محمد نجيب ؟

لقد تغير حاله وتبدل إلى الأفضل مثله مثل كل شىء فى مصر . خرج فى أيام السادات من عزلته الإجبارية التى كان عبد الناصر قد فرضها عليه فى المرج . وأكرمه الرئيس مبارك فأعطاه فيلا فى شارع ولى العهد بالقبة ليقضى فيها بقية عمره : ذهب لأزوره هناك . الفيلا صغيرة شكلها حديث جدا وسط المنازل العتيقة بالمنطقة . هناك «مشروع» حديقة داخل الفيلا لم يكتمل بعد .

وصعدت إليه فى الطابق الثانى من منزله المكون من دورين .

وقابلته فى حجرة نومه . . . الرجل طريح الفراش . . . يالهمى كم غيرته السنون . . . الشيب زحف عليه . . . عمره تجاوز الثمانين بكثير ، صافحته وجلست بجانبه . . . أخذت أتأمل الصور الموجودة بالحجرة . . . هناك صورة له أيام شبابه مع زوجته . . . وأخرى مع أولاده ، وصورة له أيضا مع مجموعة ضباط يبدو أنهم من دفعته . وهناك صورة للسادات وهو بالملابس العسكرية وأخرى للرئيس حسنى مبارك .

أفقت من تأملاتى للصور على صوته المرتعش وهو يقول «أهلا وسهلا» انتبهت . . . قدمت له نفسى : مندوب جريدة «الوفد»

رد مبتسما : يحيا الوفد ولو فيها رfid ، ثم قال لى : طلباتك ؟

قلت له : أريد أن أجرى حديثا مع سيادتك حول أزمة مارس سنة ١٩٥٤ بمناسبة مرور ثلاثين سنة عليها .

أجابنى : إسمع يابنى . . أنا تعبان أشكو من الأوجاع فى عيني . . فى أذن فى رأسى . . أنا أصدرت كتابا فى هذا الموضوع بعنوان «كلمتى للتاريخ» . . اقرأه جيدا انقل منه ما تشاء على لسانى . . وأنا موافق حتى لو نقلت الكتاب كله .

قلت له : ولكن هذا لا يمنع من إجراء حديث معك

رد قائلا : علشان خاطرك بقى . . لولا معزة الوفد . . ومعزة والدك (إحسان عبد القدوس) كنت اعتذرت .

قلت للرئيس السابق محمد نجيب : ما رأيك بداية فى عودة الوفد إلى الحياة السياسية مرة أخرى ؟

أجاب : خير وبركة . . عودة الوفد بمثابة عودة الروح إلى الديمقراطية . . أنا أحب الوفديين . . وياما دافعت عن النحاس .

سألته : وكيف دافعت عنه ؟

أجابنى : ارجع لكتابى تلاقىها .

ورجعت إلى كتاب «كلمتى للتاريخ» الذى وضعه محمد نجيب فوجدت فى صفحتى ١٠٠٤٩٩ ما يلى :

قدم جمال عبد الناصر لمجلس الثورة كشفا بأسماء بعض الزعماء السياسيين ممن رأى بصفتهم وزيرا للداخلية اعتقالهم وكان بين الأسماء مصطفى النحاس لتحديد إقامته . ورفضت ذلك ووافقتى المجلس بعد معارضة شديدة وشطب اسمه من كشف المعتقلين ووقعت الكشف ، ولكن فوجئت بأنهم أعادوا اسمه للكشف بعد توقيعى عليه ، واعتبرت ذلك تزويرا لا أقبله وإساءة لا تغتفر .

قلت للواء محمد نجيب : لقد كنت تقف على رأس التيار الذى كان يمثل الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان . . كانت الغالبية العظمى من الشعب معك . . ومع ذلك انتصرت الديكتاتورية التى كان يمثلها عبد الناصر . . فما السبب فى ذلك ؟

أجابنى : أسباب كثيرة .. قيادات الشعب كانت فى السجنون .. الإرهاب ..
الاعتقالات .. تكميم الصحافة .. الدعاية المضادة ..

ورغم أن إجابته كانت تمثل جزءا من الحقيقة فإنها لم تكن تمثل الحقيقة كلها ، غاب
جزء منها ، وهو أنه رفض استخدام القوات المسلحة فى الصراع مع أنه كان بمقدوره ذلك
بسهولة .

ويشرح اللواء محمد نجيب فى كتابه فى صفحة ٢٢١ أحد الأسباب الأساسية التى دفعته
إلى عدم استخدام القوات المسلحة فى الصراع مع عبد الناصر فيقول : جاءتنى معلومات
جديدة مؤكدة أن اتفاقا قد تم بين الأمريكان وبعض أعضاء مجلس الثورة على هذه
المؤامرة ، وأن قوات الاحتلال البريطانى وضعت فى حالة استعداد وأنها احتلت مواقع
متقدمة على طريق السويس .. القاهرة للتقدم فى حالة حدوث اشتباك مسلح لاحتلال
القاهرة .

ويضيف نجيب قائلا :

« وأجمعت أمرى على رفض استعمال القوة .. لم أوافق على تحريك قوات عسكرية ولم
أوافق أيضا على اعتقال أعضاء المجلس بعملية قد تعرض حياتهم للخطر ، وقد تعرض
استقلال مصر للضياع » .

سألته : سيادة اللواء .. لو كنت تعلم ما سيفعله عبد الناصر بعد استيلائه على
الحكم .. هل كنت ستمضى فى طريق الصراع إلى نهايته ؟

أجاب قائلا : يقينا لو كنت أعرف لما ترددت فى الاختيار .. عبد الناصر ودا البلد فى
داهية بل فى ستين داهية .

ثم أخذ يعدد لى جرائمه :

- أبشع انتهاكات لحقوق الإنسان وكرامته .
- هزائم عسكرية .
- إفلاس مالى .
- إفلاس أخلاقى .

ثم قال لى محمد نجيب : تصور يا أخى بدأت الانحرافات وأنا مازلت موجودا فى
السلطة وقد ثرت وغضبت .. كل ذلك مذكور فى كتابى .

وعدت بسرعة إلى الكتاب فوجدت فى صفحة ١٧٠ ما يلى :

«كانت تصرفات بعض الضباط الذين انطلقوا في أنحاء المجتمع مندوبين للقيادة أو ممثلين لهيئة التحرير قد أساءت إلى الثورة . ولوثت ثوبها ببقع سوداء شائنة ، وقد بلغني أن أحد الضباط خسر على مائدة الميسر عدة مئات من الجنيهات في ليلة واحدة . . وأصدرت قانونا لتحريم الميسر في المحلات العامة والخاصة ، ومنع مضاربات البورصة على الموظفين حماية لهم ، وإرساء لقواعد وقيم أخلاقية جديدة . وفي مرة ذهبت لزيارة أحد أعضاء مجلس القيادة في منزله فوجدت فنانا يصنع له تمثالا يتكلف ٢٠٠ جنيه وكنت أعرف أن حالته المالية لا تسمح بذلك فعنفته وخرجت غاضبا .

ولاحظت في إحدى المرات ونحن نقبل على تناول العشاء في مجلس القيادة أن بعض أدوات المائدة كانت من الفضة ومكتوب عليها «القصور الملكية» وثرث ثورة عنيفة وأبعدت الضابط الإداري المسئول عن ذلك وأمرت بإعادة هذه الأدوات إلى القصور الملكية» .

وفي صفحة ١٧١ من الكتاب وجدت مفاجأة لم أكن أتوقعها . . يقول محمد نجيب بالحرف الواحد :

«أذكر مع الأسف واقعة ربما يكشف التاريخ يوما عن مزيد من حقائقها . . كنت متجها في عربتي إلى نادي الضباط بالزمالك لتهنئتهم بعيد الأضحى وكان معي في العربة البكباشي جمال عبد الناصر واقترب مني جمال - وكان ذلك قبل أن يصبح نائبا لرئيس الوزراء - وقال لي :

- اني أود أن أعرض عليك أمرا ناقشته مع بعض الزملاء . .

وأصغيت إليه باهتمام وبدأ يتحدث قائلا :

- أعتقد أن ظروفنا الحاضرة تقتضي أن ننظر إلى مستقبلنا ومستقبل حركتنا ونحن الآن نحيط بنا عواصف مضادة لا نعرف مصيرنا معها .

ثم استطرد قائلا :

- ولذا فكرت أن يأخذ كل عضو من أعضاء المجلس مبلغ عشرة آلاف جنيه وتأخذ أنت أربعة عشر ألف جنيه فيكون المجموع ١٣٤ (ألفا) وقد طلبت من زريا أن يحجزهم لنا نقودا جديدة .

ويقول محمد نجيب : ورأيت الدم يغلي في رأسي ولم تحتمل أعصابي الحديث ، فصرخت في وجهه طالبا منه أن يسكت حتى لا ينفجر رأسي من هول ما سمعت ، وبدأت أعنفه تعنيفا شديدا على ما استباحه لنفسه من مال الشعب .

وكان رد جمال ضحكة عصبية وهو يردد متلعثما :
- أنا كنت متأكد إنك حترد على بالشكل ده .

ويقول محمد نجيب في كتابه تعليقا على هذا الحادث : «أعطاني ذلك مؤشرا على اتجاه جديد في سلوك الزملاء أقول مع الأسف إنى ما توقعته ولا تخيلته .

قلت للرئيس السابق : وما رأيك في حكم السادات الذى خلف عبد الناصر بعد أن مات ؟

أجاب قائلا : السادات رجل عظيم . . يكفى أنه أزاح كابوس الديكتاتورية الذى جثم على بلادنا منذ سنة ١٩٥٤ . . أطلق الحريات ، أعاد سيادة القانون أصلح الكثير من أخطاء عبد الناصر وأعاد سيناء إلى مصر مرة أخرى .

قلت له : ولكن ألا ترى معى أنه قد انحرف هو الآخر وأصبح ديكتاتوريا ؟

رد قائلا : لا . . أبدا . . كان أرحم من عبد الناصر بكثير ويكفيه فخراً حرب أكتوبر وفى عهده تم وقف التعذيب . وإذا كانت هناك أخطاء له فحسناته ترجع سيئاته ، وفى النهاية كل حاكم بشر . له أخطاء وحسنات . المهم التفكير فى مصلحة مصر وليس فى دعم الحكم المطلق .

وسألته : وما رأيك فى حكم الرئيس مبارك ؟

أجابنى : هذا الرجل يذكرنى بشبابى وأنا أحبه . . إنه يحترم سيادة القانون وأحكام القضاء ويعمل على تحقيق الإصلاحات الاجتماعية وإصلاح علاقات مصر مع الدول الأخرى وهو رجل نظيف . . بعيد عن الأنانية والمطامع الشخصية وحب الزعامة وفى عهده تسير بلادنا كل يوم خطوة فى طريق الديمقراطية .

سؤال أخير وجهته إلى الرئيس السابق محمد نجيب : ما هى الدروس المستفادة من أزمة مارس وانتصار الديكتاتورية ؟

أجابنى : الديمقراطية ولا شىء غيرها . .



إلى هنا ينتهى ما نقلته من حديث الأستاذ محمد عبد القدوس مع الرئيس الأسبق محمد نجيب وما يتضمنه من مقتبسات من كلام محمد نجيب .



ولم يكد عبد الناصر يتخلص من محمد نجيب وكل من يؤيد الحرية والقانون حتى اندفع في سرعة خاطفة يحقق هدفه الرئيسى وهو الانفراد بالحكم ، فعاد مجلس الثورة وهو رئيسه . ثم أصبح رئيسا للجمهورية وبدأ يحكم حكما مطلقا دون معارضة ، لأن كل معارضة له خيانة للثورة تستوجب العقاب . والعقاب هنا يتم على يد السلطة التنفيذية لأنه ألغى السلطة القضائية ، وجعل نفسه القاضى الأعلى الذى يحكم بالشرعية الثورية التى هى عنده فوق الشرعية القانونية والدستورية وفى هذا الغمار سيطر جمال عبد الناصر على كل زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم يعد خارجا عن سلطانه إلا عبد الحكيم عامر المتحصن فى قلعة الجيش . ولم يكن هذا ليضيره فقد كان عبد الحكيم عامر إلى ذلك الحين صديقه وحليفه وشريكه ، بل ضمان قوته وعصاه الغليظة التى يضرب بها لأنه صاحب الكلمة الأولى فى القوات المسلحة .

وعبد الحكيم عامر اعتبر هذه القوات «عُمُودِيَّة» هو عمدتها ومكتبه كان مسطبة حقيقية فيها دردشة وضحك واستخفاف بالناس وإلقاء فى السجون . والمشير كان يشير بأصبعه فيذهب الإنسان إلى اللجنة أو النار .

وهذا الذى فعله جمال عبد الناصر هنا إنما هو «روتين» بالنسبة لتواريخ المستبدين ، كلهم يتصرفون على هذا النحو الذكى السريع ويعرفون كيف يضعون أيديهم على كل جوانب السلطة برضى ظاهرى من الشعب فى البداية ، لأن الشعب يكون فى ظروف الثورات والانقلابات فى حالة خوف من عودة الماضى البغيض ، ويتصور الناس أن هذا الحاكم الجديد بأمره هو المنقذ وهو طوق النجاة ولا بد من تأييده حفاظا على الثورة وثمراتها وضمانا لاستمرارها .

واندفع الشعب يؤيده كما فعل الشعب الفرنسى مع نابليون بعد انقلاب بردمير كما رأينا .

ولكن نابليون أعطى الشعب الفرنسى فى مقابل ما أخذه منه مجدا عسكريا مازالت فرنسا كلها تطرب لذكرياته ، فقد أنشأ ما أسماه بالجيش الهائل وعدته أساسا نصف مليون مقاتل ، غير الإضافيين والمساعدين ، وبفضل هذا الجيش وعبقريته نابليون العسكرية أصبحت فرنسا فيما بين ١٨٠٤ و ١٨١٢ بالفعل سيدة أوروبا ، وانتصارات نابليون وهى فرنسية كانت تعتبر انتصارات أوروبية تحريرية ، لأن جيوشه كانت تحطم امبراطورية النمسا مرة بعد أخرى ، وفرنسا بسطت سلطانها الفعلى على ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ، وهذا هو العصر الذهبى للسيادة الفرنسية السياسية والعسكرية فى أوروبا ، وهو مهها كان رأى فيه والتمن الذى دفع مقابله مجد قومى ، لأن جيوش نابليون كانت تشق الأرض الأوروبية

رائحة غادية وكانت تضع نهاية لعصور استبداد فردى ، وتبذر بذور الحرية والعصر الجديد .

أما عبد الناصر ، فلم يعط شعب مصر أى مقابل لما فقد معه من حريات ، وأجاده كلها أمجاد خطب واتحاد وهمى مع سوريا ، وهو اتحاد لم يجن البلدان منه إلا المتاعب ثم التدخل الأوج في اليمن ، ثم الهزيمة الكاسرة للظهر بعد ذلك . وقد قال بعض أنصاره إن كل الدول تجرى عليها الهزائم ، يريد بذلك الدفاع عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومقارنتها بهزيمة نابليون في روسيا سنة ١٨١٢ ، وعودته من روسيا بعد أن تحطم جيشه العظيم ، ومن سبعمائة ألف فرنسى عاد إلى فرنسا أقل من مائة ألف ، ولكن نابليون على الأقل بنى مجدا عسكريا ، ولم يهزم إلا عندما تجمعت عليه أوروبا كلها ، فأين هذا مما حدث في حروب عبد الناصر ؟!

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ تنبه الشعب إلى الثمن الفادح الذى دفعه ؛ ليرتفع عبد الناصر إلى سراب خادع سمي بزعامة العرب .

إن جيشنا لم يهزم في حرب ١٩٦٧ ، بل هو لم يحارب أصلا لكى يقال إنه انهزم . وقد أثبت ذلك في أحد ملاحق هذا الكتاب بقطعة من رواية السمك الروسى التى ألفها ضابط شاب ممن اشتركوا في حرب ١٩٦٧ وانهزموا دون أن يحاربوا ، أو كما عبر عن ذلك نجيب محفوظ في مقال قصير كتبه في الأهرام : إن الجيش المصرى صدرت له الأوامر بأن يهزم فانهمزم ، وهذا ما يحكيه عصام دراز في قصته تلك .

باختصار وقعت الهزيمة القاصمة إذن ، واحتل الاسرائيليون سيناء وعسكروا على ضفة القناة وبدأوا يطالبون بحفظهم منها ، وبدأوا يرسمون خططهم على أساس الاستيلاء عليها وعلى خليج السويس الذى بدأت خرائطهم تسميه خليج سليمان ، وبعد ذلك بقليل بدأ سحب القوات المصرية من اليمن بعد مغامرة قامت على سوء النية وانتهت بسوء العاقبة .

مثل هذه الكارثة جلبها على قومه أدولف هتلر ، ولم يكن هتلر بالمجنون ولا المغفل ، ولكنه كان واحدا من أولئك الذين يستولى عليهم عشق السلطان والسيطرة على العقول بالخطب البليغة ومظاهر القوة ، ولكن حتى أدولف هتلر أعطى شعبه شيئا قبل أن يصل إلى نهايته البشعة ، فقد تسلم مستشارية الرايخ الثالث من يد الماريشال «هون هندمبورج» في يناير ١٩٣٣ ، واندفع بعد ذلك في بناء قوة عسكرية لم يسمع بمثلها التاريخ قبل ذلك .

وألمانيا التى كانت تعاني من الفقر والذل والمهانة وانتشار البطالة والمرارة نتيجة

لمعاهدات فرساي انتعشت وأصبحت أقوى دولة في أوروبا ، والصناعة الألمانية استردت سابق سمعتها . وهتلر في بناء الرايخ الثالث لم يؤمم مصانع كروب أو.أ. أى. جى أو قلاع الصناعة في دوسلدورف وحوض الرود بل ضم رجال الصناعة إليه ، وأنشأ مصانع عسكرية كبرى في بلاد مثل شفايفورت واكتسحت البضائع الألمانية الجيدة أسواق العالم ، وحوالى ١٩٣٨ إلى قبل قيام الحرب بعامين كانت ألمانيا في طليعة بلاد أوروبا حضارة وازدهارا ، والفرق الاتحادية الكبرى أو البونديزياتى كانت تبهر أبصار الدنيا ، وعاد جنون العظمة عنده بشىء من الخير على ألمانيا ، فقد كان يطلب إلى وزير الإنشاء عنده وهو البرت شبير أن يبنى له منشآت لم تعرفها أوروبا منذ أيام الرومان ولن تعرف مثلها لألف عام ، فقامت المباني العظيمة الساحقة وأصبحت بلاد مثل نورميچ مدنا كأنها من صنع الخيال ، وكل هذه تحطمت أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكن بقيت للشعب الألمانى تلك الخبرة الضخمة التى كسبها أثناء سنوات الحرب ، ولولا ذلك لما استطاعت ألمانيا النهوض بعد الهزيمة الكاسرة ، أى أن الرجل رغم كل مساوئه أعطى ألمانيا شيئا ، أما هنا فماذا أخذنا غير تدهور التعليم وهبوط الثقافة وانحيار الصناعة التى كانت قائمة ، واضطراب شئون العمال وإفسادهم بما سمي بمكاسب الثورة ، والعمال المصريون كانوا قطعاً سيصلون إلى خير منها لو لم توضع كل هذه القوانين الارتجالية .

وقد قرأت في ذلك مقالا ممتعا للكاتب الصديق الصحفى الأستاذ محمد جلال كشك وهو مقال عظيم القيمة فيما يتعلق بتعريفنا بالأساليب الناصرية . وسأورد جانبا كبيرا من كلامه شاهدا على ما أقول ، وأنا لا أورد هذه الشواهد والحقائق عن طبيعة الاستبداد الناصرى لكى أشهر أو أتهم ، فما لى في ذلك أرب ولا صالح ، وإنما نحن نكتب عن معنى لكى ننير طريق المستقبل ، ونكشف جوانب الأخطاء الماضية ، حتى لا نقع فيها مرة أخرى .

والله يعلم أن تقديرى لشخصية عبد الناصر وذكائه عظيم ، وهذا ما يزيدنى ألما ، ذلك أنه كان يستطيع أن يخدم مصر والعرب ألف مرة أكثر مما فعل ، لأنه كان موهوبا حقا ، ولأنه كان يتمتع بما يسمى بسلطة سحرية على الجماهير فيملك زمامها ويجعلها تسير طوع وإشارته ، وتتحمس لكل ما يقول ، وتعمل دون تفكير لا من ناحيته أو من ناحيتها ، وهذا هو ما يسمى بالكارزمية أى سحر الشخصية وجاذبيتها والقوة الغالبة التى تنبعث منها ، وأدولف هتلر تمتع بهذه الخصائص إلى درجة لم يسمع بمثلها في التاريخ حتى إن مئات الألوف من الألمان كانوا إذا رأوه جن جنونهم وهتفوا : هايل هتلر . . . هايل . . . هايل ! . . دون

وعى ، وكان سحر نابليون على ضباطه وجنوده لا يصدق ، وفي أوسترليتز أمر فرسانه بالهجوم على مدفعية العدو فاندفعوا واستولوا على المدفعية وسقط منهم ألفون دون أن يشعروا كما قال أندريه موروا ، وكذلك كانت سيطرة لينين على الجماهير الروسية وأتاتورك على جماهير الأتراك . . ولو أوقف عبد الناصر جزءا مما أوقف كمال أتاتورك من بعد النظر والحكمة (فيما عدا موقفه من الإسلام والعرب) لاستطاع أن ينقلنا خلال العشرين سنة التي حكمها من العالم الثالث إلى العالم الثاني . ومعظم مشاكلنا اليوم آتية مما حدث خلال الفترة الناصرية ، ويكفى أن أقول لك إن جمال عبد الناصر لو أمهل الرئيس محمد نجيب سنتين اثنتين لكانت مشكلة وحدة مصر والسودان قد تحققت في ذلك الوقت برضى شعبى وادى النيل كله واجتماعه حول راية محمد نجيب المصرى السودانى ولقامت دولة وادى النيل السودانية المصرية لتصبح أول دولة أفريقية في مصاف دول العالم الكبرى . وكل ذلك ضاع لكى يصبح عبد الناصر رئيس مصر يهرول وراء رياسة العرب .

وأعود إلى مقال الأستاذ محمد جلال كشك لأورد منه فقرات تكشف لنا من الأساليب الناصرية ما نجهله ، لأن جلال كشك باحث صحفى كاتب مطلع يعرف من أسرار الحوادث ما يغيب عنا . قال في مقال بعنوان : «في الذكرى الثلاثين لوفاة الحرية» (نشر في مجلة أكتوبر ، عدد ٣٩١ الصادر في ٢٢ أبريل ١٩٨٤) :

ففى مثل هذه الأيام في ربيع ١٩٥٤ خرجت لأول وآخر مرة في تاريخ مصر مظاهرة تهتف : «تسقط الحرية» !

وفي مثل هذه الأيام ألغيت الحريات بناء على طلب الشعب ، وفتحت المعتقلات لتستقبل كل من ساهم في العمل السياسى في تاريخ مصر . . وألغيت الأحزاب والصحف وحلت النقابات وانتهكت حرمة الجامعات المصرية . .

في مثل هذه الأيام من ثلاثين سنة ضرب رئيس مجلس الدولة «علقة» وزرع زعيم الثورة «القنابل» في قلب عاصمة وطنه . وبعث رئيس جمهورية مصر يستأذن مجلس الثورة في ذبح «العجل» الذى نذره إذا ما أعلنت الوحدة مع السودان لأنه لا يستطيع توفير العلف للعجل ، بعد تحديد إقامة أول رئيس جمهورية لمصر هو والعجل . . !

ومن المؤكد أنهم أضاعوا الوحدة مع السودان ، ولكن ما من مؤرخ سجل لنا ما إذا كانوا قد سمحوا بصرف العلف للعجل أو تركوه يموت مع الحرية وسيبقى هذا السؤال في ضمير التاريخ والناصرين وجمعيات الرفق برؤساء الدول الثورية !

وفي ربيع ١٩٥٤ تجمعت إرادة الشعب المصري ، ممثلة في أحزابه من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، حول مطلب واحد هو : إنهاء الحكم العسكري وعودة الجيش إلى مهمته الوحيدة وهي الدفاع عن الوطن عند الحدود . . وبالتالي قيام حياة ديمقراطية قائمة على الانتخابات وحرية الصحافة وتعدد الأحزاب وكل ما تعارفت الشعوب عليه في صراعها ضد الطغيان . .

وكانت غالبية القوات المسلحة وبعض أعضاء مجلس الثورة نفسه يؤيدون هذا الموقف فضلا عن محمد نجيب ، وكان يؤيد هذا الموقف خالد محيي الدين ويوسف صديق ورشاد مهنا . . وجمهرة من ضباط الصف الثاني في تنظيم الضباط الأحرار الذين هالهم - كما جاء في مذكرات بغدادى - أن الشعب الذى عانقنا في الشوارع صباح يوم الثورة يبصق علينا الآن ! . .

وكان هؤلاء الضباط قد قاموا بحركة ٢٣ يوليو وأيدهم الشعب ، على أساس أن الجيش سيتولى تحرير إرادة الشعب المصري من استبداد القصر واستجابته للتدخل البريطاني ، ثم يترك للشعب مسئولية بناء النظام الديمقراطى الذى يحقق أهدافه ولكن الزعيم الحقيقى للثورة ، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ، بل كان يعتقد - كما قال للسفير الأمريكى كافرى في تصريح أكثر من مشهور - « أن إعطاء الشعب المصرى الديمقراطية اليوم ، يعادل إلقاء أولادى في الشارع باسم حريتهم في التصرف » . . ولم يكن رحمة الله عليه يهتم كثيرا بمدى تأييد الشعب لوجهة نظره ، فكما يروى عبد اللطيف بغدادى أحد أقطاب تلك الفترة أن عبد الناصر حضر إلى اجتماع مجلس الثورة وقال لهم : « إن هذه الثورة ليست لها قاعدة شعبية تعتمد عليها ، وليس هناك من يؤيدها لا من الشعب ولا من الجيش . وأن الذين قاموا بالثورة تسعون ضابطا فقط ، وأنهم في تناقص حتى أصبح عددهم خمسين ضابطا الآن » وعلقت على كلامه هذا بقولى : معنى هذا أننا نفرض أنفسنا على هذا البلد ؟ فرد على بالإيجاب ، فقلت : في هذه الحالة يجب علينا أن « نروح » إذا كان هذا هو الوضع .

وقد حدث عكس ذلك ، فالشعب هو الذى « روح » لأن قائد الثورة كان يؤمن بأن الرجل القوى « أغلبية » وكانت له وسائله في تنفيذ ذلك ، فقد أورد بغدادى واقعة « مذهلة » عن عجائب تلك الفترة ، ولو أن الأكثر ذهولا منها هو أن المؤرخين لم يهتموا بها !!

قال بغدادى بالحرف الواحد : أشار جمال إلى أن هناك ستة انفجارات قد حدثت في نفس اليوم ، وكلها في وقت واحد ، وفي أماكن متفرقة ، واحد منها في مبنى محطة السكة

الحديد واثنان بالجامعة وآخر بمحل جروبي . . إلخ وكان غرضه من الإشارة إلى هذه الانفجارات هو توضيح أن هذا حدث نتيجة لسياسة اللين والميوعة الظاهرة في موقف الحكومة . وكان محمد نجيب مصرا على اتخاذ الإجراءات العادية ، ومعارضاً في اتخاذ أية إجراءات استثنائية .

ويكمل بغدادى بقنبلة سابعة إذ يقول :

« اعترف لنا جمال عبد الناصر وهو على فراش المرض أن الانفجارات التي كانت قد حدثت وأشار إليها في الاجتماع إنما هي من تدبيره لأنه كان يرغب في إثارة البلبلة في نفوس الناس ليشعروا بأنهم في حاجة لمن يحميهم على حد قوله » .

(مذكرات بغدادى الجزء الأول صفحة ١٤٦) .

وكان رحمة الله عليه لا يعرف المهادنة في قضية السلطة ، فهو لم يتردد في زرع القنابل لتسقط في جروبي والجامعة ، حيث تتجمع الرجعية في الأول والبرجوازية الصغيرة في الثانى . . بل أيضاً في محطة السكة الحديد حيث جماهير الشعب الغافلة . ومن الغريب أنه بعد تلك الحادثة ببضعة شهور أرادت جهة أخرى زرع البلبلة في مصر ، فقامت المخابرات الإسرائيلية بتنفيذ الانفجارات في أهداف أمريكية وبريطانية ، وهو ما عرف بعد ذلك بعملية « لافون » ثم فضيحة « لافون » التي ظلت تخيم على السياسة الإسرائيلية ربع قرن وشكلت فيها أكثر من لجنة تحقيق ، حتى سقط مدير المخابرات الذى نفذ العملية ثم « بنحاس لافون » وزير الدفاع الإسرائيلى الذى أمر بتنفيذها ، بل أصابت « بن جوريون » نفسه مؤسس إسرائيل ومصمم انتصارها في حرب ١٩٥٦ . . واعتبرت فضيحة لأنها عرضت سلامة مواطنين إسرائيليين للخطر رغم « الهدف » القومى الذى أوحى بها . . أما عندنا فلا أحد يهتم حتى الآن بتحقيق هذه الواقعة التي أشار إليها بغدادى ، ولو ليرى تاريخ مصر وتاريخ الزعيم من مثل هذا العمل . . أعنى تعريض سلامة المصريين للخطر في سبيل استمرار سلطة (خمسين ضابطاً) لا يتمتعون بتأييد الشعب ولا الجيش !

كانت أياما قاسية في ربيع عام ١٩٥٤ ، فبعد أن تمت تصفية الوضع داخل الجيش واستقال خالد محبى الدين ووافق على السفر للخارج ، وتم اختطاف رئيس الجمهورية واحتشد نحو نصف مليون مصرى كانوا قد تجمعوا في ميدان عابدين على استعداد للزحف إلى حيث تأمر قيادتهم السياسية لإنقاذ الديمقراطية المصرية ، إذا بالشهيد عودة يأمرهم بالانصراف والنوم مبكراً . .

وكانت غلطة سياسية أو مساومة ساذجة . . لا أحد يدري ، ولكن الشهيد عوده رحمه

الله دفع ثمنها شخصيا كما دفعه الإخوان المسلمون ومصر كلها . . عندما انقض في اليوم التالي زوار الفجر الذين لا ينامون ، على من ينامون ويصلون الفجر !

وضرب رئيس مجلس الدولة « علقه » ، وهي بالطبع الأولى من نوعها في تاريخ مصر ، ونسأل الله أن تكون الأخيرة . . فهذا الوطن تميز باحترام القضاة منذ عهد الفراعنة ، فترى على مقابرهم « فرعون » العظيم يقف خاشعا خائفا أمام ميزان العدالة الذي يمسك به قرد أو قط أو حتى بقرة . . وربما كان ذلك عن قصد ، فالهدف هو تأكيد أن شخص القاضي لا يهم ، فما دام يمسك بميزان العدالة ، وما دام يجلس على كرسي القضاء ، فلا بد أن يخضع له الفرعون ذاته . . هكذا استقر في ضمير المصريين احترام القضاء ، حتى في أحلك عصور المماليك خضع السلطان لحكم القضاء بأن يباع السلطان في سوق الرقيق . . إلى أن ضرب رئيس مجلس الدولة « علقه » وظهرت كائنات بشرية من طراز « الدجوى » وطرح مبدأ عدم الفصل بين السلطات لأنه شعار بورجوازي مضلل . . !

ويعترف بغدادي أن الذين ضربوا رئيس مجلس الدولة في مبنى مجلس الدولة أعلى سلطة قضائية في مصر وقتها ، قد نقلوا في لوريات تابعة للشئون العامة الخاصة بالجيش وطلبوا بترولاً سلفة من السلاح الجوي الذي وفره لهم على الفور (وكان بغدادي يشرف على السلاح الجوي) وهو يفتخر بسرعة الإنجاز في « صرف » بترول السلاح الجوي للذين ضربوا رئيس مجلس الدولة ، ولكنه ينسى ما أورده في نفس المذكرات . . وهو أنه لما وقع العدوان الإسرائيلي على مصر في عام ١٩٥٦ طلبوا من قائد الطيران المصري إياه أن يشن هجوما جويا على مدن إسرائيل وقوات إسرائيل اعتذر بأن « الجاز » خلص أو كما قال بغدادي ان السلاح الجوي ليس لديه بترول . . . واندفع بغدادي يهاجم تفريط قائد الطيران في البترول ، ونسى أن البترول ضاع في تسيير لوريات ضارب القضاء ، نسي أنه أحد الذين أقرروا « على الفور » أن تسيير لورى المؤيدين للسلطة أهم من تسيير السلاح الجوي . . وأن ضرب « الرجعية » مقدم على ضرب إسرائيل . . وأن من أعان ظلما سلطه الله على أخيه بالحراسات .

ثم يستطرد الأستاذ جلال كشك فيقول تحت عنوان : « موت صحيفة » :

في ربيع ١٩٥٤ منذ ثلاثين سنة ماتت حرية الصحافة ، واسمحوا لي أن أحكى قصة صحيفة وقصة صحفي من ضحايا ماتم الحرية ، وهي صحيفة الجمهور المصري وأبو الخير نجيب صاحبها . . فقد صدرت في عفوان المد الثورى الحقيقى (١٩٥٠ - ١٩٥١) واشتهرت بالإثارة الناجحة ضد الاستعمارين الأمريكى والبريطانى ، وأحزاب الأقلية

والقصر . . فهي مثلا التي اكتشفت « العسكرية الأسود » الذي استخدمه السعديون في تعذيب الإخوان المسلمين واستطاع محرر الصحيفة الأستاذ « سعد زغلول فؤاد » أن يأتي به إلى المحكمة ، وكان السعديون ينكرون وجوده . .

وهي التي أثارت ضجة عالمية عندما نشرت خبر سفينة أبحاث أمريكية تجرى تجارب جرثومية على أسرى الحرب الكورية . .

غير أن أبرز مواقفها ، هو تبنيها للكفاح الشعبى فى منطقة القناة بعد إلغاء المعاهدة ، وقد نشرت إعلانا عن استعدادها لدفع ألف جنيه لمن يقتل « أرسكين » وأرسكين هذا هو قائد جيش الاحتلال البريطانى فى مصر وقتها . . وربما لا يفهم الجيل الجديد مغزى ذلك ، ولكن تخيل لو أن جريدة عربية فى الضفة الغربية تنشر عن مكافأة لمن يأتي برأس قائد جيش الاحتلال الإسرائيلى ، أو صحيفة جنوب لبنان المحتل والمنسى . . أو صحيفة تصدر فى كابول عاصمة أفغانستان ، تنشر علنا إعلانا يدعو لقتل قائد جيش الغزو السوفيتى .

وقد جن جنون الإنجليز ، وفقدوا برودهم ، وتقدموا بطلب رسمى نشر أخيراً ضمن الوثائق البريطانية المفرج عنها ، يطلبون محاكمة أبو الخير نجيب ومعاقبته ولكن حكومة مصر « الرجعية » رفضت هذا الطلب بل احتجت على مجرد تقديمه ، وكان على الإنجليز أن ينتظروا عامين وثورة حتى يتحقق مطلبهم ، ويصدر ضد أبو الخير نجيب أقصى حكم فى تاريخ الصحافة المصرية .

كان أبو الخير نجيب قد كتب مقالا فى العهد الملكى بعنوان : « التيجان الهاوية » تحدث فيه عن مصير الملوك الذين ينحرفون ، ونشر المقال الذى يعرض بملك البلاد ولم يتعرض أحد لكاتبه لأن مصر كان بها حرية صحافة وضممانات تحمى حرية الصحافة . . فلما جاءت الحركة المباركة كانت قيادتها من الصاعغات والبكباشية ، ورتبتهم يرمز لها « بالتاج » على أكتافهم ثم غيرت الثورة ذلك وأحلت النسر محل التاج . . وفى فترة « البلبلة » أو الانفراجه الأخيرة فى مارس ١٩٥٤ . . كتب أبو الخير نجيب يقول إنه فكر فى كتابة مقال بعنوان : « النسور الهاوية » . .

وقتل كيف فكر !

ألقي القبض عليه وهو يتناول طعام الغداء . . وحوكم أمام محكمة الثورة برئاسة عبد اللطيف بغدادى الذى منعه من الدفاع عن نفسه وقاطعه بضرب متواصل بالمطرقة حتى انكسرت وطار جزء منها فاصطدم بجبهة المتهم وسال منها الدم فى حضرة القضاء . .

وحكموا عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاما بتهمة التفكير في كتابة مقال . .
ومرت الأيام !

وكبر الأطفال . . والصبي الذي تركه أبو الخير يتساءل في حيرة . . ماذا جنى أبوه
ليحرم منه حيا ؟ . . ولماذا لم يعتقله الانجليز ولا الملك . . بل . . ؟
المهم كبر الإبن وانضم إلى منظمة الشباب وأصبح من جيل الثورة . . ووقف في أحد
الاجتماعات وصاح على طريقة السلف الصالح في عهود الظلام : « متظلم يا أفندينا » . .
وكان المسئول ، ولا يهم شخصه ، فرجا كان سامى جمعة أو شعراوى شرف . . فلا
أحد يهتم باسم عشناوى . . ولا التاريخ يذكره بعد أن يسقط من على منصة الإعدام . .
المهم كان المسئول منشرح « المزاج » فقال للفتى : « شبيك لبك القرارات الثورية بين
يديك ! »

وتشجع الفتى وقد فتحت له ليلة القدر . . وطلب العفو عن أبيه . .

وقد كان . . وصدر أمر الإفراج ليلا في نفس اليوم . . والذين نسوه في السجن سنين
لم يطيقوا أن يبيت ليلة واحدة بعد ما صدر الأمر . . وفتحوا باب زنزانته في الليل ، وكان
يطبخ طعامه على الورق ، وهو من الممنوعات في سجن الثورة . . فبادر الضابط قائلا :
« رحنا التخشبية يابيه ١٩ » فرد الضابط : لا . . حتروح بيتكم !
وقال أبو الخير نجيب : أنا لا أعرف أين بيتنا ! . .

كانت الأسرة التي تدهور حالها ، قد انتقلت إلى بيت أصغر ، ولم يهتم هو ولا اهتم
أحد بتعريفه بالعنوان الجديد ، فلا أحد يعطى عنوانه لسكان القبور . . وهم لا
يسألون . . وبدأ الحديث عن منزل المحرض على قتل قائد جيش الاحتلال . . وكاتب
« التيجان الهاوية » . . وذهب أبو الخير نجيب إلى بيته في منتصف الليل بعد غيبة تزيد على
عشر سنوات . .

ذهبنا نهنته بالإفراج . . فقال : كرامتى كإنسان لم تسحق يوم محاكمتى ولا سجنى بل
سحقت بالإفراج عنى بهذه الطريقة . . كسروا قلبى . . بعد ما كسروا قلمى . . ليست
المهانة فى بطش الحاكم ، بل فى مثل هذا العفو . ولم نعلق ، فقد كنا فى غنى عن الحاكم
وعفوه . .

أما حكاية مظاهرة « تسقط الحرية » فقد نشرت بعد ذلك تفاصيلها ، وقيل إن الرئيس
عبد الناصر دفع ألفى جنيه لصاوى الذى نظم المظاهرة ، والذى لقبه الشعب بعد ذلك

بصاو أحمد صاو . . على وزن اللورد هاو . . أشهر خائن في تاريخ بريطانيا . . وقد دافع الرئيس بعد ذلك عن هذا بأنه سبق خالد محيي الدين الذي كان - في رأيه - سيعمل نفس الشيء لضرب الثورة . . وكان رحمة الله عليه يستشهد دائما بتلك الواقعة ، كلما حدثوه عن موقف الشعب أو الرأي العام فيقول : لا تحدثوني عن الرأي العام أنا اشتريته بألفى جنيه . . !

وبعد . . ففي الذكرى الثلاثين لوفاة الحرية ، أقول للشباب . راقبوا الله ومستقبل وطنكم في الانتخابات القادمة . . جنبوا وطننا محنة أخرى . .

وكان لا بد من هذا الاستطراد وما يتعلق به من التعليقات لكي تتبين لنا بعض الملامح الخافية في تاريخ العصر الناصري .

وبعد مقتل الرئيس السادات نشرت مذكرات الكثيرين من رجال الثورة وكلهم يقولون أن عبد الناصر استبد بهم واعتدى على الحريات برغمهم ، ولكن هذا غير صحيح . والذي نعرفه نحن أن قادة الثورة جميعاً - بعد أن استتب لهم السلطان - كانوا يعتقدون أنهم دون سواهم أصحاب هذه الثورة وصناعها وقادتها وورثتها بل ورثة مصر والمتكلمون باسم شعب مصر . وأنا شخصياً أكن احتراماً عميقاً لاثنيين من قادة الثورة الأول ، وهما السيدان كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي لأنها على جانب كبير من الثقافة وصدق الوطنية ، والرغبة في العمل لصالح البلد . فأما كمال الدين حسين فثقافته دينية وهو رجل صادق التقى شديد الإخلاص في عمله ، وأما عبد اللطيف البغدادي فيتميز بصدق وفهم ومقدرة إدارية عظيمة ، وخلال السنوات الأولى للثورة استطاع أن يدخل على مدينة القاهرة إصلاحات جوهرية غيرت صورتها فقد أصلح شوارع البلد وأرصفته وأعطاهها هيئة جميلة ، وقد قضى على الإثنيين جمال عبد الناصر في عنف ، بل سجن كمال الدين حسين الذي كان ساعده الأيمن في يوم من الأيام ، وقد عزله وأزال عنه كل سلطان لأنه في وقت ما ، وربما في أوائل الستينات كسب كمال الدين حسين شعبية كبرى بسبب ما رأى الناس من حزمه وحسن تصرفه للأمور أثناء رحلاته الإصلاحية في محافظات مصر ، وتحدث الناس بفضله وقدرته ، وتلك كانت في نظر جمال عبد الناصر جريمة تستحق العقاب فلم يسترح إلا بعد أن أقصاه من كل سلطان وألزمه بيته ، وعندما احتج على بعض تصرفاته أمر بسجنه فسجن .

وأما عبد اللطيف البغدادي فقد عاقبه بما رأى وقدم من خدمات لوطنه ، وقد حكى الرجل قصته في مذكراته المطبوعة المتداولة بين الناس وهي من أمتع ما كتبه رجال الثورة وأصدقها فليرجع إليها من يريد .

ولكن رجال الثورة جميعاً بما فيهم هذان الفاضلان لم تكن لديهم على الجملة نظريات عقائدية أو أيولوجية . كان كل ما لديهم حماس لم يكونوا يؤيدونه بالديمقراطية أو الحرية ومن هنا فإنهم بعد أن تمكنوا من السلطان لم يكن لديهم الاستعداد - وفي أسوأ الظروف - للسماح للشعب بأى نصيب من المشاركة فى الحكم ، وقد نشر السيد عبد المجيد فريد ، وكان فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ من أقوى شخصيات الحكم الناصرى ، فى مجلة الوادى ثم فى جريدة الأهالى صفحات مما سمته هذه الجريدة أوراق عبد الناصر السرية تكشف لنا عن حقائق تفكير زعماء الثورة واتجاهاتهم بعد الهزيمة ، وسأتى فيما يلى بفقرات من تلك الأوراق السرية تكشف لنا عن أن جماعة الثوار لم يكونوا ثوارا ولم تكن لديهم أفكار عقائدية أو إيمان حقيقى بالمبادئ التى كانت أجهزة دعايتهم تدعيها لهم ، والفقرات أختارها من المجموعة الثانية من تلك الأوراق السرية ، وقد نشرت فى جريدة الأهالى فى عددها الصادر فى ١٠/٨/١٩٨٣ وعنوانها مناقشات حادة بين معاونى عبد الناصر تكشف اتجاهاتهم الفكرية ، وقد أدخلت الجريدة تعليقات على ما ذكره السيد/ عبد المجيد فريد فتركتها كما هى لما فيها من فائدة :

اعترف عبد الناصر فى أول اجتماع له للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فى أغسطس ١٩٦٧ ، أى بعد مرور شهرين على النكسة ، بأن النظام يحتاج إلى تغييرات جذرية بعد أن كشفت الأحداث عن وجود خلل خطير به أدى إلى أن النظام أصبح يأكل نفسه على حد تعبير عبد الناصر . .

وقد اقترح عبد الناصر فى ذلك الاجتماع أن تنشأ معارضة تتخذ شكل قيام حزب معارض للاتحاد الاشتراكى الذى اقترح أن يتحول إلى حزب ، على أن تجرى انتخابات جديدة لمجلس الشعب ومن يحصل على الأغلبية يتول الحكم .

وقد عارض جميع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا فكرة عبد الناصر على أساس أن ظروف البلد - إلى أن تتم إزالة آثار العدوان - لا تسمح بذلك . . وتقدموا بديل لاقتراح عبد الناصر ، أن تجرى إصلاحات عاجلة لأجهزة الحكم . .

وقبل عبد الناصر اقتراحهم أمام معارضتهم الإجماعية لاقتراحه . . وعلى أساس أن يكون الإصلاح المستهدف ، إصلاحا شاملا . . وطلب من زكريا محيى الدين أن يشارك فى اجتماعات اللجنة بعد ذلك ، الوزراء المختصون بأوجه الإصلاح المقترحة ، وكان أول هذه الاجتماعات فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٦٧ . . وقد حضر الجلسة ، إضافة إلى أعضاء اللجنة التنفيذية العليا من الوزراء : د. عبد المنعم القيسونى ، المهندس سيد مرعى د. عبد الوهاب البشرى د. نزيه ضيف د. لبيب شقير د. حسن عباس زكى وكمال

رفعت وعبد المحسن أبو النور المشرف على جهاز الاتحاد الاشتراكي في تلك الفترة .

عرض عبد الناصر على المجتمعين الهدف من اللقاء الذي يتم بهذه الصورة السياسية لأول مرة لأهمية وعمق الموضوعات التي ستناقش إجراء إصلاح شامل لأجهزة الحكم . واستمرت تلك الجلسة أكثر من خمس ساعات ولكن . . لم يتحدث فيها أحد من الوزراء . . رغم محاولات عبد الناصر لإثارتهم للاشتراك في الحوار . . ووصل إلى حد الاستفزاز المقصود بدون جدوى . . وقد ركز عبد الناصر حديثه حول موضوع أساسي وهو «آمال الناس» والقدر الممكن تحقيقه منها . . كما أكد على ضرورة العمل الشاق من خلال الإصلاح - كما قال - للقيام بثورة جديدة أو الإقدام على أى عمل جنونى - حسب تعبيره - من أجل أن يوفر الأمل للناس . . هؤلاء الذين منحوه ثقتهم المطلقة يومى ٩ و ١٠ يونيو . . رغم أن النظام بأكمله كان قد سقط على الأرض بعد الهزيمة العسكرية .

أصر عبد الناصر على أن يشترك الوزراء في اللقاء وأن يتحدثوا بصراحة تامة وبلا حرج عن عيوب الحكم وسببها ، لهذا طلب استمرار الحوار في جلسة ثانية وثالثة ورابعة إلى أن تتحدد تماما أوجه الخلل وتوضع خطة الإصلاح المنشود .

كانت الجلسة الثانية بعد يومين من اللقاء الأول ، وقد بدأت في السابعة مساء يوم الثلاثاء ٢٦ ديسمبر وافتتحها عبد الناصر موجها حديثه إلى الوزراء . . «ألا يكفى صمتكم بالجلسة الماضية ؟» أود أن أسمع الآن آراءكم ومقترحاتكم بشرط أن تكونوا صرحاء . وهنا تكلم الوزراء الواحد بعد الآخر .

كان أول المتحدثين الوزير محمود يونس قال :

- إن الإصلاح المطلوب للنظام يجب أن يشمل كافة المجالات واعتقد أننا نحتاج إلى عدة اجتماعات لأن الملاحظات متنوعة . . أولها . . فائض العمالة الموجودة لدى بعض المؤسسات و الوزارات ولا بد من حل لاستخدام هذا الفائض استخداما مثمرا ، ثم موضوع آخر يسبب إزعاجا في المصانع والشركات وهو تدخل الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكي في أعمال الإدارة والموضوعات الفنية .

[كانت الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكي تعتبر بمثابة لجان التنظيم السياسى الموسعة على المستوى القاعدى ، وكانت تضم القيادات السياسية والقيادات التنفيذية على ذلك المستوى . .]

إن أعضاء هذه الجماعات ليسوا على المستوى الإدارى والفنى المناسب للقيام بمثل هذا

الدور . . وحتى في وزارتي تثير قيادات الاتحاد الاشتراكي المحلية تساؤلات قد لا يكون من المناسب أن أرد عليها . . ولو استمر هذا الوضع ستزداد الأجهزة التي تسألني كوزير . . أجهزة الاتحاد الاشتراكي وأجهزة الأمن وأجهزة الرقابة الإدارية . . بحيث تعوق عملي وعمل أي وزير في متابعة أعماله الأساسية .

عبد الناصر :

كلام غريب من محمود يونس . . هل بعد ١١ سنة من ممارستك لوظائف قيادية عليا لا تعرف أنت مسئول أمام من ؟ وغير مسئول أمام من ؟ يا محمود يونس أنت مسئول عن واجباتك أمامي وكذلك مسئول عن واجباتك حسب نص الدستور أمام مجلس الأمة . . ولكلمة (الأجهزة) التي رددتها تعبير غير مصرى . . أما عن نقد وتدخلات قيادات الاتحاد الاشتراكي فأنتم كوزراء نسيتم أنكم سياسيون قبل أن تكونوا وزراء . . ولو كنتم في الأصل توليتم وظائفكم الوزارية عن طريق التنظيم وهو الأمر الطبيعي . . لكنكم عاملتم قيادات الاتحاد الاشتراكي معاملة أخرى . .

يقال أحيانا إن الوزراء قيادات فنية وغير سياسية . . كلام غير سليم . . نحن الآن نمر بمرحلة انتقالية في بناء الدولة وبناء تنظيمنا السياسي ، ويجب أن يعين الوزير من بين قيادات الاتحاد الاشتراكي وعن طريقه . .

أنا حائر معكم . . !! تقولون لا بد من الديمقراطية ومش عايزين حد من العاملين عندكم يتكلم . . وتقولون عايزين الديمقراطية ومش عايزين حد ينتقد أو يشارك في العمل . . كيف أوفق بين هذه الرغبات المتضاربة ؟ من رأيي أن تكونوا مسئولين أيضا عن نجاح العمل السياسي في وزاراتكم .

والوضع السياسي بالنسبة لي أفضل كلما توسعنا في الديمقراطية لأنني سأكون في مركز أوسع حتى ولو تضايق الآخرون .

الآن والناس صوتهما أعلى من زمان وقدرتها على نقد النظام تضاعفت . . فإذا منعت الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكي أن تنتقد أو أن تتبنى مطالب الناس ماذا سيحدث ؟ سيحدث أن يخرج تنظيم شيوعي أو تنظيم إخواني ويتبنى نفس الملاحظات التي لم تقبلوها من قيادات الاتحاد الاشتراكي .

في وقت ما منعنا عمل تنظيمات سياسية داخل الجامعات . . بعد ذلك ظهر مباشرة نشاط سياسي آخر داخل الجامعات . . أحزاب تحت الأرض ا شيوعية . . وإخوان مسلمون .

اليوم وصلنى تقرير من باريس يقول إن هناك تحالفا بين الشيوعيين المسلمين والإخوان المسلمين تحت اسم (الحزب الاشتراكى الإسلامى) ويطالب الحزب الجديد بالاستيلاء على الحكم سواء بالقوة أو بالمنطق .

الناشر : لا أعتقد أن الحلف الذى أشار إليه التقرير المذكور كان قائما .

أعود إلى موضوع الجماعات القيادية . . يجوز أن بعضهم أخطأ . . علينا أن نصصح وندرجهم تدريجيا سياسيا . . ولكن لا يجوز أن نمنع الناس بتوعنا من أن يتكلموا . .

محمود يونس : . . . ولكنهم سيتكلمون فى موضوعات فنية . .

عبد الناصر : يا أخى اتركهم يتكلموا . . وبعد ذلك قل لهم إن الموضوعات التى أثبتت موضوعات فنية وشرحها لهم . . هؤلاء الناس بتوعنا واحنا مسئولين عنهم وعن توعيتهم .

نستفيد بتجربة الروس

أنور السادات : أعود للموضوع الأصيل . . بعد النكسة فى شهر يونيو خرج الناس فى الشارع وقالوا رأيهم . . أن يبنى جمال عبد الناصر النظام من أول وجديد ، الجانب العسكرى والسياسى ، وفعلا بدأت الناس تشعر ببدء عملية البناء العسكرى التى يقوم بها عبد الناصر شخصا بكل جدية وهم يطلبون الآن بدء عملية البناء السياسى أيضا مثل العسكرى . ولكن فى الحقيقة البناء السياسى يختلف عن البناء العسكرى وفى غاية الصعوبة لأنه بناء ضخيم ومتنوع ويحوى كل فروع النظام ، فهو يشمل الحكومة ومجلس الأمة والمؤسسات والاتحاد الاشتراكى وأجهزة الإعلام ، كما أن الإصلاح الإقتصادى الذى نبخته الآن جزء من هذا البناء . وقد سبق أن واجهت دول أخرى مثل ظروفنا وتمكنت من إعادة البناء ، وعلينا أن نستفيد من تجربتها ومن دروس التاريخ . . فمثلا روسيا واجهت هزيمة كبرى أمام الألمان فى الحرب العالمية الثانية ولكنهم بعد ذلك وقفوا على رجلهم وأعادوا البناء إعادة كاملة . . نشوف ماذا عملوا . . ولو أنى شخصا لا أعرف كيف قاموا بهذا العمل الضخم . .

- عبد الناصر : أقول لك يا أنور ماذا عملوا ؟ كانوا يجتمعون ويستمعون للدراسات والاقتراحات ويضعون قراراتهم على أساسها ولكن عندما تفشل تلك القرارات يحاكمون صاحبها . . فمثلا يقترح عليهم واحد زى الدكتور القيسونى اتخاذ إجراءات اقتصادية معينة ويقول إنها لن تؤثر على زيادة التنمية . . فيوافقون على رأيه وينتظرون آخر السنة

زيادة التنمية . إن لم تزد التنمية فعلا بالقدر المطلوب . . شنقوه . . وأظنك قرأت أن ستالين في ذلك الوقت شنق حوالى ١٥٠٠ واحد من أعضاء المؤتمر ومجلس الوزراء ومجلس السوفيت . . إيه رأيك يا أنور (ضاحكا) ؟ :

الناشر : سمع عبد الناصر كثيرا عن فترة حكم ستالين ، وخاصة الممارسات الإرهابية . .

- أنور السادات : المهم عند الناس هو أنها تلمس الإصلاح بنفسها . . علما بأنها مستعدة لأن تتحمل أكثر مما تعان الآن ولكن بشرط . . أن يشوفوا « القدوة » من فوق . . لا أتخيل أن السيد الرئيس نحمله وحده إصلاح الجهاز السياسى كما حدث بالنسبة للإصلاح العسكرى ، يجب ألا نتهرب وعلينا أن نشيل . . المعركة اليوم حياة أو موت . . وإذا كنا عايزين نأخذ إجراءات تسبب حرمانا للشعب . . ما فيش مانع ، ولكن بشرط أن نعيش كلنا ظروف الحرمان .

- الدكتور القيسونى : أنا اشتركت فى الوزارة لأول مرة عام ١٩٥٤ وكان على أساس مبدأ التوسع الاقتصادى ومازلت مؤمنا بذلك المبدأ وملتزما به . . ولكن سبب المشكلة الاقتصادية الآن هو ما حدث من عام ١٩٥٩ حتى الآن ، وذلك بسبب ما يلى :-

أولا : إننا حاولنا أن نعمل حاجات أكثر من طاقتنا ، كما ارتفعت ميزانية القوات المسلحة من ٦٨ مليون جنيه إلى ٢٧٠ مليون جنيه فى الخطة الأولى ، بينما كانت الخطة مبنية على زيادة الخدمات العامة بمقدار ٨٪ فقط . . لهذا حدث خلل فى التوازن الاقتصادى . .

ثانيا : توسعنا أيضا فى الخدمات العامة مثل المدارس والمستشفيات بأكثر مما كان مقدرا لها . كذلك توسعنا كثيرا فى تشغيل العمالة . . وبسبب هذا التوسع حدثت زيادة فى أرقام الاستهلاك ، وبالتالي نشأ العجز فى ميزان المدفوعات ، كما حدث نقص فى المدخرات عن الأرقام التى كانت محددة بالخطة بحيث لم تزد عن ١٢٪ بينما قدرناها بـ ٢٠٪ وبالتالي زاد اعتمادنا على الخارج لتمويل مشروعاتنا .

ثالثا : زاد إنتاجنا فعلا فى الخطة الأولى للتنمية (من ٦١ إلى ١٩٦٥) من ٣٥ إلى ٤٠٪ عن سنة الأساس ، وقد أثارت هذه الزيادة إعجاب جميع الاقتصاديين فى العالم ، ولكن لو كنا زدنا اهتمامنا بالكفاية الإنتاجية أيضا لكنا حصلنا على زيادة فى الإنتاج دون زيادة كبيرة فى الميزانية المخصصة للاستثمار .

رابعاً : عن قضية فلسطين . . لماذا نتحمل بمفردنا تكاليف الدفاع عن هذه القضية العربية . . مطلوب الآن في الميزانية تشكيل ثلاث فرق عسكرية إضافية ، وهذه تتكلف مصاريف إنشائية ٦٦ مليون جنيه ومصاريف من ٨ إلى ١٠ ملايين جنيه .

- عبد الناصر : انت عايز مساهمة من دول البترول العربية . . يجب ألا تنسى أن المساهمة الاقتصادية التي قدمتها تلك الدول في مؤتمر الخرطوم لم تكن لمساعدتنا بقدر ما كانت من أجل أن يتحللوا من التهديد بإعلان قطع البترول الذي كان مثاراً في ذلك الوقت .

- الدكتور القيسوني : إني أتحدث عن الوضع بعد إزالة العدوان . . يجب أن تشترك معنا الدول العربية جميعها في الالتزامات المالية التي تحتاجها قضية فلسطين . .

نقطة أخرى عن الوضع العربي . . لماذا لا ينشأ نظام اقتصادي عربي مشترك كما هو موجود بين دول أوروبا الغربية وبين الكتلة الشرقية بغض النظر عن الاختلافات السياسية والاجتماعية الموجودة حالياً بين الدول العربية . . إن ما هو موجود حالياً من مشروعات عربية مشتركة حبر على ورق . . ولم يظهر منها عملياً أى مشروع كامل . .

اصلاح القطاع العام . . لا هدمه

- عبد الناصر : (موجهها كلامه للدكتور القيسوني) أحب أعلق على المذكرة الاقتصادية التي قدمها أخيراً الدكتور القيسوني . . عايزنا نتخذ إجراءات اقتصادية جديدة علماً بأنه سبق أن اقترح زكريا محيى الدين منذ ثلاثة شهور فقط اتخاذ إجراءات أخرى . أى أن كل ثلاثة أشهر نتخذ إجراءات معينة . . غير معقول ، ولا أوافق على هذا الأسلوب من الحكم . . إذا كنتم عايزين تحملوا الناس زيادة جديدة في الأسعار وفي نفس الوقت تقترحون تثبيت أو خفض الأجور ماذا ستعطون للناس في مقابل ذلك ؟ وماذا بقى لهم من الأمل في الحياة . . لو اتخذنا إجراءات اقتصادية ولم نعط الناس شيئاً يبقى هذا خطأ كبير . ويبقى وجودنا في الحكم لا داعي له وتصورنا للمستقبل غطاء الصدا . . في هذه الحالة يصبح من الأنفع أن يأتى للحكم أناس آخرون أفضل منا في تصورهم للمستقبل وفي قدرتهم على حل المشاكل .

أحب أن أوضح لكم حاجة عن أسلوب تفكيرى قبل إصدارى القرار . . الجلسات هنا تسجل تسجيلاً كاملاً . بالإضافة إلى ما يسجله عبد المجيد فريد كتابة . . بعدها أعيد الاستماع إلى ما قيل بالجلسات وإلى ما أثير من موضوعات . وأتخذ القرار على ضوء المناقشات . . أنا لا أدخل الجلسات وفي ذهني رأى محدد ومسبق . . مثلاً كيف نقرر إقامة مصانع جديدة في الخطة القادمة ونحن غير قادرين على استغلال مصانعنا الحالية بكل

طاقاتها . . علمت من زكريا أخيراً أن هناك معدات ثلاثة مصانع مازالت موجودة في صناديقها منذ فترة غير قصيرة ولو أن عزيز صدقي يقول إنها ٢٦ مصنعا وليس ثلاثة مصانع فقط . .

موضوع آخر علينا أن نجد له حلا . . التزامنا السياسى بتشغيل الناس . . وإذا قلتم لي غير ممكن . . يبقى ما فائدتنا وما فائدة وجودنا في الحكم . . هل من أجل أن نمارس سلطة على الناس فقط ؟

مفروض أننا سياسيون وأن كل تصرفاتنا يحكمها الإطار السياسى . . مثلاً ما حدث في وزارة العمال التي تحكم بريطانيا في الوقت الحاضر . . صحيح اتخذت إجراءات اقتصادية في الفترة الأخيرة وخفضت سعر الاسترليني مرتين متتاليتين ، ولكن بحسابات سياسية دقيقة وهي أنه باق على فترة حكمها وإجراء الانتخابات الجديدة ثلاث سنوات ، وأن الاجراءات الاقتصادية الأخيرة وتخفيض الاسترليني الحالى سيؤثر بنتائج اقتصادية إيجابية للشعب البريطانى قبل نهاية السنوات الثلاث . . هذا تحرك اقتصادى سياسى محسوب .

أشار البعض في مقترحاته إلى تحرير وحدات القطاع العام . . أنتم الوزراء المشرفون هل مؤسسات القطاع العام وأنتم القادرون على التحرير المطلوب أو أن غير النظام كله إلى نظام مماثل للمؤسسة الاقتصادية الواحدة التي كانت موجودة في أول الثورة ؟ أما أننا نهاجم نظام القطاع العام لكي ندمره فهو أمر غير مقبول سياسيا . . وزى ما يقول صلاح جاهين في رسم له بالأهرام . . الواحد لما جلابيته تتوسخ يغسلها . . مش يحرقها . . ؟

- زكريا محيى الدين : السيد الرئيس أثار الآن عدة موضوعات هامة يجب أن نبحثها تفصيلا . . وأن تكون إطار عملنا وتفكيرنا . . وفي تقديرى أن أى خلل في التوازن الاقتصادى له أثر كبير على التوازن السياسى . .

وفي رأى بالنسبة لإعادة النظر في الإطار التنظيمى لمؤسسات ووحدات القطاع العام ، علينا أن نتجنب في النظام الجديد تسلسل المسئوليات المعمول بها في الأجهزة الحكومية ، وإلا ستستمر التعقيدات وتزداد الوحدات تدهورا . . ولهذا أرى أن يكتفى الوزراء بمسئولية المتابعة المستمرة دون التدخل التفصيلى في مسئوليات الوحدات .

- عبد الناصر : أقترح ايضا أن ندرس التجربة اليوغوسلافية في الإصلاح الاقتصادى الشامل التي قامت هناك أخيراً ، كما أرجو أن لا تقتصر خطة الإصلاح على جوانب معينة بل يجب أن تكون شاملة .

- عزيز صدقي : الوضع الحالى يعتبر وضعاً مؤقتاً ، ولهذا يجب ألا نحيد عن مبادئنا فى التنمية فى الخطة الخمسية الأولى ، والعائد من السد العالى ومن حقول البترول الجديدة . . سيزيد من قدراتنا على الانطلاق فى الخطة القادمة .

من رأى أن مذكرة الدكتور القيسونى أخذت جانباً واضحاً من التحفظ ، ولا بد من معالجة الموقف الاقتصادى الحالى بحيث ننطلق ونستخدم كافة الإمكانيات المتوفرة لدينا مثل تشغيل مشروعاتنا الحالية بأقصى قدرة إنتاجية ، استخدام القروض المتاحة لنا من دول الكتلة الشرقية ، والتوسع فى المشروعات العربية المشتركة . .

- لبيب شقير : العامل البشرى عامل أساسى لنجاح أو فشل وحدات القطاع العام ، وقد لوحظ أن وجود شخص سياسى على قمة الوحدة الإنتاجية يسهل العمل كثيراً ، ويزيد الإنتاج ويصبح التفاهم مع القاعدة العمالية أمراً يسيراً بعكس الحالات التى بها قيادات فنية فقط ، فبالرغم من مستواها الفنى العالى فإنها فاشلة فى إدارة الوحدة وفى تحريك العاملين بأقصى جهد لهم ، وبالتالي يتأثر الإنتاج بنقطة أخرى يجب أن لا ننساها وهى التأثير النفسى الذى يتعرض له القطاع العام . . إذا ما استمرت حملات النقد عليه .

أما عن التوسع فى الاستثمارات الأجنبية ، الذى يدعو إليه الدكتور القيسونى فإنى أعارض رأيه فى هذا الموضوع . . لأن احتمالات مساهمة الاستثمارات الأجنبية الغربية فى دولة تطبق النظام الاشتراكى أمر مشكوك فيه إلى حد كبير . واستمرت اقتراحات الوزراء ومناقشتها واستمر تشجيع عبد الناصر لهم ليشتروا فى تصور المستقبل بكل صراحة ووضوح . . حتى اقتربت عقارب الساعة من الواحدة صباحاً ولم ينته الحوار . . فأجلت الجلسة إلى اليوم التالى ٢٧ ديسمبر . .

الجلسة الثالثة ٢٧ ديسمبر ١٩٦٧

بدأت الجلسة الثالثة لبحث الإصلاح المطلوب للنظام ، مساء اليوم التالى للجلسة السابقة أى يوم الأربعاء ٢٧ ديسمبر ١٩٦٧ ، فى نفس القاعة بالدور الثالث عشر . بمبنى الاتحاد الاشتراكى على كورنيش النيل ، وحضر الاجتماع نفس الحاضرين أى أعضاء اللجنة التنفيذية العليا والوزراء التسعة .

اشترك الوزراء فى الحوار والتعرض لعيوب النظام فى الجلسة الثانية ، بعد صمت طويل منهم فى الجلسة الأولى ، شجعهم عبد الناصر فى الجلسة الأخيرة ليقولوا ما فى قلوبهم وما يرددونه فى جلساتهم الخاصة . ونما هذا الإحساس بينهم واستعد كل منهم ليدلى بالمزيد

فى الجلسة الثالثة . . بدأت الجلسة . . وبدأت الزهور تتفتح . . وتعبر عن شكلها ولونها . . وكان أولها الدكتور سيد مرعى .

قطاع جديد مشترك

سيد مرعى : أعرف دائما أن كل نظام حكم يعتمد على حزب ما ، يتولى مسئولية الربط السياسى بين القاعدة الجماهيرية والقيادة ، وكان المفروض أن يكون الاتحاد الاشتراكى ومجلس الأمة هما حلقة الربط بين مجموع الشعب والقيادة السياسية ، ولكن فى رأى أن هناك سلبية واضحة بين القاعدة والاتحاد الاشتراكى ومجلس الأمة الحالى ، كذلك هناك ثغرات وخلافات واضحة بين مجلس الأمة ، والتنظيم السياسى ، والاتحاد الاشتراكى بحيث أعطوا الفرصة للآخرين من اليسار المتطرف واليمين ليستغلوا الموقف والخلافات لصالحهما . لذلك يجب التحرك العاجل من أجل الربط بين هاتين المؤسستين السياسيتين ، ومن أجل تحديد واضح لهما ومسئوليات الاتحاد الاشتراكى وخاصة أن صور الصراع ستزداد عنفا ووضوحا بعد تشكيل اللجنة المركزية .

أما بالنسبة للوضع الاقتصادى ومظاهر التضخم المشار إليها فى المذكرة الاقتصادية المقدمة فإن رأى : -

أولاً : بالنسبة لقطاع الزراعة : أرى ضرورة تغيير طبيعة الاستغلال الزراعى التى اتبعناها منذ الثورة حتى الآن ، حيث لا أتصور أن نقوم بتوزيع وتفتيت الأراضى الجديدة التى تم إصلاحها على ملكيات صغيرة ، وأقترح أن تشكل لها شركات زراعية مع إعطاء أهمية كبرى للتصنيع الزراعى . . إن تحويل الاستزراع إلى نوع من التصنيع الزراعى يحقق لنا عائدا مناسباً يعوضنا - نسبيا - عما يتحمله الاستزراع من تكاليف باهظة .

ثانيا : مازالت عملية استثمار مياه السد العالى وكهربائه عاجزة وغير مستغلة استغلالا كافيا ولا بد من التوسع فيها .

ثالثا : لا أعتقد أن صورة شركات القطاع العام مظلمة كما عبر عنها بعض الزملاء ولكن المشكلة أن بعض شركاته فى الوقت الحاضر تنقصها بعض الإمكانيات ، وكذلك لا أتوقع أى تجارب من تشجيع وتنشيط القطاع الخاص فى إطار ما أثير بشأنه فى الجلسات السابقة . . ولذلك أقترح أن ينشأ قطاع جديد بين القطاع العام والقطاع الخاص يسمى (القطاع المشترك) ويتمشى هذا الإجراء إلى حد ما مع ما حدث من

تطوير اقتصادى فى النظام اليوغوسلافى ، وكذلك مع ما تم من تطوير جديد فى النظام الزراعى ببولندا . .

وللمزيد من التوضيح لاقتراحى . . فإنى أقصد بالقطاع المشترك ذلك القطاع الذى يشارك فيه رأسمال الحكومة ورأسمال القطاع الخاص ، أو هيئة مشاريع مشتركة .
أما عن «أمل الناس» الذى أشار إليه الرئيس فى حديثه بالجلسة السابقة فإنى شخصيا أتصور أن بعض هذه الآمال فيها يختص بالفلاحين تتلخص فيما يلى :-

أولا : مشاركة الفلاحين فى الاستزراع .
ثانيا : تحقيق أمل كل فلاح فى امتلاك أرض زراعية .

ختاما لاقتراحاتى ، أود أن أعود إلى «القطاع المشترك» الذى سبق أن أشرت إليه من حيث التطبيق العملى فى الصناعة مثلا لا نقوم بتطبيقه على مصانع المحلة الكبرى أو مصانع كفر الدوار ، ولكن يمكن تطبيقه على المصانع الجديدة مثل مصنع شبين الكوم ومصنع ميت غمر ، كذلك يمكن تطبيقه على مشروعات السياحة وما يمثلها من مشروعات . . إن خلق مثل هذا القطاع سيخلق التنافس ، وكذلك الحافز المستمر الذى ننشده جميعا من أجل إصلاح اقتصادنا .

كيف نقيمه

— عبد الناصر : لدى بعض التساؤلات عن القطاع الجديد الذى يقترحه سيد مرعى . أنا أفهم أنه يمكن فى هذا القطاع لعدد من الناس أن يقيموا مشروعاً ، على أن تكون الملكية ليست فردية ، وإنما للعمال ، وأن تكون الإدارة فى هذه الحالة «إدارة ذاتية» إن رأسمالية الدولة التى تسير عليها فى الوقت الحاضر هى أول مرحلة من مراحل الاشتراكية وعندما يحدث فى هذه المرحلة أن تعجز الدولة عن القيام بمتابعة المشاريع والوحدات الإنتاجية ، عليها فى هذه الحالة أن تطور أساليب المتابعة إلى أساليب أكثر فعالية وأكثر نجاحاً ، أما أن نتقل الآن إلى مرحلة «الإدارة الذاتية» فهذا يحتاج منا إلى تفكير عميق . .
إنى أعتقد أن الهدف النهائى من تطبيق الشيوعية أن تختفى سلطة الحكومة وتحل محلها (الإدارة الذاتية) سواء فى القرية أو المصنع وفى كافة المشاريع والأنشطة . . فهل وصلنا الآن إلى مرحلة التطبيق الاشتراكى بحيث يمكننا تطبيق الإدارة الذاتية . . ؟ بينما نشكو على جميع المستويات من تدخل العمال فى أعمال الإشراف والإدارة ، هل نحن مستعدون لإعطاء العمال حق الإدارة الذاتية . . ؟

— سيد مرعى : فى تصورى أننا نبدأ بالنظام التعاونى وبداهة لا يمكننا أن نقفز فى

الوقت الحاضر إلى مرحلة (الإدارة الذاتية) كما في الدول الصديقة . . مثل التطوير الذى جرى فى القطاع الزراعى اليوغسلافى ، والتطوير الذى شمل مزارع بولندا ، وحتى التطوير الذى طبق فى الاتحاد السوفيتى .

علينا أن نعمل على أن تكون الحوافز مستمرة لكي تغطى آمال الناس المستمرة ، ولو أصبحت الحوافز محدودة فلن نحقق الهدف المطلوب منها ، إن السلبية التى نعانى منها فى الوقت الحاضر ، هى سلبية العمال والفلاحين ، ولهذا أرى أن الحل الوحيد لمواجهة هذه السلبية هو مواجهتها المستمرة . .

كما أكرر بالنسبة للقطاع الزراعى أهمية التوسع فى التصنيع الزراعى ، لأنه تصنيع لا يخبأ أبداً ، ولا سيما أننا أهملناه كثيراً بحيث لم نتحرك فيه إيجابياً باستثناء تصنيع قصب السكر .

— عبد الناصر : آسف لأنى لم أفهم كثيراً ما يقصده سيد مرعى عن « القطاع المشترك » وخاصة بالنسبة لتفاصيله من حيث التطبيق ، وأعتقد أننا لن نغير نظامنا من حيث الزراعة أو من حيث القطاع العام ، لأنى أعتقد أن التطبيق العملى لكليهما لم يأخذ الوقت الكافى لى نعلن حكمنا . . بالنجاح أو الفشل . ولكن ممكن أن نقوم الآن بعمليات إصلاح أو تحسين لهما ، أما التغيير الشامل لهذين القطاعين فمن الممكن التفكير فيه على ضوء دراسة نظرية وعملية عام ١٩٧٠ ، وحينئذ يمكن تغييره إن لزم الأمر ، أما بالنسبة لقطاع الحرفيين والتعاونيين فمن الأسهل والأكسب أن نتركهم الآن على أساس أنهم قطاع خاص بشرط أن نسعى لنقدم لهم التيسيرات الممكنة .

— عزيز صدقى : أعتقد أن الأنسب لنا فيما يخص « القطاع المشترك » فى الوقت الحاضر هو « التعاونيات » وخاصة لويسرنا لها التسهيلات اللازمة للإنتاج ، ويعتبر مشروع التعاونيات للصناعات الموجودة بالهند مثالا ناجحاً وصالحاً للأخذ به فى مجتمعنا ، أما عن « القطاع المشترك » فلنا تجربة أود أن أذكرها لسيد مرعى وهى تجربة مصنع (سورنجا) للخزف والصينى فقد سمحنا للعمال بشراء أسهم تملك ، ولكن بعد فترة تبين لنا أن أغلبهم باعوا أنصبتهم من الأسهم لغير العاملين ، وتدهور إنتاج المصنع ، وبعد أن استلم القطاع العام المصنع ، زاد إنتاجه زيادة ملحوظة وتوسع أفقياً ورأسياً وأصبح من المشاريع الناجحة أما عن انتعاش القطاع الخاص فأنا لست مع سيد مرعى فى أنه لا يتوقع أن يكون تجاوبه إيجابياً ، لأننا لويسرنا له بعض الإمكانيات وسمحنا له بالدخول فى المناقصات الحكومية . . فيستحرك كثيراً .

أما عن مستوى الإنتاج بمصانع القطاع العام فالسبب يرجع إلى أننا حولنا العمال إلى موظفى حكومة تقليديين ، لهذا يجب أن نعمل فوراً على تحرير عمال المصانع من القيود المالية واللوائح الحكومية ، من أجل أن ينطلقوا فى الإنتاج فمثلاً ليس من المعقول أن نمتنع عن زيادة أجر العامل وإعطائه حافزاً مستمراً . . لأنه وصل إلى الحد الأعلى لمربوط درجته . . سبب غير منطقي . أما عن الأمثلة التى قيلت عن زيادة الإنتاج عن طريق مجالس الإنتاج أو العمل الاشتراكي فقط ، فإنى أرى أن نقيم هذه الأمثلة تقييماً دقيقاً لأنى أعتقد أن نجاحها كان مظهرياً فقط ، كذلك عن الأمثلة التى قيلت عن استخدام العوادم ببعض المصانع . . فإنى أعتقد أنه كان نجاحاً مظهرياً أيضاً .

الناشر : يقصد الدكتور عزيز صدقي بهذا الحديث بعض التجارب العملية لزيادة الإنتاج بمصانع منطقى حلوان والقلوبية نتيجة لعمل مكثف قامت به قيادات وأعضاء منظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكي فى تلك المناطق ، وكذلك تجارب أخرى قامت بها منظمة الشباب بالتعاون مع الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكي فى مصانع بمنطقى شمال وجنوب القاهرة لاستخدام العوادم استخداماً مفيداً ومنتجاً ، وقد كانت نتائج هذه التجارب الأولية ناجحة فى ذلك الوقت ، ولكن كان من البديهي وفى إطار الصراع الذى كان موجوداً بين الجهاز السياسى والجهاز التنفيذى ألا يستقبلها رجال الإدارة بتلك المصانع ، وكذا بوزارة الصناعة استقبلاً حسناً ، لأنها جاءت عن طريق شباب وقيادات التنظيم السياسى وليس عن طريقهم التقليدى .

— لبيب شقير : رأى أن معالجة القطاع الخاص تختلف حسب نوعه ، ولكن أسلوبه فى المعالجة . . فى القطاع الزراعى أرى أن التعاونيات . . .

ونكتفى بهذا القدر من تلك « الأوراق السرية » فكلها تجرى على هذه الوتيرة : ناس يتكلمون دون أن تكون لديهم خطط أو مناهج ، وآراء تلقى على المائدة لتتلاشى بعد حين ، ويطول المجلس أو يقصر ، ولكن النتيجة قليلة جداً ، وذلك هو المنتظر ، فقد كانت أمام رجال الثورة فرص ذهبية للعمل فأضاعوها ، وكان لديهم فى هذا البلد ملكات يعتد بها فقضوا عليها أو احتقروها وربما عاقبوا أصحابها .

وهم عندما تولوا أمر هذه الأمة كانت خزائنها عامرة بالمال ، وكان إطار الشرعية القانونية قائماً يصون المجتمع من التدهور وذلك إذا صرفنا النظر عن وزراء عصر ما قبل الثورة ، وكان فيهم رجال كثيرون أهل علم وفضل وخبرة ، ولكن فرص العمل أمامهم كانت قليلة جداً بسبب قصر أعمار الوزارات ، فما تكاد الوزارة تتألف ولا يكاد الوزراء

يستقرون في مكاتبهم حتى تبدأ المناورات والقلقل ، لأن لعبة تنقيل الحكم بين رجال الأقلية الذين لا يؤيدهم الشعب جعلت أى لون من ألوان الاستقرار الحقيقى مستحيلاً ، وكان ذلك قطعاً في ذهن ممثل السلطان والانجليز الذين كانوا يسمون سفراء وهم في الواقع حكام بامرهم ورجل مثل السير مايلز لامبسون عمل في مصر سنة فألفت وسقطت فيها وزارة ، ومثل هذا لا يمكن إلا أن يكون مقصوداً ، والغرض منه ألا يستطيع هذا البلد بناء شىء ، خاصة وأن الملك فؤاد كان قد وضع قواعد للحكم شريرة لا يعود منها على الوطن خير ، فهو نفسه كان رجلاً قليل العلم ، ولم يكن يجيد لغة واحدة ، لا العربية ولا التركية أو الفرنسية أو الإيطالية وكان يحكم مصر دون أى انتساب قلبى إليها ، وكل همه موجه إلى التمتع بلقب الملكية الذى حصل عليه نتيجة لتضحيات هذا الشعب ، والظهور بأبهة كاذبة ، وتوجيه رجال خاصته الملكية إلى الاستكثار من العقارات والأموال ، ومحاولة الظهور أمام الأوروبيين بأنه الرجل المتحضر الوحيد في ذلك البلد « التعيس من أصحاب الجلايب الزرقاء » ، كما كان يحلو له أن يقول في أحاديثه مع من كان يلقاها من الأجانب .

ومن ناحية أخرى فقد كان ممثلو بريطانيا في مصر من مستوى إنسانى وثقافى وحضارى حقيقى ، وربما كان أجدرهم بالاحترام السير إيفلين بيرنج (لورد كرومر) فقد كان هذا على الأقل رجلاً استعمارياً يدير المستعمرة المصرية لحساب بلاده ، ويرaug الدول ويمنح رعاياها ما يرى من المنح والامتيازات من أموال مصر حتى تسكت عن منافسة بريطانيا . ولكنه كان يدير « المزرعة المصرية » فتزداد المحاصيل دون أن يعطى الفلاحين إلا ما يقيم الأود ، وهم مثل سوائم المزرعة ، يعطف صاحبها عليها ويطعمها ، وإذا هو فعل ، فلكى يجلبها أو يذبحها في النهاية ، ومن هذه الناحية استطاع كرومر أن ينشئ مشروعات رى وطرق وضبط الإدارة وشئون المال ، وقد تمكن من تلافى الكوارث المالية ، وسداد أقساط الديون بل استوفى سداد بعضها ، واختار موظفين أكفاء من الانجليز وغيرهم من الأوروبيين لإدارة السكك الحديدية والجمارك وشئون الرى ، والوزراء في نظره كانوا أختاماً توضع على ما يصدره هو من قرارات وأوامر ، حتى الخديو كان في نظره مجرد موظف في الحكومة البريطانية . والخديو بالالذان عمل معها وهما توفيق وعباس حلمى كانا يعترفان بذلك ويتصرفان على هذا النحو ، وواحد منهما وهو توفيق - كان في نظره غنيا لا يفهم شيئاً ، والثانى - وهو عباس حلمى - كان يراه غلاماً غراً ورجلاً لصاً ، وكان يواجهه بهذه الحقيقة دون اكتراث ، وعباس حلمى كان يعرف أنه لص ولا يستحى من سرقة أموال الحكومة وأراضيها دون حياء ، ولكى يجد كرومر من سرقاته أنشأ وزارة الأوقاف واشترط أن يكون وزيرها رجلاً مسئولاً عنها أمامه في مجلس الوزراء .

وبعد كرومر يجيء الدون جورست وهو رجل حقير أراد أن يوقع البلاد في مأساة النزاع الطائفي ، ثم جاء بعده كيتشنر وكان عسكرياً بريطانياً متكبراً متجبراً لا يكاد ينظر في وجوه الناس ، وخلفه اللنبي ، جاء في أعقاب كرومر ، واكتفى من الدنيا بنصره الرخيص على الأتراك ، بمعاونة العرب ، ولقب لورد أوف مجرد الذي حصل عليه ، وبعد ذلك جاء جورج لويد ، وهو استقراطي بريطاني زائف سطحي مغرور ومخرب ومن المؤسف أن رجالات مصر في أيامه سمحوا له بأن يلعب بهم لعباً في مقابل إعطائهم الوزارات ورئاسة الوزراء ثم طردهم منها ، وخلفه فيفيل هندسون وكان دبلوماسياً تقليدياً تحول إلى استعماري ، ثار على طريقه اللعب بالوزارات ورؤسائها ، ثم أتى السير مايلز لامبسون الذي أصبح فيما بعد اللورد كيلرن ، وهو رجل سوقي لا يستحي وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يتصرف في غباء ، وتصرفه في إسناد الوزارة إلى مصطفى النحاس في ٤ فبراير تصرف سخيف كان يمكن تلافيه بإمهال النحاس باشا لإجراء انتخابات تتم في أسبوع وتتولى الوزارة تولية قانونية شكلاً ، ولم يكن هناك أي معنى لهذه المظاهرة العسكرية والذهاب بالدبابات إلى قصر عابدين لإرهاب صبي كان لا ينقصه رعب ، ولكنه بهذا التصرف أعطانا فرصة نادرة لنزنه بوزنه الحقيقي ، وقد أساء إلى كل السياسيين المصريين - وفي مقدمتهم مصطفى النحاس ، وعاونوه في ذلك رجال من أمثال أحمد محمد حسنين وأمين عثمان وغيرهم ممن لا يتسع المقام هنا لذكرهم .

ورغم هذه الخلخلة السياسية المستمرة كانت البلاد عامرة بالرجال ، وإذا كان الوزراء متغيرين فقد كان هناك وكلاء وزارات ، ومديرون محترمون استطاعوا أن يسيروا بالأمور سيراً طبيعياً ، والإدارة المصرية في عصر ما قبل الثورة لم يدخلها خلل كثير وإن كانت تشكو من جهود كثير جداً .

ولكن البلد على الحملة كانت بخير : كانت الأسعار مستقرة والأرزاق متوفرة ، والفقراء المعدومون كانوا كثيرين ولكنهم زادوا فقراً وإعداداً بعد الثورة ، لأن رجال الثورة استخدموا العمال استخداماً سيئاً وإجراءات التأميم والمصادرة والحراسة أفسدت النظام العام في شركات كانت تعمل وتكسب ، حقاً إن البلاد كلها كانت في حاجة إلى تغيير حاسم للنظام كله ، تغيير يذهب بالقصر والانجليز ويصحح مسار الديمقراطية ويضبط الإدارة ويتجه بالبلاد كلها وجهة جديدة في ظل استقلال حقيقي .

وقد حققت الثورة هذا الاستقلال ولكنها أساءت استعماله . ومصر أصبحت مستقلة ولكن المواطن المصري عرف الخوف والهوان والذل والظلم على نحو لم يعرفه أيام الاحتلال .

وهذه القطعة التي أوردتها من مناقشات عبد الناصر مع رجاله ترينا معظم السبب في ذلك ، فإن الرجال الذين اجتمعوا بعبد الناصر كان فيهم شخصيات محترمة جداً مثل محمود يونس وعبد المنعم القيسوني ، ولكن ما يكاد الواحد منهم يفتح فمه حتى يستخف به عبد الناصر ويرد عليه مؤنباً ، لأنه في الحقيقة كان يريد أولاً وقبل كل شيء أن يظل هو على حالة السيد الأعلى لهذا البلد ولا معقب على كلامه أو تصرفاته ، ثم يطلب الناس بعد ذلك بإبداء الآراء ! ومثله في ذلك مثل رجل وقف في الطريق فسده كله بحججه ثم قال للناس : الآن نظموا المرور وحذار أن يمسه واحد منكم طرف ردائي .

* * *

وفيما يلي أورد فقرات من مقال آخر كتبه الاستاذ الصحفى الأديب صلاح منتصر يلقي فيه أضواء أكثر على شخصية عبد الناصر وطريقته في العمل ، نشرها في الأهرام بتاريخ ١٩٨٣/٨/٢٥ ، وأنا أعتذر له عن نقل هذه الفقرات الكثيرة من كلامه الجيد ، ولكن ما حيلتي وليس أمامي مراجع أو وثائق أخرى أستقى منها وأعول عليها ؟

قال بعد أن تحدث عن أولئك الذين يحاولون أن يبرئوا عبد الناصر من كل ما وقع فيه من أخطاء :

أخطاء عبد الناصر لم يكن - في رأيهم - يعرف بها وكانت الظروف أو الآخرون وحدهم هم المسئولين عنها ، وانتصارات أنور السادات قام بها غيره أو ساعدته الظروف عليها وكان وحده مسئولاً عن أخطاء عهده !

وهي عملية امتهان لأى عقل يحترم نفسه . واهانة أكبر للحاكم الذى يحاولون تبرئته بدعوى أنه لم يكن يعرف خصوصاً إذا كان هذا الحاكم الذى يقولون أنه لم يكن يعرف في وزن عبد الناصر أو أنور السادات ، وقد كانت للسادات أجهزته الخاصة يستطيع بها المعرفة إذا أراد ، وليس الذنب ذنبنا أنه لم يعرف . وكانت لعبد الناصر أجهزته العديدة التى لم يكن يغمض عينه ليلة دون أن يقرأ تفاصيل التفاصيل عن كل ما جمعه .

لا أستطيع بأية صورة من الصور إذن قبول منطق من يقول إن عبد الناصر الذى حكم ١٨ سنة وليس ١٨ شهراً لم يكن يعرف بما يجرى من عمليات تعذيب ، ولا ما كان يجرى من مظالم الحراسات ، ولا ما وقع من انتهاكات للحريات ، أو ما جرى في عصره للقضاء أو الصحافة ، أو ما حدث في القطاع العام من انحرافات . .

وبنفس المنطق فلأننى لا أستطيع أبداً بأية صورة من الصور قبول من يقول إن أنور السادات الذى حكم ١١ عاماً وليس ١١ أسبوعاً لم يكن يعرف بما وقع في عصره من

تجاوزات أو انحرافات سواء من بين أفراد أسرته أو من آخرين اغتربوا من « سبيل » الانفتاح .

الحاكم الذى لم يكن يعرف لا يصح أن يكون حاكماً ، ولا يجوز احتراماً لعقولنا قبول أعذار جهله ، والأصح من هذا كله إدراك أنهم هم الذين كانوا يعرفون وفى أيديهم وتحت سلطاتهم وسائل وأجهزة العلم والمعرفة ، بينما الشعب - بكل الأسف - هو الذى لم يكن حقيقة يعرف وكان فى مرحلة خطيرة من خداع النفس والخديعة . . وعندما بدأنا نعرف كانت متغيرات كثيرة أشبه بالكوارث قد وقعت .

لقد عرفنا ، ولكن بعد أن نشرت محاضر اجتماع الرئيس عبد الناصر مع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا منذ أسابيع قليلة . وهى محاضر جمعها عبد المجيد فريد سكرتير رئاسة الجمهورية فى كتاب ونشرتها مجلة الوادى من قبل وأعادت جريدة الأهل نشرها أخيراً على أساس أنها صفحات من أمجاد عبد الناصر - أقول عرفنا من هذه المحاضر أن أعضاء هذه اللجنة التنفيذية العليا التى كانت تمثل أكبر هيئة سياسية فى مصر لم يتكلموا عندما كان يجب الكلام وأن أعضاءها السبعة عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر وزكريا محبى الدين ، وأنور السادات ، وحسين الشافعى ، وعلى صبرى ، وصدقى سليمان ، كانوا جميعاً يخافون قول الحقيقة !

وإذا كانت أعلى هيئة حاكمة تخاف - وهى بالقطع تعرف بمن تخاف ولماذا تخاف - فكيف يكون حال الذين فى قاع درجات السلم وكيف كانت مشاعرنا إذا نحن كنا قد فتحنا أفواهنا ؟ .

مع ذلك إنصافاً للحق فلقد تكلم البعض أو حاول ، وكان منهم على سبيل المثال كمال الدين حسين الذى هزته الأهوال التى كانت تجرى للإخوان المسلمين عندما قبض على ٢٤ ألفاً منهم عام ٦٥ على رأسهم الشهيد سيد قطب الذى أعدم بتهمة تدبير انقلاب ضد نظام الحكم . . هزت كمال الدين حسين سياط العذاب التى تعرض لها هؤلاء الإخوان المسلمون فكتب إلى عبد الناصر رسالة قصيرة عنوانها « اتق الله » وفى نفس اليوم الذى كان عبد الناصر يحتفل فيه بعيد زواج ابنته الكبرى هدى تلقى كمال الدين حسين رداً على رسالته فى صورة أمر بالاعتقال فى استراحة بالهرم ، أحيطت بالأسلاك والحراسة وماتت زوجته وهو داخل هذه الاستراحة لا يستطيع أن يخرج لوداع جثمانها !

لقد عرفنا - ومن خطاب ألقاه عبد الناصر أمام مجلس الأمة يوم ٢٣ نوفمبر ٦٧ - أننا فى ساعات حرب يونيو القليلة خسروا ٨٠ فى المائة من معدتنا الحربية ، وأننا فى خلال هذه

الأيام الكثيرة المفجعة فقدنا ما هو أغلى وأندح : ١٠ آلاف جندي قتيل ، ١٥٠٠ ضابط شهيد ، ٥٠٠٠ جندي أسير ، ٥٠٠ ضابط أسير !!
لقد عرفنا ومن نفس المحاضر التي نشرتها جريدة الأهالي لاجتماع جمال عبد الناصر مع أعضاء اللجنة العليا أن عبد الناصر - بعد الهزيمة التي فقدت فيها مصر كل هذا الذي فقدته من شباب وذخيرة وكرامة بعد ذلك - يقول وينص كلامه في المحضر : قابلت عبد الحكيم وحاولت إقناعه دون جدوى بأنه ليس منطقياً أن يبقى بعد الهزيمة العسكرية قائداً عاماً ويكفى أن يكون نائباً أول لرئيس الجمهورية ولكنه رفض كلامي وسافر غضبان إلى بلده في المنيا !!

إلى هذا الحد يصل الأمر بالرئيس عبد الناصر في محاولة إقناع قائد الهزيمة بترك منصبه العسكري والاكتفاء بمنصب نائب رئيس الجمهورية . . ولو فعلها عبد الحكيم وقبل العرض لكان ربما حتى اليوم حاكماً لمصر !

إن الذي أصبح اليوم معروفاً - ولكن بعد أن حدث ما حدث - أن جمال عبد الناصر كان هو الذي اختار عبد الحكيم عامر ليكون القائد العام للجيش لأسباب أمنية بعثة لا علاقة لها بالعسكرية أو الحرب أو قدرات الدفاع . . كان عبد الحكيم هو أقرب الجميع إلى قلب عبد الناصر (كان عبد الناصر يحمل مشاعر مميزة لعبد الحكيم وخالد محيى الدين وقد أطلق اسميهما على ولديه) ، وخوفاً من ضباط مجلس قيادة الثورة أنفسهم اختار عبد الناصر عبد الحكيم لقيادة الجيش ليضمن به نزع أية أظافر يمكن أن تطول لزملائه الذين اشتركوا معه في العمل السرى تحت الأرض طوال زمالة الضباط الأحرار .

ولقد وضحت قدرات عبد الحكيم عامر العسكرية منذ حرب ٥٦ التي انتهت بهزيمة عسكرية لها مبرراتها ولكن عبد الناصر حولها إلى كسب سياسى .

ومنذ ذلك التاريخ فكر عبد الناصر - كما يقول الذين كانوا بالقرب منه - في التخلص من عبد الحكيم ٣ مرات :

- الأولى كانت بعد حرب ٥٦ ولكنه خشى أن يقلب عزل عبد الحكيم في ذلك الوقت النصر السياسى الذى كان الحديث عنه سائداً إلى هزيمة أو ما يشبهها . . بالإضافة إلى أن عبد الناصر كان - على حد قول الفريق محمد فوزى في مذكراته - في حاجة إلى عبد الحكيم في ذلك الوقت للتعاون معه في التخلص من بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة القدامى .

- المرة الثانية وكانت في أكتوبر بعد عملية الانفصال التي جرت بصورة مهينة للمشير

الذى كان حاكماً لسوريا في ذلك الوقت ، وتم الانقلاب عليه وتخطيط عملية الانفصال من داخل مكتبه وبترتيب قام فيه عبد الكريم النحلاوى الذى كان مديراً لمكتب المشير بإبعاد الضباط الوجوديين من مواقعهم إلى أماكن بعيدة .

وبعد عودة المشير وتكشف ما جرى منه وله فكر عبد الناصر في إبعاده ، ولكنه خوفاً من زيادة آلام جرح الانفصال الذى كان قد أصاب عبد الناصر نفسه عدل عن ذلك حتى لا يستغلها الذين كانوا يهاجمون عبد الناصر من العرب ويحسبونها عليه . . وهكذا فإنه أمام كبريائه وخوفاً على سمعته في العالم العربي رفض إبعاده .

وكان الأغرب من كل ذلك أن عبد الحكيم عامر الذى كان لابد وقد أحس بكل هذا قد راح على العكس ينظم نفسه بحيث أصبح منذ عام ١٩٦٢ هو صاحب الكلمة الأولى في الجيش قبل عبد الناصر ، وقد حاول عبد الناصر قطع الطريق على عبد الحكيم عن طريق تشكيل مجلس أطلق عليه اسم مجلس الرئاسة ، وكان مفروضاً أن يقوم هذا المجلس بالتصديق على تولى الوظائف العسكرية الرئيسية بدلاً من الطريقة السابقة التى كان يتم فيها التصديق على هذه القرارات بقرار فردى من المشير عامر .

وعلى حد قول محاضر الجلسات التى عقدها الرئيس عبد الناصر مع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا - وهى المحاضر التى نشرتها صحيفة الأهالى والتى من المفروض أنها لا تبرز إلا الجانب المضيء والمشرق من فكر وعمل عبد الناصر - فإن عبد الحكيم عامر أجهض هذه العملية وانتهى الأمر بتسليم عبد الناصر بمطلب عبد الحكيم عامر أن يكون بصفته القائد العام للقوات المسلحة صاحب الحق الوحيد في تعيين القيادات العسكرية على كافة المستويات لا يشاركه أحد . كما استسلم عبد الناصر لمطلب آخر لم يعلن عنه وقتئذ وهو أن يمتنع عن الاتصال داخل الجيش عن طريق بعض معاونيه الذين كانوا أصلاً ضباطاً في القوات المسلحة بحيث يصبح مدخله الوحيد للقوات المسلحة باب القائد العام عبد الحكيم عامر ! (هذه العلامة للتعجب منقولة أيضاً من جريدة الأهالى) ومنذ تلك اللحظة فقد عبد الناصر الاتصال بالقوات المسلحة ، كما فقد التعرف الحقيقى على ما يدور داخلها إلا بالقدر أو الشكل الذى يعرضه المشير عبد الحكيم عامر ! (هذه العلامة للتعجب لم تنشرها الأهالى . ولكننى لم أستطع مقاومة القلم في وضعها) .

ولو عدنا إلى الأحداث التى جرت في ذلك الوقت لوجدنا أن كل الذى استطاعه عبد الناصر بعد أن تغلب عليه عبد الحكيم عامر هو أن يعين على صبرى الذى لم يكن على وفاق مع عبد الحكيم ، رئيساً للوزارة . .

ولكن حتى هذه لم تدم طويلاً ، فقد نجح عبد الحكيم بعد ذلك في التخلص من على صبرى وبعد زكريا محيى الدين الذى خلف على صبرى رئيساً للوزراء ، تم تعيين صدقى سليمان فى هذا المنصب ، وكان محسوباً على المشير عامر وظل فى منصبه إلى أن جرت هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

ولكن الأغرب من ذلك أن لعبة القوى تحركت اتجاهاً آخر ، فعلى صبرى أصبح مسئولاً أمام عبد الناصر عن الاتحاد الاشتراكى الذى يمثل التنظيم السياسى وشمس بدران الذى عين وزيراً للحربية أصبح مسئولاً أمام عبد الحكيم عامر عن القوات المسلحة . .

وفى الاتحاد الاشتراكى كون على صبرى - بمعرفة عبد الناصر - تنظيمًا سرياً هو الذى كان يطلق عليه التنظيم الطليعى ، وفى القوات المسلحة كون شمس بدران بمعرفة عبد الحكيم - بالتأكيد - تنظيمًا سرياً يضم معظم ضباط دفعة تخرجه وقد قام عبد الناصر بعد الهزيمة باعتقال كل أفراد دفعة شمس بدران سواء من كان منهم فى التنظيم أو لا علاقة له به .

وهكذا لم يكن نظام الحكم معلناً وإنما كان أيضاً سرياً فى الاتحاد الاشتراكى وفى الجيش .

هكذا كان خداع الناس أسوأ من الهزيمة التى حدثت فى يونيو ، ولا أحاول هنا أن أتحدث عنها طويلاً فقد كتبت عنها تفصيلاً من قبل ، ولا أريد أن أعيد الذكرى إلى جرح كبير لا نزال حتى اليوم - وبرغم ما حاوله نصر أكتوبر - نسدد حسابه على كل المستويات . وأظن أن خداع النفس الأكبر - بصرف النظر عن الهزيمة - هو أن ما كنا نسمعه من حديث عن الحرب والاستعدادات والقدرات لم يكن غير واجهة تخفى خلفها شيئاً آخر لم نعرفه إلا بعد أن وقعت الكارثة .

فعبد الناصر أعلن لنا قبل ٥ يونيو أنه مستعد تماماً للحرب . . وكلماته فى الخطاب التى ألقاها فى الأسبوع الذى يسبق الحرب كان واضحاً فيها أنه يدرك تماماً عواقب إغلاق خليج العقبة ، وسحب قوات الطوارئ الدولية وأن ذلك يعنى الحرب ، بل أكثر من هذا قال عبد الناصر فى لقائه مع أعضاء المجلس المركزى للاتحاد الدولى لثقابات العمال يوم ٢٦ مايو ٦٧ - قبل عشرة أيام من ٥ يونيو الحزين : أنا وقفت فى يوم من الأيام من ستين وقلت إن احنا معندناش خطة لتحرير فلسطين ولكن أخيراً شعرنا بأن احنا قوتنا كافيه وإن احنا فى دخولنا أى معركة مع إسرائيل نستطيع فعلاً أن نتنصر وعلى هذا قررنا الخطوات التى اتخذناها .

الكلام إذن واضح من حيث تقدير أبعاد التصرفات التي كان يمارسها عبد الناصر وتوقعه للحرب . . مع ذلك فإن الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه خريف الغضب (صفحة ١٥٦ من النسخة العربية) يقول لنا «ومن الخطأ أن يتصور أحد أن عبد الناصر كان يريد الحرب مع إسرائيل» .

أما صلاح نصر رئيس المخابرات العامة وقت الهزيمة فيقول في حديث أجراه معه منذ سنوات الكاتب الصحفي الأستاذ حسين كروم ونشره في عدة صحف عربية (عندما كانت هذه الصحف ممنوعة من دخول مصر) : كان أمام عبد الناصر صورة منذ النصف الثاني من مايو عن مخاطر سحب القوات الدولية ، وإغلاق خليج العقبة وعن مخطط الدول الكبرى ، ومع ذلك لم تستمع القيادة السياسية إلى هذا التحذير ، لأنها كانت لا تزال تعيش في مناخ حرب ٥٦ الأمر الذي يوهم بأن إسرائيل لن تجرؤ على القيام بحرب شاملة إلا إذا اشترك الغرب معها ، ولو اشترك الغرب فإن روسيا ستحارب بجانب مصر ، هذا فضلا عن أن القيادة السياسية كانت تنظر إلى تحريك القوات على أنها مظاهرة عسكرية الغرض منها تحقيق هدف سياسى هو إبراز قدرة مصر على ردع العدوان الإسرائيلي على أى دولة عربية .

ويضيف صلاح نصر : لقد كان على القيادة العسكرية أن توضح لواضع القرار السياسى أن القوات المسلحة لم يكن فى استطاعتها فى ذلك الوقت تحقيق الهدف السياسى ، وإن كانت هناك نظرية تقول أن على السياسيين أن يضعوا القرار وعلى العسكريين التنفيذ دون الدخول مع واضع القرار فى مناقشات سياسية .

ثم بصراحة مؤلمة يضيف صلاح نصر : إن القوات المسلحة عام ٦٧ لم تكن مستعدة على الإطلاق لدخول حرب شاملة مع إسرائيل . . كانت منهكة من حرب اليمن ، كانت ميزانيتها تقلصت . . كانت أغلب قياداتها قيادات سلم لا حرب . . هذا فضلا عن النقص فى التسليح ، ومن ثم فإن دخول مصر الحرب مع إسرائيل - هكذا قال صلاح نصر - فى زمان ومكان غير مناسبين هو سبب الهزيمة خاصة وأن الموقف الاقتصادى كان متدهورا لدرجة أنه لم يكن فى خزانة الدولة بعد انتهاء الحرب مباشرة سوى عشرة دولارات !!

وقد تكون حكاية الدولارات العشرة هذه مبالغه من صلاح نصر لكن خداع النفس بالتأكيد لم يكن مبالغه .

وهذا الهراء الذى كان يصدر عن عبد الناصر ورجاله بعد الهزيمة انتهى بإعلان بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ، وهو خرافة ناصرية أخرى لا تصدق فيه كلمة ، إنما هى عظمة ألقيت

للكلب لكى يتلهى بها ، مثله فى ذلك مثل «الميثاق» الذى كان أكذوبة فى صورة حفل سمر أقاموه ودعوا الناس لإبداء رأى فيه ، وقد صاغوا خلاصة ما قيل فى المناقشات فى ذلك الميثاق الذى أذاعوه وطبعوه ربما بملايين النسخ وقرروه على التلاميذ فى المدارس دون أن يكون فيه ذرة من الصدق أو الجدية ، وهذا كلام أنور السادات فى كتاب البحث عن الذات لا كلامى .

ولعل من الطريف أن أذكر هنا أنهم - تخليداً لبيان ٣٠ مارس - طبعوا عنوانه وقطعة منه على منافض أو طقاطيق سجاجير وزعوها على الأهل والأحباب كما توزع علب الملابس فى الأفراح ، ومازال بعض هذه المنافض على مكاتب بعض محررى الأهرام ، وهذه المنافض هى كل ما تخلف عن بيان ٣٠ مارس من أثر !

* * *

وتسأل هنا : ما الذى جعل مجلس الثورة الذى انتهى إليه الأمر بعد قيام الثورة جامد الفكر رجعى الاتجاه فيما يتصل بطراز الحكم الذى ساروا فيه ؟ لقد اتخذوا قرارات تقديمية فعلا مثل قانون الإصلاح الزراعى ، ولكن هذا المشروع - مثله فى ذلك مثل كل ما تبناه مجلس الثورة - لم ينبع من داخله ، وإنما كان فكرة موجودة تقدم بها رجال من المصريين

ومصر لم تخلق يوم قامت ثورة ٢٣ يوليو ، بل كان فيها دائماً رجال مفكرون ، وموضوع الإصلاح الزراعى كان مطروحا على مائدة البحث من زمن بعيد ، وكانت هناك مشروعات كثيرة لطريقة تنفيذه فى خزائن الدولة ، وكذلك إلغاء الألقاب والمجانية الكاملة للتعليم وقوانين أجور العمال وما إلى ذلك ، ولكن كل هذه المشروعات كلها التى تبنتها الثورة كما قلنا لم تنبع من فكر رجال الثورة أولاً ، ثم إن الصيغة التى تبناها بها رجال الثورة كانت دائماً صيغة خاطئة حافلة بالعيوب ، حتى مشروعات غزو الصحراء وتوسيع رقعة الأرض الزراعية لم ترسم لها خطة واضحة ، بل عهد فى تنفيذها إلى صاحب الحظ والنصيب من المرضى عنهم ، وأنفقت ملايين وتشعبت المشروعات فصارت هناك مصانع كثيرة إلى جانب أعمال إصلاح الأرض التى تكلف كل فدان منها أضعاف قيمته ، ثم قامت الثورة نفسها بتصفية هذا المشروع كله وعينت المسئول عنه فى وظيفة كبرى ووزعت وجوه نشاطه على عدد من الوزارات ، بل أنشئت لذلك لجنة يمكن أن تسمى لجنة تصفية قام على رأسها المهندس سيد مرعى .

والسياسة التى جرى عليها رجال الثورة فى السودان كانت سياسة طائشة غير متوازنة حتى أصبح واحد من العاملين فى شئون علاقات مصر بالسودان وهو صلاح سالم موضع سخرية عالمية بما كان يفعل من خلع ملابسه إلا ما يستر العورة والرقص مع رجال القبائل

في جنوب السودان حتى سمي بالميجر الراقص وواضح أن رجال الثورة بعد أن أقصوا الرئيس محمد نجيب أحسوا باستياء السودانيين واتجاههم إلى القطيعة مع مصر ، فرسموا خطة صبيانية حقا قام بتنفيذها الميجر الراقص وانتهت إلى أسوأ النتائج .

وبينما كان تفكير الشعب ثوريا نلاحظ أن تفكير قادة الثورة كان رجعيا ، ففي حين أن الشعب كان متحمسا للحرية والديمقراطية وتجديد هيكل الحياة وصورتها في مصر كان كل جهد رجال الثورة هو تجميع السلطان في أيديهم ، وحرمان الشعب من أى حرية حقيقية ، ومحاربة السيطرة عليه عن طريق تنظيمات سيئة البنيان والتكوين مثل هيئة التحرير التي منيت بالفشل الذريع ، فاستبدلوها بهيئة استبدادية يسارية الاتجاه تسمى بالاتحاد الاشتراكي الذي أنشئ على أنقاض الاتحاد القومي ، وحتى هذا الاتحاد لم يلق من الشعب أى قبول وانتهى الأمر بإلغائه هو الآخر ، وكلا التنظيمين - هيئة التحرير والاتحاد الاشتراكي - كان وسيلة للكثيرين جدا من العاملين في أجهزة الثورة للوصول إلى مراكز رخيصة وتحقيق ثروات طائلة ومنافع شخصية وعائلية كثيرة .

ومن أطرف ما مر ب أنهم أنشأوا لجنة ثقافية كنا نعمل فيها وأعطونا شقتين عظيمتين في جاردن سيتي ، وعملنا في حماس شديد ، ثم قيل لنا ذات مرة إن اللجنة أوقفت أعمالها تمهيدا لتطورها . ولم يتم تطوير أو غيره ، وإنما الذي حدث أن رئيس اللجنة وهو من ممالك السلطان عمل عقد الاستيلاء على الشقتين من الحراسة باسمه ، وحولها إلى شقتين خاصتين به ، بل كان هناك دور أرضى أو بدورم واسع تابع للشقتين فوضع عليه يده أيضا ، وهو إلى يومنا هذا يستغل ذلك كله لحسابه .

والسبب في ذلك التخطيط الثوري هو أن الذين تولوا أمور الثورة لم يكونوا ثوريين ولم تكن لديهم ثقافة ثوار أو غير ثوار ، وكان مستواهم العلمى والثقافى ضئيلا جدا ، وقد تبين لنا ذلك من اللجان والمجالس التي كانوا ينشئونها ويضعون على رؤوسها رجالا منهم ، وتكون مهمة اللجنة هى تعليم الرئيس وتثقيفه ، حتى إذا فهم من الموضوعات قشورها تولى رياستنا وتوجيهنا بعلمه النزر الذى كسبه من أعضاء اللجنة ، ولكنه كان فى نظره هو علما غزيرا .

ولابد لكل ثورة - لكى تكون جدية بهذا الاسم - من أيديولوجية أى مجموعة مبادئ متماسكة يتكون منها الخط الفكرى للثورة ، ومستقبل الثورة - أى ثورة - يتوقف أساسا على نوع عقائديتها وعمق الأفكار وحيويتها ومطابقتها لمطالب الناس وما يمكن أن يحققه هذه العقائدية من آمال ، والعقائدية والأيديولوجية تتوقف على ثقافة رجال الثورة وتجاربهم ومعارفهم بأحوال البلاد ومطالب العباد .

وأكبر دليل على ذلك هما الثورتان الفرنسية والروسية فالأولى قد تكلمنا عنها وأما الثورة الروسية ، فالناس عندنا لا يعرفون الذين دبروا لها ، فإن الذى قادها لينين فى أكتوبر ١٩١٧ . وقد قامت هذه الثورة أساسا على فكر كارل ماركس فى المكان الأول ثم صاحبه فريد ريش انجلز ، ثم فرديناند لاسال بعد ذلك .

وكارل ماركس كان رجلا واسع الثقافة بصورة قل أن نجد لها مثالا ، وما أظن أن هناك كتابا جديرا بالقراءة - فى كل ميادين الفكر لم يقرأه ويتمثل ما فيه كارل ماركس . وعندنا مع الأسف فكرة شائعة تقول إنه كان إنسانا حاقدا ، وأن أفكاره نبعت من أحقاد ، ولا شك أن صدر ماركس كان مثقلا بالأحقاد على كل أصناف البشر تقريبا ، ولكن رأسه كان حافلا بالعلم ، والمجلدان اللذان جمعا دراساته الأولى (ومنها رسالته للدكتوراه) وعنوانها كتابات الشباب ينمان عن اطلاع واسع حقا ، وعلى طول حياته كان الرجل لا يكف عن القراءة ، بل كانت المكتبات العامة محلات إقامته الدائمة وفى مكتبة الجامعة فى زيوريخ ، وهى المعروفة باسم ركن يسمى ركن كارل ماركس إلى يومنا هذا ، وكتابه رأس المال ثمرة ثقافة بلا حدود ، والمقالات التى كان ينشرها فى المجلة التى أنشأها مع فريدريش انجلز تؤكد أن هذا الرجل كان يقرأ كل ما يصدر من الكتب متصلا باهتماماته عن كل دور النشر الأوروبية والأمريكية ، والبيان أو المانيفستو الذى صاغه مع انجلز لا يصدر إلا عن علم غزير وفهم واسع وذكاء نادر وتجربة واسعة وإدراك لمناخ العصر يدعو إلى العجب .

ونتيجة لهذا فإننا نجد العقائدية الماركسية ذات عمق بعيد وشمول ، وإلى هذا ترجع حيويتها المتجددة وقوتها على البناء ، فهنا حلول لقضايا ومشاكل متصلة بالعمل والعمال والبناء الاقتصادى صادرة عن فكر عميق وعلم بالاجتماع والاقتصاد والقانون والأديان والأدب والفن ، أى أنها أيديولوجية شاملة تقدم لمن يقرأها حلولاً لمشاكل كثيرة جدا من مشاكل السياسة والمجتمع والاقتصاد ، وهذا هو سر قوة العقيدة الماركسية وسر تمسك أصحابها بها حتى أنك لتجد الماركسى من أشد الناس تمسكا بآرائه وأقواهم حجة فى الدفاع عنها ، وأصحابها يستغنون بها عن كل عقيدة أو أيديولوجية أخرى - بما فى ذلك الدين - لأنها - كما قلت - تغطى بالنسبة لأصحابها كل ميادين الفكر الإنسانى وتحقق - ولو نظريا - فدرا كبيرا جدا من احتياجات طوائف معينة من البشر من المظلومين والمحرومين .

ثم يتناول هذه العقيدة لينين ، وكان بدوره من أعظم من عرفنا فى التاريخ ثقافة وعلميا . كان يقرأ ليل نهار . . وعندما حكم عليه بالسجن سنة بعد مقتل أخيه اليكساندر استوقف نظر رئيس السجن بانصرافه الكامل إلى القراءة ، وزاد احترامه له فكان يرسل له الطعام من بيته ، وأطلق سراحه بعد قضاء ثلثى المدة لسلوكه المثالى فى السجن . وبعد

وصوله إلى السلطان لم يكن يسمع بكتاب حتى يبادر بطلبه وقراءته ، وأثناء انعقاد مجلس الوزراء كان يدع الوزراء يتناقشون ويفتح كتابا ويقرأه ، لهذا كانت ثقافة لينين مضرب المثل ، وهذه الثقافة أعطته عمقا مكنه من تعديل مسار الماركسية ، فأصبحت هناك ماركسية وماركسية لينينية .

إن ثقافة لينين الواسعة هي التي أحدثت التغيير الشامل في روسيا ثم في الصين وفيتنام ولازالت تغزو عقول البشر في كل مكان ، وإلى ثقافة لينين وعلمه يرجع الفضل في تحول روسيا التي كانت دولة متأخرة إلى واحدة من اثنتين هما اليوم أقوى دولتين عرفهما التاريخ . ولو أنك شاركت في مجلس من مجالس أولئك الماركسيين الحقيقيين - في باريس مثلا - لسمعت العجب من ذكائهم واتساع اطلاعهم ومعرفتهم وقوة حججهم . أما في العمل فهم شياطين إذا ملكوا السلطان فهم لا يكثرثون لإنسان أو دين أو عاطفة في سبيل تحقيق مآربهم .

وأساس هذه القوة هو أن لينين العالم وضع العلم أساساً للثورة الاشتراكية ، العلماء عنده كانوا قادة المجتمع . لم يكن لينين يحترم حقيقة إلا مدير جامعة موسكو ومدير متحف الإيرميتاج . ولينين الذي كان سفاحاً رهيباً كان يعرف قيمة الفن ، وهو الذي أشرف على تجديد متحف الإيرميتاج والمحافظة على كل ذخائره ، ولينين هو الذي أعاد إنشاء فرقة البولوشوى ، وإذا كانت تبهرك محافظة الروس على قصور القيصرية وذخائرها وحدائقها فالفضل في ذلك يرجع إلى لينين ، وهو أيضاً الذى حرص على المحافظة على مترو ليننجراد - موسكو بهذا البهاء القيصرى .

لا غرابة إذا في أن تكون الثورة البلشفية من أقوى الثورات التي عرفها التاريخ لأنها تقوم على أيديولوجية أو عقيدة مبنية على أساس متين من الوعي والتفكير ، والعقائدية البلشفية أصبحت علماً ولأنها علم فإن كل المشروعات التي قامت بها مؤسسة تأسيساً علمياً . والعلماء هم السند الحقيقي وراء القوة السوفيتية وهم هناك يراعونهم ويقدمون لهم أقصى ما يستطيعون من تسهيلات العيش والعمل .

ولينين هو أول من قال : روسيا قبل الروس . كل ما ينفع روسيا مقدم على مصالح الأفراد وكل شئ ينبغي أن يتجه إلى خدمة روسيا والعواطف تأتي عنده بعد مصلحة روسيا ، وهو نفسه كان خادماً روسيا الأول في حين أن جمال عبد الناصر نفسه جعل مصر كلها في خدمته ، ولهذا لم يستطع أن يستمر في المد الثورى .

وثورتنا كانت على يد محمد نجيب وشعب مصر . وأوقف حركتها ونشاطها جمال عبد

الناصر وعبد الحكيم عامر . وهى اليوم تعود ثورة كما كانت لأن الرئيس مبارك يدع المصريين يصنعون بلادهم على قدر علمهم ، ولا يتدخل فى شئون الجامعات أو معاهد العلم كما كان يعمل الذين من قبله لأنه يعرف أن الأمة لا تستطيع الوصول إلى أكثر مما يؤهلها له علم رجالها ، ولهذا فهو يحترم الشعب والحريات وجهود الناس وكراماتهم ، وهو بهذا يسجل اسمه كأول حاكم صادق يؤمن بمصر وصالحها منذ تنحية محمد نجيب ، وهذا هو الذى يبعث فى نفوسنا الآمال .

وكان نابليون من أوسع الناس ثقافة وأكثرهم قراءة ، كان يسمى نفسه تلميذ فولتير ومؤرخوه يقولون إن أحدا لم يقرأ فولتير ويتشبع بأرائه مثل نابليون ، ورغم أن هذا الرجل كان عسكريا أنانياً إلا أن جانبه الثقافى هو الذى جعل له مكانا عظيماً فى تاريخ فرنسا ، لأن أمجاد الحروب وانتصارات مارنوجو وداجرام وأوسترلينز ومينا وأورشتاف وروائع أعماله العسكرية فى الحملة الإيطالية كلها تلاشت نتائجها ، بل إن دخوله فيينا دخول الظافرين فى ١٣ نوفمبر ١٨٠٤ بعد انتصار أوسترلينز ، وكان يعد أكبر انتصار عسكري سياسى لفرنسا وقمة من قمم أمجادها ، أصبح اليوم يعد من مساوئ فرنسا لأنه أذل الشعب النمساوى دون مبرر . وتاج الامبراطورية الذى وضعه نابليون على رأسه فى ١٨ مايو ١٨٠٤ لم يعد مفخرة فرنسية .

ولكن المفاخر الكبرى الباقية لنابليون هى مآثره العلمية والثقافية . فتحت إشرافه وتوجيهه وضع قانون نابليون ، وهو من أعظم الأعمال التشريعية فى تاريخ الحضارة ، ونابليون اهتم اهتماماً بالغاً بالليسيهات ، وهى المدارس القانونية الفرنسية ، وهى الأساس الحقيقى للثورة العلمية الفرنسية ، ونابليون هو الذى أعاد تنظيم المدارس الفرنسية الكبيرة وأولها الحسان سيروهى أعظم المعاهد العسكرية فى فرنسا ومن أعظمها فى الدنيا ، وكانت عنايته بالمدارس الكبرى الأخرى عظيمة جداً ، ففى أيامه أعيد تنظيم مدرسة الهندسة العليا ومدرسة المعلمين ومدرسة الطرق والكبارى ولم يهتم أحد بمدارس الرسم الهندسى كما اهتم نابليون . هذه المدارس هى أساس الصناعة الفرنسية كلها مع أنها مدارس فى حكم المتوسطة ، لأنها تعلم طلابها كيف يكونون مساعدين حقيقيين للمهندسين فى كل فرع من فروع الهندسة والإنشاء ، فهم يرسمون تصميمات القطارات والطائرات والمدافع والسيارات وقطارات سكة الحديد ، ونحن لا نهنم بهذا ولا نعرفه ولهذا فإن كل صناعاتنا تقوم على رسوم هندسية غير دقيقة .

وفى فرنسا اليوم نحو ٣٠٠ مدرسة رسم يعمل التلاميذ فيها بالمسطرة والمثلث والفرجار وأدوات الرسم الدقيقة ويخرجون تصميمات الآلات على نحو هو أقصى ما يصل إليه الرسم

من دقة . هنا سر قوة الصناعة الفرنسية فإن المهندس والعالم والطبيب يفكرون ويتوصلون إلى النتائج والنظريات وأفكار الآلات والمخترعات . ولكن التنفيذ كله بيد هؤلاء وفي مصانع داسو الفرنسية للطائرات يأخذ الرسام المفتن ثلثي أجر المهندس .

وعندما أتى نابليون إلى مصر غازيا اصطحب معه جيشا من العلماء والرسامين ، وهؤلاء درسوا مصر ورسموا كل ما فيها أعظم دراسة وأدق رسم . وهذا يدل على القاعدة العلمية المتينة التي كان يقف عليها نابليون ، وكتاب وصف مصر الرائع خير شاهد على ذلك ، أولئك العلماء هم الذين جعلوا دراسة الآثار المصرية القديمة علما فرنسيا يسمى الـايجبتولوجى وفرنسوا شامبليون وهو من مفاخر فرنسا كان يرى نفسه مصريا فرنسيا يخدم بلاده بدراسات الآثار المصرية ومتابعتها وهو الذى فك طلاسم لغات مصر القديمة ، وفرنسا - نتيجة لذلك - تعتبر الآثار المصرية عملا علميا فرنسيا ، وذلك يرجع إلى نهاية عهد نابليون .

وجمال عبد الناصر عندما قرر دخول حرب اليمن لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً عن اليمن ، وكل معلوماته جاءت من رجال يمينيين أو دخلاء على اليمن لكل منهم مصالح خاصة من أمثال عبد الله السلال وأحمد الشامى وعبد الرحمن البيضاى . وكلهم كانوا من أسباب فشل المغامرة المصرية فى اليمن . ولم يفكر عبد الناصر فى أن يرسل بعثة علمية مع قواته لتدرس اليمن وجغرافيتها ونباتها وحيوانها وشئون الصحة العامة والأمراض المتوطنة فيها وما إلى ذلك لأنه هو نفسه لم يكن فى الحقيقة رجلا مثقفا . ونابليون فشلت حملته على مصر سياسيا ولكنها نجحت علميا ، أما تدخل عبد الناصر فى اليمن فلم يأتنا إلا بكوارث ، لأنه لم يقيم على علم أو فكر وإنما قام على حقد وطموح خادع بأن يتخذ اليمن قاعدة لهدم كل القوى التي كانت قائمة فى الجزيرة ، والحمد لله على أنه فشل ، لأنه لو نجح فى هذا المسعى لكانت طامة كبرى .

وقد قرأت كل ما كتب عبد الناصر وقال ، فلم أستدل منه على أن الرجل قرأ قراءة تذكر ، بل لا أظن أنه قرأ كتابا كاملا خارج كتب الكلية العسكرية ، وكتاب « فلسفة الثورة » الذى وضعه وكلفنا ترجمته إلى كل لغات العالم وطبعناه بالألوف هو دون شك أكبر كتب الفكر السياسى العالمى سطحية ، والدوائر التى رسمها فيه كلها وهمية ، وهو نفسه لم يكن يعرف معناها الحقيقى . فهو مثلا يتحدث عن الدائرة الأفريقية أى دور مصر فى السياسة الأفريقية ، ولكنه عندما بدأ التفكير فى منظمة الوحدة الأفريقية ارتكب خطأ جعل مصر بالفعل - علميا - خارج دائرة التأثير والعمل فى تلك المنظمة ، وأغضب منه كل أحرار الأفارقة ، وهو موافقته على أن تكون أديس أبابا مركز منظمة الوحدة الأفريقية ،

وتلك كانت غلطة مخزية بالنسبة لمصالح مصر ، والسودان ، لأن ذلك ارتفع بالحبشة إلى مكانة لا تستحقها وجعلها صاحبة كلمة كبرى في سياسة أفريقية ، والحبشة هنا كانت تنسد إرادة الولايات المتحدة ثم روسيا ، وهى بفضل مركزها هذا تهدد السودان وتحتل ارتيريا وأراضى من الصومال وكل زعماء أفريقية فى أيامه كانوا ميالين إلى جعل المقر فى القاهرة أو الاسكندرية أو بعيداً عن أديس أبابا على أى حال ، لأنهم من يوليوس نيريرى إلى جوموكينيا وسيكوتورى كانوا أوسع ثقافة وأبعد نظراً من عبد الناصر لأنهم كلهم مناضلون عاشوا فى أوروبا وهناك درسوا وتكونوا وتثقفوا ، ولذلك فقد كانوا يعرفون أن الموافقة على أن تكون أديس أبابا مقر منظمة الوحدة الأفريقية معناه أنها أصبحت منظمة استعمارية أمريكية ، لأن الحبشة كانت إذ ذاك صنيعة أمريكا وكل زعماء أفريقية كانوا يعرفون ذلك ، وسيكوتورى طار إلى القاهرة ليشرح هذا الأمر لعبد الناصر ولكن عبد الناصر كان مشغولاً بنفسه وصورته والدعاية لنفسه ، وصراعه مع عبد الحكيم عامر ، وحلمه فى أن يكون إمبراطور العرب .

خلاصة هذا الكلام كله أن هذه الثورة ليست ثورة أولئك الذين خططوا لها ونفذوها ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل هى ثورة شعب مصر ، وقد أثبتنا أنهم كانوا يفكرون فى حركة داخلية خاصة بالجيش ، وأن محمد نجيب هو الذى حولها إلى ثورة مصرية تحريرية فعاقبوه وأخرجوه ، وجعلوها استبدادية عسكرية لا تخدم إلا فئة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، فحولوا الثورة النبيلة إلى استبدادية غاشمة أذلت هذا الشعب وحرمته الأمن واضطهدت الأحرار وأطاحت بالقانون والقضاء ، وفى الظلام تسلل اللصوص وسرقوا ونهبوا وأصبحوا سوبر باشوات .

والذى يفعله شعب مصر منذ حركة التصحيح التى قام بها أنور السادات فى مايو ١٩٧١ هو إعادة هذه الثورة إلى نصابها وجعلها ثورة مصرية شعبية تحمى الحرية والديمقراطية .

وبينما أضاع عبد الناصر وعبد الحكيم عامر سيناء وقناة السويس وهوىا بمصر إلى الحضيض كان السادات بمن عمل معه من أحرار الضباط وبقية المصريين فعلاهم الذين استعادوا سيناء وهزموا إسرائيل وكسروا أسطورتها . وكشفوا ضعفها وسوء نيتها وجشعها ومعاودة كامب ديفيد التى لا يرضى عنها الكثيرون من العرب هى نقطة البداية لنهاية إسرائيل .

ومن أسف أن قطاعات كبرى من جماهير العرب لازالت تحلم بالبطل المناضل المخلص

الذى يضرب إسرائيل بالسيف ويشقها نصفين كما كان يقال إن عنترة بن شداد كان يعمل بخصومه ، وعنترة لم يكن يفلق الهام ولم يحدث أبدا أن ضرب فارسا على رأسه فهشم خوذته وقطعه نصفين ، وقع كل واحد منهما على جانب الحصان ، ولكنه قال ذلك في شعره وأشعار أخرى نسبوها إليه ، وكثيرون من العرب ما زالوا إلى اليوم يبههم الشعر الكاذب ويمجرون وراء الكلمة البليغة ولو ذهبت بهم في داهية . وقد حدث هذا في تاريخهم ألف مرة ، والسيد ياسر عرفات ما زال يؤمن بأنه سيحرر فلسطين بالكلمات والمؤتمرات ودفاتر شيكات لأموال المنظمة التي تقدر بالملايين .

فلا يأتينا إذن أحد ويقول : أنا الثورة ، أو أنا من صناع الثورة وقادتها أو أن لى الفضل في كيت وكيت ، لأن هذه الثورة ليست ثورة فلان أو علان وإنما هي ثورة شعب مصر . ولا يتوقع أحد ويقول أن فلانا أهان الثورة لأن الثورة لا يهينها إنسان فهي أجل من ذلك ولكن الذين تولوا أمرها انحرفوا بها عن طريقها وهبطوا بمستواها وهم أولئك الذين سيطروا عليها من ١٩٥٤ إلى بداية رئاسة الرئيس مبارك ، والذين يصححون مسارها اليوم ويجعلونها ثورة تقدمية إصلاحية تقوم على الحرية واحترام كرامة المواطن وحقه في المشاركة في حكم بلاده هم نحن . . نحن الثورة . نحن شعب مصر كله . ونحن صناعها وورثتها . ولا فضل لأحد منا عليها ، بل نحن جميعا خدامها .

في إطار هذا المفهوم - مفهوم أنها ثورة شعب وحركة قومية مصرية عامة - نستطيع أن نعيد النظر في ترتيب الشخوص والأدوار ، فلا يقال إن هذا هو صناع الثورة ، أو ذاك قائدها ، أو ثالث صاحب الفضل عليها ، فما دامت حركة شعب بأسره فكل الشعب مشارك فيها ، ومن المؤكد أن المصريين جميعا مع الثورة فليس هناك مصرى عاقل يريد أن ترتد مصر إلى أحوال ما قبل الثورة والعودة إلى عصر الملك والباشوات ، بل إن هذا نفسه مستحيل وثورة مصر غيرت العالم من حولها ، والتاريخ لا يعرف العودة إلى الوراء أبدا . بل إن العودة إلى دور من أدوار هذه الثورة نفسها مستحيلة فلا يمكن العودة إلى الدور الناصري ، أو الدور الساداتي ، بل إن المسؤولين عن دور مضى من أدوار الثورة لا يصلحون للعمل في دور ثان من أدوارها .

في هذا الإطار العام نستطيع أن نعيد تقييم دور عبد الناصر نفسه ، وكل من الذين يحسون في أنفسهم أنهم أصحاب هذه الثورة أو حراسها - بالمصادفة في ليلة الثورة - لأنه كلف بمهمة صغيرة ثم طلبوا إليه المشاركة في كتابة البيان الذى سيداع على الشعب فكتبه في صورته الأولى التي اختصرت واقتصرت على أنها حركة إصلاح داخل الجيش - فهذا يكون دوره ولا زيادة ، ويبقى لمحمد نجيب فضل تحويل الحركة المحدودة إلى ثورة شعبية ، ودور

كل منهم ومكانه في الثورة ينبغي أن يتحدد على هذا الأساس ، بصرف النظر عن كون محمد نجيب قد أبعاد عن الثورة ووضع في موضع عدو الثورة في حين أن الثاني التصق بأصحاب السلطان الجدد ونال على أيديهم كرامات أو وظائف أو مراكز ، فذلك كله لا يغير وضعه في الثورة ولا يزيد قدره منها .

هذا فيما نعتقد هو أسلم طريق لوزن الثورة وأعمال من شاركوا فيها لأن الحقيقة الأساسية هي أن بطل هذه الثورة الحقيقي هو شعب مصر كله ، هو الذي جعلها ثورة ، هو الذي صحح مسارها بعد أن انحرفوا بها وهو الذي بينى اليوم حياته ويحاول تحقيق أهداف الثورة الرئيسية . وهنا بالذات لابد أن نعطي أبطال حرب أكتوبر دورهم الذي يستحقونه ، فحرب أكتوبر هي التي رفعت الهمم وأعادت لمصر أرضها وبعثت الآمال في النفوس بعد أن كانت قد خبت وتضاءلت .

والذين شاركوا فيها هم بالفعل الذين فتحوا الأبواب لهذه الثورة لتعود إلى نصابها وتبدأ ، بعد أن ضاع وقت طويل وجهود شتى ، في مواصلة مسيرها في الطريق الذي كان ينبغي أن تسير فيه قبل إزاحة محمد نجيب والدخول في العصر الناصري . وهذا المقياس الجديد يتيح لنا فرصة الحكم على الناس والأعمال فليس من الضروري أن يكون الإنسان حاضرا في موقع الحادث ليلة ٢٣ يوليو ليكون من رجال الثورة ، فالذين حضروا ولم يقوموا بشيء يذكر كثيرون . وقد يدخل ميدان الثورة رجل في وقت متأخر ويقوم بخدمات جليلة يصبح بها من رجالها وبناتها . وهذا الميزان الجديد للثورة وأعمالها ورجالها فيه إنصاف لبطل هذه الثورة الأكبر وهو شعب مصر .



١٧ الشورة تواصل الصعود



الرئيس الراحل أنور السادات

من ١٦ أكتوبر ١٩٧٠ إلى ٢٣ يوليو ١٩٧١ خاض أنور السادات معركته الكبرى مع ورثة العصر الناصري الذين كانوا يظنون أنهم ورثوا هذا الشعب من سيدهم ، ليستمروا في الظلم والطغيان والعدوان على الكرامات حتى يسلموا مصر إلى سادتهم الروس كما فعل نور محمد تراكى وحفيظ الله أمين وبابراك كارمل في أفغانستان . وانتصر السادات في ١٥ مايو وأعلنت ثورة التصحيح وبدأت الحرية تعود ، وحكم القانون يسود . وخضنا معركة أكتوبر في ظلال الحرية ، فكان لابد أن نتصر ، واستعدنا كرامة الأرض والسمعة في الدنيا والثقة في النفس ، وعادت مصر إلى الصعود . وفي أيام الرئيس مبارك يستمر الصعود ويتأكد وتثبت الحرية والقانون .

حقا إن نصيبنا من السلبات ضخم ، ولكن حصيلتنا من الإيجابيات تزداد يوما بعد يوم . ولكننا نشكو لأن الناس يحسون المرض ولكنهم لا يحسون الصحة . وعودة الحرية معناها أن الشعب ينبغي أن يتحمل مسئولياته ، ولو أن كل مواطن حمل مكينة وكنس موضع قدمه ، لكان بلدنا أنظف بلاد الدنيا ولكننا نلقى القذارة من النافذة ولنلن الآخرين ، ونكسر القانون ونطالب بالعدالة ، ونخترق النور الأحمر ونبكي على المرور ، ونتهرب من الضرائب ونحمل على المتهربين ، وكل حرام مباح لنا ومحرم على الآخرين ، والحكومة لا تستطيع أن تعمل كل شيء . فتحديد الأسعار مثلا عمل الحكومة ، أما إلزام التاجر بمراعاة التسعيرة فذلك واجب الشعب ، ما في ذلك شك . والشكوى لا تحل مشكلة ولكنها مطية المتهاون . والدموع لا تشفى المرضى ، وشعب مصر نشيط وذكي وسليم ولكن الحكم المستبد ساقه في طريق الذل والتأخر مدى ستة عشر عاما . ومصر شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وهى شجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين ، فلنعمل جميعا على رعاية شجرتها وحمايتها بالحرية حتى تزداد ازدهارا وتعلو وتظلنا أجمعين .

بعد هذه الرحلة الطويلة القصيرة في ثلاثة عصور من تاريخ مصر المعاصر ، كان لابد من وقفة قصيرة مع القراء ، وقارئ الكتاب هو في الحقيقة مؤلفه فلا مؤلف بلا قارئ وقارئ الصحيفة هو محررها الأول ، وبلا قراء فلا صحافة ولا صحف ، وكما قال ريمون كارتية : نحن نكتب وهو يحكم وإذا كتب إلينا فذلك منه فضل كبير ، وللقارئ نكتب ، ومنه نأخذ الرأي ، وصفحات المجلة الناجحة ملك القارئ .

ولقد قضيت مرة ثلاثة أشهر في التدريب في مجلة البارى ماتش . أرسلنى في هذه المهمة العملية أستاذ عظيم من أساتذة الصحافة العربية هو إميل زيدان ، أرسلنى ودفع لى نفقات السفر ، وريمون كارتية رئيس تحرير البارى ماتش إذ ذاك كان أعظم صحفى فى أوربا فى وقته ، وكان يختار أكبر محررى الدار ليتولى الرد على بريد القراء ، وكان ذلك الصحفى

الكبير المسئول عن البريد لا يكتفى بالرد ، بل كان يذهب إلى القارىء في بيته ، ليناقشه إذا تطلب الأمر ذلك ، وفي ذات يوم أرسل أحد مساعديه لمناقشة الممثلة الأمريكية أوليفيا دى هافيلاند في خطاب أرسلته ، ذهب وقابلها وأجرى استطلاعاً في بيتها ، وفي أثناء العمل عرفها وعرفته وأحبها وأحبته وتزوجها وعقد القران في قاعة الاحتفالات في المجلة ، والتعليق على الخبر كتبه ريمون كارتية بنفسه وجعل له عنواناً جميلاً : المحرر يتزوج استطلاعاً .

والبريد الذى وصلنا أثناء نشر هذا الكتاب في صورة مقالات في مجلة أكتوبر الزاهرة كثير جداً معظمه يعبر عن الرضا عما كتبنا ، وهذا فضل من الله والقراء ، نحى له رؤوسنا . فالقراء كما قلت أصحاب أى مجلة ناجحة ، والمحررون ضيوف على القراء .

أما الذين وجهوا إلينا اللوم فقليلون ولوم بعضهم شتائم ، والشتائم لا تفتح للمناقشة باباً ، ولهذا فهى لا تنفعنا لأننا نريد أن نتعلم فن الحوار . الحوار معناه أن تتكلم أنت وأصغى لك في احترام وأتكلم أنا فتصغى لى في احترام ، واحترام الإنسان للإنسان مستوى رفيع من مستويات الحضارة ، ومن مأسى تاريخنا أن الحكم فيه لم يكن حواراً أبداً ، إنما هو كان إملاء : حاكم يأمر ورعية – أى غنم – تطيع .

والمأساة بدأت في فتنة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، والذين احتجوا عليه وذهبوا يناقشونه كانوا يمثلون قطاعاً من قطاعات أمة الإسلام في ذلك العصر هو قطاع الفاتحين المقاتلين . وقد طلبوا منه أن يستقيل – وكان قد أمضى ست سنوات في الخلافة أثبت فيها أنه غير قادر على حمل المسئولية – فأبى أن يستقيل ، وقال كلمته المشهورة : لا أخلع قميصاً قمصنى به الله ، ولا أخلع سربالاً سربلنيه الله ! . . وماذا يفعل الشعب إذا أصر الحاكم على أن يجثم على أنفاسه مدى الحياة ؟ عثمان أراد أن يقول إن الله جعلنى خليفة عليكم وسأظل جاثماً على أنفاسكم إلى الموت . وحدث المحزن وقتلوه ، وعندما نفكر في الأمر نجد أن هذه النتيجة لم يكن منها مفر ، وماذا يعمل الشعب مع حاكم يحكمه ويسىء إليه ولا يريد أن يترك الحكم مدى حياته . . وكأنه ورث الشعب من آبائه ؟ . . إخواننا في العراق لا يكتفون بقتل الحاكم الذى لا يريد أن يتتبع ، إنهم يسحلونه . والسحل هو أن يربطوه ويجروه في شوارع المدينة ، أى أنهم يمسخون به الأرض كما نقول ، وهذا تصرف همجى من جانب الشعب ولكنه نتيجة تصرف همجى من الحاكم ، في تاريخنا الماضى كان يحدث العكس : كان الحاكم يسحل الشعب . وأمم الإسلام كلها كانت في حالة سحل مستمر أربعة عشر قرناً من موت الفاروق عمر إلى عهد قريب . .

أعود إلى مناقشة سادق القراء ، فأقول للسيد اللواء جمال حماد : هل كان من

الضروري أن تتهمني بأنني عدو الثورة وحاقد عليها ؟ ولماذا والله أكون عدوها وأنا لم أسعد في حياتي العامة بيوم قبل نصر أكتوبر كما سعدت صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ؟ كنت أيامها رئيساً لتحرير مجلة « الاثنين » سمعت الخبر في الإذاعة وأخذت « تاكسي » إلى بيت أخي محمود يونس عليه ألف رحمة من الله ورجوته أن يأخذني لأرى محمد نجيب ، فأخذني وصافحته ، وكان في طريقه ليقابل على ماهر باشا . وذهبت ورأيت عصر الثورة يصافح عصر الباشوات ويتسلم منه الزمام . يومها رأيت محمد نجيب رافع الرأس باسمها ، وأحسست أن الزمان ابتسم لمصر بعد طول عبوس . وآخر وجه عابس من وجوه العصر الذاهب كان وجه على ماهر ، ذلك الرجل الصغير الضئيل المنحني الظهر الداهية الذي كان واحداً من أربعة أو خمسة حملوا لقب : صاحب المقام الرفيع ..

يومها عدت إلى الجامعة - وكنت في ذلك الحين مدرسا في كلية الآداب - وأقيمت حفلا لطلابي ، وبقينا في الكلية نستمتع بيوم مصر العظيم إلى المساء .. لا يمكن أن أكون عدوا للثورة يا سيد جمال حماد . وهذا الكلام منك يذكرنا بأهل زمان ، عندما كانوا يتهمون من لا يرضون عنه بالكفر ويقولون إنه زنديق ، وبتهمة الزندقة قتل مئات الأدباء الأبرياء وأهل العلم ، منهم عبد الله بن المقفع الذي وضعه أبو جعفر المنصور في إناء ضخم من النحاس وأغلقه عليه ووضعه على النار . هذا رمز لمصير رجل الفكر في تاريخنا الماضي لا أعاده الله .

والأستاذ جمال حماد يطالبني بوثائق أو يد بها كلامي . وهل كانت في عصر عبد الناصر كله وثائق ؟ وهل كان عبد الناصر يتفضل على شعبه - الذي كان يقول في خطبه إنه شعب عظيم - ببيان يشرح له فيه الحقيقة في أي شيء ؟ أنت يا سيدى كنت في بداية الثورة ياورا أو مساعداً لمحمد نجيب ، ومحمد نجيب عزله تحت نظرك وأبعدوه واضطهدوه ، وجاءنا عبد الناصر ، فهل نشرت الدولة كتاباً أبيض أو أخضر تشرح فيه لماذا ذهب رئيس وأق رئيس ؟ وعبد الناصر اضطهد الشرفاء من زملائه في قيادة الثورة وأخرجهم من الميدان ظلماً وعدواناً ، فهل تفضل عبد الناصر بنشر بيان واحد أو كتاب عن أسباب إخراج بطل شهيم من أبطال الثورة مثل كمال الدين حسين الذي كان في يوم من الأيام ذراع عبد الناصر اليمنى وطار ذكره ؟ . . . وتلك جريمة لم يغفرها له عبد الناصر ، فعزله واتهموه بما لا يليق ، هل نشرت حكومة عبد الناصر كتاباً أبيض أو أخضر عن أسباب انهيار الوحدة بين مصر وسوريا ؟

أنت يا سيدى كنت تعرف الكثير عما حدث في سوريا أيام تجربة الوحدة ، وقد فشلت التجربة وتم تدبير إخراجكم من سوريا وكنتم فيها يقال نياما ، فهل تفضل عبد الناصر

بكتاب أبيض أو أخضر يشرح فيه للشعب المسكين لماذا كان الانفصال ؟ وأنت يا سيدى كنت ضمن أقطاب الحكم المصرى فى سوريا وقد دخل يدك مال كثير ، وصدقنى إننى أسألك بحسن نية : هل خطر ببالك أن تفضل على هذا الشعب المسكين ببيان تفصل فيه ما كان ؟ ماذا فعلت ؟ وماذا فعل من كانوا معك ؟ وماذا أنفقت ؟ لقد كانت أموال مصر تندفق تدفقا على سوريا ولبنان ، وسليم اللوزى قال إن عبد الناصر هو الذى وضع أساس نهوض لبنان الاقتصادى بما صب فيه من أموال مصر . . فهل تفضل جمال عبد الناصر بإعلام الناس عما أنفق من أموالهم فى سوريا ولبنان ؟ وكم يا سيدى ضاع من مال مصر فى حرب اليمن ؟ لماذا ذهبنا ؟ ولماذا خرجنا ؟ وحرب ١٩٥٦ هل نعرف شيئا عن حقيقتها إلا من الكتب الإسرائيلية والإنجليزية والفرنسية ؟ ما الذى قلموه للناس يوم ذاك ؟ وزارة الإعلام بجلال قدرها قالت إن الطيران الإسرائيلى لم يضرب طائرات مصر وهى جاثمة على الأرض بل ضرب طائرات خشبية ! لأن عبد الناصر ضحك على الإسرائيليين ووضع طائرات خشبية على الأرض وانخدع فيها الإسرائيليون . كلام أطفال لا يقال إلا للمجانين ، هذا طراز من وثائق العصر يا سيدى جمال حماد ، ثم تطالبني بوثائق ؟ وهل كان فى عصر عبد الناصر شعب يسمحون له بأن يقرأ الوثائق ، بل هل كان هناك نور نقرأ عليه أى شيء ؟ لقد أطفأوا جميع الشموع والأضواء وتركونا فى ظلام . وفى الظلام لا تسعد إلا الخفافيش . ومصر كلها تحولت حين ذاك إلى حارة الوطاويط التى ذكرها طه حسين فى كتاب الأيام .

وحرب ١٩٦٧ كلها — على هولها — هل نشروا على الشعب ورقة صادقة عنها ؟ وعبد الحكيم عامر مات أو قتل ؟ هل نعرف عن مصيره شيئا ؟ ثم تطالبني بوثائق ؟ .

أندرى يا سيدى أن الحكومة البريطانية نشرت إلى الآن أربعة كتب بيضاء عن حرب فوكلاند التى لم ينقض عليها أكثر من عام ؟ واحد من هذه الكتب فيه أسماء كل الذين اشتركوا فى الحرب وما جرى لكل منهم ، ومن قتل ومن جرح ومن اختفى ، وواحد منها عن نفقات الحرب : كم أنفقوا من مال الشعب ؟ وهل استحققت هذا الإنفاق ؟ هذه يا سيدى هى الوثائق وذلك هو تنوير الشعب . لهذا يقال إن مارجريت تاتشر امرأة حديدية . أتعرف لماذا هى حديدية ؟ لأنها قوية بالحق والصراحة واحترام الشعب ، فالحديدية هنا هى الأمة الانجليزية ، أما تاتشر فامرأة رقيقة جميلة تحرص على زينة وجهها وتسريحة شعرها كآى امرأة فى الدنيا . وعندما زارت ألمانيا وضعوا فى غرفتها فى كل مكان نزلته مجموعة عظيمة من أغلى العطور وأدوات التجميل كى تأخذ منها قدر حاجتها فما كان من مسز تاتشر إلا أن أخذت كل زجاجات العطور وعلب المكياج ووضعتها فى حقائبها .

ودهش الألمان ولكنهم ضحكوا وزاد إعجابهم بمسز تاتشر لأنها امرأة ، وامرأة مثلها تحب العطور وأدوات التجميل ولكن الراتب الذى تتقاضاه لا يسمح لها بشراء مثل هذه العطور الغالية ، وماداموا قد وضعوا كل هذه العطور لها فلماذا تتركها ؟ وهذه يا سيدى هى المرأة الحديدية .

هذا هو التنوير واحترام الشعب يا سيدى ، أما فى عصر عبد الناصر فلم نعرف شيئا من الحقيقة ثم تطالبني بوثائق ؟ لقد ضاع الجانب الأكبر من جواهر الأسرة العلوية وقصورها ، وضاعت محتويات قصور ١٧ أسرة من أسر الأمراء ، ومئات الأسر المصرية وضعوها تحت الحراسة واستولوا على بيوتهم ونهبوا ما فيها ، فهل نشروا بياناً أو جرذاً أو حتى ورقة واحدة عما وجدوا فيها . . ثم تطالبني بوثائق ؟ . . حتى نزلاء مصر من السعوديين والكويتيين واليمنيين اقتحموا بيوتهم واستولوا عليها بما فيها ، فهل تطالبني بوثائق عن عصر كهذا ؟ . . إننا نحن الشعب نطالب بوثائق . أتعرف ما هى هذه الوثائق ؟ هم السوبر باشوات وأظن أنك تعرفهم .

حتى أيام السادات استمر إهمال الشعب ، فقد حدث أن أرسل بعثة ضباط صاعقة للانقضاض على طائرة قتلة المرحوم يوسف السباعي فى مطار قبرص . والبعثة تحولت إلى مذبحة بسبب التمهيد السياسى ، وحوالى ١٥ ضابطاً وجندياً من أبناء هذا الشعب ماتوا نتيجة خطأ القيادة السياسية ، فهل تفضلت حكومة السادات ونشرت كتاباً أبيض أو أخضر عن المأساة ؟ ألم يكن أولئك الذين ماتوا مقاتلين مصريين وضباطاً شجعاناً مثلك ؟ فكيف يموتون دون أن يعلم أحد ما جرى لهم إلا أسرهم التى تلقت الأنباء الفاجعة فى خطابات كأنها سرية ؟ ١ . ثم تطالبني بوثائق ؟

لقد قال الرئيس السادات فى كتاب « البحث عن الذات » عن حرب اليمن (ص ٢٠٩) : ثم جاءت حرب اليمن فبدلاً من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا أصبحت عملية انتفاع واستغلال . وقال فى ص (٢١١) : إن حرب اليمن انقلبت إلى تجارة ومنفعة . . فلماذا لم تطالبه يا سيدى يومها بتوضيح ما يريد أن يقول ؟ ولماذا لم تطالبه بالاعتذار كما طلبت منى ؟ ولكنك تستبسل على كاتب مؤرخ وتسكت عن سؤال السادات .

ومع ذلك يا أخى فأنا يقطع لسانى قبل أن أقول كلمة تسمى : إلى جيش مصر ، ولكنى عبرت عن غضبى على الذين أساءوا إلى هذا الجيش العظيم وعرضوه لهزيمة لا يستحقها ولا يد له فيها . . إننى أعبر عن غضب هذا الشعب كله على القائد الأعلى للجيش عندما ذهب إلى مركز القيادة ضحى ٥ يونيو ليجد أن جيشه قد ضاع . ويقول لعبد الحكيم

عامر : وفين الجيش ؟ الجيش ضاع ! أليس هذا شيئا يغضب يا سيدى ؟ وهل أنا إذا نقدت أولئك الذين عرضوا الوطن وجيشه الذى تنتسب أنت إليه لهذه المهانة . . أكون معتديا على الجيش ؟ . أو أن الذين اعتدى عليهم هم قادة الجيش الذين تسببوا فى كارثة يونيو ١٩٦٧ ؟ . . وهل سمعت يا أخى عن قائد عام أضاع جيش بلاده بهذه الصورة المخزية ؟ وماذا فعل بعد ذلك ؟ ذهب هو وعبد الناصر ووزير الحربية شمس بدران واختفى كل منهم فى بيته ثلاثة أيام وتركوا مصر تنعى من بناها ولم يبق فى الميدان إلا ضباط بواسل من أمثال حسنى مبارك وكمال حسن على ، وأظن أنك قرأت ما كتبه السادات عن ثباته وبسالته .

إننى لم أحمل على الثورة أو على الجيش أيها الأخ ، ولكنى حملت على الذين أفسدوا الثورة وألحقوا بالجيش هزيمة هوبرىء من مسئوليتها ، وأنا فى كل ما أكتب مواطن يبحث عن حقائق ينفع بها وطنه ، فهل هذه خطيئة ؟ .

ونفس الكلام أقوله للسيد الوزير السابق أمين هويدى الذى جردنى من الانتساب للعلم والإنسانية ولكنى أنا لا أسىء إليه بكلمة وأخاطبه بالاحترام الواجب لوزير سابق وأقول له : لقد كنت أيها العزيز فى يوم من الأيام رئيس مخابرات لعبد الناصر ، أعترف مامعنى رئيس المخابرات فى العصر الناصرى ؟ معناه الرعب والخوف والمذلة لكل أهل مصر . وأنت يا سيدى تخاطبني كما لو كنت لاتزال رئيس المخابرات وكأننى أنا مواطن مسكين لا قيمة له فى نظرك .

لقد كنت يا سيدى وزيرا ومدير مخابرات ثم سفيرا أيام عبد الناصر ، ولكنك اليوم آمن مطمئن على نفسك ومالك وولدك دون أن تكون وزيرا أو مدير مخابرات ، لأن عبد الناصر كان لا يعرف القانون أو احترام الناس ، وكان من الممكن فى أى لحظة أن يأخذك من وزارتك أو إدارتك ويسلمك لحمزة البسيوى ليفعل بك ما فعل بالألوف دون أن يجرؤ حتى أولادك على السؤال عن مصيرك ، أما اليوم فأنت آمن لأنك فى حماية القانون والشرعية أيام الرئيس مبارك ، وهذا هو الدرس الذى أرجو أن تتعلمه يا أخى ، ومعدرة عن كلمة الدرس التى استعملتها هنا ، فأنا — بعد استئذائك — مدرس وأستاذ ووظيفتى أن أعلم الناس . وأنت أنكرت على هذا الحق لأنك مازلت تعيش فى كابوس العصر الناصرى ، وأرجوك يا أخى أن تعلم أن الزمان تغير وحل الأمن محل الخوف ، واحترام المواطن محل امتهانه وإهدار كرامته ، ومع ذلك يا أخى فإذا كنت قد ساءتكم منى كلمة فأنا أرجو أن تقبل اعتذارى عنها ، إننى أريد أن نعيش اليوم إخوة متعاونين فى خدمة وطن واحد يعانى من المتاعب ما لا يوصف ولا بد أن تتلاشى بيننا الأحقاد ، ولا بد أن نتعلم كيف يحاور بعضنا بعضا فى هدوء واحترام ،

وقد تلقيت خطابات كثيرة من الشباب خاصة وهم ورثة تركة عبد الناصر الباهظة ، وعندما أضيئت الأنوار ظهرت المتاعب والعيوب كلها في أيامه وتحملواهم تبعتهما مع أنها كلها بدأت قبلهم . . وعليهم أن يسددوا ديون عبد الناصر وعصره ورجاله وهم أبرياء منهم أجمعين . ولكن هكذا تجرى حروف التاريخ ، والأجيال التالية تدفع دائما ديون الاجيال السالفة ، والدين ثقیل وعلى هذا الشباب البريء أن يدفعه من دمه ، وهو يدفعه فعلا ، ولهذا فهو شباب مسكين فقير متعب مضيق . وأنت يا سيدى لا تشعر بالآلام أولئك الشباب ولن تفهمها لأن الثورة كافأتك على القليل الذى فعلته بالكثير الذى لاتزال تعيش من فضلك . لقد عينوك محافظا ، ونحن لا نغبطك على ذلك . ولكنى أذكرك بأن الشعب يعرف عن الثورة أكثر مما تعرف أنت . ونحن - مؤرخى مصر - نجتهد فى كشف النقاب . ولقد أراد لنا الحظ الحسن أن يجيء السادات ويضئ الأنوار .

أما أسباب النقد الشديد فى العصر الناصرى فهى الحجر على الحريات والعدوان على الناس وأموالهم وتخريب الاقتصاد المصرى بتأميم صناعات كثيرة كانت ناجحة وإعطائها لرجال من المحاسيب قضوا عليها وخربوها ثم الاستبداد المطلق وإلغاء القانون وامتياز حرمة القضاء والتحكم حتى فى المسائل العلمية والفنية التى كان ينبغى أن يتركها للفنيين . ومثال ذلك إنشاء منطقة صناعية فى شبرا الخيمة وأخرى فى حلوان والمعادى ، وقد كان ذلك خطأ فادحا فى حق الصناعة والزراعة وهذا الخطأ أدى إلى موت مدينة حلوان . وكان من الممكن أن تصبح اليوم منتجعا من أعظم منتجعات السياحة العالمية ، كان من الممكن أن تكون اليوم حدائق ورياضا وحمامات مياه معدنية وملاعب رياضية ونزهة تجلب لنا الملايين فى اليوم الواحد . والمعادى هذا المرج الأخضر ، مدينة الراعبين فى الهدوء والراحة والمتعة . . أين ذهبت ؟ . لقد قضت عليها الجاهلية الناصرية كما قضت على حلوان . ومع هذا فهل نحن حقا أنشأنا قلعة صناعية فى حلوان والمعادى ؟ ليذهب من يشاء وينظر ، والجواب أتركه له .

وهل تسمى إنشاء منطقة صناعية فى شبرا الخيمة إلا جريمة فى حق المواطن . لقد كنا أيامها ننشئ مديرية التحرير ، وقلعة الصناعة كان مكانها الحقيقى إلى غرب الأراضى المستصلحة فى الصحراء ، أما فى شبرا الخيمة فقد أهدرنا دون مبرر فوق المائة ألف فدان أنشأنا عليها مصانع لا تنتج اليوم عشر ما كنا نتظره منها ، وأنشأنا للعمال هناك مدنا تحولت إلى حارات أو جيتولوفت لا يسعد بالحياة فيها عامل واحد ، وأمامكم تقرير لجنة البيئة فى مجلس الشورى التى يرأسها الدكتور محمد محمود محفوظ فاقروا لتعرفوا بشاعة الجريمة التى ارتكبها العصر الناصرى بأخطائه التى لا تحصى ، هذا بالإضافة إلى ضياع مائة

ألف فدان من أرض مصر الزراعية وهى رأس مالنا . .

ولماذا قرر عبد الناصر إنشاء هاتين المنطقتين الصناعيتين شمال القاهرة وجنوبها ؟
لسبب سياسى قام على سوءنية ، فإن عبد الناصر عندما وجد عبد الحكيم عامر يتحصن
بالجيش أراد أن يتحصن بالعمال فأحاط القاهرة بنطاق حديدى من المصانع ظنا منه أن
العدال سيحصونه من عبد الحكيم عامر . .

أما السادات فقد نقدنا سياسته حيث ينبغي النقد ، لكنى ذكرت له أربع حسنات . .
على الأقل كل منها يستحق تقدير الوطن . أولا : ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١ التى
وضعت حدا لحكم الإرهاب وأسقطت رجاله وحمى كرامات الناس وأموالهم من المهانة
والعدوان ، و ثورة التصحيح فتحت الداريق أمام الثورة للصعود بعد الحضيض الذى هبط
بها إليه عبد الناصر فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ وضياح سيناء ووصول الإسرائيليين إلى قناة
السويس . .

وثانيهما : تحرير مصر من سيطرة الروس والشيوعيين ، ولولا قيامه بإخراج المستشارين
الروس لما تيسر نصر أكتوبر العظيم .

وثالثها : فتحه الطريق أمام الجيش الحى يتحصن على الإسرائيليين ويكسب حرب
أكتوبر المجيدة حقا . .

ورابعها : استعادة سيناء وفتح قناة السويس .

وللرجل محاسن أخرى لا تنكر ، مثل قوانين الانفتاح التى فرجت على المصريين ،
وسلبات الانفتاح لا تقع مسئوليتها على السادات . بل على الاقتصاديين الذين قاموا
بالتنفيذ .

ولا أظن أن أحدا ينكر أن معاش السادات مثلا كان خيرا وبركة على ألوف الأسر من
المعدمين ، لأنه صانهم من التسول المهين .

والصورة التى ظهر بها السادات العالم كانت مشرفة جدا لمصر ، فقد أزال عنا
وصمات التأخر المزرى ، وقدمتنا للعالم فى صورة جميلة ، والسادات هو العربى الوحيد
الذى حصل على جائزة نوبل ، وليقل فى ذلك من يشاء ما شاء ، فإن أعظم من حصلوا
على جائزة نوبل ، أخذوها لأسباب سياسية إلى جانب فضائلهم العلمية أو الأدبية ، وخذ
مثلا حصول جابريل جارتيا ماركس على جائزة نوبل فى الآداب لسنة ١٩٨٢ فإن توفيق

الحكيم يساوى عشرة أمثال جابريل جارثيا ماركس ، ولا مقارنة إطلاقا بينه وبين نجيب محفوظ ، ولكن الولايات المتحدة تخوض هذه الأعوام حربا طويلة مع خصوم سياستها واستبدادها ببلاد أمريكا اللاتينية جميعا ، وبخاصة أمريكا الوسطى ، ولهذا أوصى الأمريكيون أكاديمية السويد بإعطاء الجائزة لواحد من أمريكا اللاتينية ، وقد كان توفيق الحكيم أحق بها عشر مرات وأكثر . .

ولكن هذا الذى ذكرناه كله من فضائل السادات لا يرضى نفرا من أحبائه ، وهم مثلا ينكرون ما قلت من أنه كان يصنع ملابس في بعض بيوت الأزياء الأوربية ، ويطلبون منى أن أصحح ذلك بالقول بأنه كان يصنع ثيابه خياط مصرى معروف . وعلى العين والرأس أصحح هذا الخطأ ، ولكنى أقول إن تلك المعلومات أخذتها من مجلات أوربية فإذا كان فيها خطأ فإن واجب التصحيح كان ينبغى أن تقوم به أجهزة الإعلام ، فهى فيما أرجو تقرأ كل ما ينشر عن مصر ورئيسها ومن واجبها أن تبادر بالتصحيح فى كل حين . وأحباء السادات يقولون إن الرئيس السادات لم ينشئ القصور التى كان ينتقل بينها ، بل هى كلها من إنشاء من سبقوه ، والذى حدث هو أن السادات كان صريحا واضحا ، وكل شئ عنه كان ينشر فى الصحف ، أما الذين قبله فكان كل شئ فى أيامهم يجرى فى الظلام . وعلى العين والرأس كذلك، أصحح ذلك الخطأ .

وأضيف سطورا هنا أتوجه بها السيدة الكريمة جيهان السادات ، وأنا أعرف أنها سيدة رفيعة القدر أحسنت تمثيل مصر أمام الدنيا . وقدمت لمصر خيرا كثيرا بمشروع السواء والأمل ، ولهذا فإننى أدهش لأن معظم من كتبوا من الشبان يحملونها مسئولية الكثير مما أصاب السادات وهذا ظلم بين . وأنا أعلم أن الشعوب كما تظلم تظلم ، ولن تستطيعى يا سيدتى رفع هذا الظلم عن نفسك لأن محاكمات قتلة السادات وقضايا بعض آله ، ألحقت بك أنت بخاصة أضرا را بلا حدود وأنت يا سيدتى زميلة علم وعضو معنا فى هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، وأنا أعرف أنك تودين العودة إلى طلابك وجامعتك ، ولكن دعايات السوء تحول بينك وبين ما تريد . وأنا واثق أنك ستعودين يوما إلى جامعتك ويومها ستعرفين كم يحبك هذا الشعب وشبابه .

ولكن الكثير من الشبان الذين كتبوا لنا ، يتعلقون بعبد الناصر أكثر من تعلقهم بالسادات . وما دام هذا رأيهم فهم أحرار فيه ، وعبد الناصر برغم كل ما ذكرناه من مساوئ حكمه كانت له شخصية بطولية تجذب القلوب ، وكانت فيه فروسية تفتن النفوس ، وهذا الطراز من الرجال يستهوى أفئدة الشباب ، وما زال شباب العرب فى كل مكان يعتبرون عبد الناصر بطل العروبة الأكبر ، ونحن يسعدنا ذلك ، فقد مضى إلى ربه

وانقضى حكمه وبقيت صورته في القلوب ، ومثل عبد الناصر في ذلك مثل نابليون فبرغم أن حروب نابليون حصدت أكثر من مليون شاب من شباب فرنسا فإن الفرنسيين جميعا — بل أوروبا كلها — بكته عندما مات منفيا في جزيرة سانت هيلانه سنة ١٨٢١ ، لأن أمثال نابليون وهارون الرشيد وعبد الناصر لهم دائما شخصيتان : تاريخية واقعية وأخرى أسطورية ترجع إلى ما يتمتعون به من شخصية كارزمية ، ولو أننا كنا نملك وثائق عن العصر الناصري ربما كان قد تبين لنا أن الكثير من أخطائه يرجع إلى حاشية السوء التي كانت من حوله . . .

وقد بينت في الفصل السابق أن التاريخ لا يعرف ماضيا أو حاضرا ورجوت لهذا أن نستطيع الاستفادة من تجارب العصرين الناصري والساداتي . .

ونحن اليوم في عصر جديد من عصور ثورتنا : عصر يتميز بالشرعية القانونية ، فقد انتهت إلى الأبد — نرجو — عصور ما سمي بالشرعية الثورية ، وهي عصور الظلم والعدوان والحكم بأوامر تصدر من السيد الأعلى المطاع ، ولا معقب على ما يأمر به ، وعشرات الناس سجنوا بمكاملة تليفونية أو حتى بإشارة باليد ، ودخلوا السجون وماتوا فيها بعد المحنة والعذاب . . وإن من العجيب أن المصادرات والتأميمات استمرت حتى وفاة عبد الناصر لأن المسألة كانت نهبا غير منظم لأموال الناس ، وعدوانا غير محدود على الأنفس والأموال . .

عصرنا هذا الحالي هو الثالث من عصور ثورة يوليو ١٩٥٢ ونرجو أن يكون عصر البناء والرخاء والاستقرار والصعود المستمر بإذن الله ، ولهذا لا ننسى الماضي لأننا لا نريد أن نعود إليه ، ولكننا نريد نسيان الأحقاد والعداوات حتى يكون العصر الجديد عصر تقدم وعمل وإنتاج ورخاء وتعاون ومحبة .

إن الماضي لا ينسى ولا ينبغي أن ينسى حتى نفيد من دروسه وعبرته ، ولكن الأحقاد لا بد أن تنسى ، ومكان العداوة والشك والاحتقار وامتهان الكرامات ينبغي أن تحل المواطنة والمساواة واحترام المواطن لأخيه المواطن واحترام العامل لعمله واحترام الحاكم للمحكوم لأن العصر الحديث لا يعرف حاكما ومحكوما وكلنا في وطننا حكام وكلنا محكومون وسيدنا كلنا هو القانون والأخلاق ، ليس هناك راع ورعية بل مواطنون متساوون ، وليس من الضروري أبدا أن يحصل الراغب في الحكم على ٩٩ ، ٩٩٩ ، ٩٩٩٩ من الأصوات ليكون حاكما شرعيا ، تكفيه ٦٠ ٪ هنا يشعر الناس حقا بأن الانتخابات كانت انتخابات صحيحة وفي اليوم الذي تعلن فيه نتائج الانتخابات في مصر ويتبين أن الحزب الذي سيتولى الحكم حصل على ٦٠ ٪ من الأصوات نشعر حقا أننا دخلنا في عصر جديد من الجدية والسياسة السليمة . .

إن بلدنا في أزمات ومتاعب ، وهذه الأزمات والمتاعب لن يحلها حزب واحد ، أو رجل واحد ولن تحملها الحكومة وحدها بل لابد أن يتعاون كل المواطنين لكي يستطيع الوطن أن يسير إلى الأمام ، وقد انتهى إلى الأبد حكم الرجل الواحد . . وأسطورة الزعيم الأوحده الذي لا يخطئ هي أسطورة الظلم الأسود والاستبداد الغاشم والأخطاء القاتلة . . ولم يعد في حياة الأوطان الحرة المحترمة اليوم آلهة أو أنصاف آلهة يحكمون . . أو أبطال يتصورون أنهم يوجهون التاريخ بخطب يلقيونها من الشرفات . . أو بأوهام تزيف على الشعوب . . أو بإيقاع الفرقة بين المواطنين كما كان عبد الناصر يفعل عندما كان يخاطب الجماهير الساذجة في خطبه ويحرضها على المثقفين والمتعلمين ويسميهم بالأفنديات . . والسادات سارفي نفس الطريق مرة . . وقال إن الأفنديات - يريد المثقفين - يعيشون في مساكن مكيفة الهواء بينما بقية الشعب تتضور من الجوع . . وهذا كله غير صحيح . . فإن أقل الناس دخلا في تاريخنا كله هم المثقفون والمعلمون والكتاب والمفكرون . . وتحريض العامل على صاحب العمل كان جريمة . . وتجرئة المزارع على صاحب الأرض انتهت بخراب المزارع . . والقول بأن مصر كان فيها إقطاع غاشم شامل تضليل . . والظلم لم يقتصر أبدا على صاحب الأرض بل إن زارع الأرض يمكن أن يكون أشد ظلما وجناية على الوطن من مالكيها . .

ولابد أن ينتهي عصر التفريق بين عامل وغير عامل . . فكلنا عمال وإن اختلفت الوظائف والمهن والمواقع والثياب . . والمثقفون الصادقون كلهم عمال . . وينبغي أن يكونوا هم قادة هذا الشعب في مسيرة الحضارة والتقدم والرخاء . . والمثقفون ليسوا أبدا طبقة قائمة بذاتها . . ولا يمكن أن يكونوا كذلك . . فإن في كل قطاع من قطاعات الأمة مثقفين ومفكرين وأدباء وكتابا . . وبين العمال اليدويين مثقفون وفنانون لا يقلون عن الأدباء المحترفين . . وفي الأساتذة ناس لا يمكن أن يوصف تفكيرهم إلا بأنه إسفاف وجهل . . فما معنى التفرقة إذن بين عمال وزراع ومثقفين ؟ . .

والقضاء على هذا كله لا يتم إلا بالحرية والصراحة ومواجهة الناس بالحقائق والصدق بين المواطنين . . كلنا في المسئولية سواء وليس لنا إلا سيد واحد هو القانون . .

وهذا هو العصر الجديد الذي بدأ في أيام مبارك . . ولابد أن نؤمن بذلك جميعا ونقف صفا واحدا في خدمة الوطن . . إن مصر بلد عظيم يستطيع أن يكون من أغنى بلاد العالم بالعمل والصدق والإيمان والإخاء والحرية . . وهذا طريقكم فسيروا فيه على بركة الله . .

بقيت بعد ذلك وثائق وأدلة وبراهين ورسائل قراء أعزاء ذات قيمة تاريخية وفقرات من كتب وأحكام قضاء . . وتلك هي ملاحق هذا الكتاب .

الملاحق

« ملحق رقم ٢ »

مقال فريد في بابيه من أمثله التصرف في ظل جريمة « الشرعية الثورية » . .
هذا نص قرار جمهوري بالقبض على المواطن محمد صلاح الدين محروس وآخرين دون
تحديد . . ومن الممكن للذين تسلموا هذا القرار لتنفيذه أن يقبضوا به على أهل مصر أجمعين . .

تســــــــرار

رئيس الجمهورية العربية المتحدة

رقم ٢٨٧٣ مكرر لسنة ١٩٦٥

رئيس الجمهورية

بعد الانقلاع على الدستور

وعلى القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن بعض التدابير الخاصة بأمن الدولة

تســــــــرار

مادة أولى : اعتقال : محمد صلاح الدين محروس ومختلفي (وشبهتهم

صــــــــلاح - وآخرين

مادة ثانية : وحجزوا بمكان آمن .

صدر برئاسة الجمهورية في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ

٢٩ أغسطس سنة ١٩٦٥ م (

(امضاء)

صورة طبق الأصل :



نسخ في يوم ٢٨/٢/١٩٧٦

عشوب :

« ملحق رقم ٣ »

« أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث »

هذا هو حكم القضاء في قضية تعذيب مراكز القوى للمواطنين المصريين في قرية كمشيش بمحافظة المنوفية في صيف ١٩٦٦ والفقرة التي نوردها فيما يلي قسناها من الصفحة الأولى من العدد ٢٥٣ من جريدة الأحرار الصادر يوم الاثنين ٢٠ مايو ١٩٨٣ . .

« هذا وقد أشار إلى فظائع كمشيش الرئيس السادات في كتاب : البحث

عن الذات . »

* القضاء يدين مراكز القوى .

قضت محكمة جنوب القاهرة الابتدائية بأن تدفع الحكومة ١٥٤ ألف جنيه تعويضا لتسعة مواطنين قامت مراكز القوى بتعذيبهم في قرية كمشيش بمحافظة المنوفية في صيف عام ١٩٦٦ واستمر تعذيب بعضهم حتى عام ١٩٦٨ . .

كان ٩ مواطنين قد أقاموا ٣ دعاوى لتعويضهم عما أصابهم من تعذيب على أيدي زبانية مراكز القوى في أحداث كمشيش من مايو ١٩٦٦ حتى ١٩٦٨ . .

الدعوى الأولى أقامتها « منجدة طولان » والشقيقتان « فريال وزكية عبد الله الفقى » اللاتي تم تعذيبهن والاعتداء عليهن علنا في ساحة القرية ، والدعوى الثانية أقامها أحمد رمضان قشقوش ومحمد مبروك الأشقر والدسوقي درويش والشيخ عبد الحميد عبد الجواد والشيخ عبد القادر عبد اللطيف وقد تم تعذيبهم في قرية كمشيش في مايو ١٩٦٦ ثم أودعوا السجن الحربى - تحت التعذيب - حتى عام ١٩٦٨ ، والدعوى الثالثة أقامتها « هيام عبد الفتاح راضى » وقد طالبت بالتعويض عما لحق بزوجها المرحوم محمد عبد الله الفقى من التعذيب . .

قال سعيد الفقى وسعيد عبد الغنى محاميا المجنى عليهم في عرائض الدعاوى الثلاثة : إن مراكز القوى استغلت حادث مقتل المواطن صلاح حسين في قرية كمشيش ونفذت خططها لتصفية العائلات في المنطقة ، وإن رجال الشرطة العسكرية ألغوا القبض على أعداد كبيرة من الأهالى في مايو ١٩٦٦ واتهموهم بقتل صلاح حسين وبينهم المجنى عليهم ، حيث تم تعذيبهم ثم نقلوا بعضهم إلى السجن الحربى لمواصلة عمليات التعذيب حتى عام ١٩٦٨ . .

تم ضم القضايا الثلاث في قضية واحدة نظرتها محكمة جنوب القاهرة الابتدائية برئاسة المستشار عبد الحميد محمود عمر وعضوية القاضيين محمد جمعة عبد القادر ومجدى مرسى خليل وأمانة سر رمضان عبد الصمد . . وأصدرت حكمها بأن تدفع الحكومة للمجنى عليهم ٨٩ ألف جنيه تعويضا .

وقالت المحكمة في حيثيات حكمها التي أعلنتها في الأسبوع الماضى ، « إن الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية هي أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث فهي فترة

ذبحت فيها الحريات وديست فيها كل كلمة للإنسان المصرى ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال وأمر الرجال فيها بالتسمى بأسماء النساء ووضعت ألجمة الخيل فى فم رب العائلة وكبير الأسرة ولطمت الوجوه والرؤوس بالأيدى كما ركلت بالأقدام كما هتكت أعراض الرجال أمام بعضهم وجيىء بنسائهم أمامهم وهددوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم ودربت الكلاب على مواطأة الرجال ، والمحكمة لا يسعها إلا أن تسجل بأن المخلوق الذى ينسى خالقه ويأمر الابن أن يصفع وجه أبيه أمام الناس ، هو مخلوق وضيع وتافه ..

وأول أمس السبت أصدرت نفس المحكمة حكمها بأن تدفع الحكومة ٦٥ ألف جنيه تعويضا لمصطفى عبد الله الشريف ولورثة المرحوم عبد القادر حافظ الوكيل لما لقياه من تعذيب فى أحداث كمشيش ..

أصدرت المحكمة حكمها برئاسة المستشار عبد الحميد محمود عمر ، عضوية القاضيين علاء عبد الحميد البنى وحسن أحمد الضبع وأمانة سر رمضان عبد الصمد ، وقالت المحكمة فى حيثيات حكمها « إن المحكمة تسجل فى حكمها كما سبق أن سجلت فى حكم سابق - للتاريخ - معاصرتها لهذه الأحداث التى تقشعر لسماعها أبدان كل حريدين بالولاء والتقدير للواحد الأحد ولا يرضى بالعبودية لغيره ، ولا يشرك فى أمره أحدا ، مهما تسلط وتجبىر .. »

جريدة الأحرار « الاثنين ٣٠ مايو (آيار) ١٩٨٣ - ١٧ شعبان ١٤٠٣ السنة السادسة - العدد ٢٥٣ »



« ملحق رقم ٤ »

« المحكمة العسكرية العليا تدين العصر الناصري »

الرسالة التي أورد نصها فيما يلي جاءتني من السيد اللواء حسن صادق
رئيس المحكمة العسكرية العليا التي نظرت وحكمت في قضية التعذيب
الكبرى ٣٣١ لسنة ١٩٧٦ . .
ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر لسيادته والتقدير العميق لعدالته ووطنيته
وانسانيته . .

القاهرة في ١٦/٧/١٩٨٤

السيد الفاضل / حسين بك مؤنس

بعد التحية

أتابع بشغف وإعجاب ما تسطرونه في مجلة أكتوبر من وقائع للثورة منذ أن قامت وحتى نهاية
عصر السادات وقد قرأت اليوم للأسف أنكم تؤرخون قيام محكمة كمشيش بإدانة حكم عبد
الناصر ، والحقيقة أن المحكمة العسكرية العليا التي كنت أتشرف برئاستها في خلال عام ١٩٧٦
والتي نظرت أمامها وقائع التعذيب في عهد عبد الناصر والتي تحاكم أمامها الفريق أول محمد صادق
وزير الحربية قد أصدرت حكمها في ١٩٧٦/٥/٢٢ . وكان هذا الحكم هو أول حكم يصدر من
محكمة مصرية يدين عهد عبد الناصر في الوقت الذي كان أنور السادات يعلن في كل مكان أنه
مشترك مع عبد الناصر في المسؤولية . . وقد دهش الصحفيون عند إذاعة الأسباب المرفق صورة
منها ، لشجاعة المحكمة كما دهشت صحافة العالم كلها وأذيع الحكم بأسبابه في جميع أنحاء العالم
كتعبير عن جو الحرية والشجاعة الذي يسود مصر في هذا الوقت ، وكان ذلك مما دعا القضاة
المصريين في قضايا التعذيب بعد ذلك إلى حذو حذونا في الشجاعة وفي إدانة عهد عبد الناصر . .

وهذه كلمة للتاريخ وللمؤرخ البطل حسين مؤنس ، مع خالص التحية . .

لواء حسن صادق

رئيس المحكمة العسكرية العليا وقتئذ

من أسباب الحكم في قضية التعذيب الكبرى ٣٣١ لسنة ١٩٧٦ أمام المحكمة العسكرية العليا برئاسة اللواء/حسن صادق في ١٩٧٦/٥/٢٢

إن المحكمة لتسجل بحق أن الجريمة موضوع هذه الدعوى كانت سبة في جبين الحكم المصري يندى لها الجبين خزيا وعارا ، ولعل في حكم المحكمة ما يسدل الستار على حقبة من تاريخ مصر امتهنت فيها وأهينت كرامة الإنسان الذي كفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨ م حدها الأدنى بما نص عليه فيه من أن جميع الناس أحرار متساوون في الكرامة والحقوق وأن لكل منهم الحق في الحياة والحرية والسلامة الشخصية ، وأنه لا يجوز استرقاق أو استعباد أى شخص أو تعريضه للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الماسية بالكرامة ، حقبة من تاريخ مصر كانت فيها السيادة للسياسة للسياسة وللإرهاب وللإلقاء في غياهب السجون أو تقريبا وزلفى للحكام والرؤساء رغبوا هم في ذلك أم رغب فيه فاعلوه ، حقبة من تاريخ مصر ساد فيها الظلام وسلط فيه سيف الاعتقال على الرقاب ، حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا وطغت عليها سمعة السجن الحربى بمصر ، حقبة من تاريخ مصر أعادت للأذهان ذكرى محاكم التفتيش وما كان يجرى فيها من مخاز وفظائع ، حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلادون إلى ابتكار وسائل للتعذيب إرضاء لشهوة التعذيب في داخلهم حتى لقد أدخلت التعديلات على (الفلقة) التقليدية وتم تطويرها لتكون أكثر إيلاما وأشد تأثيرا ، حقبة من تاريخ مصر كان فيها السجن الحربى بمثابة التين الرهيب الذى يخشى كبار القادة مجرد الاقتراب منه أو معرفة ما يدور فيه أو حتى سماع أخباره إثارة للسلامة حتى لقد قال عنه اللواء/سليمان مظهر الذى تولى عضوية محكمة الثورة واشترك في إصدار الحكم فيها - قوله المشهورة أمام المحكمة . « أنه أثر الابتعاد عن الشربل وقرع عقيرته له بالغناء » .

حقبة من تاريخ مصر كانت فيها مصر كالنار تأكل بعضها . سأم من كان كل هذا ؟ . ولمصلحة من كان هذا ؟ . ومن المستفيد من كل هذا ؟ . أسئلة تطرح نفسها على استحياء تتساءل عما تعرف يقينا إجابته .

وقد شاءت عناية الله أن تحل بمصر إشراقة النور والحياة بعد طول الظلام وتبزغ شمس الحرية ونور سيادة القانون وتعلو كلمة القضاء تنفيذا لشريعة الله في أرضه . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب . . . » .

(صدق الله العظيم)

«ملحق رقم ٥»

«مأساة المستشار/على جريشة وضحايا آخرين»

إن هدفنا من ذكر مآسى الماضى هو الرجاء فى ألا تعود مرة أخرى . . ومهما بلغ من حماس بعض المواطنين لذكرى العصر الناصرى فإننى أظن أن أحدا منهم لا يتمنى أن يعيش فى ظل عصر مثله . . فإذا وجد مثل هذا المواطن فليقرأ هذه الصفحات التى نقتبسها من كتاب الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عبده «تاريخ بلا وثائق» القاهرة ١٩٧٥ ص ٥٥ - ٦٥ .

جرائم لا سلبيات :

بعض الناس يسمى الجرائم التى ارتكبت فى حق المواطنين سلبيات يحسن أن نغفلها وعفا الله عما سلف ، مادام الرئيس السادات قد عاجلها ومسح دموع الأيامى واليتامى الذين قتل أبائهم واستشهدوا ، أو فصلوا وشردوا . .

إن كثيرا مما حدث فى مصر خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر ليس فى حاجة إلى وثائق نعود إليها بعد خمسين سنة ، فهو مكشوف ومعروف يعلن عن نفسه وليس سرا من أسرار الثورة التى اعتبرناها ثورتنا جميعا ، وأرادت فئة قليلة شريرة أن تحتكرها لنفسها ، وترتع فى خيراتها وتستعبد باسمها أحرار البلاد من ضباط ومدنيين جلت أقدارهم أو هانت موازينهم .

لقد محا الرئيس السادات آثار الجرائم التى ارتكبتها لجان التطهير ومحكمة الثورة ومحكمة الغدر انتهاء بمحكمة الدجوى تلميذ المهداوى فى العراق ، وأصبحت ذكرى هذه اللجان والمحاكم تثير السخرية والتندر والاستهزاء . .

نريد أن نعلم صحة الإشاعات التى لا تكف الألسنة عن ذكرها والتعليق عليها . . هل صحيح أن فى صحراء مدينة نصر كشف عمال البناء عشرات أو مئات الجثث مدفونة فى الرمال بأزيائها المختلفة ، ممثلة لقوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين ومثقفين ؟

وإذا صح هذا فمن ذا الذى دفنهم ؟

وهذا الذى دفنهم . هل عوقب وأعدم وصودرت أملاكه ؟ أو لا يزال يرتع فى خير منهوب أو مال مسروق والدم يقطر من يديه إعلانا بأن الطغيان سيد لا يهان ؟ . . .

أما الذين أهانوا المواطنين وعذبوهم وأهدروا آدميتهم فليس هناك شك فى ارتكابهم هذه الجرائم ، فإن حكم المحكمة الذى أصدرته فى قضية المستشار على جريشة قد قطع الشك باليقين .

ماذا حدث مع مستشار ؟

قالت المحكمة «عذبوه بوحشية ، فأوسعوه ضربا حتى شوهوا وجهه واختلطت معالمه واختفت ملامحه حتى عز على جاره وصديقه التعرف عليه إلا بعد التفرس فيه وإطالة النظر اليه . . . مزقوا جسده بالسياط حتى أئعنوه جراحا . . أسالوا دمه حتى استحال قيحا وصديدا . . أذلوه حسا

ومعنى حتى أعجزوه عن أن يقف على قدميه وأرغموه على أن يزحف على أربع ، وكان غاية الهزء والازدراء والتفنتن في القسوة والتعذيب وإلحاق الإهانة والهوان به أن يطلبوا منه أن ينبج كالكلاب . علقوا جسده وألهبوه بالسياط وقذفوه بأقذع وأفحش ألفاظ السباب .

فعل زبانية السجن الحربى هذا فى قاض ، ولنتخيل مايمكن أن يصنع فى غير القضية !

وشهد شاهد بأنه دعى الى السجن الحربى لسؤاله ، ودخل الى « باستيل مصر الرهيب » كما سماه المعتقلون فإذا به يفاجأ وكأنه فى معركة والجثث داخل السجن ملقاة على الأرض الملوثة بالدماء ، وأنه يكاد يكون قد وطىء بعض هذه الجثث ، وإذ به وسط صراخ وأنين ونباح كلاب ، واقتادوه إلى غرفة عمليات السجن وهى غرفة مفتحة الأبواب وقد علق فيها البشر كالذبائح وقد تولى كل ذبيحة أربعة يلهبونها بالسياط ، والمعتدون يستجرون بالله سبحانه وتعالى وكلما تمزفت السياط فى أيديهم أبدلوها بغيرها جديدة ، ثم أدخلوه غرفة يمثلون فيها بالجثث .

وقرر الشاهد « أن الاعتداء على المستشار على جريشة وقع أمامه فى حضور العميد سعد زغلول وحسن خليل وحسين كفاى ، وأن أشخاصا من العسكريين كانوا ينهالون بالضرب بأيديهم وأرجلهم على المدعى (يقصد المستشار على جريشة) وكلما وقع إعياء رفعوه ليضربوه وهم يسبونهم بألفاظ يعف اللسان عن ذكرها » .

ويسجل الحكم صورة مروعة لحالة المستشار جريشة ، فقد طلبوا منه أن ينزل من زنزانته (للتمام) . وقال الشاهد يصف نزول جريشة للتمام : « إنه شاهد شخصاً ينزل زاحفاً على أربع ، ركبتيه وكوعيه وهو يصرخ ويئن أثناء نزوله سلاّم السجن الحربى الخرسانية المرهقة للشخص السليم العادى . . »

ثم يقول الشاهد : إنه بعد التمام بتسجيل الأسماء صعد نزيل الزنزانة ٤٩ (يقصد جريشة) بنفس الطريقة التى نزل بها زاحفاً على أربع .

كان القصد من تعذيب جريشة بهذه الصورة التى لم تعرفها حتى العصور الوسطى ، إلقاء الرعب فى قلوب سائر المعتقلين ، وكان الضباط الزبانية يقولون لهم : إننا نفعل كل هذا بقاض فما بالكُم أنتم إذا أردنا تعذيبكم ؟ ! .

وكان الدكتور رمزى استينو الشاهد الأول فى قضية المستشار على جريشة ، وكان يشغل وقت القبض على جريشة منصب نائب رئيس الوزراء لشئون التموين ، وقد شهد بأن العهد « كان عهد إرهاب ومعتقلات وتعذيب بالسجن الحربى وثكنات مصطفى كامل بالاسكندرية ، وكان يقوم على تلفيق التهم للأبرياء .

ويبدو أن المسئولين عن الحكم فى ذلك الوقت قد انعقدت نيّتهم على قتل جريشة وفى ذلك سجلت المحكمة على لسان أحد الشهود بأن شمس بدران قال : « إن أمرا صدر إليه من الرئيس بتعذيب جريشة حتى الموت » !

وقد دمغت المحكمة سلوك الحاكم « بأن التعذيب كان نظام عهد وأسلوب حكم إرهابي كان يهدد كل إنسان حتى نواب رئيس الوزراء ثم قالت عن أصحابه « إنه عار على من ارتكبه وخزى له في الدنيا والآخرة » .

وقد ازدادت الخسة والدناءة بضباط السجن الحربي فعمدوا إلى تحطيم جريشة وهددوه - كما فعلوا بغيره - بالاعتداء على عرض قرينته ، وفي ذلك تقول المحكمة : « كانت هناك سيدات يعلقوهن ويضربونهن ، وهددوا المدعى عليه (أى جريشة) بإحضار زوجته لتعذيبها والاعتداء على عرضها كما فعلوا مع آخرين أحضروا زوجاتهم وأخواتهم وأصهارهم ومنهم على سبيل المثال الشيخ محمد عبد المقصود الذي أحضروا زوجته وبناته وأزواجهم وزوجات أولاده وكذلك المستشار مأمون الهضيبي الذي أحضروا زوج ابنته وأخواته البنات ووالدته » .

أكد بعد ذلك أصدقاء مأسر إلى به أحد المقربين من الرئيس الراحل سنة ١٩٦٩ فقد قال : إن « صفيا » من أصدقاء الرئيس جاءه ضابط من المخابرات - وكان ذلك في مكتب الراوية - يشكو جريمة ارتكبت أمامه وهي أن فلانة بنت أخت المعتقل فلان ، وهي لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها قد أحضروها وفسقوا بها جنديا بعد آخر حتى ماتت ؟!

وذعر « الصفي » لهذا النبأ ، وذهب في سيارة الراوية الى بيت الرئيس لينهى إليه هذا النبأ الخطير الذي تجرد من إنسانية الإنسان ونقل مصر إلى حياة الغاب ، وإذبالرئيس يقول له « وانت مالك . . هي بنت اختك ؟ ؟ » !!

وصدم الصفي صدمتين ، الأولى أنه لم يكن يعلم أن الرئيس يعلم بكل مايجرى في السجون والمعتقلات . . والثانية أنه ينقل النبأ إلى الرئيس في أسلوب الساخط على الفعل وكأنه بذلك قد شذ عن النقاء الثوري ! الذي يفترض في صاحبه التجاوب مع النظام وتأييده لكل ما يرتكب من جرائم وآثام . وعقاب الصابئين أمثاله شديد الوقع على النفس والولد والمال . . .

ووقع الرجل عند درج « السلامك » ونقله الراوية الذي كان في انتظاره بالسيارة إلى المستشفى حيث بقى هناك ثلاثة أشهر يعالجون قلبه ، ولم يسأل عنه الرئيس إلا قبيل خروجه منه بأيام ؟

وخلال الأشهر الثلاثة التي كان يعالج فيها « الصفي » نقل ضابط المخابرات الذي روى قصة الفتاة ومصرعها إلى أسوان ثم أحيل إلى المعاش !

إن فن التعذيب ، وقد أصبح التعذيب فنا في العهد الماضي ، قد وضعت له قواعد وأسس يلتزم بها أصحابها ، ويذودون بالطبع عن النظام الذي أبدعها والذي يجب أن يدوم وإلا طارت رقابهم بزواله . . .

وقد حدثنا الرئيس السادات في ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بأن رئيسا للوزارة في عهد الرئيس الراحل عبد الناصر وهو من أبرز أعضاء مجلس الثورة استورد بعشرات الألوف من الجنيئات أدوات للتعذيب من الخارج .

وأذيع حديث الرئيس فى الراديو ، واستمعنا إليه وهو يرويه عبر التليفزيون ، وقرأناه فى الصحف ، ولم نكن نعلم حتى ذلك الوقت أن للتعذيب أدوات ، فذلك تاريخ قديم لعهود الظلام إبان العصور الوسطى أو فى محاكم التفتيش التى أنشأها الأسبان .

وإذا كان رئيس الوزراء ذاك قد استورد أدوات للتعذيب فلا بد أنه خطط لمزاوتها ودرب زبائنته على استعمالها ، وفى ذلك تروى القصص والحكايات .

منها حكاية المستشار جريشة الذى أوصى شمس بدران بتعذيبه حتى الموت ! ومنها تعذيب الشيوعيين والإخوان المسلمين بوسائل مشابهة لما اتبع مع ذلك المستشار ، وزيد عليها تعذيب معنوى لا يحتاج إلى أدوات بل يحتاج إلى جند خصصوا للفسق فى المعتقلين أو فى حرائرهم وعلى مشهد منهم ..

ومنها قتل المعتقلين أو دفنهم أحياء فى صحراء مدينة نصر ، ومنها ما عمد إليه الزبانية من استغلال حاجة الزوجات وبناتهن إلى المال بعد أن حرموا عائلهن وحرموا ثروته التى صادروها فراودوهن عن أنفسهن ووصلوا مع بعضهن إلى بغيتهم ، وزلت الشريقات واعتدن الزلل ..

ولم يكتف الزبانية بذلك ، بل حاربوا من لجأ إلى الخارج فى رزقه ، وطاردوه عند الدولة التى آوته أو استعانت به وكل ذلك تزييدا فى الظلم والعدوان .

ثم ماذا ؟

وبمناسبة اعتراف المسئولين عن المخابرات فى عهد الرئيس الراحل بأن الدولة كانت ترى السم أداة فى أى حوار مع خصومها ، يتساءل الناس كيف قتل الدكتور أنور المفتى أحد أعلام الطب فى مصر ؟

هل صحيح أنه تناول السم دون أن يدرك بعد أن وقع الكشف الطبى على الرئيس الراحل بحضرة جمع زملائه الأطباء ؟

وهل ناولوه السم لأنه جرؤ وحده وأعلن ضرورة إعفاء الرئيس من مسئولياته لأن المرض يؤثر على تصرفاته بما يضر المصلحة العامة ؟

إذا صح هذا فمن الذى ناوله السم ؟

أعتقد أن الذين دسوا السم للطبيب عصابة مراكز القوى ، لأن تنحية الرئيس المريض ستأتى مكانه برئيس معافى سليم يكشف جرائمهم وفضائحهم ويحرمهم السلطان المطلق الذى يسوسون به أمور البلاد كضيعة ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم !

متى يصح الصحيح ويؤخذ المجرمون بجرائمهم ؟

وإذا تركنا هذه الجرائم الخطيرة التى تمس حياة الإنسان وعرضه ، والتى يسمونها سلبات تدليلاً لها ، كما سموها نكسة تلك الهزيمة الشنعاء ، وهى تسمية تكشف عن وزن صاحبها للنكبات والويلات !

إذا تركنا هذه الجرائم ، فإن هناك جرائم أخرى ارتكبتها أصحابها ولا يزالون يتمتعون بحق المواطن الصالح التنظيف كأنهم لم يسرقوا ولم ينهبوا ولم ينصبوا ولم يستغلوا الوظيفة التي شغلوها أو السلطان الذي تبوءوه حتى استشرى الفساد وكاد يصبح قاعدة للحياة في البلاد .

هل حوسب الذين استغلوا صلة النسب بالسيد على صبرى رئيس مجلس الوزراء فى قضية الاستيراد والتصدير ؟

هل نوقشت أسباب الخلاف التى وقعت بين النائب العام المستشار محمد عبد السلام ووزير تموين ذلك الزمان ؟ وهل حوسب هذا الوزير أمام القضاء أو أمام مجلس الشعب فيما وجهه إلى النائب العام من انحرافات ؟ .

وماذا عن قضية الشركة العقارية المصرية ؟ وما دور وزير الإصلاح الزراعى فى ذلك العهد العامر بقضايا الفساد ؟

وماذا اتخذ من إجراء فيما حدثنا عنه النائب العام بالوثائق والأسانيد خاصا بقضية النقل البحرى المتهم فيه عديل وزير المواصلات ؟

وهل سئل محافظ القاهرة الذى أعطى القانون إجازة عما ذكره النائب العام فى كتابه الموثق عن تصرفات المحافظ وكلها خطايا وهنات ؟

وهل حوكم امرؤ من المهريين الذين حتمهم السلطات ؟ وهل صحيح أن الرئيس الراحل عفا عنهم ورد لهم أموالهم كما حدثنا بذلك كبير فى القصر الجمهورى فى مقال له عن الرئيس بعد وفاته وهو يعدد له الأفضال والحسنات ؟

هذه أمثلة لجرائم نشرها وقصها النائب العام فى كتاب قرأه عشرات الألوف من المواطنين فهل تحركت سيادة القانون لمحاسبة هؤلاء المجرمين ونصبت لهم الموازين ووقعت على كل منهم ما يستحق من جزاء حتى يكون عبرة لكل من يفكر فى ظلم الناس أو سلب أموال تحالف قوى الشعب العاملة التى يحكمون ويسيطرون باسمها على مقدرات الناس ؟

وهناك مئات الأسئلة وكل سؤال ينطوى على رواية أو قصة يجب أن يكون لها حساب وعقاب .

منها سؤال عما نشرته أخبار اليوم فى أغسطس ١٩٧٣ عن ملايين هربت إلى سويسرا . . وقالت الصحفية إن سفيرنا استطاع أن يحصل على مليونين منها . . وأنه سوف يجاهد عند المسئولين فى ذلك البلد ليسترد لمصر نحو تسعة ملايين أخرى . . خرجت منها عملة صعبة فى وقت ندرت فيه هذه العملات . .

ما أظن اشتراكيا مصريا من أصحاب الملايين الجدد هو الذى هرب هذه الملايين . . وإلا ذكرت الصحفية اسمه وفضحت سره واستغلت قصة تهريبه لهذه الملايين لتظهر همة الحكومة فى السعى وراء صالح البلاد .

إنه بلا جدال شخصية كبيرة جدا إذا عرف اسمها تهدم الصرح العالى وانهارت الدعوة وصاحبها . . وهربت الفئران من السفينة . . وأسدل الستار على جيل من تاريخ مصر هو أسوأ ما عرفته من أجيال . ؟!

إذا لم يكن استنتاجنا صحيحا فلم حبس عن المواطنين الاسم أو الأسماء التى هربت أموال الشعب ؟ وما الفائدة من نشر الخبر إن لم يكشف سره وتذع تفاصيله ؟ وماذا تم فى الملايين الأخرى ؟ هل استردتها البلاد أو لا يزال السفير يجاهد ولا تزال الحكومة تنتظر نتائج هذا الجهاد . . ؟

لعله سؤال يحول دون الإجابة عنه مقام صاحبه ذى الحصانات والقداست ؟

وفى كتاب (القضية الكبرى) الذى كتب مقدمته الضابط ابراهيم الطحاوى سكرتير هيئة التحرير وأحد الزعماء الذين قادوا المظاهرات فى مارس ١٩٥٤ تهتف بسقوط الحرية والسنهورى الجاهل احتجاجا على عودة الدستور والحرية للبلاد ، فى هذا الكتاب يقول مؤلفه « وقد جمعت مجوهرات أسرة محمد على بالاسكندرية فى ٣٧ صندوقا سعة الصندوق متر واحد مكعب » .

أين هى تلك المجوهرات ؟ ومن الذى جردها وتسلمها ؟ وأين وثائق الجرد والتسليم ؟ هل بيعت لحساب الدولة أو لحساب بعض الأفراد ؟

أو هى لا تزال فى صناديقها محبوسة لم يكشف عنها النقاب ؟

ويجر السؤال سؤالاً . . .

وأين مجوهرات أسرة محمد على التى جمعت من قصور الأسرة فى القاهرة ؟

لقد جردها واستلمها ثلاثة من الضباط ، أعرف منهم اثنين ، واحد كان زميلى بالمدرسة الخديوية وكم لعبنا معا كرة الشراى . . . ويقيم فى بيروت ويعيش حياة مرفهة فهو واحد من أصحاب الملايين هناك . والثانى كان تلميذى فى معهد الصحافة ، وقد باع منذ عهد قريب - كما يقولون - قصراً له بمدينة المهندسين قبض ثمنه ألفاً من الجنيهات !

أين مجوهرات قصور القاهرة ؟ هل بيعت هى الأخرى لحساب الدولة أو لحساب بعض الأفراد ؟ أو هى لا تزال فى صناديقها حبيسة لم يكشف بعد عنها النقاب ؟

سؤالان لا يحيران الدولة إن هى جدت فى البحث والاستقصاء ، وسوف تجد أن بعض هذه المجوهرات قد بدد ، وعليها أن تسأل أصحاب هذا الثراء الجديد المفاجئ عن مصادر ثرائهم فإن أثبتوا أنه إرث من الآباء كان بها ، وإن عجزوا وجب تقديمهم للقضاء ليسترد تحالف قوى الشعب العاملة حقه من لصوص القصور وما فيها من مجوهرات .

وهناك سؤال يجرى على كل لسان فى النوادى والمقاهى والصالونات . . قيل إن صائغاً فى إحدى عواصم أوروبا دهش حين عرض عليه فتى وسيم الإهاب شراء قطعة من المجوهرات نادرة المثال ، وكى يتأكد الرجل من الجوهرة عاد إلى أضيائه ، فمثل هذه القطعة من المجوهرات لها

حسب ونسب كخيول السباق ، ووجد الصائغ أنه باعها من ثلاثين عاما لشاه إيران .

واستأذن الرجل من الفتى لحظات ، فقد تأكد أن الجوهرة مسروقة بلا جدال ، واستدعى الشرطة التي أخذت تسأل الفتى من أين جاء بها وهي ملك لامبراطور إيران ؟

وتدخلت السفارة المصرية وأنقذت الفتى من السؤال والجواب . . . وكان الشاه قد أهدى هذه الجوهرة لزوجته الأولى الامبراطورة فوزية شقيقة فاروق وابنة فؤاد . . .

وكانت الثورة قد صادرتها فيها صادرت من مجوهرات لا يعرف الشعب أين مصيرها الآن وإن عرف أن « واسطة » العقد قد سطا عليها ابن رجل طار صيته كل مطار !

هل هذا الخبر صحيح أو هو حديث نواد « وقهوات » ؟

وهذه قصة مماثلة بيد أنها تسمو على الشائعات . . .

وضع المليونير عبود هو وابنته تحت الحراسة ، وكان الأب قد أهدى ابنته طاقما للمائدة من الفضة الأصيلة في إحدى المناسبات .

وكان الطاقم الرائع النادر يحمل باللاتينية الحرفين الأولين من اسم الابنة منى عبود M. A وكان هذا الطاقم ضمن أثاث بيتها الذي صادروا كل شيء فيه حتى الأحذية والثياب . . .

وفي لندن عرضت طاقم الفضية للبيع سيدة أنيقة كان من غريب المصادفات أن اسمها هي الأخرى يحمل باللاتينية الحرفين الأولين M. A

واشترى الرجل الطاقم الفضى بضعف السعر الذي باع به لعبود منذ سنوات ، فكل شيء ارتفع ثمنه ، والفضة من هذا المقام وبهذه الأمانة وعلى هذا الطراز تضاعف سعرها مرات ومرات . . .

وقصة الطاقم تعرفها لندن ويحكىها المصريون هناك ، ولكن السؤال الخالد لا يزال حائرا ينتظر الجواب . . . كيف سطوا على هذا الطاقم وكيف أسقطوه من قائمة المصادرات ؟

ولا أتزيد مما يقوله الناس ، فأقوال الناس أكثر من أن تتسع لها صفحات كتاب . . .

وبعد أن قرأت كتاب النائب العام المستشار محمد عبد السلام ، رأيتني لا أستبعد معظم ما يرويه الناس ، وعلى الدولة وحدها ، وهي التي تعرف كل الأسرار ، وهي المسؤولة عن أموال الشعب ومطاردة الفساد ، عليها أن تبيِّن أحقا هي إشاعات أم هي حقائق بينات ؟

لو أذن للقانون وهو السيد في دولة المؤسسات أن يلاحق كل ما ذكرناه ، وجله حقائق روينها ورواها غيرنا ، ويحاسب أصحابها ويأخذ بتلابيهم ويوقع بهم الجزاء ، لجعلنا من هؤلاء اللصوص والمجرمين عبرة لجيل اليوم ولما سوف يأتي بعده من أجيال !

«ملحق رقم ٦» «خلف البوابة السوداء»

مهما بلغت كراهة الإنسان لأخيه فإنها لا ينبغي أن تهبط به إلى مستوى هو دون مستوى البشر . . وفي الصفحات التالية التي نقتبسها من كتاب الأستاذ أحمد رائف «صفحات من تاريخ الإخوان» التاريخ السرى للمعتقل . . (القاهرة بدون تاريخ) صور لمواطنين مصريين بلغوا في تعذيب إخوانهم مبلغا يهبط بهم إلى مستوى الوحوش الكاسرة . . وليتهم مع ذلك كانوا يعذبون إخوانهم لحساب أنفسهم . . إنما كانوا يؤمرون بالتعذيب فيقبلون عليه وكأنهم يتسلون بما يفعلون . .

هؤلاء لن يغفر الله لهم أبدا . . وستردد هذا الكلام بعد أن تقرأ تلك الصفحات التي ترينا صورة من الجانب الأسود للعصر الناصرى . .

إنها حجرة في الدور الأرضى على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة . . تقع أمام بئر الماء . . لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحرى . . ويقع المستشفى أمامها مباشرة . . وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة في نهاية الطريق المؤدى إليها . .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة . . فهي ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها . . وقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون . . بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها مخزن رقم (٦) حوالى مترين فى ثلاثة أمتار . . وكانت تفوح منها رائحة البول والبراز والصدید . . وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة . . فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت . . وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التى تثيرها رائحة الجروح . . وهنا ينبغى التنويه . . لقد دخلنا المخزن وليس فينا واحد إلا وبه بعض الجراح . . والدم يسيل دون توقف . . أدخلونا المخزن فى فزع وخوف فتساقطنا فى ظلامه كل منا فوق الآخر . . وجد كل منا بالوضع الذى قذف عليه حتى مطلع النهار . . فقد قال الحراس إنهم لا يريدون أصواتا أو حركة فالموت جزاء من يفعل . . وكنا نعرف أنهم لا يكذبون فى مثل هذه التهديدات . .

شد عن هذا واحد منا كان يحبس بوله . . وكان أقلنا فى الذهاب إلى دورة المياه قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة . . وبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح لجندى عملاق كربه المنظر قد أمسك سوطا فى يده وصرخ فينا :

- هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟

وسكتنا جميعا ! . .

وفتح الجندي فمه بسباب قلدز بلدى . . ثم صرخ ثانية مكررا نفس السؤال وكان الظلام شديدا . . فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه ، ولكن الخوف هو القاسم المشترك بينها بطبيعة الحال . .

وتشجع صاحبنا . . وطلب الذهاب إلى دورة المياه . . وكان لواء في الجيش فأخرجه الجندي الكرية المنظر من المخزن بعد أن مر هذا الزميل . . فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب . .

وأمام باب المخزن . . حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من المصابيح الموجودة في المكان . . ضرب هذا الضابط الكبير ضربا شديدا موجعا . . ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أماننا ويعد هذا كله ألقوه في البئر . . وعندما أوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا يقطر دما وماء . . وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها . .

وكانت هذه (العلاقة) مدعاة لاستغنائها عن الذهاب إلى دورة المياه . . فقد تبرز الرجل وبال على نفسه . . وصارت رائحته تزكم الأنوف القريبة منه . . وكان منها أنفى . . وبقي كل في مكانه يجتر أفكاره وآلامه في صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنامة . . وكل ربع ساعة تقريبا يفتح الباب ويقذف إلينا بمعتقل جديد . . يقذف كما يقذف جوال ملء بالبطاطس مثلا . . دون ما اهتمام . . وفي العادة يكون هذا الشخص عائدا من التحقيق أو من منزله . .

وكان الظلام شديدا فلم نستطع تمييز وجه أحد . . ولكن كانت هناك أيد تمتد في الظلام لتكتم الأنات الخافتة الصادرة من أفواه الجرحى خوفا من بطش الجنود . . وكان جوعنا شديدا وعطشنا أشد . . ولكن ! . . ما الجوع والعطش بجانب هذا الخوف العارم الذي يقتلع القلوب من الصدور . . وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس :

- يا جماعة . .
- وانبرى إليه صوت الضابط الكبير . . الكرية الرائحة من ملابسه المتسخة بالبول والبراز :
- ماذا تريد ؟ ألا يكفيك ما نحن فيه ؟
- ولكن الصوت الهامس قال بلالحاح :
- لقد اكتشفت شيئا هاما . .
- وما هو ؟ . .
- بجانب الباب وعاءان من المطاط . .
- ماذا تعنى . . ؟
- أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب . . ولكن لا أدري على وجه التحديد أيهما للبول وأيهما للشراب . .

وقام بعضنا بخفة وتلطف شديدين . . يتبول الواحد في إناء ويشرب من الآخر . . وفي هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة في حياتي . . ولم يكن طعمه مريحا على أية حال . . وليس هناك داع لأن أقول إن أحدا منا لم يذق طعم النوم في هذه الليلة . . وربما لليال

أخرى أتت في أعقابها .. وكانت الآلام التي واجهناها وعاشناها تشغلنا قليلا عن التفكير في التحقيق الذي قد يدعى إليه أحدنا في أية لحظة من اللحظات ..

وقد قدر لي أن أعيش في هذا الانتظار أكثر من أربعين يوما حتى أرسلت بعدها إلى التحقيق .. وقد رأيت كم هو مختلف عن مثيله في أبي زعبل .. إنه القتل تحت السياط والأسياخ الحمراء .. وخلع الأظافر ونهش الكلاب وأسلاك الكهرباء .. أو تحت وطأة ركل الأحذية الثقيل ..

وفي رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا باثنين ثم نودى على أحد الأسماء .. وقام صاحب الاسم يرتعد خوفا وفرقا ونحن نستمع إلى صرير أسنانه ، وصرت أركز بصري في الظلام واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتي من المصابيح المنتشرة عبر الساحة .. كان الضابط المسكين الذي لم يسترح من علة المساء .. لقد طلبوه للتحقيق .. وإنى أعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركني دعائي الحار حتى يخفف الله من آلامه وهو ذاهب إلى مصيره المجهول ..

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط .. وأكلت الكلاب من جسمه حتى شبعت .. وفي لمح البصر سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه أو تخفيف آلامه التي كانت مثلة في أناته الخافتة الملعبة وكانت ملابسه غارقة بالدماء .. وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف .. كان جسده جرحا كبيرا غائرا ينزف دما من كل مكان .. ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرها ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلى معها أن جنبات السجن قد ارتجت .. ثم سكن إلى الأبد ..

وكانت خسائر هذه الليلة .. اثنين من القتلى وأكثر من أربعين جريحا كما علمنا فيما بعد ..

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين في بطانية من الصوف إلى حيث لا يعلم أحد ..

وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة في الآلة الرهيبة ..

لا أكنتمكم أن أحدا لم يحزن على واحد من الذين ماتوا في الليل .. لم يكن في قلب أحدنا مكان للحزن فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا .. وكنا نغبط الذين ينجون من العذاب بالشهادة والذهاب إلى الله ..

فتح باب المخزن قليلا .. واستطعت أن أتبين فناء السجن من خلال عيني اللتين أضناها السهر والألم وأبخرة البول في تلك الليلة الحارة ..

ورأيت منظرا لا أنساه ..

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا .. وهو يصرخ ويستغيث ولا يجيبه سوى فرقة السياط الملهته على جسده الواهي الضعيف .. وسكت الشيخ أخيرا بعد أن يح صوته من

الاستعطاف وطلب النجدة . . وظلت يده مرفوعتين إلى السماء الصافية . . ولا أدري أكانتا تحتجان أم تتوسلان . . وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مرسومتين بالزيت . . ولم تكونا من رسم فنان . . بل كانتا رسمًا شبيها برسم الأطفال في السنة الأولى من مدرسة ابتدائية . . وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح . .

«كنت أخادع الحياة كي أعيش كما أريد» . .
ولا أدري من كتبها . . أكان منكوبا مثل . . أم أحد الجلادين . .

كنت أشعر أنني في كابوس مزعج ولا أحتمل التفكير فيما يدور حولى . . لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك . . الآلام . . ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم المزعج . . وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة . . كانت الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان محدود الطاقات . . كان الزمن شيئًا مرا كالعلقم أو أشد مرارة . . ولم يكن أمامى فى مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل . .

ورويدا رويدا أصبحت أبعد التذمر عن قلبى وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه . . وأدعو من قلبى أن أكون منهم وأن أتحمّل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو احتجاج . .

دخل جندى كرية الوجه واليد واللسان عرفت أن اسمه (الروبي) وانها لعلنا هذا (الروبي) بسيل من الشتائم البذيئة وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر . . ولكننا على ثقة من أنه يسبنا سبا قبيحا . .

كان يحمل فى يده وعاء قدرا . . ويأصبغه المتسخة صار يعطى كل واحد منا قرصا صغيرا من الطعمية . . الرسمية . . وعاود التوزيع . . وأذكر أنني لم أتقزز . . كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شيء . . ثم ألقى فوق رءوسنا حفنة من الأرغفة . . وانصرف . .

وأحصينا الخبز فوجدناه كسرات مجموعها ما يوزاى خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين . . فكان لكل عشرة رغيف واحد من الخبز . . بعد جوع طويل . . ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام . . ولم يكن الرفض احتجاجا أو تكبرا . . بل كان الخوف يجعلنا لا نحس بضراوة الجوع . .

وبعد قليل دخل الجندى (الروبي) نفسه وأعاد على مسامعنا ما سبق أن قاله . . وكان ممسكا بيده اليمنى سيخا طويلا من الحديد . . وفى يده اليسرى . . كوبا من الألمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاي . .

وبسيخه الطويل شج رؤوس بعض المساكين وانسكب قدر كبير من الشاي الموجود فى الكوب أثناء ضربه لنا . . ثم أعلن لنا مفاجأته : . . كانت بقية الشاي الموجود فى الكوب هو ما تقرر صرفه للخمسين المجتمعين فى مخزن رقم ٦ الرهيب . .

وفي هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاي احتقارا منا لكل شيء .. وبقي في مكانه حتى الظهر ..

واكتشف الروبي أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقه ساخنة ..

بعد ذلك أننا جندى آخر أشد بشاعة من صاحبه .. لقد تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضى حاجتنا ونغتسل ونشرب بدل البول ماء زلالا من الصنابير .. ولم تتم الفرحة .. ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عدوا والسيات والكلاب تنوشنا من كل ناحية .. ظهورنا ووجوهنا ورءوسنا .. وأدخلوا كل واحد منا مكانا .. وكان المكان قدرا جدا والبراز يملأ كل شبر فيه .. ولا توجد به نقطة واحدة من الماء .. ليس هذا فحسب .. بل فوجئت - عندما أغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئا - بالجندى وقد فتح الباب في قسوة وانهاى على ضربا بالسوط .. وارتبكت .. ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط .. كان في نظري مجرد مخلوق من مخلوقات الله ليس إنسانا وما ينبغي أن يكون .. أسود الوجه .. غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة تنته بفعل التعفن الذى أصاب اللثة والأسنان من زمن بعيد .. وكانت البقع الجلدية الباهتة البياض تتخلل وجهه الدميم .. وتذكرت دارون وحلقته المفقودة .. وكذلك مر بمخيلتي الكاتب النرويجي ابسن ..

وانطلق من فمه الأهم صوت كالزئير :

- اطلع بره يا ابن الكلب ..
- يا فندم .. لسه ..
- إنت بترد على يا جربوع يا حثالة .. يا .. يا ..
- والسوط يفرقع في حمية وشدة وحماس ..

وعدت إلى المخزن .. وما استفدت شيئا في هذه الرحلة المشثومة إلى دورة المياه غير العلقه الساخنة .. تلك التى تركت آثارها جروحا في وجهى وعلى كتفى وظهري .. ورأيت الباقيين وهم يهرولون كالفران المذعورة .. والجند وراءهم كالوحوش والسيات والكلاب تعوى في الفضاء الخائى عبر ساحة السجن الكبير ..

وجلست مكوما ساخطا بين عشرات الأجساد التى ألهبتها حرارة السيات .. وعرفت أن أحدا لم يقض حاجته .. وظلت الوجوه صامتة قائمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده في عصبية وانخرط في بكاء مرير .. ونسى نفسه وتمتم بكلمات :

- هذا ظلم .. هذا ظلم ..

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

- كلنا نعرف أن هذا ظلم .. فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة .. فنحن لا ندرى من سيموت منا هذا النهار ..

وخيم صمت مطبق على المخزن لم يقطعه إلا صوت السيات العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد ..

وعاد كل واحد فينا يجر أفكاره في شروء ..

وكان كل ما يشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة .. شعبان بتاع الخانكة .. أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك يا شعبان .. يسألوننى عنك وأنا لا أعرفك .. وسأموت من أجل جهل بك .. ولكن الموت تحت السياط شىء رهيب يا شعبان .. ربما يجلدونك فى هذه اللحظة ..

ووجدت نفسى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :

- يا جماعة .. هل فيكم من يعرف شخصا من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :

- أنا من الخانكة ولا أعرف فيها من يدعى شعبان غير رجل فى الستين من عمره يعمل فراشا فى الوحدة الصحية ..

واقتربت منه بإلحاح :

- هل له علاقة بك .. ؟

- لا أظن .. إنه رجل أمدى ولا يفهم شيئا من شئون السياسة ..

- هل له علاقة بالإخوان ؟

- كلا ..

- ومن أدراك .. ؟

فأجابنى فى تأفف خوفا من حضور الجند :

- أنا من الإخوان .. صدقنى .. ليس فى المنطقة كلها شخص واحد فى جماعة الإخوان

يحمل هذا الإسم ..

وعدت إليه فى إصرار وتوسل ..

- أرجوك ..

- ماذا تريد بالضبط ؟

- أعطنى أية معلومات عن شعبان ..

- فراش الوحدة الصحية ؟

- نعم ..

- لماذا ؟

٣٠٠ سوف يسألوننى عنه ولا أعرف عنه شيئا على الإطلاق ..

وأجابنى بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث .. فكل منا له مشكلته المعقدة ..

- لقد قلت لك .. هذا رجل مسكين ولا يعلم شيئا عن العالم .. وربما لم يغادر الخانكة أبدا

ولم يكن له أى نشاط سياسى .. وربما لا يعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام .. هذا الشعبان

الذى يسألونك عنه لا يمكن أن يكون من مدينة الخانكة .. فلا تشغل بالك وتشغلنى معك ..

- ولكن ..

فقاطعني :

- أرجوك أن تسكت .. في رأسى ما يشغلنى .. وليس عندى كلام عن شعبان أكثر مما قلته لك ..

وعاد إلى نظرتة الشاردة وإلى ما فى جوفه من خوف وهلع وانشغال .. وفشلت كل محاولاتى معه لأجعله يتحدث عن شعبان .. ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية .. كان الألم يفترسها افتراسا .. وكانت وجوها مصفرة كثيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط .. وكان فى بعضها دم مازال رطباً طازجاً ينزف من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه .. ويبدو أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شرود كاملة ..

كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولا يفعل هذا الإنسان شيئاً سوى أن يزيحه بأصبعه إذا اقترب من عينيه ..

وصرت أتنتقل ببصرى من وجه إلى آخر .. وأجدها جميعاً متغضنة ولا شىء يميز بعضها عن بعض .. ثم وقف نظرى على وجه .. كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار .. ولا أدرى لماذا ركزت عيني على مكانه فى الظلام حتى أستطع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار .. وقد شغلنى قتل الضابط للحظات عن أى شىء آخر .. والآن واثت الفرصة لأتأمل هذا الإنسان ..

كان وسيم الوجه .. فى الخامسة والعشرين - هكذا خيل إلى - على شفثيه ابتسامة ميتة .. أو ابتسامة فى طريقها إلى الموت .. يرتدى ملابس فاخرة .. حليق الذقن والشارب .. وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم يرسل نظرات إلى المكان .. ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو كانت فى طريقها إلى أن تموت ..

وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه .. ولاحظت صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين .. وكنت أسأل نفسى .. ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ أين ومتى ؟ ترى ماذا يكون مصيره بعد حين ؟ وماذا يكون مصيرى أنا ؟ .. لقد كنا جميعاً نقف على حافة الأبدية .. وكانت رائحة الموت تملأ أنوفنا .. فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى غارسها فى هذا المكان ..

واقترب هذا الشاب بوجهه منى .. فقد كان لا يبعد عنى بأكثر من شبرين .. وباهتمام بالغ همس فى أذن :

- أريد أن أفضى لك بشىء بالغ الأهمية ..

وارتعدت فرائصى .. ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟ وقلت له وكان أذع خطراً عنى :

- أنا لا أعرفك .. ولم أرك قبل الآن ..

وكانه لم يسمع كلماتى ..

وخيل لى لحظتها أن ابتسامته قد بعثت .. ولكنى عرفت بعد ذلك أنه كان وهما صوره لى

اقتراب وجهه منى ..

وقال لى :

- اسمى عاطف .. أعمل فى بنك مصر ..
- يا سيدى لا أعرفك .. واسمك لا يذكرنى بشيء ..
- وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب فى ورطة .. وتخيل أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة .. وفى نوبة من نوبات الشهامة .. قررت أن أستمع إليه .. والتفت إلى فى حماسة .. وآلمتنى نظراته الحزينة .. وقلت له :
- ماذا تريد ؟ .. أنا تحت أمرك .. ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئاً ..
- ألا تعرفنى حقاً ؟ ...
- كلا ..
- حاول أن تتذكر .. وجهك ليس غريباً عني .. يخيل إلى أننى رأيتك فى مكان ما ..
- صدقنى .. لم أرك قبل الآن ..
- لماذا يبدو وجهك مألوفاً لدى إذن .. ؟
- لست أدرى ..
- هل تستطيع أن تكتم سرا ؟
- فى هذا المكان ؟
- نعم ..
- أليس من الخير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ .. ربما ..
- ربما .. ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سرا ..
- إذا كان ذلك الإنسان أقوى من السوط ..
- وهل السوط أقوى من الإنسان ؟
- لست أدرى ربما ..
- أنصحك بالتريث ..
- دعك من هذا سأقول لك ..
- ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟
- وجهك يبدو مألوفاً لدى ..
- ألا تخشى أن يخونك التقدير ..
- وماذا يهم .. ؟
- فى الحقيقة إنك تثير اهتمامى ..
- كأننا أصدقاء ..
- فى الماضى كلا ..
- أقصد أن نتصادق الآن ..
- أنت تمزح ولا ريب ..
- كلا .. أنا أعنى ما أقول ..

وجدت نفسى أبتسم ابتسامة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب .. أفى مثل هذا الوقت يحاول أن ينشئ صداقة .. ؟ ربما إحساسه بالخطر هو الذى يدفعه إلى الارتباط .. ربما يريد أن يجتمى خلف شيء ما .. ربما .. ربما ..

وجدت وجهه صبوحة نبيلا مليئا بالأسى .. ونظرة صافية حزينة تشع من عينيه .. وابتسمت من جديد .. وكانت ابتسامة عذبة مخلصمة .. وكانت لحظة سعيدة .. وكدت أضحك وأنا أقول له :

— أنا موافق .. لا بأس أن نكون أصدقاء .. اسمى ..

وقاطعنى ..

— نسيت أن أقول لك السر ..

— أى سر ؟

— السر الذى حدثتك عنه قبل قليل ..

— آه لا بأس .. إنى مصنع إليك ..

— وتلفت حذارا هنا وهناك .. ويدت عليه علامات الجد والاهتمام ..

— الموضوع له علاقة بنبيلة ..

— نبيلة ؟

— نعم ..

— ومن نبيلة ؟

— اصبر .. سأذكر لك كل شيء فى حينه ..

وبدا الخوف يغزو قلبى من جديد .. وغاضبت سعادى .. كنت أريد أن أبتعد بأى اسم لأى فتاة عن هذا المكان .. فأى اسم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتى خلال ساعة من الزمن .. ولو كان هذا الاسم لعفريت من الجن على حد تعبير أحد الضباط .. ولكن عاطفياً هذا لم يكن ملتفتاً إلى أفكارى التى تنساب عبر عقلى .. ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط .. وأتانى صوته ضعيفاً :

— كنت أحبها .. حبا عميقا .. وكانت هى كذلك ..

وشملنى إحساس عارم بالسخرية وقلت له :

— لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك ..

ونظر إلى بجديّة وهو يجيب ..

-
- نعم . . وماذا فى هذا . . ؟
- لا شىء . . ولكن ألا ترى أن المكان لا تناسبه هذه القصة ؟
- ولكنى أراه مناسباً تماماً . .
- وتفرست فى وجهه . . كان المسكين فى حالة ذهول كاملة . . وأدركت ذلك عندما دققت النظر فى وجهه . . وأحسست بمدية حادة تمزق قلبى . . كان المسكين فى حالة غير عادية . . لقد أذهله الموقف . . وشعرت بالخيرة . . ماذا يمكن أن أفعله له ؟ لا شىء وفجأة رأيناه ينخرط فى بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول :
- لقد أخذوها عنوة . . توصلت إليهم أن يتركوها فرفضوا . . كانت فتاة رائعة . . وقاطعته . . فقد وقف شعرى من هول المعنى الذى تحمله هذه الكلمات :
- عمن تتكلم ؟
- نبيلة . . كنا سنتزوج بالأمس . . جاء المأذون لعقد القران . . ولكن . .
- ولكن ماذا ؟
- قبض على أنا وهى . . أخذوها . .
- من الذى أخذها . . ؟
- المباحث الجنائية العسكرية . . قبل أن يعقد . .
- لماذا ؟
- لست أدرى . .
- أنتما من الإخوان ولاريب . .
- أنا وهى من المسلمين . .
- إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء . .
- لحساب من ؟
- لحساب الروس . . لحساب الأمريكان . . وربما لحساب اليهود . .
- اليهود ؟
- نعم . .
- ألسنا أعداء لهم وفى حرب معهم ؟

- واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة في جبينه وهمس :
- نحن نعاديهم في الظاهر .. أما حقيقة الأمر فنحن نخدم اليهود المخلصون ..
- نحن من ؟
- المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم ..
- أنت تقول كلاما خطيرا ..
- أنا أقول الحقيقة .. كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب ..
- أية حرب .. ؟
- بعد أن ينتهي هذا المعترك سوف ندخل في حرب مع إسرائيل .. ونهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة ..
- لعمرى هذا أمر غريب ..
- ستأتاكم الأيام بما لا تعرفون ..
- وكان عاطف شارد الذهن ولعله لم يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :
- عندما أتينا ذهبوا بها إلى مكان .. يقولون اثنين .. وهنا أخذ منى الأمباشى دبلة الزواج ..
- أكانت دبلة من الذهب ؟
- وأجابه عاطف :
- نعم .. كانت كذلك ..
- ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟
- واستغرق كل في أفكاره .. وأنا أفكر في شعبان بتاع الخانكة .. وعاطف يفكر في زوجته والشيخ يفكر في اليهود القادمين ..
- قطع علينا الصمت الذى يخيم على المخزن صوت فتح الباب في جلبة وضوضاء .. ودخل جندي كرية كأصحابه .. يحمل في يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون لخلق الشعر .. وكان يمسكها بطريقة مخيفة .. كأنه يمسك بآلة حادة يهيم أن يبطش بها بإنسان .. وتكلم كأنه ذكر الحنزير ..
- يا أوغاد .. يا أولاد الكلاب .. يا حشرات .. ستحلقون رؤوسكم القدرة بعد قليل يا أبناء العاهرات .. وهذا شرف لا يليق بكم يا المامة .. عبد النبى .. نعم أنا الأسطى عبد النبى .. (وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق والمجند حاليا .. سأحلق

لكم .. هل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد .. هيا تعال أنت ..

واختار واحدا منا وكان الدهول يلفنا كالدومة .. وتقدم الشخص الذى اختاره .. وجلس صاغرا بين يديه كالمغشى عليه من الموت .. وكان هذا الشخص ملتجيا .. ورأينا الأسطى عبد النبى الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الخلاقة كما يدعى .. وقد هم به كأنه سيفترسه لا سيحلق له ..

ومن بين الكلمات والصفعات المتوالية حلق له .. وكانت حلاقة عجبية .. فقد حلق له نصف لحيته ونصف الشارب المحلوق .. ثم حلق له شعر رأسه .. وختم الأسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الخلاقة على رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشيا عليه ..

واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصرخات والأناث المكتومة .. والكلاب تعوى فى فناء السجن .. وماكينة الخلاقة فى يد عبد النبى التى تقطر دما .. وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأناث وعواء الكلاب الضارية فى فناء السجن ..

وجاء دورى فى الخلاقة وكان نصيبى جرحا عميقا فى أعلى جبهتى ..

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الأسطى عبد النبى ضاحكا مسرورا .. ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من الشتائم المتقاة التى - والحق أقول لكم - منها ما لم أسمع به قبل أن ينطق بها الأسطى عبد النبى ..

وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جراحنا .. ولم تكن هناك أدوات الإسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق ..

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق .. وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين وترك فى العراء حتى جيفت جروحه وتقيحت .. وفاحت رائحتها الكريهة .. فلحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثا .. وتكوم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة ..

« رجلى ياناس .. الحقونى ياناس .. النار .. النار .. ياناس .. حاموت .. ألا يوجد فيكم مسلمون .. والله ما أعرف حاجة عن الإخوان .. الله يلعن السياسة .. ياناس أنا عريجى .. إيش عرفنى بالإخوان .. ياناس واحد يطفى النار الى فى رجلى » ..

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصدید .. ولم تكن تملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه ..

وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان .. اندفع الدم فى عروق أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقا عصبيا حتى يأتينا أحد الحراس .. وتجمد الدم فى عروقى .. وفى عروق الموجودين على ما أظن .. ولن تتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة .. وصح ما توقعنا .. فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين .. وفى يد كل

واحد هراوة ضخمة .. وكأنهم كانوا على استعداد وفي انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجها :

— وقعتم في المحظوريا أولاد الكلب .. كنا ننتظر هذه الغلطة .. هيا إلى الخارج جميعا ..

وأوقفونا صفًا متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح فما كان بقادر على الوقوف وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك بعد أن طمحنه بهراوته طحنا .. ولم يقم الرجل بل كسرت ذراعه في هذه العلقة .. أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئا جديدا .. لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التي مزقتها الزجاج الدقيق المتناثر في الفناء ، وأوسعونا ضربا ولكنا ورفسا ثم جعلونا نلعس سلالم السجن بالسنتنا تحت ضغط السياط والمراوات ونهش الكلاب ..

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا .. ومنا من صاحبه ورم في لسانه حتى وقتنا هذا ..

أما الرجل الذي تركناه جريحا يعانى من الصديد الذى ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئا عجيبا ..

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه عله يطفىء نارها المستعرة .. ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ صراخا عاليا وحاولنا رغم كل ما حدث أن نهدئه وأن نمنعه مما كان يفعل ..

ووجدت دموى تنساب على خدى دون صوت .. كان قلبي يتمزق .. وكان هو يتمزق وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة .. ولم يفكر أحد منا في استدعاء الحرس لإسعاف هذا الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طوال النهار .

وفي الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صار الرجل ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته .. ويطلب منهم أن يساعوه ويغفروا له ذنوبا لا تعرفها .. ثم اختلج جسده وأسلم الروح ..

وفي الصباح وجدنا في وجهه تعبيراً هادئا مطمئنا .. كأن الله قد غفر له ..

بعد أن مات هذا الرجل وعرف كل من في المخزن أنه مات انفعل أحد الموجودين ويكى بصوت مكتوم .. ثم ارتج المخزن بالبكاء .. وصلينا عليه ونحن في أماكننا وهو غارق في برازه وصديده .. وابتسامته الهادئة التي لم نرها إلا في الصباح ..

وكانت هذه هي الليلة الثانية في السجن الحربي .. الليلة الثانية التي لم أذق فيها طعم النوم .. وإذا أضفنا الأربعة أيام التي قضيتها في المحمصة بأبى زعبل يكون مجموع أيام السهر ستة أيام كاملة .. ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم ..

وفي هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى أشرب قدرا أكبر من البول الذى جمعناه في أوعية المطاط طوال النهار .. وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا ما فعلوه بالأمس .. فتكلم أحدنا في صوت ضعيف :

— يا أفندم .. فيه واحد ميت ..

وأشار بيده إلى الجثة الهامدة وارتسمت على وجه الجندي ابتسامة وقحة :

— واحد فقط يا أولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجهنا من سيادة العميد .. أى إنسان هذا الذى يتحدث عنه الجندي ؟؟؟ لاشك أنه ليس من البشر .. ألا يؤثر فيه منظر الموت الجليل ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يتضحكان ويتغامزان كأنهما يحملان .. ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان أرخص الأشياء وأدناها قيمة ..

وذهب الرجل المسكين الذى لم نعرف عنه شيئا سوى أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة قبل أن يموت .. لقد ذهب الرجل إلى مكان خلف الحياة إلى الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان ..

وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمور فى نفسى ..

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ ما العزة وما الذل ؟ ما الحب ما البغض ما الجوع ؟ ما الخوف ؟ .. كل هذا ليس سوى كلمات .. وما أنا ؟ لست سوى كلمة .. وما الألم ؟ أيضا كلمة ، وما الفكرة ؟ وما الصمت ؟ الحق والباطل كلمات ولكن .. تختلف الكلمات وتتباين .. هناك « كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .. وهناك الكلمة الخالدة .. طيبة « كشجرة طيبة .. أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. ويضرب الله الأمثال للناس » .. والحياة التى نعيش فيها ويصنعنا بعضها ونصنع نحن البعض الآخر .. ليس هذا كله إلا صراعا بين الكلمات .. الكلمات الخبيثة .. والكلمات الطيبة .. ونحن بين هذه وتلك فى علو وانخفاض .. ولا يتربع فوق عرش الحياة فى النهاية - التى لا يمكن قياسها بمقاييس البشر - إلا أصحاب الكلمة العليا .. الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد الدفاق اللامتناهى مادام للوجود حس أو شعور ..

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا المخزن وبعضنا ناله .. قضيت فى هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى الزنازين ، ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته فى السجن الحرب ، فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وفى كل وقت ، وقد ترك هذا العام فى نفسى أثرا لا يمكن أن يمحي أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه ..

وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الأيام المفزعة .. فكم من الكلمات لا تعنى شيئا بالنسبة لكثير من الناس .. ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا هناك .. فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس ويكون فى نفوسهم معنى لا يختلفون عليه ..

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يحكم فيها الحراس علينا غلق باب المخزن .. رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصدید .. الموجودة فى كل مكان ورائحة كريهة

أخرى تهب من الأجواف التي أنتتها الجوع والسغب وقذارة الأسنان . . ودر صوت المراج عدم يتحرك إيدانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل إلى قوة انفعاله وتمتلىء عروقه بالادرينالين تحفزا واستعدادا لمواجهة الخطر . . ويتمثل لنا أسوأ الأوقات في لحظة تسليم الطعام الضئيل الكمية . . القدر الصناعة . . لأنهم ينتهزون هذه الفرص فيوسعونا ضربا ولكما وأذى . .

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة . . لحظة استدعائه إلى التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيبا . . هناك من مات في انتظار هذه اللحظة . . لم يستطع قلبه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف . . فلم يكن أمامه غير الموت . .



ملحق رقم ٧

« الجيش الذى هزمه قواده !! »

عصام دراز ضابط مصرى شاب خاض الكثير عن حروب مصر خلال العصر الناصرى .. منها حرب سيناء فى يونيو ١٩٦٧ ..

وقد كتب عن تجاربه الشخصية فى تلك الحروب قصتين عظيمتين لأنها دقيقتان تاريخيتان إحداهما هى رواية « مرارة الحرب » .. قصة حب من يونيو ١٩٦٧ - انقاهرة ١٩٧٨ ..

وقد قال الأستاذ الكبير/نجيب محفوظ فى إحدى سوانح أفكاره التى ينشرها فى جريدة الأهرام إن جيشنا المصرى لم يهزم فى حرب ١٩٦٧ وإنما هو تلقى أمرا بالهزيمة فانهزم ..

والصفحات التى أنقلها هنا من رواية عصام دراز ص ٨٢ - ٨٩ تصور هذا المعنى أصدق تصوير ..

كان مطار « بير تماده » على يمينى غارقاً فى اللهب والحطام يلحق جراحه ، وعلى ممراته رقدت الطائرات « الميج » الفضية على بطنها ، أو مقلوبة على ظهرها وبجوارها أجنحتها على الأرض كانت تشبه سرباً من « الأوز » البرى تم اصطياده فى مباراة للصيد ، وبعد مسيرة عدة دقائق على الطريق وجدت على الجانب الأيسر موقع مدفعية للطائرات يحترق . فى حين أن مدافعه العظيمة ظلت منتصبه ، رافعة هامتها فى كبرياء ، ووضعت حول الموقع جثث رجاله الذين استشهدوا على مدافعهم فى حين أن سيارات الإسعاف كانت تأتى بسرعة ثم تحمل الجرحى وتمضى بسرعة كأنها تحطفهم خطفاً ، كان منظر المدافع المحطمة وحولها الجثث والجرحى كتمثال خالد يصور معنى كلمة البطولة والشجاعة . لقد كان هذا الموقع يمثل رأس مثلث لمجموعة مواقع مضادة للطائرات . كانت هذه المواقع تقاوم طائرات العدو قتالاً شديداً لا هوادة فيه . كانت تقيم ساترا من النيران أمام طائرات العدو . أشعل استبسالها فى القتال الحماس فى كل جنود وضباط المنطقة . كنا نراقب معاركها مع الطائرات فى إعجاب شديد . وشاهدنا إحدى الطائرات وهى تهوى خلف أحد الجبال المحيطة بالمنطقة بعد أن أصيبت إصابة مباشرة واشتعلت فيها النيران .

وإزاء قتاله واستبساله قررت الطائرات المعادية أن تصيبه مهما كان الثمن ولكنها فشلت المرة تلو المرة ، وفى إحدى المرات تسللت إليه إحدى الطائرات على ارتفاع منخفض جداً وسددت إليه طلقاتها وفرت هاربة ، وفى نفس اللحظة انقضت عليه طائرتان من ارتفاع شاهق جداً حيث سدنا إلى الموقع مجموعة كاملة من الصواريخ . دوى انفجار عنيف وعندما انقشع الغبار والدخان كان الموقع قد تمزق كنت أعرف ضابط هذا الموقع . فقد كان ملازماً ومحِب الرياضة وبخاصة كرة القدم ، وأذكر آخر مباراة كرة قدم لعبتها معه قبل الحرب . ظلت أتأمل المشهد وأتأمل المدافع المنتصبة وسط الدخان والنيران فى عظمة وجلال .

سرنا بعد ذلك دون توقف ، ظل هدير المحركات يخترق مسامنا وعظامنا ، فبعد ساعات من التحرك نجد أن أجسادنا قد تحولت إلى جزء من الدبابة ذاتها . وتظل الذبذبات تنتشر في خلايانا إلى أن نقف في راحة قصيرة ونطفئ المحركات عدة دقائق ، فنشعر وكأننا نسترد آدميتنا من جديد .

رحت أتأمل أفراد طاقم الدبابة ، ثم تأملت جدار الدبابة الداخلى الحديدي السميك . ثم الأجهزة اللاسلكية ، ومؤخرة المدافع الضخمة والطلقات المصفوفة بالداخل ، فتحت فتحة البرج فأخرجت رأسى منها ، وجدت أن الليل قد هبط حولنا .

وهناك في أماكن أخرى بصحراء سيناء وعلى الخطوط الأمامية نخوض قواتنا قتالا مريراً . شديد الصعوبة خاصة بعد أن فقدنا السلاح الجوى . أى أيام صعبة نتظرها إذن وماذا يارب يخبىء لنا الغيب . ؟ وأصبح اليوم الآن . . بل والساعة . . هو حقبة تاريخية كاملة . لم يعد اليوم كأي يوم من الأيام السابقة . إن اليوم الآن بل والساعة . هي أجيال تولد . . وأجيال تبعث من جديد . . هو قرن من الزمان في عمر الحرب .

هذه هي الحرب ذاتها ، وها نحن قد دخلنا في جوفها بل ونزداد عمقاً فيها لحظة بعد أخرى . لقد أصبحنا ننتمى إليها انتهاء . . نحن والعدو على السواء كائناتنا للأرض التي نعيش عليها والحياة والإنسانية .

تذكرت فجأة عبارة قالها لنا أحد مدرسى الكلية الحربية . وكان يبدى رأيه في الموت في الحرب . قال لنا « إننى أفضل ميتة رجل المشاة عن ميتة رجل الدبابات فرجل المشاة يموت في الهواء الطلق . أما رجل الدبابات فهو يموت فجأة محترقاً في دبابته » . .

تخيلت في هذه اللحظة كيفية اختراق الطلقة لدرع الدبابة فإن لدروع الدبابات طلقات مخصصة ذات موجة حرارية عالية تصهر حديد الدرع السميك وتحرق بالتالى الطاقم كله في لحظة زمنية خاطفة . تأملت الرجال حولي وهم منهمكون في عملهم . شعرت بحب شديد نحوهم . تخيلت أيضاً الطرف الآخر ذلك الشخص المجهول بالنسبة لى والذي سيسدد إلينا الطلقات . . من هو ؟ وأين يعيش . . . وماذا يفعل الآن ؟

ثم تخيلت العكس . . فأنا سأسدد طلقات مماثلة وسأصيب دبابات بها رجال مثلنا . . وستفحم جثثهم في لحظة خاطفة حيث ينصهر الحديد مع الموجة الانفجارية الرهيبة .

رحت أفكر في الموت وفي الحرب . . وفي أشياء كثيرة .

استيقظت من أفكارى على لهب يتصاعد أمامى في جوف الليل . ظلمت أراقبه ثم أمرت بالاستعداد والاقتراب بحذر استطعت أن أتبين بسرعة مصدر هذا اللهب . فقد كان مطبخ إحدى وحدات المشاة التي تحتل هذه المنطقة المتقدمة . . اقتربنا من المطبخ ونزلنا من دباباتنا بعد أن أطفأنا المحركات لراحة قصيرة . وما إن نزلنا من الدبابات حتى خرج جنود المطبخ ليستقبلونا بالعناق كأنهم كانوا ينتظروننا . كانوا قد خلعوا ستراتهم ، وراح العرق يتصبب منهم ، وظهرت أذرعهم

القوية - قائلين : « مرخبا برجال الفرقة المدرعة » . .

كان المطبخ مكوناً من عدة مقطورات للطبخ موضوعة في حفرة كبيرة ، وبجوار الحفرة نصبت خيمة وبجوارها وقفت سيارة لورى ضخمة عليها فئطاس مياه .

تمددنا على الأرض لنريح أجسادنا المتعبة في حين أن الجنود أحاطوا بنا وراحوا يسألوننا عن سير الأحداث وبعد دقائق قدموا لنا وعاء كبيراً به أرز ساخن ثم قدموا وعاء آخر به حساء وقطع اللحم المطبوخ . رحنا نأكل بأيدينا ونحن ننظر لبعضنا البعض . وما إن انتهينا من تناول الطعام حتى قدموا لنا الشاي الساخن . ورحت أحتسى الشاي وأنا ممدد على الأرض أتأمل الليل حولي فقد أصبحنا في منطقة متقدمة حيث تحتل بعض قواتنا مواقع دفاعية . كان وميض الانفجارات يهب صارخاً في الليل من جميع الاتجاهات كأنه وميض البرق في ظلام الليل . كانت المعارك الطاحنة تدور منذ صباح أمس لا تعترف بليل أو نهار . ومن خلال ذبذبات الأرض كنت أشعر بالانفجارات العنيفة المكتومة تأتي من اللحم المسلوq . ولم نصدق أنفسنا ونحن نشم رائحة الطعام متصلة دون توقف لتعلن لى في صمت . أن هناك المئات يسقطون في جميع الأماكن حولنا مع كل ذبذبة أرضية وكل مضخة خاطفة تهب في الليل وتتعلق به في فزع .

تمددنا على الأرض لنستمتع برطوبة رمال الليل ونريح أجسادنا وفجأة جاء جندي يكاد يرقص فرحاً وهو يعلن الفرقة المدرعة حضرت .

التفت حولي فوجدت سيلاً متدفقاً من الدبابات التي أضاءت أنوارها الأمامية وصوتها يتعالى كزلزال هائل مكتوم يتربص في الأعماق ويتحين اللحظة للانقضاض ، استيقظت الوديان والتلال من نومها فزعة وراحت ترقب المشهد في دهشة .

ولأننا من رجال الفرقة المدرعة فقد قدم لنا جنود المطبخ مزيداً من الحساء ، ثم الشاي فشرينا مستمتعين به ونحن نستعد للتحرك للملاقاة وحدائنا التي وصلت تحت ستارة الليل الداكنة .

كنا قد أخذنا مواقعنا المحددة لنا ، وكان الصباح قد بدأ يبعث فينا روحاً جديدة بعد ليلة مرهقة . كان الجنود يتمددون بجوار دباباتهم في راحة قصيرة . جلسنا سوياً ونحن بعض ضباط الكتيبة على الأرض بجوار مدق صنعته الدبابات والعربات فبدأ وكأنه طريق ممهد . رءوسنا مازالت تنز وتطن ولم يذهب عنها صدى . . داكنة ومغطاة بطبقة من الحصى وكانت التلال تبدو وكأنها منحوتة نحتاً أو كأنها صببت في قوالب ثم وضعت متجاورة ومن خلفنا ظهر جبل مرتفع غريب الشكل داكن اللون وفي اتجاه الشرق كانت الأرض تتدرج في الانحدار حتى تستطيع أن ترى وأنت جالس لمسافات بعيدة جداً . بجانب صحراء سيناء تلتقى عند الأفق المعبق بالضباب بصحراء النقب جنوب اسرائيل كان الضباب يبدو سابحاً فوق بحيرات من السراب في الأفق شعرت بحنين مفاجيء يستيقظ في نفسي لقريتي . بدأنا نحتسى الشاي في أكواب بلاستيك وكان قد قدمه لنا ضابط وجنود أقرب دبابة وكأننا ضيوف عليه فقد خرج ورحب بنا وقدم لنا الشاي . ضحكنا من قلوبنا عندما كنت أقص عليهم قصة الفراخ الهاربة . ظللنا نضحك من قلوبنا في جو صاف بعد ساعات من الإرهاق . كانت نسمة الصباح مع الشاي قد أنعشتنا بعض الشيء . كان قائد الكتيبة

يقف على مقربة منا حينما اقتربت منه سيارة جيب من سيارات قيادة اللواء . كنا نضحك وبدأ يتتبعه ، لقد تغيرت وقفة قائد الكتيبة وهو يقرأ الورقة الصغيرة . دار حوار لم نسمعه شعرنا من الوهلة الأولى أن هناك حادثاً جليلاً قد حدث لأن ملامحه بدت مضطربة . كان كأنه يستغيث بنا عندما وقفنا حوله . قال بصوت متردد وهو ينظر لنا في فزع .

- أمر بالانسحاب فوراً . .

لم نسمع الكلمة جيداً ، أولم نصدق ما سمعناه . كرر وملامحه تكاد ترتجف :

- أمر بالانسحاب فوراً . .

نظرنا إلى الضابط الذي أحضر الأمر بنفسه ، كان يستعد لركوب السيارة . كنا نريد تفسيراً أكثر . قال بهدوء وكأنه يقدم لنا العزاء في مصاب أليم :

- الانسحاب فوراً إلى « بيرتماده » . .

حاول أحدنا أن يسأل :

- ما السبب ؟

قال وهو ينظر بعيداً عن عيوننا :

- أوامر . . ولا أحد يعرف السبب بالضبط . .

هز رأسه أسفاً ورحنا ننظر حولنا في حيرة . فوجئت بحالة قائد الكتيبة ، فقد كان في حالة يرثى لها . فقد كنت أشعر بيني وبين نفسي أنه قائد من الدرجة الثانية قد بدا عليه أنه يستعد للامتحان وليس للحرب فقد أعد أوراقه بطريقة منظمة ، وكان يحتفظ بمذكرات كاملة عن كل شيء وكان لا يصدر أمراً إلا بعد أن يراجع أوراقه جيداً . لهذا كنا متبرمين من طريقته بيننا ، أما الآن فقد بدت ملامحه تنم عن غضب وحزن كظيم ، شعرنا جميعاً بشيء أشبه بالدوخة بعد هذه الضربة غير المتوقعة ، نظرنا حولنا ونحن لا نعرف كيف سننقل هذا الأمر إلى رجالنا . قال الضابط وهو يركب سيارته : المطلوب سرعة الاستعداد . .

انطلق الضابط بسيارته ووقفنا حول قائد الكتيبة ننظر في بعضنا البعض ، ابتعد عنا قائد الكتيبة عدة خطوات واستدار للحظات ، خيل إلينا كأنه يمنع دموعه من السقوط أمامنا ، ازداد ثقل الحزن على صدورنا . قال أحد الضباط :

- قد يكون هناك واجب آخر سنكلف به .

لم يجب أحد . قال آخر وهو يحاول أن يعطى لكلماته مزيداً من الصدق والحرارة :

- مؤكداً أن هناك خطة ما . .

قال آخر بصوت يائس :

- لا يمكن أن نهزم بقرار ..
- قال ضابط قصير برتبة ملازم أول :
- مؤكداً أن روسيا لن تتركنا نهزم هكذا ..
- نظرنا إليه شذراً ، شعر بأنه قد أخطأ فانكمش على نفسه قلت له :
- اسكت .. لا تكن غيباً ..
- فسكت لكيلا يكون غيباً . قال قائد الكتيبة معلقاً :
- روسيا لن تأتى لتحارب بدلا منا ..
- مضى دهر طويل ونحن نقف مكاننا حائرين ، هبت نسمة هواء باردة ، تألقت الشمس بعدها وازدادت سطوعاً .. سمعنا صوت مذياع يذيع بياناً عسكرياً .. قال المذيع بصوت جهورى مشتعل حماسة إن قواتنا المسلحة تتقدم فى صحراء النقب جنوب إسرائيل ووعد المستمعين بأن البيان التالى سيكون من تل أبيب عاصمة إسرائيل نفسها .. ودوى نشيد حماسى عكس فى نفوسنا شعوراً مريراً بالاشمئزاز والمرارة :
- إلى متى هذا الكذب ؟
- قال ذلك أحدنا بحركة عصبية من يده .. تنهى إلى سمعنا صوت انفجارات متتالية تأتى إلينا من الجهات الأربع كأنها قرع لطبول مجهولة ثم صوت طائرات تطير على ارتفاع عال جداً .. رفعنا ذقوننا فى الهواء عدة دقائق حتى رأيناها فى صورة نقط سوداء صغيرة قادمة بعد أن أفرغت حولتها .. قال قائد الكتيبة أخيراً :
- هذا ما حدث فى حرب ١٩٥٦ بالضبط .. ثم بعد ذلك قالوا إننا انتصرنا ..
- ظللنا صامتين .. نظرت إلى الأرض وتأملت الرمال الداكنة وقطع الحصى الصغيرة .. قال رضا بعد أن انضم إلينا :
- كيف ستتحرك الآن بلا غطاء جوى ؟ إنها مذبحه إذن ..
- قال قائد الكتيبة ليمنع الاسترسال فى حديث لا معنى له ولا جدوى منه :
- ولأننا جيش نظامى .. سنطيع الأمر ولو خطأ .. اذهبوا إلى رجالكم الآن .. فالأخطار الحقيقية قادمة فاستعدوا لها ..
- اعترانا شعور حاد بالمرارة .. فقد كنا كالجسد الذى سلبت منه روحه وظل واقفاً مكانه بكل قوته وعنفوانه ..

« ملحق رقم ٨ »

عواقب التأمين الجزائي

هذا آخر حديث سياسي أجرى مع الزعيم المصري الكبير مصطفى النحاس الذي كان الشخصية الرئيسية في ميدان العمل السياسي في مصر منذ وفاة سعد زغلول في أغسطس ١٩٢٦ إلى يوليو ١٩٥٢ ، فقد كان رئيسا لحزب الأغلبية وهو الوفد بعد سعد زغلول ، والحديث يتناول موضوعا رئيسيا من موضوعات تاريخ مصر المعاصر . وهو تأمين قناة السويس . والنحاس باشا يعبر هنا عن رأيه ، وهو رأى خاص ، ولكن له أهميته ويلقى ضوءا كاشفا على الطريقة التي كان الرئيس جمال عبد الناصر يتخذ بها قراراته .

وقد أجرى الحديث الصحفي شفيق إبراهيم مرشاق وسجله في مذكراته الأستاذ أحمد الشافعي الذي كان سكرتيرا صحفيا للرئيس مصطفى النحاس في سنواته الأخيرة . وعن تلك المذكرات نقلته جريدة الوفد ونشرته في عددها الصادر ٣ / ١١ / ١٩٨٧ ، ونحن نقله عنها بلفظ الأستاذ شفيق مرشاق .

ابتهاج بالقرار

كنت والشعب المصري كله قد ابتهجنا من القرار التاريخي الذي اتخذته الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بتأمين قناة السويس . ومن الانتصار الباهر الذي تحقق بعد ذلك عندما استطاعت مصر التغلب على صعوبة إدارة الملاحة في القناة بفضل المرشدين المصريين واليونانيين الذين استمروا في عملهم وبذلوا جهدا خارقا ليلا ونهارا لكي تستمر قوافل السفن في المرور بسلام في المجرى المائي .

ولكنى لاحظت بداية في تلك الليلة - ليلة ٣١ أكتوبر - وفي الأيام التالية أن هذه البهجة أخذت تفتت عند الكثيرين ، فلم يتصور أحد حينذاك أن عملية تأمين شركة القناة ستسفر عن هذا الاعتداء الغاشم المدمر .. خاصة أن بريطانيا كانت حليفة مصر الوحيدة في ذلك الحين - رسميا على الأقل - فقد كان عبد الناصر وقع معها معاهدة صداقة وتحالف في سنة ١٩٥٤ ، انسحبت بمقتضاها من منطقة القنال قبل شهر واحد فقط من التأمين على أن تعود قواتها حسب نصوص المعاهدة إلى قواعدها في مصر للدفاع عنها عند تعرضها لأي اعتداء خارجي . وها هي تعود اليوم ولكن كمعتدية هذه المرة ضاربة عرض الحائط بالمعاهدة ناقضة لموادها نقضا تاما ونهائيا بعمليتها الحربية هذه .

من النقيض للنقيض

وتساءل الناس عن تفسير لهذا الموقف البريطاني الذي تحول فجأة من النقيض إلى النقيض . والسؤال الذي يتردد اليوم على بعض الألسنة هو : هل قرار التأمين كان عملا بطوليا حقا ؟ هل كان « ضربة معلم » كما تعودنا أن نقول ؟ .

لاشك في أن تأمين شركة قناة السويس كان نصرا مبينا لإرادة دول العالم الثالث أو الخاضعة للنفوذ الأجنبي ، وكان إشارة واضحة لهذه الدول لكي تثور بدورها ضد هذا النفوذ .. وقد امتد أثر هذا النصر إلى كثير من البلاد الأفريقية ، ودول أمريكا اللاتينية وأصبح بمثابة بشرى لعصر جديد في المعاملات والعلاقات الدولية ، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو : على حساب من تمت هذه الانتصارات ؟ ألم تكن في نهاية الأمر على حساب مصر بالذات ؟ .

أذكر في هذا المجال ما سمعته بأذني من الزعيم مصطفى النحاس في سنة ١٩٥٦ عن موضوع تأمين شركة قناة السويس وكان حديثا خاصا . لعله الأول والأخير الذي أدلى به هذا الرجل العظيم بعد الثورة . وقد تم نشر أجزاء منه منذ سنوات في كتاب صدر باللغة الفرنسية عن جهاد الوفد في سبيل الاستقلال والديمقراطية ، وقد منع الرئيس الراحل أنور السادات يومئذ تداوله في مصر . وهذا هو نص الحديث كما جاء في مذكرات المرحوم الأستاذ أحمد الشافعي الذي كان يشغل وظيفة السكرتير الصحفي للنحاس باشا قبل الثورة .

ديسمبر ١٩٥٦ :

قامت بزيارة الزعيم خالد الذكر مصطفى النحاس فى منزله بجاردن سيتى ، وكان بصحبتي زميل شفيق إبراهيم مرشاق الذى كان يؤلف حينذاك كتابا عن « جهاد الوفد فى سبيل استقلال مصر » . وقابلنا الزعيم فى صالون الدور الأرضى ، كان يبدو فى ذلك اليوم رائق المزاج مستريح النفس نسيبا . وبعد التحية والسؤال عن الصحة قال الأستاذ شفيق موجهها كلامه إلى مضيفنا الكبير :

- إن الانجليز والفرنسيين سيجلون عن بورسعيد بعد وقت قصير ، وقد صدر بيان بذلك وتلك بشرى سعيدة .

ولم يرد النحاس باشا بادية ذى بدء .. وكأنه يريد شيئا آخر غير السياسة . فقلت حينئذ :

- إن رفعته منذ أن ألقى آخر خطاب فى ذكرى المغفور له سعد زغول باشا فى السراى الذى أقامته لجنة الوفد بالاسكندرية بميدان المنشية والذى احتشد فيه ومن حوله ألوف لاحتصر من المواطنين .. منذ ذلك التاريخ ورفعته يحرص على تجنب الحديث فى الشؤون السياسية .

وقال مصطفى النحاس : نعم .. لقد زهدت فى الحديث عن السياسة منذ أن ألقيت آخر خطاب لى بمناسبة مرور ٢٥ سنة على وفاة سعد .

ثم التفت النحاس باشا إلى زميلي وقال :

- إنك تقول إن الحلفاء سيجلون عن بورسعيد .. هل تعلم كم كلفنا تأميم شركة قناة السويس ؟ لقد كلفنا أرصدتنا من العملات المودعة فى لندن وباريس وواشنطن . كلفنا عتادنا الحرى الذى ضاع فى سيناء .. كلفنا ألوف الشهداء من أبناء هذا الوطن .. وتدمير بورسعيد وأوضاع الثقة فى العقود المبرمة (لعله كان يذكر المعاهدة المصرية الانجليزية التى أشرنا إليها آنفا) . وعلى الآآن فوق كل هذا أن نعوض مالكى أسهم شركة القناة وتطهير الممر المائى من المعوقات الضخمة التى أغلقته .. وليس معنى ذلك أنى أعارض التأميم لأنه مبدأ سليم فى القانون الدولى وهو من أركان السيادة ، والأرض أرضنا والقناة قناتنا ، وقد حفرت بأظافر المصريين .

طريقة التأمين

وسكت النحاس باشا قليلا واستطرد قائلا : « إنما أذكر في هذا المجال ما اتبع من « وسيلة » في التأمين ، كانت هناك « كلمة سر » فعندما نطق جمال عبد الناصر بكلمة « دى لسبس » في سياق خطاب التأمين الذى ألقاه في يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ قام محمود يونس (ورجال الجيش) بهجوم مسلح في جناح الظلام على مقر شركة القنال واقتحم مكاتبها وحطم خزائنها واستولى بالقوة على جميع مستنداتها ومرافقها ، فكانت عملية حربية بحثة ، والحق أنى لأدرى إذا كانت تلك هى الطريقة المثلى لاتمام عملية التأمين .

وأضاف النحاس باشا قائلا :

- ولأدرى كذلك إذا كان هذا هو الأحكم أو انتظار نهاية عقد امتياز القناة التى كانت ملكيتها بمقتضى العقد تنتقل إلينا نهائيا وقانونا سنة ١٩٦٨ دون معاناة ودون توضيحات هائلة .

« إن مسألة تأمين شركة قناة السويس موضوع قديم ... وقد سبق أن تدارسناه مرارا ، كما تولى الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية في عهد حكومة الوفد دراسته دراسة مستفيضة » .

إن نبوءة النحاس باشا تحققت بالحرف الواحد . قامت حرب ١٩٦٧ لرغبة الرئيس جمال عبد الناصر في استرداد منطقة شرم الشيخ وهى من آثار العدوان الثلاثى . ونعلم جميعا ماجرت هذه الحرب من هزائم وويلات لمصر والأمة العربية ومنها احتلال إسرائيل ماتبقى من فلسطين العربية ، ثم جاءت حرب ١٩٧٣ واسترددنا على أثرها شبه جزيرة سيناء .

فإذا سلمنا مع المؤرخين المحايدين بأن حروب ٥٦ و ٦٧ و ٧٣ ما كانت في الواقع إلا مواجهة عسكرية واحدة استمرت ما يقرب من ثمانية عشر عاما مع اسرائيل وان الشرارة الأولى التى أشعلتها كانت تأمين قناة السويس ، فإنه يجدر بنا التساؤل عن الحصيلة النهائية التى أسفرت عنها هذه الحروب الثلاث وهى :
(على الأقل إلى أيامنا هذه) .

- ١ - فقدان قطاع غزة الذي كان خاضعا للإدارة المصرية .
- ٢ - فقدان الضفة الغربية من فلسطين وكانت خاضعة للإدارة الأردنية .
- ٣ - فقدان مرتفعات الجولان وكانت أرضا سورية منذ الأزل .
- ٤ - فقدان مدينة القدس العربية التي تحولت إلى عاصمة للدولة الصهيونية .
- ٥ - زرع ميناء إيلات على البحر الأحمر تجاه الشواطئ العربية .
- ٦ - تحويل سيناء إلى أرض شبه منزوعة السلاح .
- ٧ - سقوط مائة ألف شهيد في أرض المعركة .
- ٨ - خسائر في المهمات الحربية تقدر بخمسة عشر مليارا من الجنهات .
- ٩ - تدمير مدن بورسعيد والاسماعيلية والسويس .
- ١٠ - خسارة عوائد المرور بقناة السويس لما يقرب من عشر سنوات نتيجة لغلقتها وخسارة بترول سيناء لما يقرب من عشرين عاما .

عواقب القرار الفردي

وهنا يجب أن نسجل ملاحظة هامة جدا ، وهي أن أى قرار انفرادى يصدره حاكم بأمره لبلد ما ، وخاصة إذا كان هذا القرار يتعلق بمصير أمة بأكملها لا بد من أن يؤدى عاجلا أو آجلا إلى مشاكل ومعضلات - وأحيانا إلى كوارث - من الصعب التغلب عليها فيما بعد أو التصدى لها أو عدم الوقوع فيها ، فإذا طبقنا هذه الملاحظة على ما يسميه العسكريون بالضربة الأولى في الحروب التقليدية نجد من الأمثلة في التاريخ ما يؤكد أنها تماما فقد هاجم هتلر فجأة الاتحاد السوفييتى أثناء الحرب العالمية الأخيرة وتوغل بجيوشه في أراضيه حتى وصلت هذه الجيوش إلى مشارف موسكو العاصمة وإلى ليننجراد في الشمال وإلى ستالينجراد في أقصى الجنوب بعد معارك طاحنة وتضحيات هائلة في الرجال والعتاد لكل من الطرفين المتقاتلين ، ثم مالبت هذه الجيوش النازية الجسارة أن اتجهت إلى التقهقر أمام المقاومة الروسية العنيفة وعادت إلى ألمانيا منهزمة ثم دمرت كلية على أبواب برلين مما دعا هتلر إلى الانتحار .

إن الضربة الأولى في الحروب التقليدية لانعنى في الواقع كثيرا أو قليلا ، إن العبرة في الضربة الأخيرة ، والنجاح أو الفشل في هذا المجال لا يقاس بما قد يظهر فيه من بريق كاذب في البداية بل بما تسفر عنه المعارك من نتائج إيجابية أو سلبية في نهايتها .

قرارات عشوائية

والملاحظ أن الديمقراطيات لاتتخذ قرارات عشوائية أو تقوم بضربات مفاجئة من هذا النوع ، بل فوق هذا نستطيع القول إن الديمقراطيات لاتحارب أبدا بعضها البعض . فلم يشهد العالم في تاريخه الحديث أو البعيد حربا بين ديمقائيتين ، إن أى حرب تقع لابد من أن يكون نظام ديكتاتورى ما أخذ أطرافها . والسبب كما نعلم بسيط ، ان النظام الديمقراطى يدعو إلى البحث والتشاور والتريث فى اتخاذ القرارات ، ويستند إلى مؤسسات دستورية عديدة لابد من أخذ رأيها فى الأمور الهامة حتى تتمكن من دراستها بعناية تامة ، والامام بجميع جوانبها ، ودراسة جميع الاحتمالات القريبة والبعيدة التى قد تنتج فيها بعكس القرار الانفرادى الذى لاينظر إلى الأمور إلا من زاوية معينة ضيقة ترضى فقط طموح الديكتاتور وتتجاهل زوايا أخرى أكثر خطورة بالنسبة لمستقبل الوطن وسلامته .

وقد عبر الرئيس حسنى مبارك عن هذه الحقيقة تعبيرا جيدا فى خطابه الموجه إلى الشعب إبان استفتاء الرئاسة عندما قال : معنى الديمقراطية : هو قبل كل شىء وفوق كل شىء مشاركة الشعب فى اتخاذ القرار .

يبقى سؤال يطرح نفسه : كيف السبيل للوصول إلى هذه المشاركة الجادة المخلصة ؟ .



« ملحق رقم « ٩ » »

نعم .. كان عبد الناصر ديكتاتورا كمال الدين حسين

نشر الكاتب الكبير والصحفي المعروف محمود فوزى سلسلة عظيمة القيمة من المقالات والأحاديث بعنوان « ثوار يوليو يتحدثون » في مجلة أكتوبر في صيف ١٩٨٧ . والمقالات والأحاديث عظيمة القيمة ، فهي أحاديث مع رجال ثورة يوليو ١٩٥٢ - أو الباقين منهم - وهم فيها يُعربون بصراحة تامة عن آرائهم عن عبد الناصر وسياساته وأعماله وعلاقاته معهم . وهذه الأحاديث فيها كثير من الحق ، وفيها كذلك الكثير من الدفاع عن النفس . فهؤلاء الرجال اشتركوا مع عبد الناصر في الكثير ، وهم - بدرجات مختلفة - مسئولون معه عما أصاب الثورة من انحراف . وبعضهم كان يستطيع أن يفعل الكثير لانقاذ مصر من الاستبداد الناصري . ولكنهم لم يفعلوا لأنهم ضيعوا الفرصة واستسلموا لعبد الناصر ، يفعل بهم وبالأمة ما يريد .

وهذا الحديث مع كمال الدين حسين يعتبر من أحسن حلقات هذه السلسلة وأوفرها مادة وصدقا ، لأن كمال الدين حسين كان دون شك أعظم رجال العصر الناصري ، وهو كذلك من أفاضل الناس وأكرمهم خلقا وأبعدهم عن الزيف وأكثرهم حبا لمصر . ولهذا فنحن نورد فيما يلي نص مقال الاستاذ محمود فوزى كاملا ، وهو يتضمن حديث السيد الاستاذ كمال الدين حسين كاملا .

والمقال والحديث نشرا في العدد ٥٦٠ من مجلة أكتوبر الذى صدر يوم الأحد ١٩ يوليو ١٩٨٧ ص ١٩ - ٢٣ .

وجدير بالذكر ان كل سلسلة أحاديث « ثوار يوليو يتحدثون » تنشر في كتاب كامل في دار الزهراء للإعلام العربى ناشرة هذا الكتاب .

ثوار يوليو يتحدثون

كان دور كمال الدين حسين ليلة ثورة ٢٣ يوليو خطيرا وفعالا ، فكان مسئولاً عن سلاح المدفعية .. لتأمين الثورة من الإخفاق في مهدها بمواجهة سلاح الحدود الملكي إذا ما حاول أن يواجه ثوار يوليو .. وقد أخرج جميع وحدات المدفعية وتصدى لكل المحاولات الفاشلة التي حاولت إسقاط الثورة .

ولقد شارك واتفق واختلف عضو مجلس الثورة كمال الدين حسين مع الثورة في كل مراحلها ، وتقلد مناصب عديدة بلغ مجموعها في وقت واحد تسعة مناصب .. وكان مشرفا عاما على الاتحاد القومي ووزيراً للتربية والتعليم ووزير إسكان ووزير إدارة محلية ورئيس المجلس التنفيذي المصري ورئيس لجنة الطاقة الذرية ورئيس مجلس العلوم ومجلس رعاية الشباب ومناصب عديدة من الصعب إحصاؤها .. ورغم ذلك فقد خرج من الحكم قبل أن يبلغ الثانية والأربعين ! .

لقد كان عبد الناصر مثل الثعبان يلف ويدور ويدخل الجحور ويقول : لا حدود للاشتراكية .. لا .. نحن متفقون على الحدود .. على أن ملكية الشعب لوسائل الانتاج شيء وسيطرة الشعب على وسائل الانتاج شيء آخر .. أنا لست ضد الاشتراكية ولكن مشكلتي أنني أردت أن أكون صادقاً مع الشعب ، وعبد الناصر كان يريد أن يضحك على الشعب .

رفض مجلس قيادة الجيش ، واختلف مع عبد الناصر في الوحدة مع سوريا والحرب مع اليمن ، ثم كان الصدام الكبير مع عبد الناصر بعد اعتقال الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥ وبعث بخطاب لعبد الناصر يقول له فيه « اتق الله » في وقت كان لا يجرؤ فيه أحد على مجرد النظر في عين عبد الناصر !

وتم اعتقاله في نفس الليلة التي يحتفل فيها عبد الناصر بزفاف ابنته الكبرى هدى .. ونام أولاد كمال الدين حسين على الأرض في معتقل الهرم ، ومنعوا الطبيب عن زوجته المريضة حتى ماتت ، ثم رفضوا أن يسير في جنازة زوجته ! .

وقبيل حرب يونيو ١٩٦٧ بعث لعبد الناصر خطابا يؤكد فيه أنه جندي تحت السلاح رغم ما تعرض له من اعتقال .

وجها لوجه مع عضو مجلس قيادة الثورة وأحد فرسانها كمال الدين حسين بصراحة مطلقة للغاية . .

□ أستاذ كمال الدين حسين .. مador سلاح المدفعية الذى كان تحت قيادتك ليلة ثورة ٢٣ يوليو ؟ وهل حقيقة تعرض لمقاومة من الموالين للملك لإحباط الثورة فى مهدها ؟ .

□ دور سلاح المدفعية كان من الأدوار المؤثرة والأساسية فى الثورة . وقد أخرجت ليلة الثورة جميع وحدات المدفعية ، ومررت عليهم من أول وحدة حتى آخر وحدة حتى وصلت لرئاسة القوات المسلحة ، وكان هناك على طريق السويس لواء الحدود تحت قيادة حسين سري عامر الموالى للملك فاروق ، وكان هذا اللواء يشكل لنجاح الثورة مشكلة كبيرة ، لهذا تصدت له قواتنا لقطع الطريق عليه وقطع أسلاك تليفوناته ، مع توجيه المدافع نحوه لضربه إذا ما حدث أى تحرك لضرب الثورة .. وقد خرجت جميع وحدات المدفعية التى كان من المفروض أن تقوم بدورها ... وقد قابلت اللواء على نجيب رئيس قسم القاهرة وهو شقيق اللواء محمد نجيب ، وقد قال لى يومها : ثورة إيه ؟ .. انتم ستقودون البلاد إلى الهلاك ! كما أسرت قائد المدفعية ولم أهدأ إلا بعد أن أخرجت آخر وحدة ، وكان آخر ضابط أخرجته هو الملازم ثان يوسف زين الذى أشرف بعد ذلك على قطاع الشباب والرياضة ، وكان يرتعش ويرتجف وقلت له : لا تخف ! وأخذته وأوصلته إلى قشلاق العباسية الذى كان المفروض أن تتركز فيه مدفعية مضادة للدبابات لكى تمنع أى وحدة معادية للثورة من الدخول والخروج ، مع تسهيل الأمور لضباط وجنود الثورة . وقد وجدت عند الوصول جنودا يرتدون « البريه الأحمر » من الموالين للملك يستقلون سيارات الجيش ، وقد لفت نظرى من بينهم ضابط يوزباشى كان تلميذى اسمه الزيدى ، وكان والده قائد سلاح المدفعية ، ولم أكن أعرف هل هو مع أو ضد الثورة ، فناديت عليه فازداد ارتباكاً ، فأمرت الجنود وقلت لهم : للأمام ضرب ، وما إن سمع هو وجنوده بتجهيز المدافع للضرب حتى هربوا بسيارتهم . .

□ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأت بوصف نفسها باستخدام تعبير ثورة .. إلى جانب تعبير الانقلاب والحركة .. هل هى ثورة أو انقلاب ؟ .. ومحمد نجيب يؤيد الأخير ١٩

□ □ فقهاء القانون يقولون البيان الأول هو دليل الثورة ، ولو كان هذا صحيحا لكان نوعا من الجنون .. فمن الجنون أن نقول كل الذى نريد تحقيقه فى البيان الأول .. كان نوعا من الخجل أن نقول بطرد فاروق ، فكان من الممكن أن تتكتل على أثره كل القوى المعادية للثورة .. كان لابد من أن يكون مسار الثورة .. خطوة خطوة .. محمد نجيب .

زبانية عبد الناصر 'قتلوا المشير عامر !

قطعا لم تكن روحه هى روح الثورة .. بل كانت روح حركة .. ولهذا كان ينصحنا ويقول لا تقولوا ثورة .. بل قولوا حركة .. لأن رأس المال والاقتصاد جبان حتى لا يهرب من كلمة ثورة .. ولكن كل الضباط كانوا يرددون أنها ثورة .. .

□ الأستاذ كمال الدين حسين' .. قرأ الملك فاروق اسمك لأول مرة مدونا على خرائط مناورة عسكرية وطلب من القادة وقتها أن يراك ، ورغم تذكير القادة لك بتقيل يد الملك فإنك رفضت ، هل كنت تعتقد أن الملك فاروق سيخرج بهذه السهولة ؟

□ □ وأبدى كمال الدين حسين دهشته وقال لى : كيف بالله عرفت هذه الواقعة ؟ إنها كانت قبل الثورة بزمان .. يومها انحنى رئيس الوزراء والوزراء والفرقاء واللواءات كلهم لتقيل يد الملك ، ولكننى رفضت تقيل يد الملك واكتفيت بتأدية التحية العسكرية .

ثم شرد بناظره نحو البحر المتسع أمامنا فى آخر جزيرة المنتزه كأنه يستعيد مسار خروج الملك على ظهر المحروسة من ٣٥ عاما من هذا البحر من قصر رأس التين ، وقال : لولا خروج الملك ماكان يمكن أن يكتب لهذه الثورة النجاح .

□ الأستاذ كمال الدين حسين .. أول مرة قابلت فيها عبد الناصر كان بمنزله القديم بشارع أحمد سعيد تقاطع الملكة نازلى ، ويومها قابلت عنده محمود لبيب وكيل الإخوان المسلمين .. هل حقيقة مايشاع من أنك أنت وعبد الناصر أقسمتا على المصحف والمسدس فى حجرة مظلمة أمام عبدالرحمن السندى رئيس الجهاز السرى للإخوان على الانضمام للإخوان ؟

□ □ نعم قابلت محمود لبيب وكيل الإخوان في منزل عبد الناصر كما ذكرت ، وكان عبد المنعم عبد الرؤوف هو الذى عرفنى بعبد الناصر ، وكان كثيراً ما يتحدث عنه معى في طريقنا .. في الترام من السيدة زينب حتى العباسية ، وكانت أحاديث فيها الأمل بالثورة ، ثم عرفنى به عبد المنعم عبد الرؤوف .. وقد رأينا فصل الجيش عن الإخوان بعد عام ١٩٤٨ ومقتل النقراشى ، وقد أقسمنا على المصحف أنا وجمال عبد الناصر في حى الصليبية أمام واحد من الإخوان لا أعرف ما إذا كان عبد الرحمن السندى أو غيره . وقد حلفنا على الإسلام ، والإخوانيون يقولون أنتم حلفتم بيمين ولاء للإخوان المسلمين وأنا أقول حلفنا للإسلام . فرجال الجيش المفروض أنهم بعيدون عن الجماعات أو الاتجاهات أيا كانت نوعيتها .

□ في صباح يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ذهبت مع عبد الناصر وقابلت صالح أبو رقيق وهو من قادة الإخوان المسلمين لإخطارهم بموعد قيام الثورة .. هل ساعد الإخوان الثورة ؟ .. حسين الشافعى قال لى : إن الإخوان لم يقدموا لنا أية مساعدة ١١

□ □ ذهبت أنا وجمال عبد الناصر لصالح أبو رقيق في الجزيرة من أجل التنسيق مع الإخوان .. نحن كنا نتعاون مع الإخوان ، لم نكن تابعين لهم لكن التعاون من أجل الواجب الوطنى والقومى ، وكان لابد من أن يعرفوا بموعد قيام الثورة لأنه كان لديهم ميليشيات مدربون على السلاح ، وقد تم تدريبهم على أيدينا ، ومن هنا كان لابد من الاستعانة بهم ، والحقيقة أنهم كانوا عند حسن الظن وساعدونا .. صحيح أن تأييد حسن الهضيبى جاء متأخراً لكن كنا نعمل ونتعاون مع القيادات التى تليه .

□ أزمة ١٩٥٤ .. واحتمالات حدوث خلافات داخل الجيش ، هل كنا على أبواب حرب أهلية ولا بد من منعها ؟ .. هل كانت حركة المدفعية انقلاباً فعلاً بمعنى الانقلاب أم كانت حركة غضب بلا تأمر ؟

□ □ أزمة ١٩٥٤ كانت ثورة مضادة بكل معانى الكلمة ، وتجمعت جميع القوى المضادة للثورة بما فيها من تأييد أجنبى لكل طرف من الأطراف من أجل قتل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. لولا ١٩٥٤ لكانت الثورة قد انتهت من يومها ، فكان من الجائز أن تحدث حرب أهلية أو حرب بين الجيش وبعضه ، وبالتالي لم يكن أحد يعلم ماذا ستكون عليه تصرفات هذا الشعب .. لكن من المؤكد أن الجيش كان سينقلب على

بعضه لأنه كانت هناك قيادات كثيرة ومتصارعة من أجل إسقاط الثورة : الإخوان والوفد والشيوعيون .. ولقد توقعنا ذلك منذ البداية لهذا رفضنا الاندماج في الإخوان وانفصلنا عنهم ، لكن كل هذه القوى أصبحت تنتهز الفرصة المواتية للانقضاض على الثورة بدعوى أنهم أصحابها الحقيقيون .. الوفد يقول إنه الوريث الوحيد لأنه يمثل الشعب المصرى ، وكان من المفروض أن يتسلم الثورة من الجيش . والإخوان يقولون لأنهم أصل الثورة والضباط سرقوا الثورة منهم . أما الشيوعيون فيقولون لا .. الأفكار التى قامت عليها الثورة يسارية ويخلعون صفة القائمين بالثورة على اليساريين فهم المحرك الأول وليسوا ثوار يوليو !

□ كل ضباط المدفعية الذين اتهموا في قضية ١٩٥٤ أجمعوا على أن كمال الدين حسين خلا بهم في سبيل البقاء في مكانه بمجلس قيادة الثورة .. هل هذا صحيح ١٩

□ □ نحن اتفقنا من أول يوم على أن نفصل أنفسنا عن الأسلحة .. لماذا ؟ لو تمسك كل شخص بسلاحه وأصبح يمثل قوة .. لو حدث خلاف في الجيش يستطيع أن يستخدم سلاحه بقوة في مواجهة الوحدة التى اختلفت معه .. ومعنى ذلك أن الأسلحة ستقسم على بعضها . والحقيقة أنه كان لدينا بعد نظر منذ البداية ، وكنا متحمسين لمثل هذه الأمور ، لهذا تركنا قيادة الجيش لعبد الحكيم عامر بصرف النظر عن قدراته بعد ذلك ، من أجل وحدة قيادة الجيش ومنعنا اتصالنا بالضباط حتى لا تقوم الثورة على بعضها ، ولكن الإشكال أن خالد محيى الدين ظل مستمراً في السوارى ، ولم يترك سلاح الفرسان بعد أن خرجنا كلنا من أسلحة الجيش ، واستمر ينمى الأفكار اليسارية حتى تشبع الجنود بأفكاره اليسارية ، من هنا جاءت الأزمة ! كنا نحاول أن نبعد عن الجيش ولكن البعض كان يتدخل ومنهم محسن عبد الخالق وكان (صفراوى) - على حد تعبيره - وله طموحات خاصة جداً وكان له اتجاهات وفدية ، وأصل المشكلة أن كل أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا ينظرون للضباط الذين دخلوا منهم بعد ٢٣ يوليو على أنهم دخلاء .

□ لماذا حكمتكم على حسنى الدمنهورى بالإعدام أمام مجلس القيادة ، هل يمكن أن يكون الخصم والحكم معاً ؟ لقد وصف محمد نجيب ذلك بأن مجلس القيادة أصبح مثل السمك يأكل بعضه بعضاً !

□ □ كانت هناك مؤامرة في الجيش .. والثورة لم تكن لعبة .. آسف إن البعض يتصور أن الثورة لعبة رياضية .. مباراة تنس نلعب مع بعض وفي الآخر نسلم على بعض .. لا .. الثورة لا تعرف « يااما ارحميني » ياأنا .. ياأنت ! .. كان لابد من أن تحسم في الفترة الأولى من الثورة . أما محمد نجيب فقد أدى دوره المرسوم له في الثورة ، ولكن هل أستطيع أن أقول إن جيله هو جيلنا أو أن روحه كانت هي أرواحنا . لا .. لا أستطيع أن أقول ذلك .. مشكلة محمد نجيب أنه تأثر بمن حوله ثم لحبط في النهاية .. كان يرى القبط من حوله !

□ محمد نجيب قال : إننى لم أستطيع أن أطبق الشعار الذى أعلنته الثورة (الاتحاد .. النظام .. العمل) إلا على القبط والكلاب في معتقل المرج ١١ .. مارأيك ١٩ ؟

□ □ لأننا انتخبنا جمال عبد الناصر قبل قيام الثورة وبعدها .. الثورة المضادة كلها توسمت في محمد نجيب .. أنه كان الرمز الذى التفوا من حوله للقضاء على الثورة ، وقد ظهر هذا واضحا في ميدان عابدين حيث التف الوفد والايخوان والشيوعيون كلهم حول محمد نجيب .. ليس حبا في عيون محمد نجيب ولكن للقضاء على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

□ ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك بكيت حين أبعد عبد الناصر محمد نجيب عن السلطة في الثورة ١١

□ □ لم أبك .. ولكننى كنت متأثرا للغاية في بداية الخلاف ، فوحدتنا أمام الرأي العام كانت من أهم الأسس التى حرصت عليها الثورة ، وحتى لا يأكل بعضنا بعضا ، ولا تحدث انقسامية في الجيش ، ونحن قدمنا محمد نجيب للشعب ولكن بطريقة فيها سذاجة ، ولكنها ترد في الوقت نفسه على الذين يدعون علينا أننا كنا في انتظار خطأ لكى نبعد عن الثورة .. بالعكس الذى لا يثق في انسان لايعطيه كل هذا .. نحن كنا نعمل لمحمد نجيب مديرين لمكتبه .. كنا نركب سيارته ونحميه بأجسادنا ، وكان عمله الوحيد أنه كان يشرف على مخصصات تصرف على الجمعيات الخيرية ويحیی الشعب الذى يصطف على الجانبين وفي الشرفات ويقبل الأطفال ، وكان له قبول رهيب لدى الشعب بوجه ودود وابتسامة محبة ..

□ هل كان تحرك سلاح الفرسان قبل أزمة مارس ١٩٥٤ سببا في أن يفكر عبد

الناصر في أن يكون الجيش مسئولاً من شخص واحد فقط هو المشير عبد الحكيم عامر ؟ .. ولماذا وافقت على تعيين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة رغم أنك لم تكن مقتنعاً بذلك ؟

□ □ عبد الحكيم لم يكن منضبطاً في تفكيره الاستراتيجي ، وهو كان لا يصلح إلا قائداً لكتيبة ، أما تفكيره في الاستراتيجية العسكرية فكان محدوداً وكان على طريقة « المصطبة » .. على طريقة « العمدة » والجيش ليس في حاجة إلى عمدة ولكن إلى قائد .. وأنا اختلفت مع عبد الناصر بشأن المشير ، ولكنه دائماً كان يوافقني ثم أفاجأ بأنه يعطى له سلطات كثيرة بعد ذلك !

□ لماذا حل مجلس قيادة الثورة بصدر دستور ١٩٥٦ ؟ .. لماذا اختفت فكرة القيادة الجماعية من مجلس الثورة ؟

□ □ الفكرة لم تختف ولكنها طبيعة الأمور ، وكان هذا في الحقيقة قصر نظر ، وموضوع طلب السلطة وارد في جميع العالم ووارد على جميع البشر الموجودين في العالم من أول صدر الاسلام حتى اليوم .. وجمال عبد الناصر كان قد أصابه الملل والسأم من عملية القيادة الجماعية .. كان يريد أن يستأثر بالسلطة ، وصدر دستور ١٩٥٦ ، وكان فيه سلطات مطلقة لرئيس الجمهورية ، وكان هناك رأى ألا نحل مجلس الثورة ، ولكن جمال عبد الناصر كان مصمماً على حل مجلس الثورة سواء قبلنا أو لم نقبل .

□ هل تعتقد أن تسلل الجيش إلى الحياة المدنية هو الذى فرق مجلس قيادة الثورة ؟ فقد أصبح الجيش بعد ذلك هو المصدر الرئيسى للوزراء ووكلاء الوزراء والسفراء لدرجة أن ٧٢ ٪ من سفرائنا في الخارج عام ١٩٦٢ كانوا من العسكريين !! .

□ □ كانت نظرية عبد الناصر أن يخرج الضباط الأحرار الموجودون في الجيش بالتدريج ، فقد أصبحوا بالنسبة له سلطة داخل السلطة في الجيش ، فكان الضباط منهم لا ينظر ولا يحترم الرتبة الأعلى منه في الجيش ، متصوراً أنه هو الذى قام بالثورة ، على حين أن الضباط الآخرين لم يفعلوا شيئاً ، لذلك كان هناك عدم توازن في الجيش في هذه الناحية ، وكان عبد الناصر يقول : كفاية عليهم كده !! ليس هذا على إطلاقه ، فهناك من العسكريين من رفض الحياة والوظائف المدنية وتمسك بالعسكرية ، ومنهم المشير الحالى محمد عبد الحليم أبو غزالة ، وكان وقتها سكرتيراً لى وسكرتيراً لمجلس قيادة

الثورة ورفض أن يستمر ، وجاءنى وقال لى : أنا لا أعرف فى هذا العمل المدنى وأريد أن أعود وألتزم بالعسكرية ، وقد احترمت وجهة نظره .. فهناك عسكريون رفضوا الخروج من الجيش ومنهم أيضا عبد الستار أمين .

□ أستاذ كمال الدين حسين .. أنت الوحيد الذى كنت تسجل محاضر مجلس الثورة وانتهيت إلى الاكتفاء بكتابة القرارات .. وظلت فى خزائن مجلس الثورة حتى حل المجلس ، ثم اختفت ، أين هى إذن ؟ هل أحرقت ؟ هل أعدمتم ؟ لم يعرف مصيرها حتى الآن !

□ □ لا أعرف .. أنا تركتها فى خزانة فى مجلس الثورة بالجزيرة ، كانت مفاتيحها عند عبد المجيد شديد .. ثم أعطاها لسامى شرف ولا نعلم بعد ذلك .. سامى شرف آخر واحد عنده معلومات عنها .. ولا أخفيك كان فيها إجابات حاسمة مدونة لتساؤلات كثيرة بالوثائق والمستندات .

□ لماذا رفضت الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ ونصحت عبد الناصر بأن يكتفى بالاتحاد .. ورغم ذلك قبلت أن تكون وزيراً مركزياً فى حكومة الوحدة للتربية والتعليم ؟

□ □ أنا لم أطمئن للوحدة عاطفياً .. ليس لأننى لا أريد الوحدة العربية ولكن لأننا كنا متسرعين للغاية ، وقد اعترف الجميع بذلك وأولهم عبد الناصر ، اعترف وقال لى بعدها : لقد تسرعنا فى الوحدة مع سوريا .. وفى رأى أن الحدود المشتركة هى أهم عوامل الوحدة ، وهذا لم يتوافر مع سوريا ، فالفاصل الأرضى يحول دون قيامها على الدرجة المثلى ، وأبلغ دليل على ذلك مصر وسوريا ، وباكستان وبنجلاديش أيضاً .. فشلت وحدتهما لهذا السبب .

□ هل حقيقة طلبت من المشير أن يكلف صدق محمود بتجهيز طائرات لضرب إذاعة حلب التى كانت تبث شتائمها لعبد الناصر ؟

□ □ الذى ردد هذا الكلام هو محمود الجيار الذى لا يفهم شيئاً وأطلقها شائعة غير صحيحة ، ولكن الصحيح أننى طلبت طائرات من صدق محمود للذهاب إلى حلب لمناصرة الموالين للوحدة ومصر .. وقلت لصدق محمود عندك طائرات تستطيع أن تذهب إلى حلب ؟ وكانت اجابته مفاجأة لى .. قال لى يومها : لأعرف إذا كان هناك

طائرات تستطيع أن تذهب إلى هناك .. تصور قائد الطيران لا يعرف امكاناته !! وفي المساء رد على وقال : نعم فيه طائرات .. وبدأت أبحث عن بعض الزملاء الذين اشتركوا في حرب فلسطين وفي القيام بثورة يوليو للذهاب ، ولكن فوجئنا بالمشير عامر عائداً من سوريا بعد انتهاء كل شيء !

□ هل حقيقة أن عبد الناصر مات مرتين في ٢٨ سبتمبر .. الأولى في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ وهو يوم الانفصال عن سوريا والثانية في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ١٩

□ □ إنها مفارقة غريبة حقيقة .. فقد أثر انفصال سوريا على معنويات عبد الناصر وأعصابه وتصرفاته وعلى قراراته .. ومنها حرب اليمن بعد ذلك ، ثم نكسة ١٩٦٧ .. لم يعرف عبد الناصر الراحة بعد الانفصال عن سوريا ١٩٦١ .

● منعوا الطبيب عن زوجتي حتى ماتت ورفضوا أن أسير في جنازتها

□ استاذ كمال الدين حسين .. عارضت عبد الناصر في حرب اليمن باسم الإسلام .. بدعوى أنها ضد الإسلام .. فهل حكم الإمامة - كما كانت - وارد في الإسلام ؟ .. هل وارد في الإسلام نظام الرهائن والقتل بالجملة واعتقال الأبرياء ١٩

□ □ حرب اليمن بصرف النظر عن كونها ضد أو مع الإسلام لم تكن حربنا ، فكان أماننا العدو الإسرائيلي ، هل أتركه ثم آخذ قواقي حتى آخر الدنيا وأبددها ؟ .. أنا في اعتقادي أنه كان هناك مؤامرة استعمارية وراء ذلك .. عبد الرحمن البيضاني وأنور السادات كانا وراء ذلك التوريط الذي كلفنا الكثير .. عبد الرحمن البيضاني والسادات أوهما عبد الناصر بالدخول في هذه الحرب .. والحقيقة أن جميع مصائب مصر جاءت عن طريق أنور السادات .. الجيش المصري انتصر في ٧٣ وهزمه أنور السادات عامدا متعمدا .. تدخل في الخطة العسكرية ولم يكن يفهم فيها شيئا .. فكانت الثغرة !

□ يقال إنك امتنعت عن تخفيض المصروفات إلى أكبر حد ممكن بعد أزمة القطن عام ١٩٦١ بسبب الدودة ، ورفضت تنفيذ قرار عبد الناصر ١٩

□ □ أزمة التطن كان فيها مصادفة عجيبة جدا ، كنا هنا في الاسكندرية وفوجئت بعبد الناصر يستدعيني ويقول لي إقرأ هذا التاخراف من والدى الذى يقول « انقذوا القطن قبل أن يضيع في مصر » وكان وقتها سيد مرعى وزيرا مركزيا للزراعة ويساعده المحروق ، وقال لعبد الناصر كنت أمر على الطريق وأشم رائحة الدودة ثم أرسلت خطابا للمحروق .. هل هذا كلام ؟ واحد يرى حريقا في محطة بنزين ثم يبعث خطابا للمطافئ !! هذا ما فعله سيد مرعى ! .. لقد عتب على سيد مرعى أننى كونت مجلس تعبئة عامة في مصر لمقاومة الدودة وانقاذ القطن وشمّل المجلس كل المتخصصين في مصر من وزارة الزراعة والاتحاد القومى وأساتذة الجامعات والخارجية والطيران .. لماذا ؟ ١ ٩

لأننا استعنا بمعامل المبيدات في ألمانيا في خلال ٢٤ ساعة عن طريق وزارة الخارجية وكانت تنقل المبيدات عن طريق طائرات النقل الأمريكية من ألمانيا ، وتنقل في مصر إلى كل القرى والكفور عن طريق عربات الجيش .. واتصلت بسلاح الصيانة لتجهيز رشاشات بسرعة لرش الطيران .. كان تعبئة عامة لكل امكانات مصر ، ثم يقول سيد مرعى بعد ذلك إنه لايفهم في التعبئة العامة .. أنا أفتخر بهذا العمل لأنه أنقذ القطن المصرى من كارثة مروعة .

□ لماذا قدمت استقالتك من مجلس الأمة إلى عبد اللطيف البغدادي رئيس المجلس ؟ ١٩

□ □ كان الموضوع يتعلق بمديرية التحرير وكيف تدار من الدولة ، والنية كانت متجهة إلى اعتبار أموال مديرية التحرير أموالا خاصة ، ولم يعجبني هذا الكلام ، وبعدها انقلبوا ضد رئيس المجلس عبد اللطيف البغدادي وقالوا إنه يريد أن يصبح رئيسا ثانيا للجمهورية ، ولم يكن هذا صحيحا ، فرأيت أن المجلس لا يستحق أن أكون عضوا فيه وأنه لا يعدو أن يكون مجلس (لعبة) !

□ أول صدام بين مجلس الأمة وكال الدين حسين كان حول قضية السماح بالانتساب للجامعة حين كنت وزيرا للتربية والتعليم . والبعض يقول إن أسباب الخلاف شخصية جدا ، فالنواب كان يتزعمهم محمود القاضى النائب الذى فاز على أليك في الانتخابات في بنها بأغلبية كبيرة ، وبعد هزيمة ابن خالتك في اصطنها وزوج أختك في الباجور ؟ ١٩

□ □ لو كان - كما تقول - بالنسبة لمحمود القاضى شيئا كنت نجحت الوالد ضده فى بنها ، ولكن محمود القاضى قام بحملة لما حاولوا أن يدخلوا أقل من ٥٠٪ فى الجامعة ، ولكن مجالس الجامعات قالت مستحيل أن يحدث ذلك مطلقا .. وأنا كنت قد أعددت السياسة التعليمية لمدة عشرين عاما وقد وافق مجلس الشعب عليها وصدقوا عليها طويلا .. ثم فوجئت بعد شهرين بمن يقول الذين رسبوا ينجحون ونعطى لهم فرصا أكثر .. طالب رسب أربع مرات فى البكالوريوس كيف أمنحه فرصة خامسة ، هل أنا أشجع الرسوب أم النجاح ؟

إن جمال عبدالناصر كان يضرب المثل بعدالة التعليم ، وكان يقول : (كمال حسين رقت لى أخويا) وهى حقيقة ، فقد رقت له أخاه من الجامعة حين استنفذ مرات الرسوب كما رقت أختى أنا شخصيا ، ثم إن ابنة عبدالناصر لم تدخل الجامعة لأنها لم تحصل على المجموع ، ودخلت الجامعة الأمريكية ، ألم يكن من السهل أن تدخل الجامعة ولكن كانت هناك قيم فى التعليم ضاعت الآن .

● الجيش المصرى انتصر فى ١٩٧٣ وهزمه السادات فى الثغرة !

□ هل أبلغت عبد الناصر حقيقة بأن عبد الحكيم عامر قد ضرب ستارا حول الجيش وأنه يعمل بطريقة سرية حتى يحصل على معلومات من الجيش ؟ وهل حقيقة عرض عبد الناصر عليك قيادة القوات المسلحة عندما هدد المشير عامر بالاستقالة عام ١٩٦١ ؟

□ □ اشتكى لى عبد الناصر - فى جلسة حضرها بعض الزملاء - من عبد الحكيم عامر وقلت له نحن بذلك نحاكم عبد الحكيم غيايبا وأنا شخصيا لأحب أن أحاكم غيايبا .. إذا كان عبد الحكيم قد أخطأ فتجب مواجهته ، فقال لى مدير مكتبه هو الذى قال لى ذلك ، فقلت أنا لأقبل أن يتحدث أى شخص عنى فى غيايبى وهذا مبدئى ورغم ماكان يقوله عبد الناصر عن عبد الحكيم فإننا كنا نفاجأ بأنه يمنحه سلطات مطلقة أكثر .

وقد رشحنى عبد الناصر لتولى قيادة الجيش بعد حرب ١٩٥٦ وعام ١٩٦١ بالذات وأنا ليس من عادائى أن أرفض ولكن أناقش ، فقلت له عبد الحكيم عامل الجيش معاملة

خاصة وله رجاله الذين سيخرجون الجيش في حالة ما إذا توليت القيادة ، وأنا لا بد أن أمنح لنفسى فرصة النجاح الكامل .. وقلت له ليكن عبد الحكيم في موقعه وأنا أتولى الجيش والبغدادى يتولى الطيران ، قال لى لاينفع ذلك ، أنت تتولى القيادة وهذا هو الحل الحاسم ، فقلت له عندى اقتراح أن تتولى أنت القائد العام للقوات المسلحة وليس هذا بدعة وأنا قائد الجيش والبغدادى قائد طيران ، وأظن أن أحدا لا يستطيع أن يجبروا على تأليب القوات المسلحة وبذلك نحسم الموقف .. وقال نفس الكلام للبغدادى وسمع نفس الرد ولكن عبد الناصر خاف .. إذا كان عبد الناصر حاف .. فكيف سمح لنفسه أن يطلب منى أن أتولى هذا الجيش بما فيه من قلق وأتحمّل المسؤولية .

□ من يستعرض تاريخك السياسى يجد أنك كنت تشغل عدة مناصب في وقت واحد يصعب إحصاؤها ، وصلت في بعض الأحيان إلى تسعة أو عشرة مناصب ، لكنك فجأة وبدون مقدمات خرجت من السلطة بلا منصب واحد وأنت لم تتجاوز الثانية والأربعين من عمرك ؟

أنا لست مؤمنا بالتركيز في العمل ، كما أننى لست ديكتاتوريا في العمل أو أدعى بأننى « أبو العريف » ، ولكننى أستعين بالمختصين وأشرف عليهم تماما كما يفعل رئيس الجمهورية الذى يستعين بالوزارات والهيئات والمؤسسات في مهمته في قيادة البلد .

□ هل حقيقة قال زكريا عيسى الدين في أعقاب أزمة استقالة مجلس الأمة عن عبد الناصر (نشيلوه بأه) هل كان هناك اتفاق على عزل عبد الناصر بعد أزمة مجلس الأمة ؟

□ □ نظر كمال الدين حسين إلى موجة عاتية في البحر اصطدمت بقوة في الصخر وهو يقول : لا .. لأحد في مجلس قيادة الثورة فكر في ذلك مطلقا ، حتى عبد الحكيم عامر حين كان يختلف معه كان من أجل أن تكون له سلطة موازية له .. ولكنه لم يفكر في عزله مثلا .. لم يكن يفكر في أن يأخذ مكانه ، والذى يقول غير ذلك يصبح مغرضا .

□ أطرف عبارة سمعتها عنك هي أن « كمال الدين حسين أفضل من يصطاد البورى والدنيس بسنارته ولكنه فشل في اصطيد الحيتان !

وضحك كمال الدين حسين طويلا قبل أن يقول لى : هذه العبارة من عندك ، لأنك

رأيتنى وأنا اصطاد السمك اليوم ، أنا لم أصطد حتى مجيئك سوى سمكة واحدة فقط ، أنا أفهم ماتريد أن تقوله ، إنك تقصد حيتان الثورة ! أنا لم تكن لى صراعات شخصية على الحكم ، توليت ٣٠ منصبا لكننى لم أنصب نفسى فى واحد منها ، وإنما كانت تكليفا قوميا ، لقد حرضنى البعض على أن أكون مركزا للقوة ولكننى رفضت ، ولقد تحدث عبد الناصر فى الاتحاد الاشتراكى فى اللجنة التنفيذية العليا فى أعقاب النكسة قائلا : « إن الطريقة التى سرنا عليها من قبل « ودتنا فى داهية » وإذا استمر الحال على ما هو عليه فسنقود البلد إلى « ستين داهية » لابد من التغيير .. لابد من إنشاء حزب ثان ، حزب حقيقى ، زكريا يعمل حزب وأنور السادات يعمل حزب وعلى صبرى يعمل حزب ، تبقى تمثيلية حقيقية لكن فيه معارضة حقيقية فى مصر .. كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى هذان من الثورة ولهما برنامج ، وقد عارض أنور السادات ذلك تماما ، وقد وعى هذا الدرس جيدا ولم يسمح لى بإنشاء حزب مطلقا .. قال لى ممنوع معنا باتا .

□ قيل إنك اتصلت بالعمال ، وكنت وقتها سكرتيرا عاما للاتحاد القومى ، وحذرتهم من حضور أول عيد للعمال ؛ لأن هذا العيد - أول مايو - هو عيد روسى ، الذى صنعه الشيوعيون الملحدون ، وليس من المعقول أن تحتفل مصر بأعياد الملحدين ، وكان العيد الأول للعمال فى مصر .. وقيل وقتها إنها غير سياسية لأنك غضبت لأن عبد الناصر كلف وخص كمال رفعت بهذا التكليف دونك ؟

□ □ هذا الكلام قلته لشخص بينى وبينه ، قلت له : « هو احنا هنعمل كل يوم عيد .. عيد العمال ده عيد شيوعى » وكان هذا الشخص مغرضا فردد هذه العبارات ، ولكننى لم أتصل بالعمال مطلقا .

□ فى أخطر جلسات مجلس الثورة اعترضت على الميثاق ، ووصفته : بأنه له وجهان .. وجه ماركسى ، والوجه الآخر إسلامى عربى ، واعترضت على هذه الشيوعية ، وقال لك عبد الناصر يوما أيهما تختار عبود أو ستالين ؟ ولكنك نسيت وأنت تهاجم الميثاق أنك سبق أن قلت فى ٥ يونيو ١٩٦٢ فى مؤتمر القوى الشعبية إن الشعب هو صاحب الميثاق وهو قادر على تنفيذه ؟

□ □ أنا لم اعترض على الميثاق ولكنى حرصت على وجود الميثاق ولكن على الوجه الصحيح .. الميثاق يعنى التزاما ، وكنت أريد أن يلتزم عبد الناصر بالميثاق أمام

الشعب ، ولكنه لم يلتزم ، ولما قلت له إن للميثاق وجهين : ماركسيا وعربيا إسلاميا كان هذا نتيجة المناقشات التي أجريت في مؤتمر الميثاق وساهمت فيها ، والكثيرون اعترضوا على كلمة الاشتراكية العلمية ، وعبد الناصر فسرهما بأن العلم هو الأساس فقط ، بمعنى نظرية علمية ، وليس الاشتراكية العلمية بتفسير الاشتراكية العلمية ، وكانت هناك لجنة تقرير الميثاق التي كانت تفرز وتعرض على المؤتمر ليوافق عليه ، واللجنة أجمعت وقررت تعديل الميثاق ، ولكن عبد الناصر رفض التعديل .

□ ألم يحدث أن أرسل لك عبد الناصر خطابا في ٢١ أغسطس ١٩٥٨ مضمونه أنك تجرى وراء الصحافة والصحفيين لدعاوى شخصية والتسابق في نسبة الأعمال للأشخاص ؟

□ □ لقد بعث عبد الناصر هذا الخطاب للكل .. ولكنني أخذت هذا الخطاب وذهبت إليه في برج العرب . وقلت له أنا لا أسمح أن أعامل بهذه الطريقة .. احنا مش موظفين .. هذا الكلام أرفضه تماما .

كان عبد الناصر يتضايق من شعبيتي وحب الناس لي .. ذات يوم كنا مجتمعين في مؤتمر للمفكرين وكان منعقدا في القاهرة .

ويومها تساءل عبد الناصر : « هو ايه الموضوع .. أقول عاوز رئيس وزراء يقولوا لي كمال الدين حسين .. تنظيم شعبى .. مجلس أمة .. كمال الدين حسين ، هو مفيش في مصر غير كمال حسين ١٩ وكنا في طريقنا في مرة أخرى إلى سراى القبة وفوجئت بعبد الناصر يقول لي : تعرف ماهو أهم خبر يردده الناس اليوم ١٩ قلت له طبعاً الوحدة الثلاثية ، قال لي : لا .. عودة كمال حسين من الخارج .. تعرف إن الناس بتحبك .. قلت له (وأنا باحب الناس ١١) .

□ ذهبت إلى جمعية الإخوان المسلمين في صدر شبابك في أواخر الثلاثينيات في موقعها القديم فوق فندق البرلمان بالعتبة .. إذا كنت حقيقة مع الإخوان قلبا وقالبا فلماذا لم تدافع عنهم حين كنت في قلب السلطة والسلطان وجرت اعتقالات لهم بالجملة في أكتوبر ١٩٥٤ .. لماذا لم تقل لا ١٩ ثم هزتك اعتقالات الإخوان عام ١٩٦٥ وعلى رأسهم سيد قطب فكتبت خطابك الشهير لعبد الناصر « اتق الله » وتم اعتقالك في استراحة الهرم في نفس الليلة التي كانت تزف فيها كبرى بنات عبد الناصر ١٩

وأجاب كمال الدين حسين وهو يتأمل تتابع الأمواج في البحر المتسع :

□ □ أريدك أن تعرف أن مصلحة بلدى فوق كل اعتبار مهما كان . فى عام ١٩٥٤ كان الإخوان ينظرون إلى مجلس قيادة الثورة على أنه هو الذى سرق منهم الثورة . وأن عبد الناصر هو الذى سرق الثورة ، وقطعا هذه هى الروح التى كانت مسيطرة عليهم ، ورفعوا شعار « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ، وقد قلت لهم على لسالى أرجوكم أنتم أصحاب دعوة إسلامية .. قولوا كما تريدون لكن لا تقولوا إنكم ضد هيئة التحرير، وأن الذى يدخل التحرير يجب أن يفصله ، كونوا مسلمين دون التدخل فى السياسة والتحريض على هيئة التحرير : وعبد الناصر قال لهم « الإسلام تكون فى ١٣ سنة قبل الهجرة و ١٠ سنوات بعد الهجرة .. الإخوان ١٩٥٤ كانوا يريدون أن يحدثوا انقلابا على الثورة ، انقلابا حقيقيا ، وموضوع محاولة اغتيال عبد الناصر كان حقيقيا ، لدرجة أن واحدا من قيادات الإخوان قال لى : أنا مكسوف منهم .. لماذا لم يعترفوا بعملية الاغتيال .. إننا ضد عبد الناصر واختلفنا معه علنا .. كان من الأشرف لهم أن يعترفوا !!

□ لماذا تعاطفت مع الإخوان فى عام ١٩٦٥ وبعثت بخطابك الشهير إلى عبد الناصر تقول له : « اتق الله » لقد اتهموك بأنك كنت توزع كتاب الشيخ سيد قطب على زملائك وأصدقائك مما أغضب عبد الناصر والمشير ؟

□ □ كانت عملية تعذيب رهيبة للإخوان ، حتى الأسلحة التى ضبطوها مع الإخوان وقتها لم تكن تمثل خطورة ، إنها قنبلة يدوية واحدة وطبنجة فى مصحف وزجاجة ناسفة ، لاتستطيع هذه الأسلحة أن تنسف القناطر وتدمر الدنيا كما كانوا يدعون .. كان هناك ظلم كبير على الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥ ، وقد تأكدت بنفسى من عمليات التعذيب الرهيبة التى راح ضحيتها الكثيرون ، وقد أثر فى هذا الموضوع ، وقلت لعبد الناصر اتق الله .. إذا كنت أنا لأستطيع أن أقول لعبد الناصر لا .. فمن يستطيع أن يقولها له ١٩

أنا اعتبرت نفسى ضمير هذا الشعب ، وقد قلت للسادات : ملعون من الله ومن الناس من يتحدى شعبا أو يمتحن كرامة أمة .. فبعد أحداث ١٨ ، و ١٩ يناير أصدر قانونا يجرم كل من يعمل لإضرابا بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة دون أن يأخذ رأى البرلمان !

ولقد انتقدت القانون رقم ١١٩ ، فعبد الناصر وضع الدستور في مارس ١٩٦٤ ووضع أمامه قانونا يعرقل ويلغى بالدستور ، كان قانونا يعطى لرئيس الجمهورية سلطات مطلقة في الاعتقال ومصادرة أموال أى شخص دون حتى حق التظلم .

قلت لعبد الناصر .. فرعون نفسه لم يأخذ سلطاتك ولاحتى اللورد كرومر .. لأحد أخذ سلطات في مصر قبل ذلك بهذا الشكل المجحف .. وإن كانت قوانين أنور السادات أشد من ذلك ، فالاعتقال لعدة سنوات ويخرج بعدها الانسان شبعا لا يستطيع أن يواجه المجتمع ومستقبله .

ثم قال كمال الدين حسين بنبرة كلها حزن وأسى تمثلا في ملامح وجهه :

ولقد اعتقلنى عبد الناصر وماتت زوجتى في المعتقل .. تصور أن زوجتى قبل أن تدخل المعتقل في استراحة الهرم قالت : أنا سأموت هنا ، وقد تحققت كلمتها ! كان أولادى ينامون على الأرض في عز الشتاء في هذه الاستراحة المتواضعة ، وأنا وزوجتى التى أصابها المرض والقهر ننام على سرير سفرى قديم وبطانية منهرئة ، وكانت إقامتى محددة ، كان معتقلا بمعنى الكلمة .. أسلاك شائكة وحفر ودشم ومدافع مائكة أمام المنزل ، كان هناك سلك شائك مزدوج ، وعلى كل باب وشباك يقف عسكرى بالسلاح !! رغم أننى كنت لأملك شيئا ، الطبنجة أعطيتها لهم كانت عملية إرهاب .. وقلت لهم : أنا هنا أقوى منكم كلكم وبعثت لهم خطابا وقلت لعبد الحكيم لاشيء بهم !

ولقد تأخروا في استدعاء الطبيب لزوجتى المريضة وقلت يومها لكمال المحمدى الذى أصبح مسئولاً عن الطيران المدنى بعد ذلك ، قلت له بالحرف الواحد (ذنب مراقى في رقبتك) أين الدكتور ؟ ووصلت زوجتى إلى أسوأ حالة وماتت كمدا وحزنا ! لانهم منعونى حتى من السير في جنازتها !!

□ في خطابك إلى المشير عامر بعد اعتقالك كانت لهجتك عنيفة قلت له فيها « اتقوا الله لأنكم أردتم استعاج هذا الشعب » ، وكان رد المشير عليك أنها مؤامرة .. أتريد سيد قطب الذى كنت تقتنى كتبه أن يصنع من نفسه نبيا ينزل عليه الوحي بقتل الناس وتدمير البشر ؟

□ □ أولا الرقابة سمحت بنشر كتاب سيد قطب وقد أهديت نسخة لكل من

صلاح نصر وعباس رضوان ولم أجد نسخة أهدبها لعبد الحكيم عامر .. حقيقة أنا لم أوافق على كل شيء جاء في كتابه وخاصة تكفير الناس ولكن الكتاب أعجبنى حقيقة .

□ لماذا لم تذهب في مارس ١٩٦٥ للإدلاء بصوتك لعبد الناصر في الاستفتاء على الدستور ورئيس الجمهورية ؟ ! أليست ايجائيات عبد الناصر أكثر وأرجح كفة من سلبياته ؟ أليس لك شخصيا ايجائيات وسلبيات ؟

□ □ لم أذهب ، ولم يكن من الممكن أن أذهب وأن أعطي له صوتي أو أن أعطي صوتي لأي أحد ، لأنني لم أكن راضيا عن الذي حدث ولا كنت أضحك على نفسي .

□ أستاذ كمال الدين حسين .. بصراحة مطلقة ، هل حقيقة كان عبد الناصر ديكتاتورا .. مستبدا ؟

□ □ نعم كان عبد الناصر ديكتاتورا مستبدا ، وهل هذا في حاجة إلى تأكيد ، كان عبد الناصر متمسكا برأيه سواء كان صحيحا أو خطأ ، وكان يأخذ رأى الناس لكن في النهاية قراره هو الذى ينفذ ، وأبلغ دليل على ذلك هو القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ والذى يجعل مجلس الشعب أمامه وكأنه لعبة ، فبمقتضى هذا القانون كان رئيس الجمهورية يعتقل ويضع الأشخاص في مكان بعيد أو يفرض حراسة عليهم ، وحتى لو كنت مظلوما فليس من حقتك أن تتظلم أمام أى جهة .. هذا يكون ديكتاتورا ففي يده كل السلطات ولأحد يستطيع أن يحاسبه ، هذا هو الديكتاتور وهكذا كان عبد الناصر !

□ لكن لاتنس أنك قلت « أحببت عبد الناصر أكثر من نفسي وكنت أثق فيه ولكنني اختلفت معه في الرأى لمصلحة وطني ؟

□ □ ظهر واضحا في النهاية أن عبد الناصر كان متجها اتجاهها يساريا .. وكان يضحك على الشعب وأنا شخصا لأحب أن أضحك على الشعب .. كان يردد ليس هناك قيود على الاشتراكية .. مامعنى ذلك سوى التهرب من الالتزام .

□ لماذا أرسلت خطابا إلى عبد الناصر قبل النكسة تخبره فيه بأنك تضع نفسك تحت السلاح جنديا رغم ماتعرضت له من اعتقال .. ثم لماذا رفضت بعد النكسة

مباشرة تولى المقاومة الشعبية فقد قال لك عبد الناصر : يا كمال اليهود حيدخلوا القاهرة خلال أسبوع ومفيش حد يحميها وعازيك تمسك المقاومة الشعبية زى ماكنت ماسكها أيام العدوان الثلاثى فى منطقة القنال ١٩ .. لماذا رفضت ؟ وهذا واجب وطنى فى المقام الأول .. البعض قال إنك تخليت عن الثورة وعن مصر ؟

□ □ أرسلت له خطابا قبل الحرب ، قلت له يصرف النظر عن جميع العوامل التى أثرت وتؤثر على تقديرك للموقف فأنا جندى من جنود مصر، ولو اشترك الجيش فى أى قتال فأنا أضع نفسى تحت تصرف الجيش فى أى موقع من المواقع وفى أى تصرف من التصرفات .. لأننى كنت متأكدا من أنه لو دخل الحرب فإنها ستكون كارثة ومصيبة مروعة .. كان يعتقد عبد الناصر أن السوفييت سوف يساعدونه ، وصرح لى بذلك وأنه سوف ينتصر من غير حرب .. قطعاً لم يكن يتصور أنه سيهزم ! وبعد حرب ١٩٦٧ قال لى عبد الناصر لازم تمسك المقاومة الشعبية قلت له أحب أن أكون جادا فى أى موضوع أتولاه .. وأنت تعرف عنى ذلك أقول للشباب المصرى لماذا نحن أنهزمنا ؟ وسنتنصر على من ١٩ .. أقول للناس قاوموا .. لماذا ١٩

□ هل حقيقة سمعت عبارة قالها عبد الناصر للمشير عامر عقب حرب يونيو ١٩٦٧ فى مبنى القيادة : « إحنا الاثنين ضحكنا على الشعب وإحنا الاثنين لازم نمشى » .

□ □ ضحكوا على الشعب .. نعم .. أنا خرجت من القيادة بعدها وقلت لبغدادى : من عبد الناصر لأصغر عسكري فى الجيش يضحكوا على بعض ! .. وهذا ماحدث فى البيان الأول ، فقد جاء محمد حسنين هيكل وفبرك البيان الأول ! .. كانت كل الناس بتضحك على بعض .. تقارير العساكر غلط والتقارير والأوامر كلها غلط .

□ باعتبارك كنت قريبا من المشير هل ترجح وفاته مسموما أو مقتولا ؟

□ □ لا .. المشير مات مقتولا .. ولكن لأستطيع أن أقول إن عبد الناصر هو قاتله .. عبد الناصر ليس قاتلا .. ولكن الزبانية هم الذين قتلوه .. عبد الحكيم .. وأنا أعرفه تماما ليس منتحرا وهذه حقيقة .. ولم تكن هناك مناسبة لانتحاره مطلقا .. بل إنه فى اليوم الذى أدعوا فيه أنه انتحر طلب فى الصباح بعض الأشياء من منزله منها ماكينة حلاقة وبعض الكتب فكيف ينتحر ؟ الذى يطلب هذه الأشياء لاتكون لديه

نية الانتحار ، وقد أكد صلاح نصر لى أن المشير عبد الحكيم عامر مات مقتولا ..
وكان يصرخ صلاح نصر ويقول ياناس أنا على قيد الحياة .. وخائف يقتلونى مثلما
قتلوا المشير !

□ أستاذ كمال الدين حسين .. هل حقيقة تعرضت لحادثة اغتيال من طلعت خيرى
وزير الشباب الأسبق ومدير المخابرات العامة السابق ؟

□ □ كنت أزور أخى فى شارع بغداد بمصر الجديدة ونزلت من سيارتى وحين
كنت أغلق باب سيارتى وقلت للبواب خلى بالك من السيارة لأن بابها الأمامى مفتوح
وزجاجها وفى حاجة إلى تصليح ، ومع الخطوة الأولى وقبل الخطوة الثانية وجدت
سيارة طلعت خيرى وزير الشباب الأسبق ومدير المخابرات تصدمنى بشدة فارتفعت
إلى أعلى ونزلت على دماغى على الرصيف ، والتى أصيبت فيها ساقى بالكسر وتم
تجبيسها ، وأسرعت صاحبة المكتبة التى فى الشارع نحوى وقلت لها : أرجوك أريد
أن أذهب إلى مستشفى قصر العينى ، وفوجئت ساعتها بطلعت خيرى يقول لى :
نذهب إلى مستشفى بمصر الجديدة ولكنى صممت على الذهاب إلى قصر العينى لأنه
كان مجهزا طبيا وهو الذى اطمئن على نفسى فيه ؟ وفوجئت بأن الذى نقلنى إلى
المستشفى شخص من المخابرات العامة !! وقيل لى كثيرا من البعض إنها محاولة اغتيال
وعبد الناصر وراء ذلك ولكننى لأعلم !

□ مارست التجربة الانتخابية مرشحا عامى ١٩٧٦ ، ١٩٧٩ فلماذا لم تكررها بعد
ذلك ؟

□ □ فقدت كل الطرق .. فأنا لأستطيع أن أرشح نفسى حتى مستقلا . لقد
وضعوا قوانين استثنائية جديدة وغيروا قوانين مجلس الشعب ، وقالوا إنها غير دستورية
وحكمت المحكمة بأنها غير دستورية ، وغيروها ثانية ومنعوا المستقلين أن يدخلوا ،
ومنعوا أن أكون حزبا .. كنت أفكر فى عمل حزب العدل أو العدالة ، وكان اسمه
فى الأول « الجبهة الوطنية » ، مرة قالوا على لسان وزير الداخلية أيام أنور السادات :
إننا ضد الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى ، وقالوا أيضا إننا ضد كامب ديفيد .

□ أستاذ كمال الدين حسين : هناك بعض الأحزاب ومنها حزب التجمع ضد
كامب ديفيد .. ومع ذلك موجودة على الساحة السياسية وتعلن رأيها بكل الصراحة
والوضوح ؟

□ □ فؤاد محبى الدين وهذا الرجل لأحبه مطلقا لأنه عمل قوانين ضد البلد حقيقة وأساسها غير دستورى .. يلعبون بها لعبة الذئب والحمل .. أنا ممنوع من أن أعمل حزبا فى الوقت الذى غير مقتنع فيه بحزب سراج الدين ومصطفى مراد .

□ كنت فى حرب ١٩٦٧ خارج الحكم ، ولكنك حضرت المعركة من خلال مركز القيادة .. ماشعورك بعد انتصار الجيش المصرى فى ١٩٧٣ ؟

□ □ الجيش المصرى انتصر فى عام ١٩٧٣ انتصارا عظيما ، ولكن هزمه أنور السادات لأنه أعطى لنفسه الحق فى أن يصدر أوامر خطأ ، وكل الجيش كان يعلم الأخطاء واستنكرها ، ومع ذلك نفذوها .. وكل مايجاولون تفادى الأخطاء التى كان يعملها أنور السادات هو يصمم على أخطاء أكثر ! .. أعطى أوامره لتنفيذ خطة كانت معدة سلفا ثم أفسد كل شئ بقراراته بعد ذلك لتخسر مصر الثغرة .. لقد كانت القوات المدرعة الموجودة احتياطيا لسد الثغرة مدربة وعملت « بروفة » ثلاث مرات لسد الثغرة فى الدفرسوار ، ثم يعطى أنور السادات أوامره لهجوم مؤكد أنه فاشل مليون فى المائة ! وقد هاجم اليهود بعد أن سحب الدبابات من الضفة الشرقية للضفة الغربية ، واليهود كان لديهم ٩٠٠ دبابة ونحن عندنا ٤٠٠ دبابة أقل كفاءة وبدون غطاء جوى ، وفى الوقت الذى يسيطر فيه الطيران الإسرائيلى القوى جدا والطيران المصرى لم يفعل شيئا سوى الضربة الأولى وكانت هناك ضربة ثانية لم يفعلها .. وكانت الفرحة فى إسرائيل حين استطاعوا أن ينقلوا القوات غرب القنال ، ولم يكن هناك عسكري واحد احتياطيا وخرجوا متسربين ودخلوا وكسروا حائط الصواريخ .. مأساة .. هذه جريمة كبرى بكل المقاييس ، هناك مؤامرة على الجيش المصرى فى ١٩٧٣ .

وقبل أن يصافحنى كمال الدين حسين مودعا بعد حوار استمر نحو ثلاث ساعات التفت إلى البحر المتسع أمام ناظرينا قائلا لى : إن الذين يهاجمون الثورة مثل هذه الأمواج التى تحاول أن تنسلخ من هذا البحر الكبير .. هل يمكن أن يجف البحر مهما خرجت الأمواج الهادرة عنه .. هل يمكن أن ينتهى خيره مهما ابتلعت الحيتان الأسماك الصغيرة فى أعماقه ؟



« الفهرس »

١	— عالم الباشوات	٥
٢	— الباشوات المصريون يدخلون	١٧
٣	— نهاية عصر الباشوات	٣١
٤	— خرج الباشوات ودخل السوير باشوات	٤٦
٥	— ميلاد عصر السوير باشوات	٥٧
٦	— جريمة الشرعية الثورية	٧١
٧	— السلطان ومالك السلطان	٩٣
٨	— السوير باشوات يأكلون السلطان	١٠٧
٩	— سادة العصر الحزين	١٢١
١٠	— عبد الناصر في بحر الظلمات	١٣٣
١١	— لا خطيئة بغير ثواب	١٤٥
١٢	— الجمل وما حمل	١٥٩
١٣	— الحساب الختامي للعصر الناصري	١٧٣
١٤	— السادات وحصانه الأبيض	١٨٥
١٥	— أمس واليوم وغداً	١٩٧
١٦	— الثورة والثوار	٢٠٩
١٧	— الثورة تواصل الصعود	٢٦

ملاحق الكتاب

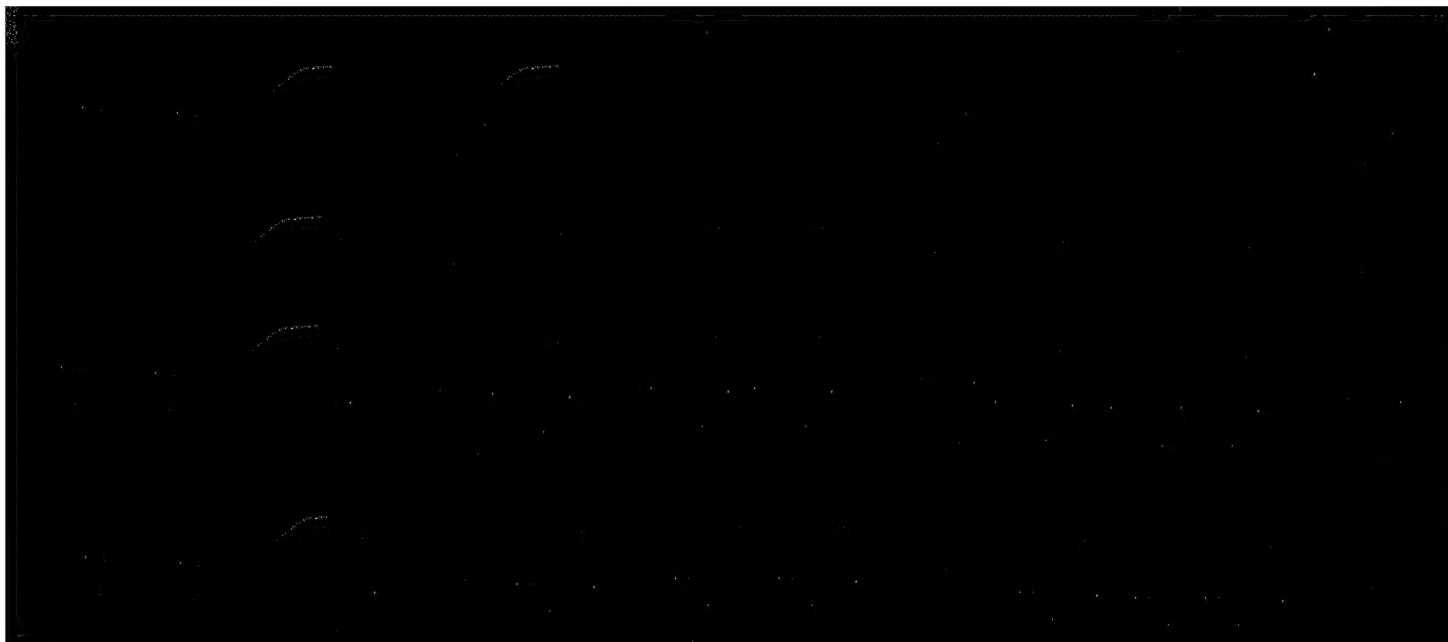
١	— بيان ثورة ٢٣ يوليو	٢٨١
٢	— جريمة الشرعية الثورية	٢٨٣
٣	— اسوأ فترة مرت بها مصر في تاريخها القديم والحديث	٢٨٥
٤	— المحكمة العسكرية العليا تدين العصر الناصري	٢٨٧
٥	— مأساة المستشار د . على جريشة	٢٨٩
٦	— خلف البوابة السوداء	٢٩٧
٧	— الجيش الذي هزمه قواده	٣١٣
٨	— عواقب التأميم الجزائي	٣١٩
٩	— نعم .. كان عبد الناصر ديكتاتورا	٣٢٥

إيداع دار الكتب ٢٤٥٩ / ٨٥

الزعماء للإسلام والعقرب

إيداع دار الكتب ٢٤٥٩ / ٨٥

الزعماء الإسلاميين العرب



الزعماء للإصلاح العربي

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com